حوليات الجامعة التونسية - عدد 2008/53 ص ص 21 - 38

بحثا عن "معجم الجامع" للقزاز القيرواني (*)
قضايا وإشكالات

بقلم : محمد رشاد الحمزاوي

إن بلوغ هذا الهدف والتوفيق في شأنه يبدو في الوقت الحاضر أمرا صعبا، إنّ لم يكن مستحيلا، ما لم نعثر على مخطوطة ذلك الأثر المعجمي العربي التونسي الهام الذي ينزّل تونس مع لسان العرب لابن منظور الإفريقي[1] منزلة الريادة في وضع أمهات المعاجم العربية منذ عهد قديم، وما تميّزت به من عطاء من حيث مناهجها ومحتوياتها "جمعا ووضعا"[2]، فضلا عن مواقفها من قضايا اللّغة على العموم و"المُعجميّة" و"المَعجميّة[3] على وجه الخصوص.

والغريب في الأمر أن معجم القزاز ، على جلال قدره، كما سيأتي ذكره، قد اندثر من الوجود في العصور الحديثة، خلافا لغيره من المعاجم الكبرى التي يضاهيها، أو كان مصدرا وأساسا لها، مثلما هو شأن "حواشي ابن بري"[4]

---

*) توفي القزاز سنة 412هـ/1021م. وهو صاحب معجم "جامع اللّغة".

1) نسبة إلى إفريقية، وهي تونس في ذهنيّة العرب القدامى.

2) المصطلحان من وضع ابن منظور في مقدّمة لسان العرب، ويشملان ما تعبر عنه اللّسانيات المعجميّة الحديثة بـ : « Corpus» و Ordre de classification.

3) لقد كُنا أوّل من خصصها للتعبير عن مفهوم «Lexicologie»، أي الدراسة النظرية للمعجم، كما عبرنا بالمَعْجمية عن مفهوم « Lexicographie»،أي وضع المعاجم وتأليفها.

4) عمر كحالة : معجم المؤلفين جـ 37/6 وهو يسمي "الحواشي" المذكورة بـ : "كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح". وفي ذلك نظر كما سنرى هنا. وهو في تسميته المستقيمة مصدر أساسي من مصادر لسان العرب.

و"لسان العرب" لابن منظور. فالمعطيات المتوفرة لدينا تفيد أنّه انقرض من الوجود معجما مكتملا، وتغيّب بجميع أجزائه من الساحة العربية الإسلامية والدولية، وما إليها من صلات وثيقة بالميادين المعرفية والثقافية والحضارية.

ولقد دعانا ذلك إلى أن نعنى بقضيته دعما لمن سبقنا في هذا الشأن من القدامى والمحدثين. فنعرض لما وَصَلَنَا منه واتصل به عن قرب أو عن بعد، اعتمادا على مقاربة تاريخية، أملا في توفير صورة عن حالته الراهنة، وعن صاحبه في قرننا الخامس عشر هجريا، والقرن الواحد والعشرين ميلاديا. ولقد رأينا من المفيد أن نعرض ذلك من خلال العناصر التالية :

1 - النصوص المروية عن "الجامع" التي وصلتنا في مصادر ومراجع مهمة، وإن كانت قليلة ومختصرة عموما.

2 - معجم القزاز : اسمه ومكانته في نظر الدارسين قديما وحديثا.

3 - اسم صاحبه ولقبه.

4 - هل توجد آمال في العثور عليه ؟

I - النصوص المروية :

إنّها قليلة مبدئيا، إن قارناها بما رُوي عن حجم معجم الجامع ومكانته؛ وهي على كل حال نصوص مهمة منها :

- **النص الأول :** وهو مروي عن أبي عبيد البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز[5] (482 هـ/1094م) في كتابه "التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه". وهو يتعلق بمعنى غدرات ج غُدْرَة، الواردة في شعر للأعشى. ويعنى بها خصلة الشعر؛ والنص منسوب إلى القزاز ويشمل أربعة أسطر مطبوعة[6]. وفي هذا النصّ نظر نثرا وشعرا ونسبة إلى "جامع" القزاز، فهو كما روي "حاشية" على هامش "كتاب التنبيه". وبيت الشعر غير موجود بديوان الأعشى.

أمّا لفظ "غُدُراتها ج غُدرة"، فإنّها لا تعني خصلة الشعر التي عبّر عنها الشاعر بـ"غُذ ُراتها" في قصيدته "لا تلمس الأفعى". وهي تعني "شعور النواصي". ولنا عودة مفصّلة لاحقة للموضوع.

---

5) رضا كحالة – معجم المؤلفين جـ 75/6.
6) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني : حياته وآثاره – الدار التونسية للنشر 1968 ص. 99. ولقد استخرجها من حاشية خطية عن "كتاب التنبيه... " للبكرى الذي حققه الميمني الراجكوتي – طبعة ثانية – القاهرة 1926، ص. 70.

- **النّص الثـاني :** وقد وصلنا مرويا عن ابن بري (582هـ/1186م) في حواشيه على صحاح الجوهري، والمعروف عند بعضهم[7] بـ : "كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح". وهو في جزئين[8] ويهمنا منه مدخل "أرخ" ، باب الخاء فصل الهمزة. ولقد جاء فيه :"قال القزاز : الأرخ : الأنثى من البقر والجمع إراخ. قال والعرب تشبّه النساء الخفرات في مشيهنّ بالإراخ كقول الراجز " يمشين هونا مشية الأراخ". وأنشد أيضا لابن مقبل :

يمشين هَوْنًـا مشية الإراخ عن إلفها واضح الخدّين مكحول"[9].

الملاحظ أن هذا النص الوارد في الجزء الأول من "كتاب "التنبيه والإيضاح" المذكور والمنسوب لابن بري يثير تساؤلات مهمة منها :

أ - أنّه فريد، يكاد يكون يتيما، لا وجود لمثله، رواية عن القزاز، في المداخل الأخرى كلّها من الجزئين المحققيـن[10]، إلى حدّ آخر مدخل، وهو مدخل "وقش"، باب الشين فصل الواو.

ب - في فصل القاف، باب الزاي من الجزء الثاني المحقق من "كتاب التنبيه..." المنسوب لابن بري، لا يوجد فيه ما يشير إلى مدخل "قزز" ولا "القزاز" معنى عاما أو عَلَمًا.

جـ - الرواية عن ابن بري تأتي في أغلب الجزئين المحققين بعبارة "قال الشيخ – رحمه الله [11] ثمّ تنقلب إلى عبارة "قال الشيخ" [12] فقط، مما يوحي بأن ما يوجد بالجزئين المحققين لم يرو مباشرة عن ابن بري، بل يمثّل رواية لغيره عنه، أو تلخيصا له، مما استبعد ذكر القزاز استبعادا يكاد يكون مطلقا من "كتاب التنبيه...".

يؤيد ملاحظتنا الواردة في (جـ) السابقة أن ابن منظور، هو الوحيد في لسان العرب الذي يروي بصيغة مباشرة وصريحـة عن ابن بري، إذ جاء في

---

7) وذلك ما عسى أن يوضح في ما يلي من كلامنا.
8) حقق الجزء الأوّل منه مصطفى حجازي وعلي النجدي ناصف – القاهرة 1980، 303 ص ؛ وحقق الجزء الثاني عبد الحليم الطحاوي وعبد السلام هارون القاهرة 1981، 344 ص.
9) كتاب التنبيـه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح" جـ 282/1. وهذه الروايـة مخالفة لما جاء في مدخل "أرخ" بلسـان العرب جـ 3 /4. دار صادر بيروت (د.ت) حيث يذكر ابن بري دُون القـزاز.
10) لا يوجد أكثر من هذين الجزئيـن المحققيـن المنسوبين لحواشي ابن بري، تحت عنوان "كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في كتـاب الصحاح "للجوهري.
11) الجزء الأوّل المحقق – يحتوي بأكمله على هذه العبـارة
12) الجزء الثـاني المحقق – يحتوي على عبارة "قال الشيخ رحمه الله" ج2/1-50 ؛ وتصبح "قال الشيخ" فحسب ج 2/51-329. وذلك ما لم ينبّه إليه أحد من المحققين الأربعة لكتابنا المعني بالأمر.

فهارس لسان العرب[13] التي تحيلنا على القزاز ومعجمه 22 مرة ، رواية عن ابن بري على صيغة ما يلي :

قـال ابن بري : وقد حكى محمد بن جعفر القزاز[14].

وحكى ابن بري عن القـزاز قـال [15] :

قـال ابن بري : قال محمد بن جعفر القزاز في كتابه الجامع"[16].

قال ابن بري وأنشد القـزاز "[17].

والملاحظ أنّه توجد روايات عن القزاز بلسان العرب، لا تكون بالصيغة المباشـرة عن ابن بري، ولعلّها عن ابن منظور نفسه انطلاقا من كتاب الجامع، إذ نجـد فيـه : "وهذا رواه القـزاز"؛ [18] و"كذا ذكر القزاز في كتابه الجامع بتشديد الفاء"[19]. نستنتج من كل ما سبق استنتاجات أساسيّة جديدة، لا سيما وأنّ "كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح "المنسوب لابن بري باعتبار أنّه عنوان "لحواشي ابن بري" نفسها ؛ وأنّ فهارس لسان العرب، لم ينشرا إلاّ في الجزء الثاني من القرن العشرين. فمن تلك الاستنتاجات :

- روايـة ابن منظور عن ابن بري تشمل أغلب مداخل لسان العرب، من الألف إلى الياء، وتتجاوز في كمها وكيفها روايـة "كتاب التنبيه والإيضاح... "القاصرة، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، والتي لا تتجاوز مدخل "رقش"، مما يرشح روايـة ابن منظور رواية مباشرة عن ابن بري. ولقد سماها لهذا الغرض "أمالي ابن بري. "فلقد قال ابن منظور في هذا الشأن متحدثا عن موقف ابن بري من الجوهري وصحاحه، وعن "أماليه"، : "وهو مع ذلك قد حرّف فيما صرّف (الجوهري). فأتيح له الشيخ أبو محمد بن بري، فتتبع ما فيه، وأملى عليه "أماليه". مخرجا لسقطاته مؤرّخًا لغلطاته" [20]. فلم يذكر "الحواشي" ولاكتاب

13) فهارس لسان العرب، مؤسسة الرسالة 1987 للدكتور أحمد أبو الهيجاء والدكتور خليل عمايرة.
14) لسـان العرب - مدخل أجص جـ 3/7.
15) نفسـه – مدخل قرظ. جـ 455/7.
16) نفسـه – مدخل قحف جـ 276/9.
17) نفسـه – مدخل زيق جـ 150/10.
18) نفسـه – مدخل جيت، جـ 2 /21-22 ؛ ومن غريب الرواية أن مدخل "جيت" غير موجود في الجزء الأول من كتاب التنبيه..." المنسوب لابن بري.
19) نفسـه – مدخل زرف جـ 134/9.
20) ابن منظور – لسان العرب – دار صادر، 1952، ج 7/1.

التنبيه..." [21]. ويرى المحققان لكتاب التنبيه..." أن هذه التسمية "إنّما وضعها من أفرد هذه الحواشي في كتاب مستقل" [22].

- روايـة ابن منظور بقدر ما تطرح قضيّة "كتاب التنبيه..."، فإنّها كذلك لا تسلم من النظر في شأنها، لأن فهارس لسان العرب لم تورد مدخل "أرخ" الوارد في "كتاب التنبيه... رواية عن القزاز.

الروايتان المتوفرتان عن ابن بري، وإن كانتا تختلفان كما وكيفا، فإنهما تستحقان النظر الذي يستوجب دراسة لاحقة للموضوع، تكون أكثر تنوعا وعمقا وتمحيصًا على أساس مجموعة من المعلومات الإضافية الضرورية التي نرجو الاهتمام بها.

- **النص الثالث :** وهو مروي عن ابن التلمساني، شرف الدين عبد الله بن محمد[23] (ت 644 هـ/1246م)، ويتعلق بالأحرى بمدخل "الأشاء كسَحَاب" : "وضبطه ابن التلمساني بالكسر وتبعه الخفاجي [24]. وهو مخالف للرواية (صغار النخل)، كما قاله القزاز في جامع اللغة، وقيل النخل عامة، نقله ابن سيده في المحكم.." [25]. والملاحظ أن هذا المدخل لم يرد في كتاب "التنبيه والإيضاح..."، ولم ينسب في لسان العرب خاصّة، بمعناه مفردا وجمعا وتصغيرا لابن سيده ولا للقزاز؛ وأشار إلى صيغته الفعليّة الصرفيّة المجرّدة رواية عن ابن برّي فحسب؛ ممّا يفيد أن اللسان لم ينقل كل شيء عن "حواشي/أمالي" ابن بري، بل روى كذلك عن جامع القزاز نفسه. وذلك أمر متوقع مبدئيا، باعتبار تصرفه في مصادره وتفضيل بعضها على البعض الآخر. فلقد ذُكِر ، حسب فهارس اللّسان، ابن بري 96 مرة. وهو أقل المصادر اعتمادا في معجم اللّسان، لأن ابن منظور قد أخذ عن أساطين آخرين من أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه، فضلا عن مصادره الأساسيّة الخمسة[26]، بما فيها آمالي بن بري؛ ممّا دعا ابن منظور إلى اعتبار معجمه

---

21) يفيد محققا كتاب التنبيه، الجزء الأول، أن كثيرا من المؤلفات القديمة قد دعيت بأسماء مختلفة، لا تستقر على حال. وذلك لا يستقيم لأنّ كتابنا المعنى يختلف عن "أمالي" لسان العرب المنسوب لابن بري.
22) "كتاب التنبيه..." جـ 17/1.
23) رضا كحالة – معجم المؤلفين 133/6.
24) نفسه 138/2 توفي سنة (1069هـ/1659م).
25) حسين نصار – المعجم العربي جـ 529/2 رواية عن السيوطي في المزهر ط1986. ويبدو أن مدخل "الأشاء" قد نقله الزبيدي بدوره في معجم تاج العروس عن معجم المحكم لابن سيده الأندلسي.
26) لقد ذكر الأزهري ومعجمه التهذيب 620 مرة ؛ وكذلك ابن سيده ومعجمه المحكم. وحضي الجوهري ومعجم الصحاح بالذكر 597 مرّة. أما ابن الأثير وكتابه النهاية في غريب الحديث والأثر فقد ذكرا 279 مرّة.

"اللّسان" مجرد جمع وتنسيق بين مصادره المختلفة، وإن كان قد ألف معجما عملاقا على غايـة من الطرافة والأهميـة، سواء في مستوى الجمع أو الوضع[27].

- **النص الرابع :** وهو مروي عن اللبلي، أبو جعفر أحمد بن يوسف المتوفي بتونس (691 هـ/1292م) في مؤلفه " تحفة المجد الصّريح في شرح كتاب الفصيح"[28]. وهو وثيقة[29] على غاية من الأهميـة، نظرا لصلتها الوثيقـة بجامع اللّغة للقزاز. وقد نبّه إلى أهميّتها حسن حسني عبد الوهاب، واعتمدها بهدي منه منجي الكعبي في دراسته المخصّصة للقزاز القيرواني وآثـاره، ومنها معجم الجامع. وتفيد تلك الدراسة أنّه لا يوجد من مؤلف كتاب " تحفة المجد الصريح" إلاّ السفر الأوّل منه، "وهو مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 20 لغة ش."[30].

ومن غريب الصدف أن أفادنا محمد المنّوني في دراسته المخصّصة للزاويـة الحمزية بالمغرب الأقصى[31] أن نفس المؤلف موجود بالزاوية المذكورة، ويقتصر كذلك على السفر الأول فقط، ويضيف "وهو مكتوب بخط أندلسي ومبتور الآخر، ألفه باقتراح من الوزير أبي بكر بن الوزير أبي الحسن بن غالب، وقدمه لخزانة الوزير أبي القاسم بن الوزير أبي علي"[32] والملاحظ وجود مصادر أخرى مهمّة أشـار إليها المنوني في رسالته[33].

ولقد زودنا كتاب "تحفة المجد الصريح..." بمداخل معجمية أو بفروع منها تعتبر أكبر حصيلة وصلتنا عن القزاز، كما نقلها إلينا منجي الكعبي في دراسته. فوفرت لنا نصوصـا أساسية من حيث كمها وكيفها[34]. فهي تشمل ما يقرب من 62 مدخلا. فضلا عن مدخل "غدرات" السّابق الذكر. ومن سوء حظنا أننا لم ننتبه إلى مخطوطة "تحفة المجد الصريح..." إثر زيارتنا للزاوية الحمزية سنة 1985م. فلم ندرك أمرها إلاّ بعد إطلاعنا على رسالة محمد المنوني التي استنسخناها بعد ذلك بالمغرب.

---

27) محمد رشاد الحمزاوي : طريقة ابن منظور في تحرير مادّة اللّسان، المعجم العربي : إشكالات ومقاربات، تونس 1991، ص97 وما بعدها.
28) المنجي الكعبي، القزاز القيرواني... ص. 62.
29) نفسـه. والملاحظ أن رضا كحالة في معجم المؤلفين جـ212/2 لم يذكر مؤلف اللبلي الذي يعنينا.
30) نفسـه.
31) محمد المنوني، الزاويـة الحمزية، صفحة من تاريخها مجلّة تطوان ع 8، 1963، ص38 (43).
32) نفسه. وقد جاء هذا المخطوط مذكورا تحت رقم 104-131 من "مجموعة اللّغة" الموجودة بمكتبة الزاوية الحمزية.
33) نفسه، حيث يذكر كذلك ضياع معجم عربي أندلسي مهم وهو "موعب اللّغة" لأبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني القرطبي المتوفى سنة 426هـ.
34) المنجي الكعبي، القزاز القيرواني ص.88-99.

ولا شك في أن الحاجة ملحة لأن نقارن في دراسة أخرى بين مخطوطتي مصر والمغرب، على أن نقر من الآن أن ما وصلنا عن القزاز في الحالتين، يمكن أن يكون جزءا من حصيلة أكبر، إن كتب لنا أن نعثر على ما تبقى مما رواه اللبلي عن القزاز في الأجزاء الأخرى المحتملة المفقودة من مؤلفه، ونعني به "تحفة المجد الصريح...". وفي انتظار مزيد من المعلومات في ما يعنينا في هذا الصدد، يكفينا أن نعرض مثلا لمدخل من تلك المداخل ومثال ذلك :

"ورُكِضَتُ الدابة، قال أبو جعفر (الشارح) : إذا حركتها بساقيك[35] لتعدو؛ عن القزاز قال : ويقال مرّ الفرس يُرْكَضُ. ولا يقال يَرْكُضُ الرجل برجليه". ومن هذا الصنف كثير[36].

فمن مزايا هذه المداخل أنّها ستزودنا كذلك بمعلومات إضافيّة مهمة تتعلق باسم معجم القزاز، وكذلك باسم القزاز المضبوط نفسه، نظرا لما جاء فيه من روايات تستحق النظر.

- **النص الخامس** : وهو يتكون من مداخل واردة في لسان العرب لابن منظور الإفريقي (711هـ/1311م) رواية عن "أمالي" ابن بري، حسبما رواها ابن منظور. ولقد تعرضنا إلى نصيب منها في هذه الدراسة باعتبار صلتها بما دعي "بكتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح" المنسوب لابن بري. وهي تتكون من 22 مدخلا، يرد فيها ذكر القزاز تعزيزا لمصادر ابن منظور الخمسة الأساسيّة.

ولا شكّ في أنّها تكون غنيمة مفيدة تعزز أكثر فأكثر أهمية معجم الجامع للقزاز القيرواني. ولا بأس أن نعرض منها نصين مدخلين تعزيزا لموقف ابن منظور من القضية المطروحة، مع إحالة القارئ إلى لوحة جامعة[37] تشمل تلك النصوص في مختلف أجزاء لسان العرب[38]، كما زودتنا بها فهارس لسان العرب الصادرة عن الجامعة الأردنيـة باليرموك في القرن العشريـن. فمن ذلك:

"وحكى ابن بري عن القزاز قال : استحفظته الشيء جعلته عنده يحفظه، يتعدى إلى مفعولين، ومثله كتب الكتاب، استكتبته الكتاب"[39]. والنص طويل، لا

---

35) نفسـه ص.98.
36) انظر نماذج أخرى منها بالملحق رقم 1.
37) انظر اللوحـة بالملحـق رقم 2.
38) ورد ذكر القزاز في الأجزاء التالية من لسان العرب : 2، 7، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15 بصفحاتها المذكورة في الملحق رقم 2.
39) ابن منظور، لسـان العرب- جـ 442/7.

نعلم إن كان ينتهي رأي القزاز فيه بما وضعناه بين قوسين أو يتجاوزه إلى ما بعده. والغالب على الظن أن الباقي لابن منظور. وذلك شأن النص الآتي. قال ابن بري : قال محمد بن جعفر القزاز في كتابه الجامع : القُحْف جرفك ما في الإناء من ثريد وغيره"[40].

ولقد لاحظنا في لسان العرب أن رأي القزاز، يأتي غالبا رأيا حاسما في المدخل المعروض له. فهو يعتبر حكما فيصلا في القضية المعجمية المطروحة. يضاف إلى ذلك أن اللسان كثيرا ما يذكر القزاز في استشهاده، دون ذكر اسم معجمه "الجامع" باستثناء مدخلين (زرف وقحف) حيث يذكر "كتابه الجامع، "خلافا لما جاء عن اللبلي في مؤلفه" تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح"، مما سنستفيد منه في ضبط اسم معجمنا المبحوث عنه، وكذا اسم صاحبه.

وتمثل كل هذه النصوص المداخل، على طولها وقصرها، قطرة من بحر من معجم جامع اللغة للقزاز الذي يبدو أنّه تجاوز ألف ورقة[41]، يضاف إلى ذلك أنها جزء من مداخل مركزية أوردتها المصادر والمراجع المختلفة التي تصرفت في عرضها حسب اختيارات، يصعب في وضعنا الحالي توصيفها بطريقة حاسمة. وهي تتكون من ألفاظ مفردة (معيجمة بسيطة) في نطاق معانيها وبناها الصرفية والنحوية، مما يتعسر معه تصور نموذج أو نماذج من "**النص المعجمي**"، كما جاء في جامع اللّغة للقزاز، فضلا عن أنها لا تسمح لنا بأن نقر المدرسة المعجمية التي ينتسب إليها القزاز من حيث منهجياتها وفنياتها المعجمية، وإن كان القزاز قد وضع معجمًا في خضم وإطار حركة المدارس المعجمية العربية الرئيسية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما سيأتي ذكره، عند حديثنا عن مكانة جامع اللغة منها.

ولا بد لنا في خاتمة هذا المقام المتعلق بالنصوص المنسوبة للقزاز ومعجمه، أن نقر نقطتين أساسيتين :

أولاهما : أنه معجم عام مهم من معاجم العربية المؤلفة بتونس – القيروان، مما يعزز دور تونس في الحركة المعجمية العربية الكبرى.

وثانيتهما : أن أغلب الذين تحدثوا عن نصوصه هم من الأندلس أو من المغرب العربي، أو ينتسبون إلى أحد منهما، مثل ابن منظور الإفريقي صاحب لسان العرب.

---

40) نفسه جـ 276/9.

41) المنجي الكعبي، القزاز القيرواني ص47 رواية عن القفطي.

II - منزلـة معجم القزاز في نظر الدارسيـن قديمـا وحديثـا :

لقد توصلنا إحصائيا إلى خمسة مصادر، وفرت لنا عن البكرى نصًّا من مدخل واحد، وآخر عن واضع "كتاب التنبيـه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح "المعادل لحواشي ابن بري" – وفي ذلك نظر كما سبق، وثالثا عن التلمساني، ورابعا من 62 مدخلا عن اللبلي، وخامسا من 22 مدخلا عن ابن منظور. فيكون مجموعها :

22+62+1+1+1 = 87 نصا من مداخل مختلفة.

وهي تقرب من ألـ 96 نصا التي ذكر فيها ابن بري والذي نقلت عنه بعض أقوال القـزاز الواردة في لسان العرب.

وعلى هذا الأساس فإن النصوص المتوفرة قدمت لنا معلومات كثيرة وقاطعـة عن جامع اللغة للقزاز. والواضح أن منزلته المعترف بها، لن تتجلى تماما إلاّ عند العثور على ذلك المعجم كاملا. إنّ ذلك لا يمنعنا من أن نستشفّ مكانته من ملاحظات وأحكام الدارسين القدماء المتعلقة به، وهم من المشارقة، مع الإشارة كذلك إلى الأندلسيين والمغاربة والتونسيين[42]. فيكفينا أن نركز على آرائهم حسب الترتيب التاريخي.

1 - القـزاز نفسه متحدثا عن معجمه الذي قال في شأنه : "قال محمد بن القزاز : ما علمت أن أحدا سبق إلى تأليف مثل هذا الكتاب، ولا اهتدى أحد من أهل الصنعة إلى تقريب البعيد وتسهيل المأخذ، وجمع المفرق على مثل هذا المنهاج"[43]. فما هي تلك المزايا وذلك المنهاج على وجه الخصوص، في نطاق المصطلح المعجمي وتطبيقاته ؟ ذلك ما لا يمكن التسليم به، ما لم نقاربه من خلال نصوص الجامع الذي ما زال مفقودا.

2 - الحسن الشاري ، الذي يورد السيوطي ذكره في مزهره[44] دون تحديد وفاته. وكذلك فعل منجي الكعبي وحسين نصار. ولقد أسعفنا السيوطي بذكر شيخين من أساتذته، وهما أبو ذر الخشني، وعلي بن خروف المتوفي سنة 606هـ[45]، مما يعني أنّ الشاري من أهل القرن السابع الهجري، على سبيل التقريب. فلقد عني الشاري بجامع القزاز، في حديثه عن المختصرات والمعاجم

---

42) الشـاذلي بويحى : مدخل القزاز (Kazzaz) في دائرة المعارف الإسلاميـة حيث يشير إلى مصـادر أندلسيـة ومغربيـة مثل ابن خير في فهرسته، وابن دحية في المطرب، وح.ح. عبد الوهاب في بساط العقيق ومحمد النيفر في عنوان الأريب، الخ...

43) القـزاز، روايـة عن القفطي في إنباه الرواة جـ 87/3. دار الفكر العربي 1986.

44) السيـوطي، المزهر جـ 87/1 ط. 1986.

45) الخشني لا ذكر له في معجم المؤلفين لكحالة خلافا لابن خروف.

المشهورة مشيرًا إلى المهم منها، فقال بل "بل مـالوا (الناس) إلى جمهرة ابن دريد ومحكم ابن سيده وجامع القزاز، وصحاح الجوهري، ومجمل ابن فارس، وأفعال ابن القوطية وابن طريف"[46]. مما ينزله منزلة مختارة من معاجم عربية متميزة، وعليها نقيس امتياز معجم القزاز على امتيازاتها وشهرتها.

3 - يـا قوت الحموي (626هـ/1229م). فلقد قال في معجم القزاز "وهو كتاب كبير حسن، متقن يقارب كتاب التهذيب لأبي منصور الأزهري، رتبه على حروف المعجم".[47] إن هذا الرأي يساعدنا على تصور حجمه المقارب لحجم التهذيب [48] وعلى اتقانه وترتيبه الألفبائي، مما يؤكد على أهميته دون تفصيل.

4 - القفطي (646هـ/1248م) : نعت جامع اللغة بأنه "أكبر كتاب صنّف في هذا النوع. ومنه نسخة في وقف الفاضل عبد الرحيم بن علي بالقاهرة المعزية" [49]. فالتأكيد مرة أخرى على حجمه الذي يفوق أحجام كل المعاجم من نوعه في زمن القفطي، وإن كان انقرض من الوجود، رغم ذلك الحجم، ولم يصلنا كما وصلتنا أمهات المعاجم الأخرى.

5- ابن خلكان (681 هـ/1282م). قال في شأن معجمنا إنّه "من الكتب الكبار المختارة المشهورة"[50]. وهي أوصاف تماثل ما ذكر سابقا، ولم تمنع شهرته من غيابه من ساحة المؤلفات التراثية المتميـزة.

6 - اللبلي (691هـ/1292م). كان من أول من أكد على قيمة هذا المعجم بالمثال، بأن أورده مرجعا أساسيا في اللغة، يدل على ذلك النصوص الكثيرة التي استدل بها على مكانته في اللغة وعلومها، كما أشار إلى ذلك القفطي لأنّه "كان الغالب عليه علم النحو واللغة والافتنان في التأليف الذي فضح المتقدمين، وقطع ألسنة المتأخريـن"[51].

---

46) السيوطي – المزهر 88/1. والملاحظ أن حسين نصار والمنجي الكعبي قد أسقطا من هذه المجموعة الصالحة للمقارنـة، مجمل ابن فارس وأفعال ابن القوطية وابن طريف. وقد أحال حسين نصار في هذا الصدد على المزهر 45/1. فلعله استعمل طبعة أخرى من "المزهر" الذي لا تذكر سنة طبعاته عادة. ولقد أهمل السيوطي معجم مقاييس ابن فارس الذي لم يسلم من الغبن إلى حدود الخمسينات من القرن العشرين، مثل جامع اللغة للقزاز. وقد تميز المقاييس بنظريته المعجمية وخاصة بنظريته في النحت التي استخرجنا أسسها. انظر محمد رشاد الحمزاوي، نظريـة النحت العربية تونس – سوسـة 1998.

47) يـاقوت الحموي – معجم الأدباء – دار الفكر العربي – القاهرة جـ 105/18.

48) الأزهري (تـ 370هـ) معجم تهذيب اللغة – وهو يحتوي على 11 جزءا ويتكون مما يقرب من 6000 صفحة – حققه د. أحمد عبد الرحمان مخيمره دار الكتب العلميـة – بيروت لبنان – الطبعة الأولى 1425هـ/2004م.

49) القفطي : إنباه الرواة – دار الفكر العربي – القاهرة جـ 86/13 ط. 1986. وتمثـّل النسخة المعنيّة أملا كبيرا في الحصول على معجمنا إن وفقنا إلى العثور عليها.

50) ابن خلكان : كشف الظنون، دار صابر جـ 374/4- ط. 1977.

51) القفطي – إنباه الرّواة المذكور في حاشيـة 49 ص. 84.

7 - ابن منظور الإفريقي (711هـ/1311م) : ولقد مثل لمكانته باعتماده في مداخل عديدة، انطلاقا من حواشي/أمالي ابن بري، منزلا إياه بصفة غير مباشرة ورواية عن ابن بري، مصدرا من مصادره، مؤكدا على قيمته اللغوية وصحة روايته، ما دامت أمالي ابن بري الذي جاء مذكورا بها، تهدف إلى تجريح ونقد صحاح الجوهري الذي ادعى الصحيح المطلق، والتشدد في اللغة والتضييق في متنها على غرار موقف رواة صحيح الحديث، كما أشار إلى ذلك السيوطي في مزهره، حيث قال : "فهو في كتب اللغة نظير صحيح البخاري في كتب الحديث؛ وليس المدار على كثرة الجمع بل على شرط الصحة"[52].

ولا شك في أن "صحة" الحديث كانت موضع نظر ونقد وتجريح في التراث العلمي العربي الإسلامي، وعلى أسس علمية مفيدة[53].

8 - السيوطي (911هـ/1505م) : ومن تميزه أنّه أدرجه في روايته في مجموعة واسعة من المعاجم المشهورة مشرقا ومغربا مثل كتاب العين للخليل، والجمهرة لابن دريد، وفتح العين للتياني، ومحكم ابن سيده[54]. فهو على هذا الأساس ممثل للمغرب والمشرق، وبالأحرى لإفريقيه – تونس على وجه الخصوص وموطنه القيروان، أم عواصم المغرب والأندلس.

9- الدارسون المحدثون : ويدخل تحت هذه المظلة ح.ح. عبد الوهاب، والشاذلي بويحيى والمنجي الكعبي وغيرهم، وما زودونا به من معلومات في شأن القزاز ومعجمه وأعماله التي حظيت بعناية خاصة في الدراسة التي خصصها له منجي الكعبي الذي سعى إلى الإحاطة بالرجل وآثاره، وبالأحرى بمعجمه، فزودنا بنصوص على غاية من الأهمية، نظرا لاتصالها بمحتوى معجمنا المعني، فقدم لنا من خلال نصوص اللبلي أكبر حصيلة وصلتنا اليوم، مما يدعو إلى مواصلة الجهود للعثور على أثر القزاز المفقود.

ولا شك في أن أغلب المواصفات الواردة في مصادرنا السابقة، المعنية بالمشاهير وأعمالهم ؛ قد زودتنا بما يدعم مكانة معجم الجامع؛ إلا أنّ الكثير منها سيظل عاما إلى حد السطحية، ولا يفيدنا في شيء عن الأسباب التي دعت إلى اختفاء هذا المعلم الكبير من الوجود، كأنّه لم يكن.

فهل اختفى لأنه نشأ، حسبما روي، من مبادرة سلطانية شيعية، وبالأحرى من الخليفة الفاطمي؟ وهل أقصي من مجموعة الأمهات باعتباره معجما "شيعيا"

---

52) السيوطي : المزهر جـ 101/1 ط. 1986

53) محمد الطاهر الجوابي : جهود المحدّثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف، مؤسسات بن عبد الله – تونس 1991؛594ص.

54) السيوطي : المزهر 88/1.

أو "متشيعا"، أو باعتبار أنّه كان ناقدا لغيره من المعاجم، لأنه "فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين"[55]، كما أشار إلى ذلك القفطي ؟ فضلا عن أنّه أحرز على رضا الخليفة الفاطمي الذي قال في شأنه "إنّي أرى في أوله فألاّ حسنا. فلا أدري أوقع أو اعتمدته، وهو أنّك لما ذكرت اسما جئت به مرفوعا. فكان أحسن من أن تأتي به مخفوضا بالإضافة. فقلت الحمد لله الذي وفّق لما يرضى."[56]، على أن هذا التخريج، يبدو مخالفا لما عرف عن القزاز "وكان مهيبا عند الملوك والعلماء، وخاصة الناس، محبوبا عند العامّة، قليل الخوض إلاّ في علم دين أو دنيا، يملك لسانه ملكا شديدا"[57].

ومهما كانت الافتراضات التي يطرحها غياب معجمنا، ومنابعه ومحتواه، ونظريته المعجمية[58]، ومهما كان نصيبها من الصحة والخطأ، يهمنا أن نعنى بقضية أخرى من قضاياه، وهي تتعلق باسم معجمنا المدروس، حسب ما جاء فيه من روايات.

III - اسم معجم القزاز :

نقتصر في هذا المجال على ما جاء في "تحفة المجد الصريح" للبلي، وفي لسان العرب لابن منظور. فلقد جاء في المصدر الأول في تعبيرات معينة كما يلي :

الجامع : 7 مرات : وصاحب الجامع : 4 مرات ؛ وكتابه الجامع مرّتين؛ وجامع اللغة مرة؛ وجامع القزاز مرة ؛ وجامعه مرة. فيكون المجموع : 16 مرّة مما يفيد أنّ "الجامع" هو الغالب".

أمّا في لسان العرب فلقد جاء حسب العبارات التاليـة :

في كتابه الجامع : مرتين دون غيرهما. ويدعوه ابن خلكان ورضا كحالة "الجامع في اللغة".

وجاء في مزهر السيوطي بعبارتي : جامع ابن القزاز ، أو الجامع للقزاز.

ولقد سبق للتلمساني أن دعاه : "جامع اللغة"؛ كما دعاه البكري من قبله "جامع القزاز". ويفيد ما عرض من تعابير أن الاسم الغالب هو "الجامع" وهو معجم مستقل بذاته، يختلف عن مؤلفاته الأخرى.

---

55) انظر حاشيـة 51.
56) القفطي : إنباه الرواة المذكور سابقا ص. 87.هذا ما رواه القفطي. وقائله ليس مصيبا حتّى وإن كان خليفة فاطميّا.
57) نفسـه ص. 84.
58) محمد رشاد الحمزاوي : النظريات المعجميّة العربيّة وسبلها إلى استيعاب الخطاب العربي – مؤسسات بن عبد الله – تونس 1998.

أمّا لسان العرب فلقد ذكره 22 مرة داعيا إياه مرّة واحدة باسم "ابن القزاز"[59]، ودعاه بهذا اللقب الأخير السيوطي في مزهره، وعنه نقل حسين نصار في "المعجم العربي..." والملاحظ أن لقب القزاز يطلق على غيره كذلك[60].

V- آمـال في العثور على جامع القزاز ؟

إنّ كل ما سبق ذكره قد دعانا إلى العناية المستمرة والمتواصلة بكلّ ما من شأنه أن يساعد على العثور على جامع اللغة أو الجامع في اللغة مكتملا، طمعا في تحقيقه إن سمحت الظروف والوسائل، وكنا نطمح في العثور عليه، حسبما أشير علينا عند وجودنا بالمغرب الأقصى، وبالأحرى بالزاوية الحمزيـة التي رحلنا إليها سنة 1985 ، دون أن نغنم تلك الغنيمة. وازداد اقتناعنا بخيبة المسعى، فاستكشفناه عن بعد من مصدرين :

- رسالة الشيخ الأستاذ المنوني، السابقة الذكر التي يفيد فيها بوجود "كتاب تحفة المجد الصريحّ للبلي "مشيرا إلى بعض مصادره التي سماها في خطبته ومنها "كتب يعتبر الآن بعضها ضائعا ومنها جامع اللغة لمحمد بن حعفر التميمي المعروف بابن القزاز القيرواني المتوفي 412هـ"[61].

وذلك لم يمنعنا من التحقق من الأمر بالاعتماد على :

– مراسلات[62] بيننا وبين الأستاذ عبد الغني أبو العزم، رئيس جمعيّة الدراسات المعجميّة المغربية، المتعاونة مع جمعية المعجمية العربية بتونس. وقد بشّرنا في مراسلة يقول فيها " إني اكتشفت أنه موجود في خزانة مكتبة الزاوية الحمزية بالرشيدية بالجنوب المغربي"[63].

- وقد أفادنا في آخر مراسلة منها، وبعد محاولات مختلفة : "تأكد بما لا مجال للشك فيه بأن لا أثر له (المعجم الجامع) على الإطلاق في أي مكتبة من المكتبات المغربية قاصيها ودانيها. ويبدو أن شيخنا محمد المنوني أشار إليه على أنه مجرد تأليف القيرواني لا غير."[64] مما يقنع بصحة ملاحظة الشيخ المنوني التي سبق ذكرها في هذه الدراسة، ويدعونا إلى أن نواصل الجهود للعثور على

---

59) ابن منظور، لسان العربي جـ13/507 مدخل كتم.
60) رضا كحالة، معجم المؤلفين جـ 13/138.
61) محمد المنوني، الزاويـة الحمزيـة... انظر الملحق رقم 3.
62) مراسلات من 2005/9/22 إلى 2006/1/24.
63) مراسلة بتاريخ 2005/9/22 .
64) مراسلته بتاريخ 2006/1/24 مع الشكر الجزيل على الجهود المبذولة لاستقصاء آثار معجمنا المفقود.

معلمتنا المعجمية العربية المغاربية التونسية التي سعينا، مع غيرنا من الباحثين من قدامى ومحدثين، إلى طرح مسألتها وما أثارته من إشكالات وقضايا، وإلى ضرورة العمل من أجل استرجاع نصها الكامل، حتى لا يظل حسرة في الأذهان والقلوب.

ملاحظة هامة : إن ما جمعناه في هذا البحث من المصادر والمراجع والنصوص المهمة المتوفرة إلى اليوم، طمعا في العثور على "جامع القزاز" كاملا أو مجزءا، بينت، فضلا عن أنها لم تساعدنا على ضبط الأسباب التي أدت إلى غيابه من الوجود، أن أهم مرجع معجمي نقدي أساسي لمعجم الصحاح للجوهري وأبرز مصدر عن جامع القزاز، وهو "حواشي ابن بري" عند بعضهم، و"كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح" عند طرف ثان، وأمالي ابن بري عند ابن منظور، مانفك يطرح في النهاية قضية ماهيته الحقيقية، وبالتالي قضية مصير "الجامع"، إن أخذنا بما أضافه السيوطي من ملاحظة على غاية من الأهمية، وهو من أقرب القدامى إلينا إذ قال: « وقد ألف عبد الله بن بري "الحَوَاشي". على الصحاح، وصل فيها إلى أثناء حرف الشين. فأكملها الشيخ عبد الله بن محمد البسطي[65] ، مما يعني :

1- اعتبار "كتاب التنبيه والإيضاح على ما وقع في كتاب الصحاح "هو حواشي ابن بري، الذي علّق عليه محققو المزهر[66] المعاصرون بـ : "واسم هذه الحاشية الإيضاح (كذا) كما جاء في كشف الظنون"[67].

2- أن حواشي ابن بري أو "كتاب التنبيه..." المنسوب إليه كذلك، وصل إلى حد حرف الشين أي إلى مدخل "وقش" ، كما أشرنا إلى ذلك سابقا في هذه المقاربة .

3- أن مكمل كتاب ابن بري ، وهو الحواشي، وكتاب التنبيه في آن واحد، حسب الروايات المختلفة المحتملة، إلى حرف الياء، هو الشيخ عبد الله بن محمد البسطي[68] الذي يبدو أن السيوطي كان على معرفة به، وبعمله وإسهامه.

نستنتج مؤقتا من كل ما سبق أن حواشي ابن بري / وكتاب التنبيه.../ وآماليه، وهي سند من مسانيد لسان العرب الخمسة الأساسية (مدونته)، و"جامع القزاز" مازالت تستحق النظر والحذر في الأسس والشكل والمحتوى للتوفيق بين

---

65) السيوطي، المزهر جـ99/1...ط 1986.
66) نفسه. وهم : محمد أحمد جاد المولي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي.
67) نفسه، حاشية عدد 5.
68) لم نعثرعلى هذا الاسم في بعض المراجع. والبسطي الوحيد في معجم المؤلفين لرضاء كحالة 249/7، هو علي بن موسى البسطي. وهو كيميائي .

ما قيل في شأنها وشأن "جامع القزاز"، بقطع النظر عما يمكن أن نؤاخذ عليه السيوطي[69] وابن منظور من عثرات.

محمد رشاد الحمزاوي
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات
جامعة منّوبة - تونس

69) جاء في المزهر "ابن القزاز" عوضا عن القزاز مثلا.

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 39 – 47

أسلوب التنويه بالعربيّة وعلمائها عند ابن جني

بقلم : **عبد القادر المهيري**

قد يبدو غريبًا أن يتحدّث المرء عن أسلوب النحاة باعتبار ما له من خصائص فنية جمالية تهدف إلى إثارة العواطف وتحقيق التجاوب بين المؤلف وقارئه، فكتابة النحاة والعلماء بصفة أعم غرضها الملاحظة والاستنتاج والتقنين، وتوفيقها رهين ما تتسم به من ملاءمة بين الصياغة والمضمون ومن البساطة والوضوح، وليست الجوانب الجمالية وإثارة المشاعر مما ينشده المؤلف أو ينتظره القارئ.

وليس التنويه بالعربية ومكانتها مما يمثل الشغل الشاغل في مصنفات النحاة باستثناء ما نجده أحيانا في مقدمات هذه المصنفات من تبرير لوضعها بافتقار كلّ العلوم الإسلامية إليها، وردّ على من يجحد فضلها وينهى عن تعلمها [1]. كما أن الحديث عن علماء العربية وفضلهم ليس ما تقتضيه طبيعة مصنفاتهم باستثناء ما يحتاجون إليه من الإحالة عليهم لدعم رأي، أو عرض اختلاف، أو للخروج عما ذهبت إليه الجماعة.

على أن للتنويه بالعربية وعلمائها حظا في كتاب الخصائص لابن جنّي، وليس هذا بالأمر الغريب، لأن النظر في خصائص العربية وفي أصول نحوها وتعليل قواعدها سعيا إلى بيان تناسقها من شأنه أن يؤول إلى البحث عن الحكمة التي وراء كلّ ذلك والإعجاب بها، وكذلك التقدير لواضعي علومها. ومن الطبيعي ألا يتوخّى النحوي في مثل هذا الموضوع خطاب القواعد الاصطلاحي وما

---

1) انظر مقدّمة كتاب المفصّل للزمخشري وشرحها لابن يعيش.

تقتضيه لغة التقنيين من تجريد، وأن يسلك مسلك الكتابة الأدبية حتى يكون خطابه مقنعا مؤثرا.

وقبل أن نحاول النظر في ما يشرّع لنا الحديث عن أسلوب ابن جني من أدوات معجمية ونحوية تركيبية وبلاغية نحاول عرض موقف صاحب الخصائص من اللغة العربية ورأيه في علمائها.

إن حديث ابن جني عن العربية حديث المعجب بها الذي يرى في كلّ ظاهرة من ظواهرها دليلا على عبقريتها، ويعتقد أنه يمكن تعليل كلّ عناصرها وتبرير كيفيات استعمالها حتى ولو بدا بعضها نابيا مخالفا للقواعد المعروفة، وإذا ما عجز النحوي عن الاهتداء إلى تفسير وجيه فذلك يعزى إلى قصوره لا إلى خلل في اللغة العربية القائمة على الحكمة؛ فإقامة الدليل على ما تتسم به العربية من حكمة من أهم دواعي وضع ابن جني لكتاب الخصائص إن لم يكن أهمّها، وذلك ضمني في كامل الكتاب باعتباره أراد أن يجمع فيه -حسب عبارته- "... الأدلّة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة" [2] وهو صريح في عديد المواطن من هذا التصنيف، نجده في تناوله لأصل اللغة، وحديثه عن علل النحو مقارنة بعلل الفقهاء والمتكلمين، وفي رَدّه على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني[3]. كما نجده كلما حاول صاحب الخصائص أن يبيّن علاقة الأصوات أو الصيغ بالمعاني التي تؤديها [4] وبصفة أعم فعبارات التنويه بالعربيّة مبثوثة في كتاب الخصائص، وإعجاب صاحبه بهذه اللغة ضمني في كامل الكتاب؛ ويمكن أن نعتبر أن ابن جني يجيب كل من لم يقتنع بالتعليل الذي يهدف في نهاية الأمر إلى ابراز حكمة العربية قائلا له: "كان الأحرى به أن يتهم الإنسان نظره ولا يخفّ إلى ادّعاء النقص فيما قد ثبّت الله أطنابه وأحصف بالحكمة أسبابه"[5].

وما تتسم به العربيّة من حكمة ولطف وإرهاف متماش مع ما يتسم به العرب أنفسهم "من لطف الحسّ وصفائه، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه"[6] فالعربية تقتضي مثل هذه الخصال، فأصحابها "لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة المنقادة الكريمة إلا ونفوسهم قابلة لها، مُحسّة لقوّة الصنعة فيها، معترفة بقدر النعمة عليهم بما وُهِب لهم منها" [7].

---

2) خ. I، ص. 1.
3) نفسه، ص. 215.
4) نفسه II، ص. 113، 133، 145، 152.
5) نفسه، ص. 165.
6) نفسه I، ص. 239.
7) نفسه.

ينتج عن كلّ هذا تفوّق لغة العرب على غيرها من اللغات، فلا يتردّد ابن جني في إبداء هذا الحكم القاطع الوارد في قوله: "لو أحست العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة، وما فيها من الغموض والرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلا عن التقديم لها والتنويه منها" [8]؛ وحجّته على ذلك أن "علماء العربية ممن أصله عجمي وقد تدرّب بلغته قبل استعرابه" [9] لا يقبل المقارنة بين اللغتين ولا يخامره الشك في تفوّق العربيّة.

وينسحب فضل العربيّة كذلك على علمائها إذ لم يوفق لاختراع علم العربية – في رأي ابن جنّي- "إلا البرّ عند الله سبحانه، الحظيظ بما نوّه به وأعلى شأنه ..." [10]، وهو لا يشك في "أن الله قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة في الترجيب له والتعظيم ..." [11].

ولا يتردّد ابن جني أن يرمي بالجهل من يجرؤ على انتقادهم، ويعتبر أن أقوالهم مما لا يكترث به، لذا يقول متحدّثا عمن ادّعى أنّ الأصمعي يزيد في كلام العرب : "فأما إسفاف من لا علم له، وقول من لا مسكة به ... فكلام معفو عنه، غير معبوء به، ولا منقوم من مثله" [12].

كما أنه قد يرمي الذين يخالفونه الرأي بضعف النظر وإسراع أفهامهم "إلى تلقي ظاهر هذه اللغة" [13] ويعتبر أن الذي يدعي عناية العرب بالألفاظ وإغفالها المعاني أنه "لم ينعم النظر ... لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق" [14]؛ ويردّ على من اعتقد فساد علل النحويين بـ"ضعفه هو في نفسه عن إحكام العلّة" [15]؛ ولا يتردّد في اعتبار أسئلته من قبيل "الهوس واللغو". وأنه لو أمعن النظر "لسقط صداع هذا المضعوف السؤال" [16].

ويحتدّ خطاب ابن جني عندما يكون الأمر ذا أبعاد عقدية، لذا يندد بمن يسمّيهم الجهال الذين يقفون عند المعنى الظاهر لبعض الآيات القرآنية قائلا: "وأما من طغى به جهله، وغلبت عليه شقوته حتى قال في قوله تعالى: "يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ" إنه أراد عضو القديم، وأنها جوهر كهذه الجواهر وأنها ذات شعر وكذا وكذا

8) نفسه، ص. 242.
9) نفسه، ص. 243.
10) نفسه،III، ص. 309.
11) نفسه، I، ص. 190.
12) نفسه، III، ص. 311.
13) نفسه، I، ص. 374.
14) نفسه، ص. 218.
15) نفسه، ص. 184.
16) مثله، ص. 185.

مما تتابعوا في شناعته وركسوا في غوايته"[17] فموقفهم هذا لا يدلّ إلا على ضعفهم "في هذه اللغة الكريمة الشريفة" [18] ويضيف قائلا: "لو كان لهم أنس بهذه اللغة الشريفة أوتصرّف فيها، أومزاولة لها لحمتهم السعادة بها، ما أصارتهم الشقوة إليها بالبعد عنها" [19] فاللغة العربيّة أكثرها "جار على المجاز" وقد جاء الخطاب القرآني موجها إلى قوم هم "أعرف الناس بسعة مذاهبها، وانتشار أنحائها" لذا فهم يفهمون "أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم..." [20].

نستنتج مما سبق أن ابن جني يقف من العربية وأصحابها وعلمائها موقف الإعجاب والإجلال، موقف المدافع الذي يريد أن يقنع بما يعتقده باستعمال مختلف الوسائل، ومنها خاصّة طرق التعبير التي يبدو التأنّق فيها واضحا، ويتجلى فيها حرص صاحب الخصائص على إغراء قارئه ببليغ العبارة وورنق الأسلوب.

يتجلى ذلك قبل كل شيء في السجلّ المعجمي المعتمد كلما كان الخطاب من قبيل إبداء حكم في اللغة العربيّة وأصحابها وعلمائها؛ من البديهي أن كلّ الألفاظ ترجع هنا إلى حقول معنويّة إيجابية تمجيدية، جانب منها يتصل بالعقل وما يتسم به من سداد وتوفيق، من ذلك كلمة الحكمة التي يتواتر استعمالها كلما دار الحديث عن العربيّة، فقد أودعت "خصائص الحكمة" [21]، وفيها "من الحكمة... ما يملك" على ابن جني "جانب الفكر ..." [22]؛ أما العرب فقد "دلّت الدلالة..." على حكمتهم "التي تشهد بها العقول وتتناصر إليها أغراض ذوي التحصيل" [23]، ومعلوم ما يُوحي به الأصل "حكم" ومشتقاته من معاني الإتقان والسلامة من الاضطراب والفوضى من ناحية والتفقه في معرفة أفضل الأشياء والتحكم فيها من ناحية أخرى، والدليل على ما تتسم به العربية من الحكمة يكمن في "بديهة العقل" وفي "الطبيعة والحسّ"[24]، لذا يتيسّر تعليل كلّ ظواهرها بعلل "مواطئة للطباع" تقبلها النفس وينطوي على الاعتراف بها الحسّ [25].

وبجانب هذا المفهوم المحوري في التنويه بالعربية مفهومان آخران هما الشرف والكرم، فالعربية لغة "شريفة كريمة" [26]، وعلم النحو علم كريم[27] ولا

---

17) نفسه، III، ص. 251.
18) نفسه، ص. 245.
19) نفسه، ص. 246.
20) نفسه، ص. 247.
21) نفسه، ص. 1.
22) نفسه، ص. 47.
23) نفسه، II، ص. 164.
24) نفسه، I، ص. 523.
25) نفسه، ص. 51.
26) نفسه، ص. 43 ؛ II، ص. 113 ؛ III، ص. 245.
27) نفسه، I، ص. 190.

يخفى ما يدلّ عليه لفظ الشرف من معنى أصلي هو الارتفاع، ارتفاع المكان ثم ارتفاع المنزلة والحسب، وكذلك لفظ الكرم وما يفيده من السخاء والعطاء من ناحية، وما يفيده من ناحية ثانية حسب لسان العرب من الجمع "الأنواع الخير والشرف والفضائل"، وكذلك ما يدلّ عليه من صفاء الأصل والسلامة من الهجنة من ناحية ثالثة. بالإضافة إلى هذا فاللفظان قد اقترنا بالدلالة على معنى التقديس فصفة الكريم من أسماء الله الحسنى، وصفة الشريف ينعت بها المصحف والقدس. ولا يستبعد أن استعمالهما من قبل ابن جني في السياقات المعنية لا يخلو من هذا البعد التقديسي.

وعندما يتحدّث ابن جني عن استعمال العربية فمعجمه ليس معجم النحوي الواصف لاشتغالها، المحلّل لمكوّناتها المستعرض لقواعدها، أي ليس هو معجما موضوعيا إن جاز التعبير، مندرجا في خطاب اصطلاحي، خاليا من الأوصاف التمجيدية أوالتهجينية، وإنما هو معجم الذي يبدي رأيه في طرق التعبير باحثا فيها عن مواطن الإبداع والجمال.

ففي ردّه "على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني" [28]، يقرّ بأن العرب "تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها ..."، لكنّه يعتبر أن "المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها" [29]. فغاية العناية بالألفاظ هي إظهار المعاني والتعبير عن الأغراض، فالعناية بالألفاظ هي في الواقع "خدمة ... للمعاني وتنويه بها وتشريف منها" [30]. وعندما يتناول ابن جني كيفية عناية العرب بألفاظهم يستعمل سجلا معجميا متنوع الحقول، فبجانب ألفاظ ذات معان عامّة مثل "أصلح" و"رتّب" و"هذّب" و"حسّن"، يمكن أن تستعمل في سياقات متباينة، يستمدّ ألفاظه من حقل الزينة بمختلف فروعه من تحبير وتنميق وزخرفة ووشي مما ينقل الكلام من السمع إلى حاسّة البصر، كما تنتمي كلمات أخرى إلى مجال اللمس مثل الصقل والدماثة والإرهاف، أوإلى حقل المذاق مثل "حلا"، و"لذّ"، و"عذوبة"... ويصبح الكلام مرّة أخرى كائنا له حواش تُحمى و"غُروب" تصقل وتُرهف [31].

وكثيرا ما يعتمد ابن جني تجسيم المعنوي بالتعبير عنه بألفاظ ذات مدلول ملموس، مثال ذلك قوله في حديثه عما يوجد من علاقة في أصل المعنى بين الأسماء المعبّرة عن معنى واحد : "هذا إنما يعتنق فيه الفكر المعاني غير منبهته

---

28) نفسه، ص. 215 وما بعدها.
29) نفسه، ص. 215.
30) نفسه، ص. 217.
31) نفسه.

عليها الألفاظ فتفطّن له، وتأنّ لجمعه... فإنه يبسط ما تجعّد من خاطرك ..." [32].
وفي نهاية الفصل الخاص بالاشتقاق الأكبر يتحدّث عن المعاني وكأنها مما له مكان أوجسم ؛ "... إن المعاني وإن اختلفت معنياتها آوية إلى مضجع غير مقضّ، وآخذ بعضها برقاب بعض" [33].

كلّ هذا يكسب كلام ابن جني صبغة مجازية تبدو في الخروج بهذه الألفاظ عن معانيها الأصلية والتصرّف فيها لغرض تصويري؛ ويبدو ذلك أوضح عندما يركن صاحب الخصائص إلى الصور البلاغيّة خاصّة عندما ينوّه بأعلام اللغويين والنحاة، فأبو عمرو بن العلاء هو "البدر الطالع الباهر والبحر الزاخر ... هو أبو العلماء وكهفهم وبدءُ الرواة وسيفهم" [34]. والأصمعي "هو صناجّة الرواة والنقلة ... وريحانة كل مغتبق ومصطبح" [35].

ولئن كان في اختيار الألفاظ واعتماد الأساليب البلاغية دليل على حرص ابن جني على التأنّق في كلامه عندما يرمي إلى الإقناع خاصّة ببليغ العبارة، فإن هذا الحرص أبرز للعيان في التركيب وفنونه، وهندسة الجملة وفروعها. وأبسط مظاهر ذلك يتمثّل في السجع وما ينجم عن استعماله من تنغيم من ناحية ومن تكرار المعنى الواحد بأجزاء متماثلة المعنى أومقاربته من ناحية أخرى، من ذلك مثلا قوله : "إن العرب كما تُعْنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها، وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشعر تارة، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلّف استمرارها فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها" [36].
وهذا مثال آخر يبدو فيه الحرص على التوازن بين الجمل، يقول ابن جني : "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذّبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترينّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها" [37].

وكأنّ ابن جني يطبّق في توخيه هذه الطريقة في الكتابة ما يقوله هو نفسه تبريرا للعناية بالألفاظ، وتنويها بالسجع ودوره : "فإنها (أي الألفاظ) لما كانت عنوان معانيها، وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في

32) نفسه، II، ص. 133.
33) نفسه، II، ص. 139.
34) نفسه، III، ص. 310.
35) نفسه، ص. 311.
36) نفسه، I، ص. 215.
37) نفسه، ص. 217.

الدلالة على القصد، ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذّ لسامعه...، ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه ..."[38].

ومن مظاهر العناية بتركيب الجملة قصد التوفيق بينه وبين مقصد الكاتب تفريعها بطريقة تتماشى مع ما يريد أن يقنع به من سعة ما يتحدّث عنه، مثال ذلك قوله في الاحتجاج على أن "العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها" [39] : "وليس يجوز أن يكون ذلك كلّه في كلّ لغة لهم وعند كلّ قوم منهم حتّى لا يختلف، ولا ينتقض، ولا يتهاجر على كثرتهم، وسعة بلادهم، وطول عهد زمان هذه اللغة لهم، وتصرّفها على ألسنتهم، اتفاقا وقع، حتى لم يختلف فيه اثنان، ولا تنازعه فريقان، إلاّ وهم له مريدون، وبسياقه على أوضاعهم فيه معنيون".

يرمي ابن جني هنا إلى أن يقنع بأن العرب كانوا واعين بما يعلل به النحاة مختلف الظواهر، وحجته على ذلك أن طريقة كلامهم لا تختلف من متكلم إلى آخر، ولا من جهة إلى أخرى، ولا من عصر إلى عصر، والخطّة المعتمدة من قبله تتمثّل في المقابلة بين عدم الاختلاف في الاستعمال، وتنوع المتكلمين، ويتجلّى ذلك في بنية الجملة القائمة على الحصر (ليس يجوز ... إلا وهم ...) والمتكونة بالطبع من جزأين، فالجزء المنفي يطول ويتفرّع بواسطة العطف، عطف الجمل الفرعية (لا يختلف، ولا ينتفض ولا يتهاجر ...)، وعطف المكونات الفرعية (على كثرتهم، وسعة بلادهم، وطول عهد زمان هذه اللغة لهم، وتصرّفها على ألسنتهم) وكأن تعدد فروع الجملة يصوّر كثرة المتكلمين، واتساع بلاد أصحاب العربية، واستمرار اللغة في الزمن، أما الجزء الثاني من الجملة الحصرية فمختصر وكأن الكاتب قصد المقابلة عن طريق عدم التوازن بين جزئي الجملة بين تنوع العوامل التي من شأنها أن تُفقد اللغة وحدتها من ناحية، ومحافظتها رغم ذلك على هذه الوحدة من ناحية أخرى.

ولعلّ أبلغ مثال يبدو فيه استغلال ابن جني لإمكانيات التركيب والتصرّف في تفريع الجملة قصد الإقناع بما يذهب إليه، جوابه لمن آخذ سيبويه على "فوائت الكتاب" بجملة طويلة متشعّبة جديرة بمرافعة محام بليغ. يقول صاحب الخصائص:

"... وإن إنسانا أحاط بقاصي هذه اللغات المنتشرة، وتَحَجَّر أذراءَها المترامية على سعة البلاد، وتعادي ألسنتها اللداد، وكثرة التواضع بين حاضر وباد، حتى اغترق جميع كلام الصرحاء والهجناء، والعبيد والإماء، في أطرار

38) نفسه، ص. 216.
39) نفسه، ص. 237-238.

الأرض، ذات الطول والعرض، ما بين منثور إلى منظوم، ومخطوب إلى مسجوع، حتى لغات الرعاة الأجلاف، والرواعي ذوات صرار الأخلاف، وعقلائهم والمدخولين، وهذا تهم الموسوسين، في جدهم وهزلهم، وحربهم وسلمهم، وتغاير الأحوال عليهم، فلم يخلل من جميع ذلك على سعته وانبثاثه وتناشره واختلافه، إلا بأحرف تافهة المقدار، متهافتة على البحث والاعتبار – ولعلها أو أكثرها مأخوذة عمن فسدت لغته، فلم تلزم عهدته - لجدير أن يُعلم بذلك توثيقه، وأن يخلّى إلى غايته طريقه" [40].

واضح ما تتسم به هذه الجملة الاسمية الطويلة المعقدة من اختلال التوازن المقصود بين المسند إليه ومكوناته العديدة الرامية إلى التنويه بضخامة مجهود سيبويه، والمسند المحدود العناصر نسبيا والهادف إلى التقليل من أهمية ما يمكن أن يؤاخذ عليه سيبويه.

إنّ تنكير الاسم الممثل لرأس المسند إليه يفتح المجال بما يقتضيه من عناصر تخصيص لتفريع هذه العناصر تفريعا واسعا يتماشى مع ما يحرص المؤلّف على الإقناع به من سعة مجال استعمال العربية وترامي أطرفه.

يتمثل التفريع في جملتين نعتيتين تعبر كلّ مكوّناتهما على الاستقصاء (أحاط)، والجمع (تحجّر)، والكثرة والتعرّف (اللغات المنتشرة)، والاتساع والتباعد (أذراءها المترامية)، والاختلاف إلى حدّ التنافر (تعادي ألسنتها اللداد)، وتتفرّع عن الجملتين النعيّتين جملة طويلة نواتها فعل يفيد الاستيعاب (اغترق) ويفتح المجال لاستعراض أنواع الكلام المستوعب باعتبار أصناف المتكلمين وانتشارهم في أماكن بعيدة، وباعتبار نوع الكلام، ويتجلّى حرص ابن جني على الإقناع بالتنويع الذي لا حدّ له في استعراضه لمتكلمين لا يكترث عادة بكلامهم ولغاتهم وجلّهم من المهمشين، ويظهر ذلك في اختيار أسماء لا تخلو من شحنة تهجينية (الرعاة الأجلاف، المدخولون الهذاة الموسوسون ...)، ويزداد تفريع العناصر المكوّنة للمسند إليه في جملة ذات بنية حصرية للمقابلة بين ما استوعبه سيبويه من أنواع متنوعة من اللغات وما أمكن أن يكون قد أهمله، فبقدر ما جمع وأوعى تقلّ أهميّة ما أخلّ به، ويبدو ذلك في الحصر وفي استعمال صيغة جمع القلّة (أحرف)، وفي كلمتي تافهة المفيدة للاحتقار، ومتهافتة المفيدة لما يسقط سقوطا تلقائيا، وكأن هذا ليس كافيا للتقليل من أهميّة المآخذ إذ يشكك المؤلف عن طريق جملة اعتراضية في صحّة الأحرف التي أهملت وفصاحتها؛ وأخيرا نصل إلى المسند الذي يدعم كلّ ذلك لاختصاره بالنسبة إلى المسند إليه اختصارا يهدف إلى التنويه بتوفيق سيبويه والدعوة إلى الكف عن انتقاده.

---

40) نفسه، III، ص. 186.

إن هذه الجملة تذكر بما تختم به عادة الخطب البليغة، والمرافعات البارعة من كلام متسلسل يمتدّ بقدر ما يمتدّ النفس وينتهي بانتهائه؛ فجملة ابن جني هذه تبدأ كأنها بسيطة، وتتصاعد كما يتصاعد الصوت، وتتسع فتتسلسل مقاطعها، وتتفرّع مركباتها، وتتلاحق مفاصلها، وتتزاحم ألفاظها، وتبلغ قمتها قبل أن تنحدر شيئا فشيئا حتى تبلغ منتهاها عند إصدار الحكم الذي لا يمكن أن يكون إلا قولا فصلا اعتبارا لكل ما سبق من ناحية، ولما يتسم به من الاختصار من ناحية أخرى.

كلّ هذا دليل على عناية ابن جني بأسلوبه في كتاب الخصائص كلما انتقل من استعراض المعطيات ذات الصبغة الصرفية أو النحوية، والتذكير بالقواعد، ومقارنة الظواهر بعضها ببعض وتعليلها، إلى الحديث عن مكانة العربية، وجوانب عبقريتها، وفضل علمائها. فبواسطة ما يختاره من ألفاظ ليست مألوفة على لسان النحاة والعلماء عامّة، وما يركن إليه من استعمالات مجازية وصور بلاغية، وما يستعمله من سجع، وما يسعى إلى إقامته من توازن بين هندسة الجملة من ناحية والمحتوى الذي يريد الإقناع به من ناحية أخرى تنقلب كتابته كتابة أدبية ونثرا فنّيا لا شكّ في حرص صاحبه على التأنّق فيه.

عبد القادر المهيري
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات
جامعة منوبة

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 49 – 61

إشكاليّة اللهجات في المعجم العربيّ
المعجم الوسيط نموذجا

بقلم : عبد الغني أبو العزم

قد يبدو أنّ اللهجات المحلّيّة في عمومها تحتلّ وضعيّة شاذّة إذا ما قورنت باللغة العربيّة الفصحى، لكون هذه الأخيرة لغة عالمة، ولغة الصفوة والكتابة والتأليف والثقافة والصحافة. لكن، عندما يتمّ إمعان النظر عبر رؤية لسانيّة علميّة، فإنّ اللهجات المحليّة تتحوّل إلى لغات لها أنساقها وقواعدها وأحيازها الصوتيّة، حيث تنعدم المقارنة ولو مع وجود تقارب ألفاظهما، إذ أنّ كلّ لغة أو لهجة لها وظائفها وخصائصها، وهذا ما يلغي مفهوم التفاضل.

من هذا المنطلق يجد المعجماتي (lexicographe) نفسه في وضعيّة مريحة لكونه يتعامل مع المستعمل المفيد، وعلى قاعدة التواتر. إلا أنّ هذا لا يلغي وجود إشكالات حقيقيّة في مجال التطبيقات المعجماتيّة(pratiques lexicographiques) على قاعدة مدوّنة لغويّة معتمدة، حيث تصبح عمليّة انتقاء المداخل واختيارها لها ما يبرّرها، ومع ذلك لا يمكن إنكار وجود صعوبات جمّة في هذا الإطار.

ولإيضاح طبيعة هذه الإشكالات، سنتناول تجربة المعجم الوسيط[1] لبحث المعايير التي اعتمدت، والمقاييس التي نظر من خلالها إلى اعتماد مداخله، حيث سنكتشف خلطا وبلبلة وتشويشا بين الدخيل والمعرب والمولّد والمحدث، وما اصطلح عليه بـ"لفظ أقرّه مجمع اللغة العربيّة".

---

1) المعجم الوسيط أصدره مجمع اللغة العربيّة سنة 1960، وأشرفت لجنة على إنجازه مكوّنة من ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيّات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجّار. وقدّم له د. إراهيم مدكور. طبع طبعات متعدّدة، القاهرة، بيروت، الرياض، تركيا.

وفي ضوء تحليلنا لتجربة المعجم الوسيط نرمي إلى وضع معايير ومقاييس محدّدة للتعامل مع ألفاظ اللهجات المحلّيّة، ومع ما له قابليّة أن يصبح مداخل قائمة الذات ضمن المعجم العربيّ من منطلق إثرائه، والتأكيد أيضا على أنّ الاقتراض اللغويّ عامل من عوامل التطوّر اللغويّ، ولأنّ تداخل اللغات فرضته علاقات تاريخيّة وحضاريّة في ضوء الصراعات الدوليّة، قديما وحديثا لتلبية حاجيات الإنسان وللتعبير عن المحدثات والمستجدّات.

لا شكّ أنّ التعامل اللغويّ مع اللهجات العاميّة يأخذ بعدا مغايرا في مجال صنع معجم عربي، ويطرح بذلك إشكالات منهجيّة. وهذا بالتحديد ما واجهه المعجم الوسيط، إذ سنجده محتشما في تعامله مع ألفاظ اللهجة العاميّة، فلم يستطع تحديد معالمها وأوجهها مع ورود العديد منها بصيغ مختلفة، ولقد تجنّب الإشارة إليها، إذ اعتبر أغلبها مولّدا أو معربا أو دخيلا، أو من وضع المجمع واقتراحه، وهذا ما توضّحه الرموز التي استعملتها لجنة المعجم على الشكل التالي :

(مو) : للمولّد وهو اللفظ الذي استعمله الناس قديما بعد عصر الرواية.

(مع) : للمعرّب وهو اللفظ الأجنبيّ الذي غيّره العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب.

(د) : للدخيل وهو اللفظ الأجنبيّ الذي دخل العربيّة دون تغيير كالأكسجين والتليفون.

(مج) : للفظ الذي أقرّه مجمع اللغة العربيّة.

(محدثة) : للفظ الذي استعمله المحدثون في العصر الحديث وشاع في لغة الحياة العامّة[2].

وواضح من هذه الرموز من حيث الشكل أنّها لا تشير إلى وجود اللهجة العاميّة التي من المفروض أن تستقلّ بعلامة (عا) : عاميّة، ممّا يوحي بأنّ أصحاب المعجم تجنّبوا الإفصاح عنها ما داموا يشتغلون بالفصيح,, دون إبعاد المولّد والمعرّب والدخيل والمحدث، من منطلق أنّ المعاجم سواء منها القديم والحديث، قد وقفت باللغة عند حدود معيّنة من المكان والزمان لا تتعدّاها. فالحدود المكانيّة شبه جزيرة العرب والحدود الزمانية آخر المائة الثانية من الهجرة لعرب الأمصار , وآخر المائة الرابعة لأعراب البوادي . وكما جاء في مقدّمة الوسيط : "ومعظم هذه المعاجم قد تصوّنت عن إثبات ما وضع المولّدون والمحدثون في الأقطار العربيّة من الكلمات والمصطلحات والتراكيب، حتّى قرّ في نفوس الدارسين أنّ اللغة قد كملت في عهد الرواية واستقرّت في بطون هذه المعاجم" [3].

---

2) م.ن.س.ص.16.
3) م.ن.س.مقدّمة الطبعة الأولى، ص.11.

وواضح من هذا الكلام الموافق في رؤيته لما ينبغي أن يكون عليه المعجم العربي الحديث، حيث تمّ التأكيد في هذا الصدد على أنّ العرب لمّا أرادوا مسايرة ركب الحضارة والمشاركة في تحصيل العلوم والفنون " لم يجدوا من اللغة المأثورة المحصورة القدرة على التعبير عن أكثر ما يريدون أن ينقلوا من علوم أو فنون، أو ما يستعملون من أدوات وآلات، أو ما يتداولون من سلع وعروض، أو ما يتّخذون من أثاث وفراش، أو ما يلبسون من حلي وثياب، أو ما يركبون من بواخر وطائرات " [4].

لا شكّ أنّ هذا التوجّه تفرضه الاستراتيجيّة المعجماتيّة، ويدخل في صلب ما ينبغي أن يكون عليه المعجم، ويساير القرارات المجمعيّة التي تمّ اعتمادها، وقد تمحورت حول أربعة أركان أساسيّة :

1. فتح باب الوضع للمحدثين بوسائله المعروفة من اشتقاق وتجوّز وارتجال،
2. إطلاق القياس ليشمل ماقيس من قبل وما لم يقس،
3. تحرير السماع من قيود الزمان والمكان، ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع، كالحدّادين والنجّارين والبنّائين وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات،
4. الاعتداد بالألفاظ المولّدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة عن القدماء [5].

لا شكّ أنّ هذه القرارات تشكّل حدثا وثورة في مجال الصناعة المعجماتيّة. وإذا أردنا إخضاعها للتمحيص والتحليل من أجل إدخالها في حيّز التطبيق، فإنّنا نجدها بداية تفتح أبواب اللغة على مصاريعها للتعامل مع ألفاظها، إذ تقرّ :

أوّلا - التجوّز والارتجال، بمعنى إجازة اللفظ المتداول بغضّ النظر عن مدى خضوعه او عدم خضوعه للقوالب اللغويّة كما تصوّرها الأقدمون، وما تمّ ارتجاله في الحياة العامّة، ويعد القول" بإطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس"، تأكيدا لمقولة "فتح باب الوضع للمحدثين"، بالإضافة إلى القول "بتحرير السماع من قيد الزمان والمكان"، والتعامل بصيغة إيجابيّة بما يروج بين أرباب الصنائع والمهن.

ثانيا - وضع الألفاظ المحدثة والمولّدة على قدم المساواة بالألفاظ المأثورة عن القدماء، لكونها ألفاظا حقّقت مشروعيّة تداولها، لأنّ كلّ عصر باعتبار

---

4) م.ن.س.ص.

5) م.ن.س.صأ. 12.

التطوّر الحضاريّ والتكنولوجيّ له لغته المتداولة التي يجب أن تجد صداها في معاجمه دون أيّ تردّد أو احتشام، ودون تفريط في اللغة المأثورة التي تزخر بها كتب الأدب والثقافة والدراسات العلميّة والفلسفيّة والفقهيّة على اختلاف مشاربها.

فإلى أيّ حدّ استطاع المعجم الوسيط تطبيق قراراته، وإدخال مجمل الألفاظ المحدثة أو المولّدة أو الدخيلة ضمن مداخله، وكيف تمّ إبرازها والتعامل معها.

يلاحظ فيما يخصّ اللهجة المحلّيّة، أنّ معجم الوسيط لم يورد أيّ رمز من رموزه المشار إليها أعلاه، إذ تجنّب رمز (عا) الذي يدلّ على أنّ اللفظة عاميّة، إذ اكتفى برمز (د) الذي يدلّ على أنّ اللفظة دخيلة، مع العلم أنّ الدخيل أنواع : منه ماجاء عبر لغات أجنبيّة احتكّت بها اللغة العربيّة، والدخيل في بعض الحالات يصير معرّبا، إذ لا يقف فقط عند القول" ما تمّ تغييره بالنقص أو الزيادة أو القلب"، وما يقال عن المحدثات وشاع في لغة الحياة العامة، فهو بدوره بحاجة إلى تمحيص، إذ قد يعتبره البعض دخيلا أو عاميّا أو معربا، وهذا ما يطرح إشكالا حقيقيّا على كلّ معجماتيّ.

وإذا أردنا تدقيق القول في طبيعة هذا الإشكال، نورد المداخل التي اعتبرها معجم الوسيط دخيلة :

- الآس : شجر دائم الخضرة (د)
- أبرشيّة : منطقة من البلاد تخضع لسلطة أسقف.(د)
- إبْليز : الطين الذي يخلّفه نهر النيل على وجه الأرض بعد ذهابه.(د)
- الأجَنَة : أداة من الحديد الصلب تستعمل في كسر الأجسام الصلبة.(د)
- الإردواز : حجر صلصاليّ، ذو لون أدكن يضرب إلى الزرقة أو الخضرة ويستعمل في سقوف المنازل، ويتّخذ منه ألواح للكتابة، كما تصنع منه أحيانا أنابيب المياه.(د)
- الآريّ : الآريّ (ج) أواريّ. والجنس الآريّ : جنس تجمعه بعض الخصائص اللغويّة والجنسيّة، بعضه في الهند وإيران وبعضه في أوربّة.(د)
- الإسطبل : الأعمى، خاطب بها الشريف المرتضى أبا العلاء في بغداد.(د)
- اسمنجون : اللون الأزرق الخفيف والنسبة إليه أسمنجونيّ.(د)
- الأطلس : مجموع مصوّرات جغرافيّة وأطلقه القدماء على شمالي إفريقية، وصوّر حديثا على هيئة جبّار يحمل السماء أو الكرة الأرضيّة.(د)
- الأُقّة : ثِقَل قدره أربعمائة درهم، أو ثمانية وأربعون ومائتان وألف جرام وقد بطل استعماله في مصر (ج) أُقق.(د)

- الألمِنيوم : معدن خفيف أبيض، فضّيّ رنّان، قابل للطرق والسحب والصهر، لا يصدأ في الهواء، ويضاف إلى النحاس لعمل سبيكة تشبه الذهب، ولخواصه الكثيرة يستعمل في كثير من الأغراض.(د)

- الأمبير : الوحدة الفعليّة من قوّة السيال الكهربائي.(د)

- الأنتمون : هو الإثمد كما في معجم (Webester) (دون رمز)

- أوزيريس : معبود من معبودي المصريّين القدماء وهو عندهم حامي الموتى.(د)

- البخت : الحظ.(د)

- البَدرون : بيت تحت الأرض للسكنى والخزن (عربيّته السرّب).(د)

- البرشام : غُلُف تحشى أدوية.(د)

- البرواز : ما يحيط بالشيء (عربيّته إطار)(د)

- البسبوسة : حلوى تتّخذ من دقيق البرّ والسكّر والسمن(د)

- البَسْطِرمة : لحم هشّة تُتّخذ من بيض وسكّر وقليل من الدهن (د)

- بقلاوة : فطير يتّخذ من رقائق يحلّى وقد يحشى(د)

- البندر : يطلق على البلد الكبير يتبعه بعض القرى(د)

- الترباس : مزلاج من حديد يغلق به الباب من الداخل(د)

- الترمُس : زجاجة عازلة تحفظ على السائل حرارته أو برودته.(د)

- التنس : لعبة كرة تكون غالبا بين لاعبين، تفصل بينهما شبكة، ويتقاذفان الكرة بمضربين(د)

- الدستة : حزمة ونحوها تجمع اثني عشر فردا من كلّ نوع(د)

- السوبية : شراب يتّخذ من الرزّ ويخمّر قليلا ويسكّر، وكثيرا ما يشربه أهل مصر(د)

- الشيشة : النارجيلة التي تستعمل في التدخين لأنّ بطنها من الزجاج (د)

- الغجر : قوم حفاة منتشرون في جميع القارات، يتمسّكون بعاداتهم وتقاليدهم الخاصّة، ويعتمدون في معيشتهم على التجارة (د)

- الكازوزة(انظر قازوزة) (د)

- الكوسة : نوع صغار القرع، من الفصيلة القرعيّة، تطبخ ثماره (د)

كلّ هذه الألفاظ يتداخل فيها ما هو عاميّ، وماهو دخيل، وما هو معرّب، إذ أنّ أغلبها تمّ اقتراضه من لغات أجنبيّة، منه ما احتفظ بأصله دون تغيير، ومنه ما لحقه تغيير واضح، ومنه ما استعمله القدماء في كتبهم وأشعارهم.

وسأكتفي هنا ببعض النماذج لأوضـّح التداخل والخلط والتشويش الذي لحق العديد من مداخل الوسيط التي أعدّها دخيلة ممّا يجعل قارئه بعيدا لا عن فهم مدلولها بل عن طبيعتها ولماذا اعتبرت دخيلة، مع ما يحيط بها من التباس، كما سأوضـّح المعايير والمقاييس التي من المفروض اعتمادها للتمييز بين طبيعة الألفاظ في ضوء أصولها التاريخيّة في تطوّرها من حيث الصوت والكتابة والقوالب اللغويّة.

فالآس ليست كلمة دخيلة بل معربة من أصل آراميّ وعبريّ وسريانيّ وهي في الأكديّة. وما يؤكّد تعريبها ورودها بكثرة في الشعر العربيّ :

ألوى بقلبك من غصون الناس　　غصن يتيه على غصون الآس (ابن الرومي)

ويدخـــــل الآذان من أمســـه　　من تحـــت إكليـل من الآس (ابن المعتزّ)

نور العَـــرارة نوره ونسيمــه　　نشر الخُزامى في اخضرار الآس (أبو تمام)

هذا بالإضافة إلى ورودها في شعر أبي نواس والبحتري والمتنبّي وغيرهم كثير.

ويدخل في هذا السياق المداخل الآتية : الأبرشيّة والأطلس والأقة والبخت والبرشام والغجر. فهي بدورها يمكن اعتبارها معربة لكون أغلبها أُدْخل في قالب لغويّ عربيّ وانفصلت عن أصولها.

كما يبدو الخلط والتشويش في المداخل التالية : بسبوسة وبسطرمة وبقلاوة والشيشة والكوسة، حيث يلاحظ عدم تطبيق القرارات المشار إليها بوعي تاريخيّ لغويّ، فهي بدورها يصعب اعتبارها دخيلة، وتدخل ضمن اللهجة العاميّة ما دامت متداولة فيها لعلاقتها المباشرة باللغة العربيّة. وأشير إلى أنّ المداخل إذا كانت أسماء أعلاما لا يمكن اعتبارها دخيلة، مثال "أوزيريس من معبوديّ المصريين القدماء" إذ لا علاقة له بسياق اللغة، لأنـّه مرتبط بثقافة شعب وحضارته، ومستقلّ بذاته ولم يتمّ إدخاله إلا بسبب تداوله.

ولا يقف الإشكال عند ما اعتبره معجم الوسيط دخيلا بل يمتدّ إلى ما أشير إليه بالمولـّد والذي تمّ تحديده بأنـّه "اللفظ الذي استعمله الناس قديما بعد عصر الرواية" .

وهذه نماذج منها :

ـ البصارة مطبوخ متـّخذ من جريش الفول والملوخيّة والنعناع وبعض الأفاويه.(مو)

ـ الأحدوثة : الحديث المضحك أو الخرافة.(مو)

- الحرامي : اللصّ (مو)

- الحوذيّ سائق السيّارة (مو)

- المشبّك : نوع من الحلوى على هيئة أنابيب متشابكة.(مو)

- عيّط :بكى (مو)

- الفتـّة : الثريد(مو)

- الفدّان : مقدار من الأرض الزراعيّة تختلف مساحتها من البلاد العربيّة(مو)

- المفروكة : طعام لأهل مصر يتـّخذ من فطير الذرة يفرك ويغطـّى باللبن والزُبْد(مو)

- الفسيخ : ضرب من السمك المملوح يترك حتـّى يتفسّخ (مو)

- الفطيرة : خبزة تـُؤدم بزُبْد أو نحوه ولها أنواع (مو)

- القهوة : مكان عامّ تقدّم فيه الأشربة ونحوها (مو)

الكـُبيْبة : لحم يُدقّ ويضاف إليه جريش الأرز أوالقمح، يكبّب ويطهى (مو)

- الإكراميّة : العطيّة (مو)

- الكسكسي : طعام لأهل المغرب يتـّخذ من طحين البرّ المفروم، وينضج على البخار (مو)

كلّ هذه المداخل، خرجت من صلب حاجيات اللغة العاميّة، منها ما يرتبط ارتباطا خفيفا وشكليّا ببعض معاني اللغة الفصيحة ولو بتعسّف. وعلى سبيل المثال بصارة التي نجدها في اللهجة المغربيّة دون إضافة الملوخيّة والنعناع، لا وجود لها باللغة العربيّة الفصيحة، ولا في لغة المولـّدين القدماء، ويقال بأنـّها مأخوذة من "البصرة" الطين العلك، لأنّ الفول عندما يطبخ يصير شبيها به، أو بصّر اللحم تبصيرا قطـّع كلّ مفصل وما فيه من اللحم، ولأنّ الفول يذوب بفعل حرارة الطبخ. ومع كلّ هذا التشابه من باب الاشتقاق فإنّ لفظة "بصارة" ترتبط بإنتاج لغويّ عاميّ بامتياز، والبحث التاريخيّ اللغويّ من شأنه أن يحدّد الفترة الزمنيّة التي ظهرت فيه لفظة بصارة، وهذا ما ينسحب أيضا على لفظة "الكسكسيّ" المتداولة في المغرب الأقصى باسم "كـُسكـُسو". وليست الكسكسي كما جاءت في معجم الوسيط. ويمكن تعريفها معجميّا كما يلي : طعام يحضّر بالدقيق المفتول حبوبا صغيرة، وتترك تحت أشعّة الشمس لتصير يابسة، وهذا الطعام أمازيغيّ، وبذلك فإنّ اللفظة أمازيغيّة وقد تدوولت قبل العصر المرابطي، وقد عثرنا عليها في مخطوط قمنا بتحقيقه تحت عنوان : "**أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة**"[6]، وقد

---

6) أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، تحقيق عبد الغني أبو العزم، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات،ط1،2003،الرباط.

وردت في وصفتين : كسكسو بفتات خبز الدرمك، والكسكسو الفتياني (ص158)، ومن لفظة الكسكسو جاءت لفظة الكسكاس

يمكن القول إنّ اللفظة لها أصل عربيّ "كسّ الشيء يكُسّه كسّا، أي دقّه دقّا شديدا كالكسكسة"، جاء في مناقب أبي يعزى "يطحن ويعجن ويكسكس، أي يفتل باليد، وخبز كسيس ومكسكس أي مكسور، والكسيس لحم يجفّف على الحجارة، فإذا يبس دقّ فيصير كالسويق، وسمّي به لأنّه يُكسّ، أي يُدقّ، والكسيس الخبز المكسور كالمكسوس والمكسكس".

ولقد أورد الزبيدي في تاج العروس ما يلي : "ويلحق هذا الباب شيء يتّخذه المغاربة من الدقيق ويسمّونه "الكسكسو" وقد ذكره الحكيم داود في التذكرة، وذكر خواصّه، وله وجه في العربيّة بأن يكون مشتقّا من الكَسّ، وهو الدقّ الشديد أو من الكسكسة.

والكسكاس : الرجل القصير الغليظ، وهذا يمكن القول إنّ شكل الكسكاس يشبه الرجل القصير الغليظ. ولكنّنا نحن أمام لفظة الكُسّ بالضمّ وتمّ تأكيدها بلفظها وصارت كُسكُس. وإذا ما عدنا إلى المعاجم العربيّة نجد فيها ما يلي : اسم للحر، أي الفرج من المرأة، وهذه الكلمة مولّدة من أصل فارسيّ "كوز" مع العلم أنّ هناك من يعتبرها عربيّة، وهذا ما ذهب إليه أبو حيّان وأنشد قول الشاعر :

يا عجبا للساحقات الدّرس والجاعلات الكسّ فوق الكس

وكما وردت في شعر لسان الدين الخطيب :

وقالت حلقت الكسّ منّي بنَوْرة فقلت لها استنصرت من ليس ينصُر
ألا فابلغي عنّي فديتك واصدقي محلّق ذاك الكسّ أنّي مقصّر

وهذا ما دعا أحد الظرفاء للتلاعب بلفظ الكسّ بقوله :

زرتها في دامس والليالي مورفه
قلت هل من أكلة ؟ فأجابت مسعفه
إنّ عندي كسكسا صنع أهل المعرفه
قلت هات نصفه وعليّ المغرفه

لقد أوردنا لفظ "الكسّ" من باب الاشتراك اللفظي لاغير، لنقول بأنّها من عاميّة المولّدات. وعلى عكس الأحدوثة والحرامي والحوذي والمشبك، نجدها

خضعت لاشتقاق تلقائي وعفويّ ممّا يجعلها ضمن عاميّة المولّدات. فالمشبّك على سبيل المثال نوع من الحلوى على هيئة أنابيب متشابكة. وأهل المغرب يطلقون على هذا النوع من الحلوى "الشباكيّة" وقد وردت في مخطوط "**أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة**" [7] بمعنى أنـّها تدوولت في المرحلة الأندلسيّة. وأشير إليها في ذات المخطوط بـ" الزلابية". والزلابية حسب الزبيدي في تاجه "حلوى". وقد اختلف في عربيّتها، فالخفاجي اعتبرها مولـّدة، وقيل إنـّها عربيّة لورودها في رجز قديم :

إنّ حري حزنبل حزابية — إذا جلست فوقه نبا بيه
كالسكَب المحمرّ فوق الرابية — كأنّ في داخله زلابيه

كما أوردها ابن الرومي، إذ يقرّبنا إلى معناها، أي أنّها كانت حلوى تقلى في رقة التجويف كالقصب.

رأيته سحرا يقلي زلابية — في رقة القشر والتجويف كالقصب

وبذلك نعتبر الشبكيّة والمشبك من عاميّة المولـّدات.

وينطبق التحليل نفسه على ما اعتبره الوسيط محدثا، فهذا المحدث منه ما اشتق اشتقاقا عفويا وتلقائيا مثل :

- بطّط العجين : بسطه ومدّه من بطّه يبُطـّه شقـّه، بحّه.
- حمّر اللحم : قلاه بالسمن ونحوه حتـّى احمرّ.
- حاش اللصّ : منعه وأمسكه، من فعل حاش يحوش، حاش الصيد يحوشه حوْشا وحياشا : جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة.
- المدمّس : الفول المدمّس المنضج في قدر مغلقة. من دمَس يدمِس ويدمَّس اشتدّ وقيل دامس إذا أظلم، إذا اختلط ظلامه. ودمسه في الأرض إذا دفنه وخبّأه، أي أنّ الفول يدفن ويخبّأ في ظلمة القدر.
- الملبّس : لوزة ونحوها تغشى بطبقة يابسة من الحلوى، وهي بدورها ليست محدثة، إذ تمّ اشتقاقها من لبس : تلبّس الطعام باليد :التزق. ولباس النوْر : أكمّته، ولباس كلّ شيء غشاؤه، وليس من الضروريّ أن تعتبر محدثة.

ومنه ما خضع للقلب والتغيير ويصعب اعتباره محدثا، مثل :

---

7) م.ن.س.ص.199.

- الكشَـرِي : طعام يصنع من الرز والعدس مقشورا وغير مقشور، الكلمة جاءت من قشَـر : قرص بلبن قِشْرِيّ، وفلان يتفكّه بالمقشّر، أي أنّ الكلمة أحدث فيها قلب، إذ صارت القاف كافا، ممّا يجعلنا نعتبرها من عاميّة المولّدات.

- خرسانة : خليط من الاسمنت وصغار الحجر، والكلمة من أصل "خارصيني" معناه حجر صيني، و"خارا" في الفارسيّة معناها حجر صلب، أي أنـّها دخيلة إلا أنـّها عرّبت، وليست محدثة.

- الفريك : البرّ يشوى أوّل نضجه ثمّ ييبّس ويجشّ ويطبخ، وهذه الكلمة اعتبرها الوسيط محدثة، وليست كذلك.

جاء في تاج العروس الفريك طعام يفرك ويلتّ بسمن وغيره وهي المفروكة، لوز فِرك يتفرّك قشره. كلّ ما هنالك أنّ الوجبة تغيّر تحضيرها.

لا تقتصر هذه الملاحظات المقتضبة على ما اخترناه من ألفاظ، إذ يمكن تعميمها لكونها ترتبط بالمنهجيّة التي اعتمدها معجم الوسيط. وهذا ما يقودنا إلى ضرورة اعتماد معايير موجّهة، ومقاييس محدّدة للتعامل مع مداخل المعجم بصفة عامّة، وما له علاقة بالمعربات والمولّدات والعاميّات، بصفة خاصّة، ممّا يدعو إلى إخضاعها للتدقيق التاريخيّ وتطوّرها، وللتمحيص في أصواتها والشروط التي أنتجتها.

عندما دخلت اللغة العربيّة إلى الأقطار التي اعتنقت الإسلام اختلطت بلغة أهاليها. وأدّى هذا الاختلاط إلى نشوء عاميّات عربيّة دون التخلّي عن تراثها اللغويّ الذي بقي مترسّبا في الذاكرة, وكانت أقطار أخرى حافظت على لغاتها الأصليّة، ويلاحظ أنّ أغلب العاميّات العربيّة تكوّنت من صلب اللغة الفصيحة، ومنها ما حافظ على القوالب الصرفيّة، ومنها ما لحقه تغيير أو قلب، ومنها ما أبدعه الخيال الشعبيّ تحت ثقل ضرورة الاستعمال.

وليس بالضرورة إدخال كلّ مفردات اللهجات المحلـّيّة إلى معجم اللغة العربيّة الفصيحة، إذ لا بدّ من إخضاعها إلى معيار التواتر المكثـّف، سواء في الحياة اليوميّة أو النصوص الأدبيّة، ممّا يحقـّق شرعيّتها اللغويّة لتصبح ضمن مداخل المعجم اللغويّ الفصيح. ولقد اعتمدت شخصيّا هذه المنهجيّة في معجم الغنيّ الذي أصدرته شركة صخر في قرص، أو معجم الغنيّ المشمول الذي نحن بصدد إنجازه وهذه نماذج منه.

- برّاد : ج. براريد.(معع).(أي معربة عاميّة).1. :إناء من معدن، يحضّر فيه الشاي بالمغرب. "يصبّ الشاي من البرّاد". 2.جهاز آليّ للتبريد.برّادة*.

- بردقوش : (عا).(نب). : نبات من فصيلة الشفويّات، عطريّ الرائحة، يشبه السعتر، يستخدم كتابل، يعرف بمردقوش.

- بُرزُقة :ج.برازيق.(عا) : كعك يهيّأ بالسمسم.

- بسباسيّة : (طخ).(عا). : طبيخ يحضّر باللحم والأفاويه وعيون البسباس.

- بستوني : (عا). : خاصّ بورق اللعب.

بلطجة : (عا). : خلق حالة من الفوضى بعنف واقتتال.

- بلطجيّ : (عا). :ج.ـون،ـات. 1. : من يهيّئ الطريق للجيش وقطع الأشجار لتسهيل مروره. 2. : مدبّر الفتن والاقتتال وخلق حالات الشغب والعنف.

- بندير : ج. بنادير : (عا). :آلة موسيقيّة شعبيّة يضرب عليها بالكفّ، وهي عبارة عن إطار خشبيّ مدوّر يشبه الدفّ إلا أنّه أكبر منه.

- بوز : ج. أبواز : (عا). :فم وما حواليه.

درابزون : ج. ـات. (د).(معع). من أصل يونانيّ () منحوتة، بمعنى ذات أربع قوائم، وانتقل استعمالها من التركيّة (طرابزان) إلى العربيّة لتؤدّي معنى حاجز من الشبّاك : شبّاك من خشب أو معدن على شكل قوائم توضع حواجز في مقدّمة الغرف بالطابق الثاني من الدور التقليديّة. "حطّمت قراميد أسطح ونفذت من الدرابزون منزلقا على السارية إلى قعر الدار" (بنسالم حميش).

- درابزين :ج. ـات. درابزون*.

- دربوز : ج. درابيز. (معع).ن. درابزون. شبّاك. "يصهل من وراء الدربوز موجّها الأوامر إلى من يتلكّأون أو يتباطأون"(محمد برّادة).

يعدّ تواتر الألفاظ واستعمالاتها اليوميّة أحد المعايير الأساسيّة المعتمدة في المنهجيّة المعجماتيّة. وهذا يتحكّم في قبول العديد منها ضمن مداخل المعجم، وما دمنا نتحدّث عن اللهجات العربيّة، يمكن أن نشير في هذا الصدد أنّ المعاجم الأجنبيّة والفرنسيّة بالأخصّ، لم تتردّد في إدخالها إلى لغاتها وقد أضحت جزءا منها ومتداخلا فيها، وعلى سبيل المثال نورد ما جاء في معجم (Le petit Robert) [8] أغا (agha) كسكوس (couscous) غندورة (gandoura) برنس (burnous) بلد (bled) وكيف كيف (kif kif) مهبول (maboul) . ناهيك أنّ

8) Le Robert ,Dictionnaire analogique de la langue française par Paul Robert , Paris .
A .Rey, *Etudes Lexicographiques,* Les traces de la langue arabe dans le vocabulaire du français vivant, les Chemins Méditerranéens, n°1, Rabat, 2002, p.5-11.

العديد من الألفاظ العربيّة التي تزخر بها اللغتان الإسبانيّة [9] والفرنسيّة سواء في مجال الملابس والموسيقى والفقه والفلسفة والحساب والجغرافية والكيمياء والنبات، وآخر هذه الألفاظ انتفاضة (intifada) لكونها أضحت متداولة في صحفها وكتبها ونشراتها الإخبارية.

ونشير هنا عرضا أن الأجانب اهتمّوا باللهجات العاميّة منذ بداية القرن الثامن عشر وألّفوا معاجم في هذا المجال [10]، كما نجد باحثين عربا بدأوا بدورهم

---

9) انظر على سبيل المثال أحمد المكناسي، معجم الكلمات الاسبانيّة المقتبسة من العربيّة، دار كريماس للطباعة، 1963.

10) VAUJANY,H.DE , *Vocabulaire français-arabe* ;dialecte vulgaire de l'Egypte, avec la prononciation figurée, rev.et corrigée par M.Radouan , Le Caire, Imprimerie Nationale de Boulaq,1884,320 p.

MARCEL J.J. (1776 -1854),*Dictionnaire français-arabe des dialectes vulgaires d'Algérie, de Tunisie, du Maroc et de l'Egypte,5e ed.* ,Paris, Maisonneuve , 1885, XIV,584 p.

NODEN E. , *Vocabulaire français- arabe :dialecte vulgaire de l'Egypte, avec la prononciation exprimée en caractère français,* Alexandrie, Imprimerie du Phare d'Alexandrie,1844,VIII,162p.

CHERBONNEAU J.A. (1813-1882), *Dictionnaire français-arabe pour la conversation en Algérie* ,Paris, Imprimerie Nationale, 1872, XXIII,629p.

BARTHELEMY A. (1859-1949), *Dictionnaire arabe- français et dialectes de Syrie :Alep, Damas ;Liban ;Jérusalem.* Paris, Librairie Orientaliste Paul Gueuthner, 1935-1954, 5 pts.

CANTINEAU J. (1899 – 1956), *Le dialecte arabe de Palmyre,* Beyrouth, 1934, 2 vols. (Mémoires de l'Institut Français de Damas) T.I : Grammaire. T.II :Vocabulaire et Textes.

BEAUSSIER M. (1887), *Dictionnaire pratique arabe-français contenant tous les mots employés dans l'arabe parlé en Algérie et en Tunisie, ainsi que dans le style épistolaire,* nl.éd. rev. cor. et augm. Par M. BEN CHENEB. Alger, La Maison des Livres,1958,8, 1093 p.

BEN SEDIRA B. (1845- 1901), *Petit dictionnaire arabe-français de langue parlée en Algérie, contenant les mots et les formules employés dans les lettres et actes judiciaires,* Alger, Jourdan, 1902, XII, 608 p.

MERCIER H. , *Dictionnaire arabe –français,* Rabat, ed. La Porte, 1945. V, 413p. (His : Méthode moderne d'arabe parlé marocain).

DENIZEAU C.,*Dictionnaire de parlers de Syrie, Liban et Palestine ; supplément au dictionnaire arabe-français de A. Barthelemy,* Paris, éd. Maisonneuve , 1960, XIII, 563p

معجم كولان للعاميّة، إشراف زكيّة عراقي سي ناصر، دار المناهل، وزارة الشؤون الثقافيّة، الرباط، 1993.

ونشير هنا إلى صدور عدد من معاجم اللهجات العربيّة في السنوات الأخيرة، مثل :

معجم الألفاظ العاميّة في دولة الإمارات العربيّة المتحدة، لصاحبه فلح حنطل، يوجد في موقع شبكة الم الإمارات؛ ومعجم اللهجة السوريّة، ناهيك عن معاجم الأمثال العاميّة.

يؤلّفون معاجم وأبحاثا تعتمد المقارنة وبحث تطوّر دلالات العديد من ألفاظها ويشكّل كتاب "**القبطيّة العربيّة**" [11] د. علي فهمي خشيم مدخلا للبحث الإتيمولوجي لإبراز أصولها وعلاقتها باللغة العربيّة، ونودّ أن نؤكّد في الأخير أنّ البحث اللهجي اللساني يعدّ من الدراسات التي من شأنها تطوير اللغة العربيّة، لأنّ أيّ لهجة من اللهجات العربيّة ما هي إلا انبثاق من اللهجات العربيّة القديمة، وقد خضعت لآليات التطوّر والتكيّف مع الزمان وأوضاعه وأحداثه ومستلزماته، وبذلك نعتبرها رافدا من روافد اللغة العربيّة الفصحى.

عبد الغني أبو العزم
جامعة الحسن الثاني
كلية الآداب – الدار البيضاء

11) علي فهمي خشيم، القبطيّة العربيّة، دراسة بين لغتين قريبتين شقيقتين، مركز الحضارة العربيّة، ط1، القاهرة 2003.

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 63 – 91

النّصوص النّظريّة ومسؤوليّة المترجم[1]

بقلم : حمّادي صمّود

الترجمة مشغل يهم كل الثقافات وإشكال يواجه كل اللغات. فما من ثقافة مهما بلغ أهلها من مراتب العرفان والسؤدد إلا وهي محتاجة إلى ترجمة ما لغيرها إلى لغتها، تقضي به مآرب شتى ليس الفضول والرغبة في الاطلاع أقلها شأنا، متى كانت روح تلك الأمة متحفّزة، وسلطان المعرفة في ربوعها قائما.

لذلك تجد الحديث عن إشكالاتها مصاحبا لممارستها بكل عصر ومصر. هكذا حدثتنا المؤلفات التي تناولت تاريخها عما لقيه الرومان من صعوبات في ترجمة المؤلفات القديمة والرسائل الموضوعة باللاتينية في قواعد الترجمة وسبل التغلب على ما يعترض المترجمين من صعوبات كثيرة. وأقرب منا وإلينا ما بلغنا عن حرص العرب الأوائل، زمن المد الحضاري، على الترجمة، واشتهار مراكز بعينها بهذا النشاط، واختصاص عائلات معروفة كانت تنتقل إليها هذه القدرات بما يشبه الوراثة. فمنها ما اشتهر بالنقل من السرياني إلى العربي، ومنها ما كان ينقل النص رأسا من اليوناني إلى العربي دون حاجة إلى وسيط . ومنذ وقت مبكر انتبهوا إلى صعوبات الترجمة، وبسطوا القول في شرائط الترجمان، ولم يكتفوا من تلك الشرائط باتساع المعارف وحذق الألسنة التي يترجم منها وإليها، وإنما ألحوا على الشرائط الأخلاقية، وجعلوا الأمانة في المحل الأرفع منها.

هكذا كان شأن الأعاجم في القرون الوسطى وقبيل عصر النهضة عندهم، عندما أقبلوا على العلوم العربية الإسلامية ينقلونها وعن طريقها ينقلون ما لم

1) بحث غير منشور أعدّه صاحبه للحلقة البحثية حول "قضايا الترجمة وإشكالاتها" التي دعا إليها المجلس الأعلى للثقافة بمناسبة صدور الكتاب عـ250ـدد ضمن سلسلة المشروع القومي للترجمة. وقد انعقدت هذه الحلقة بالقاهرة من 28 إلى 31 أكتوبر 2000.

يهتدوا إليه من تراث يونان . وتحتفظ المكتبات، عن هذه الفترة، برسائل موضوعها الترجمة وطرقها والأساليب التي يجب أن تُتوخّى في نقل العلوم، عدا ما نعرف عن حرصهم على إنشاء المعاهد لتخريج المترجمين وتعليمهم اللغة العربية وبعض اللغات الشرقية الضرورية.

ولم يتغير الوضع اليوم إلا بما يقتضيه تغير الأزمنة وتحول مركز ثقل الحكمة والمعرفة. فأنت واجد لكل اللغات، بما في ذلك اللغات المهيمنة، اهتماما بقضايا الترجمة وإسهابا في طرح إشكالاتها النظرية والفنية . تفننوا في ذلك وجوّدوا المبحث تجويدا أعان عليه تطوّر الدراسات اللغوية، وتعدد المناويل اللسانية التي دققت الوصف، وبسطت سلطة التفسير والتأويل، ووسّعت من إمكان حل المشاكل التي تقوم عند الترجمة. ففي الفرنسية مثلا تناولت عشرات الكتب مسألة الترجمة من زاويا مختلفة، وبعضها أصبح من كثرة تداوله معلما من معالم الاختصاص. فمَنْ مِنَ المهتمين بالترجمة من بين من يقرأ اللسان الفرنسي لا يعرف كتاب الأستاذ "**جورج مونان**" عن قضايا الترجمة النظرية ؟ ومن لا يعرف معاهد الترجمة وصعوبة المناظرة الموضوعة للالتحاق بها؟

مما تقدّم نخلص إلى أن الترجمة حاجة لا تستغني عنها ثقافة مهما هيمنت. لذلك ليست، في المطلق، عنصرا تصنيفيا به نميز بين الثقافات. وهذا يعني، بالاستتباع، أن الفرق في الحاجة إليها فرق كمي ونسبي، كمي لأنه متناسب والنقص الذي نريد سدَّه، ونسبي لأن الثقافات كأنها تنبني انبناء متعاظما كل أصل لشيء تبع لشيء أكبر منه. تفسير ذلك حاجة الثقافة الفرنسية اليوم في كثير من مجالاتها المعرفية إلى الترجمة عن اللغة الانجليزية إلى درجة أن كثيرا من الباحثين في فرنسا أصبحوا يميلون إلى النشر في المجلات العلمية المرموقة بالانجليزية. وحاجة الانجليزية إلى اللغة الألمانية في بعض الاختصاصات الدقيقة وكذلك حاجتها إلى الفرنسية أشهر من أن تعرَّف. ولستُ في حاجة إلى أن أتوسّع في ما فعل درّيدا في الأمريكان وبهم ؟ كذلك لا مناص للأمريكان رغم ما اشتهر عنهم من نزوع إلى النفعية من ترجمة معالم مدرسة كونستانس ومدرسة فرنكفورت.

إلا أنّ الأمر في تقديرنا لا يجري على الوتيرة نفسها عندما نقارن بين حاجات الثقافات ومنها ثقافتنا العربية. والكتب التي وُضعت لتحديد قضايا الترجمة النظرية أو اللسانية تهمنا، لا شك، وتفيدنا في تلك النواحي التي تثيرها لكنها قد تلهينا عن قضايا أخرى لم تطرحها لأنها لا تشعر بها أو لا تهمّها.

فنحن نعتقد أن حركة النصوص، والمقصود هنا النصوص العلمية والنصوص الفكرية النظرية، وانتقالها بين اللغات لا تتم بالسهولة ولا بالسيولة

نفسها ومردّ ذلك الفارق القائم بين جهات الانتقال ودوائره . والمقياس في رسم تلك الجهات والدوائر إنما هو التجانس أو عدم التجانس في أرضية معرفية حصلت بالتراكم والوقوع في دائرة الإنتاج العلمي والفكري . إن كل الدراسات تتفق على أن بين الدول الغنية المتطورة التي تسيطر على أكبر نسبة من الإنتاج في العالم في جميع المجالات، بما في ذلك المجال الثقافي، اشتراكا في أرضية معرفية هي الأساس الذي يبني حداثتها وما بعد حداثتها، وعليه تنوّع وتنتهج السبيل الذي يميزها بعضها عن بعض . لذلك كانت النصوص تنتقل بينها بسهولة يساعد عليها ذلك المشترك بينها، المتأتي من دخولها العصور الحديثة بنسق متقارب، وحرصها الشديد على ألا يتخلف أحدها عن الركب إلى غير رجعة، مع ما بين ألسنتها من صلات متأتية من انتمائها إلى العائلة اللغوية نفسها أو إلى عائلات متجاورة. إلا أن ذلك لم يمنع قيام مشاكل هامة ألّفت فيها الكتب وأنشئت من أجلها معاهد التكوين.

أما شأن النص ينتقل من دائرة إلى دائرة أخرى لم يتوفّر لها التراكم المعرفي الذي أشرنا إليه فشأن آخرُ فيما نقدّر، يزيد من صعوبة الترجمة ويوسّع من دائرة الإشكال فيتجاوز القضايا التقنية وحتى النظرية ليطرح قضية التفاوت الحضاري برمته . وتدعو الترجمان في هذه الحالة، إلى الإيفاء بشروط قياسية يقدر بها أولا على ردم الهوة الحضارية، وتلافي الفارق الواقع في الأرضية المعرفية، ثم تأتي بعد ذلك الإشكالية اللسانية والأوضاع الثقافية.

ولذلك كان لا بد في مثل هذه الحال أن تتوفّر سياسة كاملة للترجمة تقوم فيها المؤسسات العامة ذات الدعم الحكومي بدور هام لأنها قادرة على وضع برمجة تراعي الحاجات، وتستنفر، للقيام بعمل الترجمة، من تتوفّر فيهم الشروط المذكورة، على ندرة من تتوفّر فيهم، وأن تنظّم مجالسها العلمية بكيفية تضمن المراجعة الضرورية عند الاقتضاء، وتضمن، من ثم، للترجمة أن تؤدي ما هو مطلوب منها قوةَ دفع لكل استعداد متأهِّب للمعرفة والحوار والتجاوز.

ولقد قامت في كثير من البلدان العربية تجارب استبشرنا لانبعاثها، وأغرتنا طلائع ما أقدمت على ترجمته من نصوص مهمة أثّرت في الفكر العالمي تأثيرا عميقا، بالتفاؤل. واستبشرنا أكثر فأكثر عندما تحدّثت بعض المنظمات العربية أوّل انبعاثها عن استراتيجية كاملة لسدّ حاجاتنا إلى الترجمة إلا أن أغلب الجهود تقلّصت وتراجعت أو ذهبت أدراج الرياح وضيّعنا على أنفسنا فرصة لعلها لن تعود لنقل المعارف البانية لثقافة العصر نقلا عميقا أمينا وإعمال النظر فيها على بيّنة من أصولها البانية لها ونقدها متى تمكّنا من مضمونها الفكري.

وتأكيدا لما كنا قلنا من أمر الشرائط المجحفة التي يجب أن تتوفّر في الترجمان ولفت نظر المؤسسات إلى ضرورة إيجاد الحل الوسط بين سخاء الجهد

الفردي وعفويته، ومسؤولية المؤسسة تجاه القراء وتجاه الثقافة التي هي في خدمتها قمنا بمراجعة كتاب عن الأجناس الأدبية أصله بالفرنسية وقد ترجمه الأستاذ الدكتور أحمد درويش وهو أستاذ له مساهمات كثيرة في مجال الدراسات الأسلوبية والأدبية.

والكتاب الذي نبدي الرأي فيه هو الكتاب المنشور عن المجلس الأعلى للثقافة في نطاق المشروع القومي للترجمة سنة 1995 بعنوان **اللغة العليا** النظرية الشعرية لمؤلفه جون كوين (كذا) وقد ترجمه وقدّم له د. أحمد درويش. وقد صدر الكتاب في طبعته الفرنسية بباريس سنة 1979 عن مطابع فلامّاريون (Flammarion).

وعلى اختلاف الرأي في أهميته في الدراسات الشعرية المؤسِّسة المكتوبة بالفرنسية يُعدُّ مساهمة ذات بال في التنظير لقضايا الشعر وبناء نسق تطّرد أهليّته لتفسير ما به يكون الشعر شعرا وهو تعميق وتطوير لمحاولة سابقة أقدم أحمد درويش على تـرجــــمتها (1985) أي عشرين سنة تقريبا بعد صدورها (انظر المقارنة بينها وبين الترجمة المغربية : سعيد علوش: شعرية الترجمات المغربية للأدبيات الفرنسية، طنجة، 1991، ص ص. 339 – 361). ومعنى ما قلنا أنّ المترجم محقٌّ في ترجمة هذا الكتاب من جهتين لأهميته النظرية في ذاته ولأنه ثاني اثنين يترافدان في بناء النظرية.

واحتراما لجهد الترجمة واحتراما للكتاب رأينا أن نبتعد عن العموميات وأن نناقش الترجمة في كل المواطن التي يحصل منها للقارئ سوء فهم لأصول النظرية التي يعرضها صاحب الكتاب دون أن ندخل في تفاصيل المعنى وأناقة العبارة وبما أن هذا الحيز يضيق عن الجهد الذي بذلناه في قراءة كل الكتاب نكتفي بعرض ملاحظاتنا عن المقدمة النظرية التي وضعها جون كوهين وهي في الطبعة الفرنسية في ثمان وعشرين صفحة (28) من الصفحة 11 إلى الصفحة 38. وهي في الترجمة ثلاثون صفحة من صفحة 9 إلى صفحة 38 (2).

ونبدي الرأي في الترجمة على ترتيب الصفحات مشيرين إلى ما يعترض دون فهم النص أو يشوّش الفهم مقترحين كل مرة ترجمة أوّلية تحافظ على المعنى وصياغة المعنى دون أن تكون التي نرضاها لو كنا ترجمنا الكتاب ابتداءً.

---

2) وقد كنا اطّلعنا على ترجمة للكتاب الأول: "بنية اللغة الشعرية" وغضضنا الطرف عما فيه مراعاة لروح التطوع والمغامرة وقرأنا ترجمة الكتاب الثاني وجدنا فيها ما كنا وجدنا في الأولى فكتبنا هذا النص من باب لفت النظر والتنبيه على مواطن السقط والزلل لذلك أحجمنا عن نشره حتى رأينا طبعة منه ثانية في الأسواق وهي صورة طبق الأصل عن الطبعة الأولى فرأينا من واجبنا إطلاع الجمهور الأعظم على ما في هذه الترجمة من أخطاء لا تحصى وسوء فهم لجمل القضايا وتفاصيلها متأتّ من ضعف الزاد اللغوي من اللغة المترجَم عنها ضعفا لا يسمح بالخوض في مثل هذه القضايا.

p.11	ص. 9
(..) il faut alors qu'en tous les objets désignés par ce mot, il existe quelque chose d'identique, un ou des invariants sous-jacents qui transcendent la variété infinie des textes individuels.	فإنه ينبغي إذن أن يتواجد هذا المفهوم في كل الموضوعات التي تشير إليها هذه الكلمة وفي هذا الإطار يوجد تطابق في خاصة ما، ويوجد فارق أو فروق تتسرّب لكي تشفّ عن التنوع اللانهائي للنصوص

في هذه الترجمة وجوه عديدة من الخطإ تدعو إلى إعادة النظر فيها نكتفي منها بوجهين بارزين يتفاوتان بعدا عن النص إذ هما بين الخروج عن المعنى للخروج عن أصل البنية والتركيب والإتيان بضد المعنى المضمَّن في النص الفرنسي.

أ. فمتعلّق il faut في الفرنسية هو il existe وليس "أن يتواجد هذا المفهوم" وهي زيادة أرادها المؤلف للتوضيح فأفسدت بناء الجملة واضطرّ إلى إضافة "وفي هذا الإطار "فخرج بذلك عن النص.

ب. أتى المعنى في الترجمة عكس المعنى في الأصل فكلمة invariant الفرنسية تدل على ما لا يتغيّر وهي مركّبة من الصدر in وهو بمعنى الإقصاء والنفي والأصل variant وهو المتحول المتبدّل ونستغرب وقوع المترجم في مثل هذا الخطإ والحال أن القوانين والأنساق في دراسة الشعر أو في غيرها تلهث وراء الثابت المستقرّ الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل.

الترجمة المقترحة :

"فينبغي إذن أن يوجَد في الأشياء التي نشير إليها بهذه الكلمة شيء ما هو هو أي ثابت أو ثوابت مضمرة تتعالى على تنوع النصوص الفردية تنوّعا لا حدّ له".

(..) elle enlève la beauté au relativisme et fournit un objet spécifique à l'esthétique comme science.	(..) إنه ينتزع الجمال عن النسبية ويمدّ موضوعا خاصا بطريقة الإحصاء كعلم ....

التعليق:

أبرز ما نشير إليه خلط المترجم عند القراءة بين esthétique وهو "علم الجمال" وstatistique وهو الإحصاء أو "علم الإحصاء" ولا دخل للإحصاء في ما نحن بصدده.

كذلك نشير إلى ميل المترجم إلى التقيد بحرفية الدلالة المعجمية لبعض الكلمات كالفعل fournir أو حرفية الصور كالتشبيه « comme» فنتج عن ذلك تركيب عربي غير مفهوم بقطع النظر عن الخلط المشار إليه.

الترجمة المقترحة :

"فهو يُخلّص الجمال من النسبية ويوفّر لدراسته باعتبارها علما موضوعا خاصا بها".

موضوعية علم الأدب إذن لم تعد متمثّلة في تصنيف ألوان الإنتاج الفردية لكنها تتمثّل في مجمل الإجراءات الفردية التي تنتظمها.

p. 12

l'objectif de la science littéraire n'est plus alors la classe ouverte des textes singuliers, mais l'ensemble fini des « procédés » qui les engendrent.

التعليـق :

من الصعب جدا أن يفهم القارئ الذي لا يمكنه الوصول إلى النص في لغته شيئا ذا بال من هذه الترجمة لأنه لا يرى علاقة بين "الموضوعية" و"تصنيف ألوان الإنتاج" و"مجمل الإجراءات" والسبب في ذلك أن النص الأصل لا يتحدّث عن "موضوعية" وإنما عن "هدف" أو "قصد" أو "غاية" .... هنا أيضا خلط المترجم بين objectif و objectivité.

ثم إن المترجم لم يدرك أن مؤلف النص وهو يسعى إلى بناء نسق يستعمـل لغة الرياضيات فقابل بين « la classe ouverte des textes » و« l'ensemble fini des procédés » أي بين مجموعة مفتوحة تنضاف إليها النصوص بلا نهاية ومجموعة منتهية أو مغلقة من الضوابط أو الإجراءات. ورأينا أن تحافظ ترجمة هذا النوع من النصوص على ما يشير إلى الحقل الذي ينتمي إليه المفهوم المستعمل.

الترجمة المقترَحة :

"إن غاية علم الأدب لم تبق إذن طبقة النصوص الفردية المنفتحة وإنما مجموعة الإجراءات المنتهية التي تولّد تلك النصوص".

ص. 10

الوارد

p.12

Eluard

التعليـق :

لا مناص في الترجمة من احترام طريقة نطق الأسماء في اللغة الأصل فشاعر فرنسا الكبير في العصور الحديثة هو على قدر ما تسمح بذلك الكتابة العربية "بول الوارْ / اليارْ".

ص.11

وأي دراسة تضع في اعتبارها خصائص الشاعرية لهذا النص لا نعتقد أنها ستفلت منها خصائص الشاعرية بعامة

Une théorie qui rendrait compte de la poéticité de ce texte, comment pourrait-on croire qu'elle ait une chance d'avoir manqué la poéticité en général ?

التعليــق :

فــي الترجمة وجوه من عدم الدقة. فالأمر يتعلّق بنظرية لا بدراسة ومؤلّف النص الفرنسي مشغول ببناء النظرية لا بمجرد الاهتـمام بالشعر ودراسـته في ذاته و« rendre compte » فــي الفرنسية ليست الوضع فــي الاعتبار وإنما القدرة على الإحاطة والإخبار وبنية الاستفهام المرفوقة بالشرط وقع إهمالها ....

الترجمة المقتَرَحة :

"إن نظرية بإمكانها أن تفــي بشعرية هذا النص لنظرية هل يساورك أدنى شك فــي أنها لن تخطئ الطريق إلى الشعرية عامة".

مجاوزات (مجاوزة Ecart | p.14

التعليـق :

سيجري المترجم فــي المقدمة على ترجمة Ecart بمجاوزة فــي المفرد أو فــي الجمع عند الاقتضاء. ولسنا نفهم لماذا أقدم على هذه الترجمة والمفهوم والمصطلح الدال عليه عرفا شيئا من الاستقرار فــي العربية منذ وقت ليس بالقصير. ومهما كان رأي المترجم فــي مصطلحي "العدول" و"الانزياح" فإنّ تفضيل المجاوزة عليهما يوقعنا فــي خلط بين dépassement وهي المجاوزة و écart وهو انفراج وابتعاد عن السمت أو الخط.

ص. 12 | p.14
فوكول | M. Foucault

التعليـق :

من لا يعرف ميشال فوكو ؟

والاقتراب من حدود الشعر هنا له دلالة كبيرة. | Ce débordement de la poésie sur ses frontières est hautement significatif.

التعليـق :

لم يمسك المترجم بمعنى العبارة الفرنسية « déborder sur » وهي بمعنى فاض (على) وتجاوز. وفــي السياق أنّ خروج الشعر عن الحدود المرسومة له وتجاوزها أمر له ...

الترجمة المقتَرَحـة :

"إن خروج الشعر عن حدوده أمر ذو دلالة كبيرة"

لكن كل قاعدة تصنيفية تعرف الشواذ. فالواقع هو اتصال تحاول اللغة أن ترصد حدود مراحله.

Mais toute classification connaît des cas atypiques. La réalité est un continuum dont la langue trace arbitrairement les frontières

التعليـق :

لئن بدت ترجمة الجملة الأولى مقبولة على ما فيها من تقيّد بحرفية الفعل « connaître » فإنّ الجملة الثانية تطرح مشكلة فـي مستوى مصطلحين لسانيين معروفين هما continuum و arbitrairement وقد سكت المترجم عن الثاني واختار للأول كلمة لا تبين عما فيه من اصطلاحية.

الترجمة المقتَرَحة :

"لكل منوال تصنيفـي حالات تخرج عنه والواقع مسترسل ترسم اللغة بشكل اعتباطي حدوده".

لكننا هنا أمام لون من التصور الصوفـي سوف يكون من الناحية المنهجية على قدر ضئيل من المعقولية لو بدأنا به.

Mais c'est là un type de perception sophistiquée par lequel il serait méthodologiquement peu raisonnable de commencer.

التعليـق:

خلط المترجم هنا بين sophistiquée بمعنى المبالغة فـي التجويد والتدقيق إلى حد الحذلقة ربما وهو ما لا يقع إلا لصفوة الصفوة وsoufis بمعنى المتصوّفة فجاءت الترجمة لا معنى لها.

الترجمة المقتَرَحة :

"إن فـي هذا لضربا من الإدراك المبالغ فـي التجويد بحيث يكون من غير المعقول منهجيا الانطلاق منه".

يتقدم كبحثنا هذا فـي أرض لم تكد تُعبَّد

(..) s'avance dans un terrain à peine défriché.

التعليـق:

لم يهتد المترجم إلى معنى « défriché » وهي مركبة من صدر dé بمعنى الإبطال والحذف وfriche وهي من المصطلح الفلاحي. نقول فـي الفرنسية terre en friche أي أرض مهملة، بور، غير مهيّأة للزرع ومقابلها

(terrain / terre défriché(e بمعنى التي أعمل فيها المحراث لتكون صالحة للفلح.

الترجمة المقترَحة :

"يسير فـي أرض لم تُهيَّأ إلا تـهيئة ضئيلة".

لم ير المترجم فائدة فـي ترجمتها ! !

Et même en ce dernier cas, il aura été utile, en fermant une voie dont il aura été révélé qu'elle est sans issue.

*   *   *

ص. 14

والأخذ بمبدإ "إسقاط محور المتشابهات على محور المتناسقات" يوسع إلى ثلاثة مستويات التكرار الشكلي الذي كانت تحصره قواعد النظم فـي المستوى الصوتي. وما يمكن أن نسميه بالمعنى ليس متأثرا بالدرجة الأولى بإضافة قواعد المتشابهات وهي إضافة يمكن تفسيرها فـي مجال النثر

p. 16

le principe de "projection de l'axe des équivalences sur l'axe des combinaisons" généralise aux trois niveaux du langage les récurrences formelles que la versification réserve au seul niveau sonore. Ce que l'on peut appeler sens n'est pas en principe affecté par l'addition des règles d'équivalence et reste paraphrasable en prose.

التعليـق:

يلفت النظر فـي هذه الترجمة أمران : إعراض المترجم لغير سبب واضح عن جهود الترجمة التي جاءت قبله وتناولت قضايا يطرحها هذا الكتاب. فهل انتظرنا صدور هذا الكتاب سنة 1995 حتى تترجم العربية مبدأ ياكبسن المشهور. نعم للمترجم الحق فـي اقتراح ترجمة ما لم يوافق على ما سبق اقتراحه لكن مهما كان رأيه فـي سلفه فـ équivalence لا تترجم بالمتشابهات لا من حيث دلالتها اللغوية ولا من حيث دلالتها الاصطلاحية ولا من حيث ما أراده لها ياكبسن. وقل الأمر نفسه فـي combinaison.

وتضييعه للمعنى فـي الجملة الثانية فـي نهايتها. فإذا كان المعنى لا يتأثر بما نضيف إليه من قواعد التعادل الصوتي أو الموافقات الصوتية فمعنى ذلك أنه بالإمكان ترجمته إلى النثر دون تغيير. وقد كانت العرب فـي القديم تستعمل معنى الترجمة فـي حل المنظوم وإيراد المعنى الشعري عاريا نثرا.

الترجمة المقترحة :

"إنّ مبدأ " إسقاط محور التكافؤ على محور التأليف "يوسع إلى مستويات اللغة الثلاثة التكرار الشكلي الذي كانت قواعد المنظوم تخص به المستوى الصوتي وحده. وما يمكن أن نطلق عليه معنى لا يتأثر مبدئيا بإضافة قواعد التكافؤ ويبقى قابلا لأن يُترجَم نثرا ".

يمكن هنا أن توجد المعادلة التي تتحدث عن :
النثر + س
أو التي ترى أنّ الشعر ليس إلا (+) بناء إضافيا من نوع ما أو أنه تقنين سام للغة الجارية.

On retrouve donc l'équation prose + x , et la poésie n'est bien qu'un "plus" une sur-structuration ou sur-codification du langage courant.

التعليـق :

وجوه عدم الدقة فـي هذه الترجمة متعددة فليس فـي منطلق النص الفرنسي ما يدعو إلى بداية الترجمة بالإمكان بل إنّ donc تذهب بنا إلى عكس ذلك تماما. والغالب على الظن أن المترجم ذهب فـي فهم sur-structuration و sur-codification مذهبا خاصا أوقعه بالنسبة إلى الثانية في الخطإ المحض. فلئن كنا نجد فـي المعاجم "التقنين" من بين معاني codification فالمقصود هنا شيء آخر : هو تحميل اللغة العادية شيئا زائدا عندما نجري سننها في كلامنا. فـ sur تعني فـي الفرنسية غالبا تحميل الشيء أكثر مما يحتمل فـي العادة.

الترجمة المقتَرَحة :

"من جديد إذن نصادف المعادلة : نثر + س ومن ثم ليس الشعر إلا إضافة أي إلحاحا فـي إبراز أو تحميل اللغة الجارية شيئا زائدا على المعتاد".

* * *

ص. 15

إن المنظور المعاصر والذي هو إرث لنظريات دي سوسير التجنيسية، يلعب على وجهي الرمز فـي وقت واحد، فهو يمكن أن يرتبط بالشكليين انطلاقا من لجوئه إلى فصل الدال عن المدلول.

p. 17

la perspective contemporaine, héritée de la théorie des anagrammes de Saussure est appelée couramment "paragrammatique", joue à la fois sur les deux faces du signe. toutefois, comme c'est à partir du jeu des signifiants que se dégage le signifié, elle peut être rattachée au formalisme.

التعليـق :

نبدأ فنقول إن المترجم معذور فـي سكوته عن ترجمة الجزء الثاني من الجملة الاعتراضية الموضوعة بين فاصلتين فـي بداية النص وترجمته المصطلح الأساسي فـي قسمها الأول ترجمة تقريبية فمن الصعب جدا أن نجد فـي العربية مقابلا حقله الدلالي يطابق حقل anagramme أو حتى قريب منه لأن الأناقرام

تقليد كامل في الآداب الغربية موضوعه الوجه الدال من العلامة اللغوية وموضوعه خاصة أسماء الأعلام يعكس بناها الصوتية ويقلب ترتيبها ويوزّع أجزاءها على كامل النص أو القصيدة ...

لكنه ليس معذورا عندما خرج عن المعنى في بقية الفقرة فارتباط هذا "المنظور" بالشكلانية ليس من فصل الدال عن المدلول. ففعل se dégager معناه ينبعث، يولد، يظهر

ثم لماذا الحرص على خلخلة المستقر. فمنذ ما يزيد على عقدين استقرّ في العربية بصفة تكاد تكون إجماعا ترجمة formaliste و formalisme بالشكلاني والشكلانية ؟

الترجمة المقترحة :

"إن المنظور المعاصر، وقد ورثناه عن نظرية دي سوسير في "الأناقرام" والمسماة في جاري الحديث "باراقراماتيك"، يستفيد في الآن نفسه من وجهي العلامة ومع ذلك يمكن رده إلى الشكلانية بما أن المدلول يتولّد عن لعبة الدوال".

* * *

Si dans un texte où il est question de Scipion (…)	إذا كان أمامنا نص يُنسَبُ إلى سبيون Scipion

التعليق :

أفلت من زمام المترجم معنى الجملة على بساطتها. فالعبارة الفرنسية il est question de تعني موضوع الحديث وما يدور عليه الكلام ولا تعني النسبة.

الترجمة المقترَحة :

"فإذا وجدنا في نص يتحدّث عن سيبيون ...".

* * *

L'exégèse d'inspiration psychanalytique ou marxiste reste fidèle à la théorie du double langage.	أما التفسيرات النفسية والماركسية للإلهام الشعري فهي تظلّ عند فكرة اللغة المزدوجة.

التعليق :

من أين أتى المترجم بالإلهام الشعري ؟ إن أعمال كوهين وأعمال غيره من الذين حاولوا بناء نظرية عالية الكفاءة في الإحاطة بمكونات النص الشعري لا علاقة لها بالإلهام لأنه داخل في ما يُسمَّى géno-texte (النص قبل أن يتشكّل)

بينما وكدهم ما يُسمّى phéno-texte (النص متشكلا) إلا أن تكون كلمة inspiration الواردة فـي بداية الجملة ذكرته بالإلهام.

الترجمة المقتَرَحة :

"إنّ التفسير الذي يستلهم علم التحليل النفسي أو الماركسية يظل وفيا لنظرية اللغة المزدوجة".

* * *

Il est un sens apparent et un sens sous-jacent auquel le premier renvoie, intentionnellement ou inconsciemment, par un montage symbolique qu'il appartient au lecteur de décoder. Ce sur-codage fait la poéticité du texte. Elle n'est plus dans une "sur-forme" mais dans un "sur-sens". La différence dans les deux cas reste quantitative.

فهناك معنى ظاهري ومعنى خفـي هو الذي تتم الإحالة إليه قصدا أو لاشعوريا من خلال تأويل رمزي تتولى القراءة إعطاء مفاتيحه وهذا المفتاح هو ما يعطي للنص شاعريته. والموقف هنا لم يعد موقف "ما فوق الشكل" وإنما أصبح موقف "ما فوق المعنى" ويظل الفرق ما بين الحالتين فرقا نوعيا.

التعليـق :

فـي الترجمة من وجوه الخروج عن المعنى وجذبه إلى غير ما يقول النص الأصلي شيء كثير. فالمعنى الأول هو الذي يحيل على المعنى الثاني ووسيلته فـي ذلك تركيب الرموز. وللقارئ أن يفك شفرة ذلك التركيب الرمزي. والذي يمنح النص شاعريته ليس المفتاح وإنما الإلحاح على التشفير والمبالغة فيه وليس فـي الأمر موقف وإنما الحديث عن الشاعرية التي لم تعد فـي شكل بالغنا فـي إظهاره وإبراز قسماته أكثر مما نفعل فـي العادة وإنما فـي معنى مؤكّد بارز.

وتنتهي الترجمة بمعنى معاكس لما جاء فـي النص فـquantitative فـي الفرنسية كمي لا نوعي والنوعي qualitatif. وواضح الفرق بين المعنيين.

الترجمة المقتَرَحة :

"هناك معنى ظاهر ومعنى مضمر يحيل عليه الأول عن قصد أو عن غير قصد بتركيب رمزي على القارئ أن يهتدي إلى فك شفرته. وهذا الإلحاح فـي التشفير يولّد شعرية النص. وهذه الشعرية لم تعد فـي شكل بالغنا فـي إبرازه وإنما فـي معنى زائد. والفرق بين الحالتين يبقى فرقا كمّيّا".

* * *

أما نظرية تعدد المعاني polysémie – وهي نظرية ذائعة الآن – فإنها تختلف عما سبق، ويكمن هذا الاختلاف فـي أنها لا تعترف بطبقات المعنى.

La théorie polysémique, actuellement en vogue, est une variante de la précédente. Avec cette différence qu'elle ne fait pas de hiérarchie entre les sens.

التعليـق :

أتت الترجمة بضد ما أتى به النص الأصل ولا يخفى ما يترتّب على ذلك من خروج عن سمت التفكير الذي يحاول صاحب الكتاب أن يبنيه لبنة لبنةً. وسوء الفهم جاء من التعويل على ما يتبادر إلى الذهن من معاني الكلمات أو قلة المعرفة بأصول التراكيب فـي اللغة الأصل. وإن كان، والحق يُقال، سبب سوء الفهم كلمة جارية فـي الفرنسية جريانا واسعا وهي كلمة variante وما يُشتقّ منها. فأنت تطلب من البائع فـي السوق رطلا من variante أي "المخللات" فـي اللغة المشرقية، وأنت فـي المطعم تطلب salade variée أي "سلاطة مُشكّلة". ففـي الكلمة معنى التنويع . فإذا وصلنا إلى النظرية قلنا إنها تنويع على السابقة أو صورة من صورها أو طريقة أخرى فـي إيراد الأصل. وربما تورّط المترجم فـي ضد المعنى بسبب ما أتى بعد هذا فـي قول المؤلف avec cette différence وهو يريد به أن يؤكّد المعنى السابق بذكر الاختلاف الطفيف بين الأصل وما هو تنويع على ذلك الأصل.

الترجمة المقترحة :

"أما النظرية القائمة على تعدد المعنى، وهي نظرية ذائعة الآن، فهي تنويع على السابقة ووجه الفرق بينهما أنها لا ترتب المعاني فـي سلم".

* * *

ص. 16

إن هذه الدراسة تأتي تالية لدراسة أخرى حاولت فـي وقت واحد أن تتعمّق الظاهرة وتحاول البحث عن نظام لها.

(..) L'analyse ici présentée fait suite à une autre analyse, qu'elle tente à la fois d'approfondir et de systématiser.

التعليـق :

المعنى الحاصل من الترجمة مقابل تماما للمعنى الموجود فـي النص الأصل. وقد أتى عكس المعنى من البناء على النعت فـي قول المترجم "الدراسة أخرى **حاولت**" وهذا يؤدّي إلى القول بأن الدراسة الأولى هي التي تعمّقت الظاهرة وتحاول البحث عن نظام لها وغريب أن يقع المترجم فـي هذا الخطإ

والحال أن المحاولة الثانية هي التي في الغالب توسّع من الأولى وتعمّق قضاياها وتحاول أن تبحث لها عن نسق.

الترجمة المقترَحة :

"إن التحليل الذي نقدمه هنا يتلو تحليلا آخر، وهو يحاول أن يعمّقه ويبني نسقه في الآن نفسه".

* * *

على العكس من النظريات السابقة صنفت الدراسة اللغة الشعرية لا باعتبارها رمزا فوقيا (sur-code) ولكن باعتبارها مضادة للرمز (anti-code).وعرفت الشاعرية من خلال التصويرية والصورة ذاتها تكون سياقا يتشكل في مرحلتين يمكن أن توصف المرحلة الأولى منها بأنها "مجاوزة" بالقياس إلى اللغة العادية.

p.18
a l'inverse des théories précédentes elle constitue le langage poétique non comme un sur-code. Elle définit la poésie par la figuralité, la figure elle-même constituant un processus à deux temps, dont le premier peut être décrit comme "écart" ou "déviation" par rapport aux normes du langage.

التعليق :

نقدر الحرج الذي عبر عنه المترجم عند إيراد أهم ما يميز موقف كوهين ويمثل النواة الصلبة في نظريته وهما مفهوما sur-code و anti-code والحرج سببه كما سبق أن بينّا التورط في ترجمة code بالرمز. والرمز مكرَّس في العربية منذ القديم ومنذ بداية القرن بالتأكيد لـ symbole وقد اقترح دارسون عرب لـ code ترجمات معقولة فقالوا "الشفرة" وقالوا "السنّة" و"السنن" وقالوا "القانون" وقالوا في مثل هذا السياق "النظام اللغوي". وسببه أيضا ما كنا أشرنا إليه من ذهاب المترجم في ترجمة الوحدات المركّبة بـ surمذهبا خاصّا . فماذا يفهم القارئ العربي الذي لا يفهم اللسان الفرنسي ولا يعرف خاصة دلالة المفهوم في الدراسات الشعرية من قولنا: "لا باعتبارها رمزا فوقيا"ولكن باعتبارها مضادة للرمز".

ولا نعود إلى ما قلناه في ترجمة écart بـ "مجاوزة" ولكن لا بد أن نشير بشيء من الاستغراب إلى ترجمة processus بـ"سياق" لا لأنّ المصطلح سهل الترجمة فهو من المصطلحات التي تحيّرنا من أربعين سنة أو يزيد وأظنها تحيّر كل الذين يقرؤون بأكثر من لغة ولكن لأنه ليس من حقنا أن نترجمها بسياق وإن لم نجد لها في العربية مقابلا. فالسياق هو أيضا مستقر من مدة طويلة وراتب على المقابل الأعجمي contexte. وفي تقديرنا أنّ الأستاذ الجليل تمام حسّان ساهم بقسط كبير في تثبيت هذا المفهوم والمصطلح الغربي المقابل له.

الترجمة المقترحة :

"وعلى عكس النظريات السالفة ترى هذه الدراسة أن أساس لغة الشعر ليس في أنها نظام يركب نظاما وإنما في كونها نظاما يعاكس نظاما إنها تعرّف الشعر بالتصوير، والصورة نفسها تقوم على تمشّ ذي مرحلتين يمكن أن توصف الأولى منهما على أنها عدول عن مقاييس اللغة أو تحوّل عنها".

* * *

Je rappelle d'abord que les mots "écart" ou "déviation" sont synonymes de ce que la grammaire générative-transformationnelle a appelé "agrammaticalité" et qu'il est en conséquence paradoxal que le mot "écart" ait soulevé des critiques que ses synonymes se sont épargnés. Est-ce un effet de connotation ?

وأودّ أن أذكر أولا : بأن المصطلح "مجاوزة" écart وتحوّل déviation يشكّلان مرادفا لما يسميه النحو التحويلي agrammaticalité غير قاعدي ومن ثم فإن من التناقض أن يحظى مصطلح "المجاوزة" بنقد أفلت منه مرادفه هل هو مصطلح يجنح إلى التبسيط ؟

التعليق :

قارئ هذه الترجمة تصيبه حيرة كبيرة عندما يرى ما فعل المترجم بـ connotation ومأتى الحيرة أنها من أبرز المفاهيم في العقود الأربعة الأخيرة التي احتفت بها الدراسات الأسلوبية والأدبية وعرفت في المدوّنة "البارطية" نَفاقا لم تعرفه بقية المصطلحات. وقد بدأت ترجمة هذا المفهوم إلى العربية في وقت مبكّر جدا في نهاية الستينات أو بداية السبعينات فقالوا "المعنى المصاحب" و"المعنى الحاف" و"الإيحاء" ... وقد لا تكون هذه المقترحات وغيرها مما لم نذكره موافقة تمام الموافقة للمفهوم إلا أن الكثير منها أصبح جاريا في الدراسات، محيطا بمكونات المفهوم، كاشفا عن هذه التجربة الخاصة لمستعمل اللغة مع اللغة وسر الأسرار الذي يجمعه في حميمية مطلقة بها. فتكون قراءة النص استثارة لتلك المعاني الواقعة على حافة المعنى المشترك ويكتسب النص تبعا لذلك عمقا وسمكا.

فأين كل هذا من التّبسيط الذي يحدّثنا عنه المترجم ؟ إن المؤلف يتحدّث فعلا عن معان حافة تنضاف إلى المعنى اللغوي. فكلمة écart وكذلك كلمة déviation محمّلة في الفرنسية بأبعاد أخلاقية كنسية ولا يستبعد مؤلف الكتاب بالاستفهام أن تكون الشحنة السلبية المصاحبة لمصطلح écart هي السبب في النقد الموجّه إليه بينما لم يوجّه النقد نفسه لمرادفاته المستعملة في النظرية التوليدية – التحويلية.

الترجمة المقتَرَحة :

"أبدأ فأذكر أن كلمات من قبيل "العدول" أو "الانحراف" مرادفات لما يُسمّى في النحو التوليدي - التحويلي خروجا عن النحو وإنه لمن التناقض أن تثير كلمة écart نقدا كثيرا لم يمسّ مرادفاتها. هل ذلك بمفعول المعنى الحاف ؟"

* * *

ص. 18

ولا بد أولا من إزاحة اللبس الذي يوجد بسهولة بين المعدلية normativité والطبيعية normativisme فهناك دون شك معدلات لغوية ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا ونطمح إلى القول بأن اللغة كلها هي نظام معادلات وليس لها وجود آخر غير ما تعطيه إياها "قواعدها الجوهرية" التي يكن (كذا) أن تقابلها "القواعد المعيارية" وهي القواعد التي تحكم التصورات المسبقة للغة على حين تتولى القواعد الجوهرية خلق الموضوعات التي تقننها.

p.20

et il faut d'abord dissiper la confusion qui s'établit facilement entre normativité et normativisme. Il existe à n'en pas douter des normes linguistiques. On peut même aller plus loin et prétendre que la langue est toute entière un système de normes, qu'elle n'a pas d'autres existence que celles que lui confèrent ses "règles constitutives". Par opposition aux "règles normatives" qui réglementent un état de chose préalable, les règles constitutives créent l'objet qu'elles codifient.

التعليق :

لا يمكن لقارئ عربي عادي أن يفهم هذا الكلام ولا يمكن أيضا أن يفهمه المختص في هذه المسائل إلا إذا كان عارفا بالكتاب المترجم معرفة دقيقة، وأسباب ذلك كثيرة منها :

- أنّ المترجم ذهب في ترجمة المفهومين البانيين لأصل الفكرة وهما normativité وnormativisme مذهبا خاصا، لا نظنه يحيط بالمعنى المراد؛ ولا نظنه كذلك يكشف عن الخلفية النظرية الواقعة وراءهما أو الواقعة في ذهن صاحب الكتاب. وقبل أن نذكر ما يقابل الكلمتين في العربية، نشير إلى أن صيغة الكلمتين ترسمان الفرق بين الشيء والتشدد فيه بين القاعدة والتشدد في القاعدة . فالكلمة الأولى تشير إلى اتباع القاعدة والبناء على السمت، كما كانت تقول العرب، أما الثانية فتشير إلى المبالغة في ذلك والتشدد المتأتيين من الجهل بخصائص النظام اللغوي وما فيه من مرونة ليست موجودة في القوانين الوضعية. وهذا نقاش هام وعميق طرحه طرحا جديا المنوال التوليدي في مختلف

مراحله من خلال تحديده لما هو نحوي وغير نحوي. وتبعا لذلك تكون normativité "المعيارية" أو القاعدية و normativismeالتشدد في القاعدة. ولئن كنا نفهم السبب الذي دفع المترجم إلى اختيار "المعدلية" لترجمة الكلمة الأولى (باعتبار وجود معدل حيادي في استعمال اللغة إن ابتعدنا عنه كان الأسلوب) فإننا لا نفهم كيف ترجم الكلمة الثانية بـ"الطبيعية"؟ !

- أنّ المترجم أخطأ في تقدير بنية بعض الجمل في النص لإهماله نقطة انتهاء المعنى فربط بين أمور لا ترتبط ارتباط تبع وتتميم، وإنما ترتبط ارتباط استئناف. ويبرز ذلك خاصة في نهاية الفقرة في تعليقه الجملة الموصولة "التي يمكن أن تقابلها القواعد (..)" بالجملة السابقة والحال أنه يبدأ جملة جديدة في قوله: « par opposition». وفي هذه الجملة زيادة على ما ذكرنا ابتعاد عن السياق المعرفي الذي يتنزّل فيه النص، سببه ترجمة « constitutive » بالجوهرية مما يستدعي المقابلة القديمة بين الجوهر والعرض وليس الأمر كذلك هنا رغم ما يقوم من علاقة بين معنى الكلمة والترجمة المقترَحة. فالقواعد التكوينية هي التي منها كون الشيء، وبذهابها يفقد كونه أو كيانه ويذهب عنه ما يميزه عن غيره. فالمكوّن في العربية من الوجود والكون ولذلك فهي مطابقة لما نحن فيه استعملها العرب القدامى في تأصيلهم قواعد اللغة بهذا المعنى. فالقواعد التكوينية هي القواعد التي بذهابه يذهب الشيء وينعدم ويفسد، أما القواعد المعيارية فمتصلة أكثر بحذق المستعملين وطرقهم المختلفة في إنجاز القدرات اللغوية.

الترجمة المقترَحة :

"لا بد في البدء من إزالة الخلط الذي يقوم بسهولة بين "المعيارية" والتشدد فيها. فلا سبيل إلى الشك في وجود معايير لغوية، بل بإمكاننا أن نغرق فنزعم أن اللغة كلها نظام معايير وأنها لا توجد خارج ما تسمح لها به "قواعدها المكوّنة". وخلافا لـ"القواعد المعيارية" التي تنظم وضعا من أوضاع الشيء مسبقا، تنشئ "القواعد التكوينية" ما تأتي لتقنينه إنشاء".

* * *

ص. 19
والذي أريد بالتحديد أن أريه هو أن الوظيفة الشعرية لا تسمح فقط بل إنها تحتّم التحول السيمانتيكي عن معدله

p. 21
et précisément ce que j'ai voulu montrer, c'est que la fonction poétique non seulement tolère mais encore exige la transgression systématique de ces normes

التعليـق :

هناك تحويل تام لمعنى الجملة الفرنسية بسبب خلط المترجم بين صورتين تبدوان متقاربتين ولكنهما في الحقيقة مختلفتان وهما صورتاsémantique و systématique (وأسباب الخلط معروفة في نظريات التعلم). فأصبح ما كان يجب أن يكون اطرادا "سيمانتيك".

الترجمة المقتَرحة :

"إن ما أردت بالضبط بيانه أن الوظيفة الشعرية لا تكتفي بأن تسمح بتجاوز تلك المعايير تجاوزا مطّردا بل تزيد فتشترطه".

* * *

"إن الحدس اللغوي للاستخدام هو المعيار الوحيد المقبول

L'intuition linguistique de l'usager est le seul critère acceptable de la déviance.

التعليـق :

في هذه الجملة يحدد المؤلف القدرة التي بإمكانها أن تتعرّف على ما هو استعمال عادي وما هو عدول بالكلام عن السمت. وقد أخطأ المترجم المعنى لأنه خلط في الفرنسية بين المصدر واسم الفاعل فـ « l'usager » هو في الفرنسية مستخدم اللغة ومستعملها لا الاستخدام والاستعمال.

الترجمة المقترَحة :

"إن حدس المستعمل اللغوي هو المقياس الوحيد المقبول في التعرف على ما هو عدول".

* * *

ص. 20

والخروج على المألوف يتم هنا حقيقة على المستوى الصوتي والمعنوي للغة وهي مستويات معقدة بدقة أما أخطاء النطق والقواعد فيتم بجلاء مراقبتها في سبيل الأداء الصحيح للغة خاصة عند الأطفال.

Il est vrai que la déviation joue ici sur les niveaux phonologique et syntaxique de la langue qui sont fortement institutionnalisés. Les fautes de prononciation ou de syntaxe sont explicitement sanctionnées dans l'apprentissage de la langue, en particulier chez l'enfant.

التعليـق :

فـي هذه الترجمة وجوه من الخطإ أبرزها الإتيان بعكس المعنى مرتين على الأقل مرة فـي مستوى التركيب ومرة فـي مستوى المعجم. أما خطأ التركيب فجعل ما جاء تفسيرا فـي الأصل إضرابا ومقابلة فـي الترجمة. فالجملة الفرنسية التي تبدأ بقوله :

« les fautes de prononciation » هي بيان وتفسير لقوله السابق « fortement institutionnalisées » فأخرجها المترجم وكأنها شيء يخالف ما سبق ويقابله فقال: "أما أخطاء النطق (..)".

والخطأ الذي من المعجم ففي « sanctionnées » و« apprentissage ». الكلمة الأولى من جدول التعليم على النهج القديم ومعناها العقاب والردع، من العقاب الجسدي إلى العقاب بالعلامة والعدد. والكلمة الثانية كلمة فنية اصطلاحية فـي علم اللغة فـي باب الصنائع العلمية التي تساعد على تعلم الألسنة فـي مقابل ما هو فـي بنية الإنسان وهيئة دماغه يكتسب به اللغة اكتسابا ومبحثه « l'acquisition du langage ». بالإضافة إلى هذا نلاحظ عدم الدقة فـي المفاهيم والمصطلحات فإن كنا نترجم « le niveau phonologique » بالمستوى الصوتي فكيف إذن نترجم « le niveau phonétique » ؟ كذلك لا نفهم لماذا ترجم syntaxique بالمعنوي بينما الأمر متعلّق بالتركيب !

الترجمة المقتَرَحة :

"صحيح أن العدول يتصل هنا بمستويين من اللغة مستوى وظائف الأصوات ومستوى التركيب وهذان المستويان صارما التعقيد. فأخطاء النطق أو التركيب أخطاء يقع إصلاحها بصفة واضحة عند تعلّم اللغة لاسيما عند الأطفال".

* * *

p. 22

au contraire pour 3), il est deux lectures possibles. Littérale, si le destinataire croît que les martiens existent (..); figurale, s'il sait (..).

على العكس من المثال (رقم 3: فهناك تفسيران حرفيان محتملان له، الأول: أن يكون المتلقي يعتقد بوجود سكان فـي المريخ (..) والتفسير الثاني: مجازي إذا كان المتلقي يعرف (..).

التعليـق :

وقع المترجم لعدم إدراكه مكونات البنية فـي الجملة الفرنسية فـي عكس المعنى. كاتب النص يريد أن يقول إن المثال رقم ثلاثة، من أمثلة كان أوردها، يقبل قراءتين ممكنتين. ثم أخذ يفصّل بعد إجمال فذكر الأولى، وسماها قراءة

وعلامة النكرة في العربية تختلف عن علامة النكرة في الفرنسية فهي في العربية التنوين وهي في الفرنسية «l'article indéfini» أما الـ"هو" في الجملة ففعل الكون، كما يقول الفلاسفة، est من être وليس un كما ذهب إلى ذلك المترجم ومن أين له أنّ «le complément nominal» خبر ؟ ! ألم يكن من الأفضل أن يقول "متمما اسميا" ؟

الترجمة المقترَحة :

"إنّ أداة التنكير "un" تتطلّب متمما اسميا ليس موجودا في هذه الجملة".

* * *

ص. 27

فإنّ كل ألوان طبقات الخروج والمجاوزة التي اختبرناها تنتمي إلى لون معيّن من الخطاب يتميّز بنفس القوة وهي قوة تتصل بطبيعة لون من المقولات "الجوهرية" التي لا تطمع إلا أن تصف حالة الأشياء في مقابل مقولات عرضية performatif تجمع الحدث الذي تصفه مثل النظام الوعد الطلب، إلخ.

p. 27

Toutes les catégories déviationnelles examinées sont relatives à un certain type de discours, caractérisé par une même force "illocutionnaire" (illocutionary force). Il s'agit d'énoncés "constatifs", qui ne tendent qu'à décrire un état des choses et s'opposent par là aux énoncés "performatifs", lesquels accomplissent l'acte qu'ils décrivent, tels que l'ordre, la promesse, la demande, etc.

التعليق :

لا يمكن بحال من الأحوال ترجمة الفقرة السابقة في غياب معرفة مدققة بنظريات الخطاب وآليات تحليله، وبالتطورات الحادثة في اللسانيات بظهور ما يُسمّى اللسانيات التداولية. ومن مصطلحات التداولية الجارية في الفقرة نذكر : "force illocutoire" وهي القوة المتضمّنة في القول أو اللاقوليّة و" énoncé constatif" وهو الملفوظ التقريري الوصفي و"énoncé performatif" وهو الملفوظ الإنشائي. ولمِنْ أعجب العجب ترجمة "l'ordre" بالنظام وهو هنا **الأمر.**

الترجمة المقترَحة :

"إن وجوه العدول المدروسة جميعها ترتد إلى صنف من الخطاب تطبعه القوة المتضمَّنة في القول، فلقد تعلّق الأمر بملفوظات "تقريرية" لا هم لها إلا وصف الأشياء بما هي عليه وهي من ثم تقابل ملفوظات "إنشائية" توقع الفعل الذي تتحدث عنه مثل الأمر والوعد والطلب وما إليها".

Et l'on peut, dans cette même perspective, faire droit à la notion introduite par Riffaterre de "norme contextuelle".	ويمكن من خلال هذا المنظور ذاته إعطاء لون من القانونية للنقطة التي منعها ريفاتير Riffatter (كذا) فيما أسماه المعدل السياقي.

التعليق:

في هذه الترجمة أيضا أتى المعنى معكوسا بسبب الخلط بين صورتين بصريتين للكلام وهما : introduire بمعنى "أدخل"، "روّج"، "قدّم" و interdire بمعنى "منع"، "حرّم" ..

وهناك إضافة إلى عكس المعنى عدم تثبّت من معنى بعض العبارات في الفرنسية، فـ « faire droit à» تعني في الغالب الأعم "استجاب"، "ردّ بالإيجاب"، "قبل".

الترجمة المقتَرَحة:

"وبإمكاننا في هذا الاتجاه نفسه تزكية المفهوم الذي كان أدخله ريفاتير وسماه المعيار السياقي".

* * *

p. 29 une théorie est féconde, si même elle est erronée, lorsqu'elle établit une problématique ignorée avant elle.	ص. 28 أن طرح نظرية ما أمر مخصب، حتى لو كانت النظرية مخطئة، حتى يسمح ذلك بترتيب جديد للمشاكل لم يكن معروفا قبل طرحها.

التعليق :

بدأ المترجم بهذه الجملة فقرة جديدة وبناها بناء غير معهود في الجاري من كلام العرب الفصحاء فمن الصعب أن تجد من يصدّر الكلام بـ"أنّ" الثقيلة ويتمها بحتى بعد حتى.

والأمر في الجملة الفرنسية لا يقتضي هذا ولا هو منه بسبب. فالرجل (السيد كوهين) يريد أن يعبّر عن رأيه في نهاية فقرة عن صنف من النظريات وسمه بالخصب. وهذه الصفة في الفرنسية لا تقتضي إن اتصلت بالمرأة أو بالمؤنث عامة وضع اسم المفعول أو بنية نائب الفاعل ولا من باب أولى الفاعلية. فإذا قلنا في الفرنسية « une théorie féconde » فمعنى ذلك أنها في ذاتها وفي صفاتها ولود. فلا حاجة لصيغة أفعل لا في المعلوم ولا في المجهول.

الترجمة المقترحة :

"تُعدّ نظرية ما ولودا، حتى وإن انبنت على الخطإ، إن طرحت إشكالا كان الناسُ قبلها يجهلونه ".

*　　*　　*

ص. 29
ويمكن بالطبع أن يُعدّ شيء كهذا بحثا عن الصعوبة لذاتها فالفن لا يضن بقيمه إلا لكي نتابع لعبة السيرك داخله

On peut bien sûr considérer que de tels faits relèvent d'une recherche de la difficulté pour elle-même, l'art n'étant pas insensible à ces valeurs que poursuivent les jeux du cirque.

التعليـق :

لا علاقة بين القسم الثاني من الترجمة من قوله : "فالفن (..)" والنص المترجم. والسبب فـي رأينا يأتي من سوء فهم للتركيب الفرنسي الوارد بعد الفاصل والبني على شيء يشبه المنصوبات عندنا، وهو « étant ». وصيغة فعل الكون هذه ترتب الجملة المذكورة فـي المتممات التفسيرية.

أراد صاحب النص، وهو يتحدّث عن ظاهرة يبدو فيها الافتعال والتعمّل، أن يؤكد أن الفن لا يصمّ آذانه تماما عن هذه الأشياء البهلوانية التي نراها فـي ألعاب السيرك، فهو أحيانا يبحث عن الصعوبة من أجل الصعوبة فأين هذا مما تقوله الترجمة ؟ !

الترجمة المقتَرَحة :

"إنه لبإمكاننا أن نعتبر هذه المظاهر من باب البحث عن الصعوبة لذاتها فالفن ليس معرضا تمام الإعراض عن هذه القيم التي تسير على هديها ألعاب السرك".

*　　*　　*

ص. 30
وفـي مجال واسع كمجال الشعر لا ينبغي الاكتفاء بلغة واحدة (فعند تضييق مجال الاختيار) يمكن أن تجد أي شيء.

p. 30
dans un corpus aussi vaste que celui de la poésie, fût-ce celle d'une seule langue, il est toujours possible de trouver des exemples de n'importe quoi.

التعليـق :

فـي الترجمة خروج عن المعنى وعدم دقة فـي معاني بعض الكلمات. فلفظ « corpus » وهو من المصطلحات الأساسية فـي علم اللغة، يُترجم فـي الأغلب بـ"مدوّنة" قياسا على المدوّنات الكبرى فـي الفقه أو غيره من العلوم، ويشار بها

إلى جملة النصوص المنجزة المتوقرة . ولم نر فـي العالمين من ترجمها بمجال ولم يفهم المترجم الحصر الموجود بين فاصلتين وهو حصر يبقي على مدونة الشعر واسعة حتى إذا اكتفينا بما كتب منه بلسان واحد. فالترجمة من هذه الوجهة لا علاقة لها بمعنى النص.

الترجمة المقتَرَحة :

"ففـي مدوَّنة واسعة اتساع مدوَّنة الشعر وإن اقتصرنا فيها على ما كتب بلسان واحد يمكننا دائما إيجاد شواهد لكل حالة تعرض".

* * *

ص. 31

ومن السهل إظهار أن كلمة يموت هنا لا تحمل الملمح الدلالي الحقيقي ومن ثم فإن فعلا واحدا يمكن أن يجيب على السؤال، أن يقال مثلا "أن ينتحر" هنا نجد معنا مثالا جديدا على ظاهرة "التبادل" التي أشرنا إليها أي أنه مع اختفاء المجاوزة تختفـي الشاعرية.

p. 31

il est pourtant facile de montrer que mourir ne contient pas le trait sémantique "faire" et qu'en conséquence seul un verbe factitif pourrait répondre à la question. Par exemple, qu'il se fît tuer, et ici on a un nouvel exemple de commutation où avec l'écart disparaît la poéticité.

التعليـق :

ورد كلام المؤلف تعليقا على بيت مشهور للشاعر الفرنسي كورناي وهو مبني على الاستفهام الدال على الإنكار والتعجّب، ومعناه كما نحاول أن ننقله هو :

ماذا تريدون أن يفعل وحده فـي مواجهة ثلاثة ؟ أن يُقتل !

والخلاف بين علماء البلاغة فـي احتواء هذا البيت على وجه من وجوه المجاز أو خلوه منه. وتعليق المؤلف يبين أنه، على خلاف "دي مارسي" عالم البلاغة المشهور، يرى فـي البيت مجازا والفقرة المترجمة برهانه على ذلك. والحق أن المترجم لم يحط بالاستدلال لذلك نقل النص على غير مقتضاه . فليس فـي النص حديث عن "الملمح الدلالي الحقيقي" وإنما بيان أن الفعل "مات / يموت" ليس فيه الملمح الدلالي للفعل "فعل / يفعل" ومن ثم استوجب الجواب عن السؤال فعلا مساعدا ينتقل بنا من فعل "faire" إلى جعله يفعل "faire faire" وهو ما يُسمّى فـي النحو الفرنسي «le factitif» وبدخول هذا الفعل المساعد تستوي الأمور ويصبح الجواب موافقا للسؤال :

ماذا تريدون أن يفعل وحده فـي مواجهة ثلاثة ؟ أن "يجعلهم يقتلونه" ! والعربية تستعيض عن هذا بصيغ مختلفة من بينها المبني للنائب "أن يُقتَل" لا "أن ينتحر" كما ذهب إلى ذلك المترجم. فـ « se faire tuer» فـي الفرنسية قد تدلّ

على الإلقاء بالنفس إلى التهلكة بالإدمان على شيء أو بالسرعة عند السياقة ... ولكن الفاعل في الغالب من الخارج رغم صيغة عودة الفعل على الفاعل.

الترجمة المقترحة :

"ومع ذلك فمن اليسير أن نبيّن أنّ الفعل "مات" لا يحتوي على الملمح المعنوي "فعل" وإذن ففعل التعدية أو الجعل وحده في مقدوره الإجابة عن السؤال كأنْ نقول جعل الآخرين يقتلونه (قُتل) ولنا هنا مثال آخر من أمثلة الإبدال حيث تختفي الشعرية باختفاء العدول".

* * *

ص. 33
إن الذي يسكرنا في "الشقيقات الثلاث" لتشيكوف، ليس قصيدة بوشكين، وإنما هذان البيتان.

p. 33
ce qui hante l'héroïne des Trois sœurs de Tcheikov, ce n'est pas le poème de Pouchkine, mais ces deux vers (...)

التعليق :

في هذه الترجمة قلب للمعنى من وجهين :

من جهة الإسناد في عناصر الجملة فالمفعول به في النص الفرنسي ليس ضمير المتكلم الجمع وإنما هو l'héroïne أي البطلة أو الشخصية الأساسية. ومن جهة المعجم فما أبعد hanter عن السكر. ففي الفعل معنى الهم والغم والخوف والذعر. ويقول الفرنسيون hanter un lieu وune maison hantée أي الأماكن التي يتصوّر الخيال الشعبي أنها مسكونة بالجن والشياطين إلا أن يكون المترجم فهم من كلمة héroïne أنّها المخدّر !

الترجمة المقتَرَحة :

"إنّ ما كان هما مقيما عند بطلة "الشقيقات الثلاث" لتشيكوف ليس قصيدة بوشكين وإنما البيتان التاليان (..)".

* * *

ص. 34
وهذه القضية سوف نعيد تناولها بقدر أكبر من العناية وانطلاقا من التقابل بين ظاهرتين من ظواهر اللغة: "مكثّفة" و"محايدة" يمكننا أن نميّز بين نمطين من المعنى هما المعنى المؤثر « pathétique» والمعنى الشعري « poétique» وهما موجودان بـ"القوة"

(..). cette description sera reprise ici de manière plus élaborée. À partir d'une opposition phénoménologique des deux langages comme "intensité" vs "neutralité", seront distinguées deux types de sens dits "noétique" vs "pathétique" tout deux présents

virtuellement dans les mots de la langue, à partir des deux composantes de l'expérience où le sens s'origine.

فـي كلمات اللغة تبعا لون صياغة التجربة التي هي "منبع" المعنى.

التعليـق :

تؤكد هذه الطريقة فـي الترجمة عدم إدراك المترجم للأبعاد الفكرية والفلسفية الموجودة فـي الفقرة. فكوهين فـي حديثه عن اللغتين المتقابلتين يشير إلى موقف الفلاسفة الظاهراتيين من اللغة ولم يفهم المترجم الطرف الأول من المقابلة noétique vs pathétique فقلبها إلى poétique vs pathétique. وnoétique فـي الفرنسية نسبة إلى noèse وهي فـي الأصل اليوناني nôesis بمعنى الفكر والذكاء وبذلك تقابل pathétique وأصلها فـي اليونانية pathos بمعنى الجرح والقرح والعاطفة وكل ما له علاقة بانفعال المخاطب.

الترجمة المقتَرَحة :

"سنعود هنا إلى هذا الوصف بعناية أكبر وانطلاقا من مقابلة ظاهراتية بين اللغتين نرسمها على هذا النحو: كثافة / حياد. سنميّز بين صنفين من المعنى نسمّي أحدهما "فكريا" والآخر "انفعاليا" وهما معنيان موجودان فـي معجم اللغة وجودا بالقوة انطلاقا من مكوّنـي التجربة حيث يتأصّل المعنى".

*   *   *

p. 37
Mais la définition du langage comme transmission de l'expérience ne s'applique qu'à sa fonction descriptive qui est on le montrera, la fonction essentielle de la poésie. Elle peut être, bien sûr, exhortative ou imprécative mais c'est en tant que descriptive qu'elle s'oppose à la non-poésie.

ص. 37
لكن تعريف اللغة كناقل للتجربة، لا ينطبق إلا على وظيفتها الوصفية التي كما سنرى الوظيفة الأساسية للشعر، إن اللغة يمكن أن تكون وظيفتها الجذب والطرد لكنها من خلال كونها وصفية يمكن أن تكون مقابلة للغة اللاشعرية.

التعليـق :

فـي هذه الترجمة خطآن بارزان عدا الأخطاء الصغيرة الأخرى، الخطأ الأول خطأ فـي المطابقة، نتعجّب من وقوع المترجم فيه، وهو أن الضمير فـي بداية الجملة الثانية لا يمكن أن يكون متعلقا بـlangage وإلا لكـان فـي المذكر "il" وليس كما جاء "elle" فالعائد عليه الضمير إذن هو "la poésie". ومن

الإشارات النصية التي كانت تعين المترجم على عدم الوقوع في الخطإ المركّب النهائي "non-poésie" الذي يستدعي أن يكون طرف المقابلة الأول poésie. أما الخطأ الثاني فعدم معرفته بـ"exhortation" و"imprécation" وهما وظيفتان من وظائف الشعر القديم الكبرى يمكن أن نعبّر عنهما بالترغيب والترهيب وما يدور في فلكهما من الألفاظ والمعاني كالتحميس أو الهجاء وما إليهما.

الترجمة المقترحة :

"غير أن تعريف اللغة على أنها ناقل للتجربة لا ينطبق إلا على وظيفتها الوصفية وهي، كما سنبين، وظيفة الشعر الأساسية. نعم يمكن للشعر أن يكون ترغيبا أو ترهيبا إلا أنّ مقابلته لما ليس شعرا إنما من جهة كونه وصفا".

* * *

Et s'il est deux types de langage, c'est qu'il est deux types d'expérience que chacun d'eux décrit adéquatement.

وإذا كان هناك نمطان من اللغة فلأن هناك نمطين من التجربة وكل منهما مكتمل في ذاته.

التعليق :

في هذه الترجمة ابتعاد عن المعنى، وسوء فهم للقسم الثاني من الجملة. فالأمر لا يتعلق بالاكتمال وإنما بوصف كل لغة للتجربة بما يجب.

الترجمة المقتَرحة :

"وإذا كان هناك ضربان من اللغة فلوجود ضربين من التجربة يصف كل ضربٍ ضربا ضربا بما يجب ويليق".

* * *

Il est signe et le signe n'est tel que pour autant qu'il est décroché de lui-même, qu'en lui se brisent, se séparent pour le constituer comme tel ses deux faces; et que le signifiant renvoie au signifié comme à un au-delà de lui-même différent de lui-même. Là est le sens profond de l'arbitraire Saussurien, où le signe s'annonce paradoxalement à la fois comme unité et dualité.

إنها رمز، والرمز لا يكون رمزا إلا إذا انفصل عن ذاته، إلا إذا تفتت وفصل لكي يُعاد بناؤه كرمز له وجهان وأن يكون وجه الدال فيه يرسل إلى وجه المدلول لكي يشكّل فيما وراء الرمز وحدة تختلف عن الرمز ذاته. وهنا يكمن المعنى العميق لفكرة دي سوسير حيث يبدو الرمز في وقت واحد باعتباره واحدا وثنائيا.

التعليـق :

النص صعب دقيق تشترط ترجمته معرفة بأصول نظرية سوسير فـي مفهوم اعتباطية العلامة إلا أن صعوبته ليست مانعة من إيراد معناه فـي العربية على وجه مقبول يختلف فـي الحقيقة عن المذهب الذي انتهجه المترجم. فجاء نصه غير مفهوم متى اكتفينا بقراءته فـي اللغة العربية وجاء كثير من المفاهيم الرئيسية فيه مترجمة ترجمة خاصة يجمع اللسانيون العرب فـي ما يحررون بالعربية على استعمال غيرها من ذلك مثلا مفهوم "le signe" الذي ترجم هنا بالرمز والرمز فـي العادة يُستعمل لـ "symbole" كما تأتي المعاضلة فـي الفقرة من السكوت عن المفهوم الرئيسي وهو مفهوم "l'arbitraire" وكذلك من عدم التدقيق فـي العلاقات بين الجمل والتراكيب.

الترجمة المقترحة :

"إنه علامة والعلامة ليست علامة إلا بقدر ما تنفصل عن ذاتها وينكسر فيها وجهاها ويفترقان لبنائها من جديد بصفتها تلك، وبقدر ما يشير الدال إلى مدلوله، كما لو كان يشير إلى شيء هو امتداد له ومختلف عنه. وهنا يكمن المعنى العميق للاعتباطية عند دي سوسير حيث تبدو العلامة، على ما فـي الأمر من مفارقة، وحدة و ازدواجا".

* * *

p. 38
c'est dire que la théorie ici proposée se situe dans l'antique tradition de la mimésis. La poésie, comme science, décrit le monde. Elle est science du monde qui est le sien – le monde anthropologique – qu'elle décrit en sa propre langue. Mallarmé le dit: "les choses existent, nous n'avons pas à les créer; nous n'avons qu'à en saisir les rapports; et ce sont les fils de ces rapports qui forment les vers et les orchestrent ".

ص. 38
إن النظرية المقترحة هنا – إذن – تنتمي إلى التقاليد القديمة للطريقة الإيمائية، فالشعر كالعلم يصف الدنيا، إنه أنثروبولوجيا الدنيا يصفها بلغته الخاصة، لقد قالها مالرميه
"إنّ الأشياء موجودة
ونحن لم نخلقها
إننا التقطنا فقط خيوط العلاقات بينها
وهذه الخيوط هي التي تنسج الشعر
وتشكل جوقته الموسيقية"

التعليـق :

من الأمور المثيرة للعجب فـي مترجم مختص فـي الشعر ونظرياته عدم معرفته بمصطلح من مصطلحاته الكبرى بكل الأزمنة الدال على وظيفته الأم التي لم يتزحزح عنها إلا فـي تجارب الإنسانية المتأخرة فـي الشعر وهو مصطلح "mimesis" وقد ترجمه الفلاسفة العرب منذ وقت مبكر بالمحاكاة واستقرّت

الترجمة فـي الثقافة العربية إلى يوم الناس هذا وهي من أدقّ الترجمات وألصقها بالمصطلح اليوناني. كذلك نعجب من سوء الفهم الناتج عن عدم تقدير البنية والأزمنة والروابط. يبرز ذلك فـي ما جاء بعد الموصول "qui" فكان يجب أن يترجم بطريقة أخرى. أما ما جاء منسبا إلى مالرمي فخطأ كله.

الترجمة المقترحة :

"وهذا يعني أن النظرية المقتَرَحة هنا تقع فـي تقاليد المحاكاة القديمة، والشعر شأنه شأن العلم يصف العالم، إنه علم عالم هو عالمه، عالم الإنسان يصفه بلغته الخاصة. وقد قال مالرمي ذلك : "الأشياء موجودة، وليس علينا أن نخلقها، علينا فقط أن نلتقط العلاقات بينها، والروابط بين تلك العلاقات هي التي تصوغ الأبيات وتبني تناسقها ".

* * *

ولا يمكن فـي الأخير السكوت عما سكت عنه المترجم وهو آخر جملة وردت فـي المقدمة باللغة اللاتينية وهي عصارة ما تم وباب ينفتح فـي الكتاب على ما سيأتي وهي قول المؤلف : Poesis ut pictura

وترجمتها "الشعر باعتباره تصويرا".

حمّادي صمّود
كلية الآداب والفنون والانسانيات
جامعة منوبة

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 93 – 109

كــدَرَ الحيــــــاة

قراءة في مرثية المتنبّي العينيّة في أبي شجاع فاتك[1]

بقلم : مبروك المنّاعي

مبرّر هذا العنوان هو مقتضى صيغة البيت السّادس من القصيدة المقترحة للتحليل وهو قول الشاعر:

تصفو الحياةُ لجاهل أوغافـلٍ   عمّا مضَى فيها وما يُتوقـعُ

والقصيدة تقع في نحو أربعين بيتا على البحر الكامل ورويّ العين، قالها المتنبّي في أبي شجاع فاتك، وهو ممدوحه القديم وصديقه عندما كان مقيما في مصر. وقد ورد في كتب التّراجم أنّ أبا شجاع أحد قوّاد الإخشيد ورجال دولته، كان يلقب "بالمجنون" لشجاعته، وأقطعه الإخشيد منطقة الفيّوم وأعمالها فأقام بها، بعد صراع مع كافور أفضى إلى إبعاده عن السلطة، ونشأت بينه وبين المتنبّي أثناء إقامته بمصر مودّة وحباه مالا كثيرا وهدايا. فمدحه بقصائد جياد من بينها قصيدته (البسيط) :

لا خيلَ عندكَ تُهديهـا ولا مـالُ   فلْيُسعدِ النّطقُ إن لم تُسْعدَ الحـالُ

ثمّ لمّا توفّي أبوشجاع، رثاه بثلاث قصائد، هذه أولاها وأشهرها وأهمّها. وقد قالها بعيْد وفاته (سنة 350 هـ)، حين بلغه نعيه وهو بالكوفة حديث عهد بالخروج من مصر. والثّانية قالها (سنة 351 هـ على ما يبدو) وقد تذكره بتحفة من ندّ كان أهداه إيّاها، ومطلعها (المتقارب) :

---

1) الدّيوان : تحقيق عبد الرّحمان البرقوقي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1986.

يذكرنـــي فاتكـــا حلمُـــهُ وشيءٌ مِنَ الندِّ فيهِ اسمُـــهُ

ومنها البيت المعدود :

فذاك الّـذي عبَّـــه مـــاؤُه وذاكَ الّذي ذاقـهُ طـعمـُـهُ

والثالثة قالها فيه وقد ذكره بعد وفاته بسنتين (352هـ) ومطلعها :

حتّامَ نحنُ نُساري النّجمَ في الظُّلَمِ وما سُراه على خُـــفٍّ ولا قَـــدَمِ

ومنها قوله :

لا فاتكٌ آخرٌ في مصرَ نـقصـدُهُ ولا له خَلَفٌ في النّـاس كلّهـــمِ

عَدِمتُه وكأنّـي سرت أطلـبُــــهُ فما تزيدنيَ الدّنيـا على العـــدَمِ

ومن مظاهر أهميّة القصيدة العينيّة التي سنتولّـى تحليلها أنّ أبا شجاع أبرزُ من رثاهم المتنبّي من قدماء ممدوحيه، وأنّ قصيدته هذه من مراثي "الوفاء" لا من مراثي "الرّجاء"، ومراثي الرجاء هي مراثي أقارب الممدوحين الذين غالبا ما يكون رثاء الشّاعر لهم فرعا على المديح وأملا مدحيّا معقودا على الأحياء من أقاربهم. ولذا فلعل القصيدة التي نعنى بها أقوى مراثيه دلالة على صدق العاطفة وعلو الخُلق وجلال الفنّ لأنّ هذا الرّجل توفّي بعد أن ترك الشاعر مصر إلى غير رجعة، ولمّا كان قد أنعم عليه ومحّضه ودّه في وقت عصيب من إقامته هناك حين فسدت علاقته بكافور وساءت حاله الصحيّة والنّفسيّة فقد استحقّ منه الرّثاء وفاءً.

من مظاهر أهميّة هذه القصيدة أيضا أنّها، والقصيدتين المذكورتين في رثاء أبي شجاع أعلاه، آخر ما قال المتنبّي في رثاء الرّجال وأنّه قالها وهو في أوج اكتهاله شاعرا واكتمال فنّه وأنّها القصيدة الوحيدة في رثاء الأصدقاء والخلاّن عنده ممّا يدعمه ظهور كلمة" صديق" في البيت الخامس وكلمة "خليل" في البيت السادس عشر منها.

I - نصّ القصيدة : (الديوان : ج3، 12-21)

1 - الحزنُ يُـقلِـــقُ والتجمـلُ يـــردعُ والدّمـــعُ بينهمـــا عصـــيٌّ طيّـــعُ

2 - يتنازعان دموعَ عيـــن مسهّـــــدٍ هذا يجيء بهـــا وهـــذا يرجـــعُ

3 - النّومُ بعد أبـي شجـــاع نـــافـــرٌ والليلُ مُعْـيٍ والكواكـــبُ ظُلّـــعُ

4 - إنّي لأجْبُنُ من فـــراق أحبّتـــي وتحسّ نفسـي بالحِمـــام فأشْجُعُ

5 - ويزيدني غضبُ الأعادي قســـوةً ويلمّ بي عَتْبُ الصّديــق فأجـزعُ
6 - تصفو الحياة لجاهل أو غافـــل عمّا مضى فيهـا ومـا يُتوقّـــعُ
7 - ولِمَنْ يغالطُ في الحقائــق نفسَـه ويسومُها طلبَ المحـالِ فتطمـــعُ
8 - أين الّذي الهرَمــانِ من بُنيانـــه؟ ما قومُه؟ ما يومُه؟ ما المصـرع ؟
9 - تتخلّف الآثـــار عن أصحابهـــا حيناً، ويدركها الفنـاء فتتبــعُ
10 - لم يُرْض قلبَ أبي شجـاع مبلـغٌ قبل الممـات ولم يسعْـه موضعُ
11 - كنّـا نظـــنّ ديـاره مملـوءةً ذهبًـا فماتَ وكـلُّ دار بلقـعُ
12 - وإذا المكارمُ والصّـوارمُ والقنَـا وبناتُ أعوجَ كلّ شـيء يجمـعُ
13 - المجدُ أخسرُ والمكــارمُ صفقـةً من أن يعيش لها الكريـــمُ الأروعُ
14 - والنّاس أنزل في زمانــك منــزلا من أن تعايشهمْ وقَـدْرَكَ أرفـعُ
15 - برِّدْ حشايَ إن استطعـتَ بلفظـة فلقد تضـرّ إذا تشـاء وتنفـعُ
16 - ما كان منـك على خليـل قبلهـا ما يُستـراب به ولا ما يوجـعُ
17 - ولقـــد أراكَ وما تُلـمّ ملمـــةٌ إلاّ نفاها عنك قلبٌ أصمعُ
18 - ويـدٌ كــأنّ قتالهـــا ونوالهـــا فرضٌ يحقّ عليك وهو تبرعُ
19 - يا مَنْ يبـدّل كلّ يـــوم حُلـــة أنّى رضيـت بحلّـة لا تُنـزعُ؟
20 - مازلتَ تخلعها على مَنْ شاءهـــا حتّى لبسـتَ اليـوم ما لا تخلـعُ
21 - مازلت تدفع كـلّ أمـر فـــادح حتّى أتى الأمــرُ الّذي لا يُدفـعُ
22 - فظلِلت تنظرُ لا رماحُـك شُــرّعٌ فيما عراكَ ولا سيوفـك قُطّـعُ
23 - بأبي الوحيد وجيشـه متكاثـــرٌ يبكي ومن شرّ السّـلاح الأدمـعُ
24 - وإذا حصلت من السّلاح على البكا فحشاكَ رُعتَ به وخدّك تـقـرعُ
25 - وصلتْ إليك يدٌ سَـواء عندهـا الــبازي الأشيْهبُ والغرابُ الأبقـعُ
26 - مَنْ للمحافل والجحافـل والسُّرى فقدتْ بفقدكَ نيّـرا لا يـطـلـعُ

27 - ومن اتّخذتَ على الضّيوف خليفــةً ضاعوا ومثلك لا يكـاد يضيّــعُ
28 - قبْحاً لوجهـــك يا زمـــانُ فإنّـــه وجـــه له من كلّ قبـــح برقـــعُ
29 - أيموت مثل أبي شجـــاع فاتـــكٌ ويعيش حاسده الخصـيُّ الأوكـــعُ
30 - أيْدٍ مقطّعـــةٌ حوالـــي رأســـهِ وَقفاً يصيح بها ألا مَـــنْ يصفـــعُ؟
31 - أبْقيْتَ أكذبَ كـــاذبٍ أبقـيتـــه وأخذتَ أصدقَ مَنْ يقول ويسمـــعُ
32 - وتركت أنتن ريحـــةٍ مذمومـــةٍ وسلبتَ أطيبَ ريحـة تتضــــوّعُ
33 - فاليومَ قرّ لكـلّ وحـــشٍ نافـــرٍ دمـــه وكـــان كـأنّـــه يتطـلّـــعُ
34 - وتصالحتْ ثمرُ السّيـــاط وخيلُـــهُ وأوتْ إليهـــا سُوقُهـــا والأذرعُ
35 - وعفا الطّراد فلا سنـان راعـــفٌ فوق القنـــاة ولا حســامٌ يلمـــعُ
36 - ولّى وكـــلّ مخالـــم ومنـــادمٍ بعد اللّـــزومُ مشيّـعٌ ومـــودّعُ
37 - مَنْ كان فيه لكلّ قـــوم ملجـــأ ولسيْفـهِ في كلّ قـــوم مرتـــعُ
38 - إن حلّ في فُـرسٍ ففيـــها ربّهـــا كسرى تذلّ له الرّقـاب وتخضـــعُ
39 - أو حـــلّ في رومٍ ففيهـــا قيصـــرٌ أوحلّ في عُـــرْبٍ ففيهـــا تُبّـــعُ
40 - قد كان أسرعَ فـارسٍ في طعنـــةٍ فرســـا ولكـــنّ المنيّـة أســـرعُ
41 - لا قلبتْ أيدي الفـــوارس بعـــدهُ رمحًا ولا حملت جـــوادًا أربـــعُ

II – التّحليـل :

أ) أوّل ما يلفت الانتباه في هذه القصيدة وفي موقعها وموقع قائلها من الشّعريّة العربيّة القديمة غرضها (الرّثاء)، وهو من أعرق أغراض الشّعر. ثمّ مقوّمات القول البنيويّة – الدلالية فيه، ونعني ثنائيّة التّفجّع والتّأبين : فقد جاءت مرثية المتنبي هذه مراوحة بينهما – كما هي الحال في جلّ المراثي العربيّة القديمة – على هيئة يتناوب فيها هذان المقوّمان عبر المقاطع التّالية :

- الأبيات من 1 إلى 9 = تفجّع
- الأبيات من 10 إلى 14 = تأبين
- البيت 15 = تفجّع

- الأبيات من 16 إلى 18 = تأبين

- الأبيات من 19إلى25 = تفجّع

- الأبيات من 26إلى 27 = تأبين

- الأبيات من 28إلى 32 = تفجّع

- الأبيات من 33إلى 41 = تأبين.

فالنصّ من جهة بنائه موجات متدافعة، للتفجّع منها الذرى، وللتأبين الوهاد، وظيفة التفجّع فيها صياغة ألم الفقد والتّنفيس عن الحرقة، ووظيفة التّأبين محاولة التّأسّي وتجديد الاحتقان الحزين : ثنائية تجسّم ثنائيّة الفاقد والمفقود وتجسّمها الثّنائيّات المنثورة في الخطاب نثرا من أوّل القصيدة إلى آخرها : ذلك أنّ قوام النصّ كلّه ثنائيّات ضديّة أُولاها ثنائيّة "الحزن" و"التجمّل" (البيت 1) وأخراها ثنائية سرعة الفقيد فارساً وسرعة المنيّة في افتراسه، وبينهما أضداد كثيرة (عَصيّ/طيّعٌ - يجيء / يرجع - أجبُن/أشجع – تتخلف/ تتبع – أنزلُ/ أرفعُ - تضرّ/ تنفعُ - فرض/ تبرُّعُ – تدفعُ/ لا يدفعُ- أبقيتَ/ أخذتَ - تركتَ/ سلبتَ)... وقوام التركيب والخيال الشّعري في النص كلّه أيضا، أسلوب الطّباق والمقابلة ممّا يجسّم استغراب الحدث وقسوته على برنامج الخيال الّذي كان الشّاعر قد أنشأه من حول الفقيد: فالنصّ يؤيّد مبناه معناه وآلته دلالته، وهي المفارقة بين ما كان وما وقع، وبين ما وقع وما كان ينبغي أن يقع. والاستغراب أوالعجب الّذي تجسّمه المفارقة ترجمْته أسئلة كثيرة لا مجيب عنها ظهرت خاصّة في الأبيات (19-26-27-29) أي في صلب النصّ وصميمه :

- أنـّى رضيت بحُلة لا تـُخلع ؟

- منْ للمحافل والجحافل والسرى ؟

- ومن اتـّخذت على الضيوف خليفة ؟

- أيموت مثل أبي شجاع فاتك ؟

- ويعيش حاسده الخصي الأوكع ؟

ب) وثاني ما يلفت الانتباه في القصيدة وفي موقعها وموقع قائلها من الشّعريّة العربيّة القديمة، بحرها (الكامل) وهو من البحور الفخمة المكرّسة قديما الصّالحة لمقامات الجدّ، المناسبة لصياغة دلالات "الكمال" في الرّجال أحياء وأمواتاً. وقد قيل في تعريفه "سمّي كاملا لأنـّه كملت أجزاؤه وحركاته وكان أكمل

من الوافر" [اللّسان] كما قال عنه حازم القرطاجني : و"مجال الشاعر في الكامل أفسح منه في غيره... وتجد له جزالة وحسن اطراد..." [2]

ج) وثالث ما يلفت الانتباه في القصيدة وفي موقعها وموقع قائلها من الشّعريّة القديمة رويّها: (العين) وهو رويّ كثير الجريان في المراثي، بل في"عيون" المراثي لأنّه يتضمّن جناسا عجيبا معجبا بين "العين" صوتا قي الأصوات و"العين" جارحة في جوارح البدن، وفيه تناسب ظاهر في المراثي القديمة[3] وفي مرثية المتنبّي هذه، بين "العين" نغماً للشّعر و"العين" آلة للبكاء وإفراز الدّموع. ولهذا ظهر لفظ "الدّمع" و"الدّموع" في أوّل أبيات القصيدة (ب 1وب 2) ثمّ عاد مصحوبا بلفظ "البكاء" في وسطها (ب 23 وب 24) كما ظهر لفظ "العين" جارحةً منذ بيتها الثّاني (عين مسهّد)...

وبصورة سعى فيها الشّعر إلى محاكاة البكاء جرت العينُ بالدّمع فجرى العين صوتا في كامل مساحة النصّ، ثبّته التّصريع ودعمه النّبر التّكثيفي في البداية خاصّة (عبْر ترديد صوت العين في ألفاظ كثيرة مثل : "يردع- عصيّ- طيّع - يتنازعان دموع عيْن – يرجع – شجاع – مُعيِ - ظُلّع...) فإذا القصيدة في مظهرها النّغمي "بكيَة" شعريّة طويلة بكاها المتنبّي على هذا الصّديق الرّاحل ومعزوفة حزينة على نغمة "العين"، عليها أقام فنّة في مستوى التفجّع...

أمّا في مستوى التّأبين فقد تمثّل محمل الصّناعة والإبداع في تقنية التّرصيع أوالموسيقى الدّاخليّة القائمة على المقاطع الطويلة المفتوحة الموحية بدلالات التمجيد والإشادة والتّنويه، وأبرز مظاهرها ما جاء في البيتين (12) و(26) خاصّة :

وإذا المكارمُ والصّــوارمُ والقنـــا   وبناتُ أعوجَ كلّ شـيء يجمــعُ [4]

مَنْ للمحافلِ والجحافلِ والسّـــرى   فقدتْ بفـقدك نيّــرا لا يطـلــعُ

---

2) "منهاج البلغاء"... دار الغرب الاسلامي، بيروت. 1981.

3) راجع مثلا عينيّة متمّم بن نويرة (رقم 68 في المفضّليّات) وعينيّة المعطّل الهذلي (ضمن ديوان الهذليّين) وعينيّة الفرزدق في محمد بن يوسف الثّقفي (الديوان، صادر 1 / 397) وعينيّة أبي تمّام في أبي نصر الطائي (الديوان، دار الكتب العلميّة، ص 361)...

4) "بنات أعوج" كنايه عن الخيل الجياد العتاق. ومرجع التسمية حكاية خرافية وتفسير أسطوري تداوله شرّاح شعر المتنبي ونُسب نواة الحكاية فيه إلى الأصمعي وهوأن "أعوج فحل معروف من فحول العرب إليه تنسب الخيل الأعوجية، وإنما سمي "أعوج" لأن غارة وقعت ذات ليلة على أصحاب هذا الفحل وكان مهرا ولضنهم به حملوه في وعاء على الإبل حين هربوا من الغارة فاعوجّ ظهره وبقي فيه العوج فلقب بالأعوج. وقال الأصمعي : سئل ابن الهلالية فارس أعوج فقال: ضللت في بعض مفاوز تميم فرأيت قطاة تطير فقلت في نفسي: والله ما تريد إلا الماء، فاتبعتها ومازلت أغض من عنان أعوج حتى وردت والقطاة." (شرح الواحدي، طبعة برلين. 1871 م ص 713) على أن العلاقة بين الخيل والطير معروفة في الأساطير القديمة، وغاياتها تمثيل صفة السرعة في هذا الحيوان. راجع محمد عجينة : "موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها". دار الفارابي. بيروت. 1994. 1 / 286 – 287.

د) ورابع ما يلفت الانتباه في القصيدة ويحسم القول في موقعها وموقع قائلها من صميم الشّعريّة العربيّة القديمة ويقيم الدليل على وفائه لتقاليدها العريقة الرّاسخة وتنويعه على أصولها المبدعة ورغبته في إغنائها والإضافة إليها هو أنّها في جملتها انفعال شعوريّ - فنيّ ومعارضة لقصيدة عينيّة من عيون الشّعر القديم هي قصيدة أبي ذؤيب الهذلي (ت28هـ) الّتي قالها في رثاء بنيه ومطلعها (الكامل) :

أمِنَ المنون وريْبهـا تتوجّـعُ ؟ والدّهرُ ليس بمعتبٍ مَنْ يجزَعُ

وتفصيل ذلك أنّ البيت الخامس من قصيدة المتنبّي فيه نظرٌ إلى مطلع قصيدة أبي ذؤيب المذكورة أعلاه، وأنّ البيت الثّامن من قصيدة المتنبّي فيه نظر إلى قول أبي ذؤيْب عن أبنائه :

سبقوا هـوَيَّ وأعنقـوا لِهوَاهـمُ فتُخرِّموا ولكلّ جنـبٍ مَصـرَعُ

وأنّ البيت الخامس عشر من قصيدة المتنبّي فيه نظر إلى قول أبي ذؤيب:

وإذا المنيّةُ أنشبتْ أظفارَهـا ألفيتَ كلّ تميمـةٍ لا تـنفـعُ

وأنّ البيت الرّابع والعشرين من قصيدة المتنبّي فيه نظر إلى قول أبي ذؤيب :

حتّى كأنّي للحـوادث مـروةٌ بصَفا المُشرَّق كلَّ يومٍ تُقرَعُ

وكذلك قرائن وإيحاءات وأصداء كثيرة أخرى...

القصيدة إذن، معارضة لقصيدة قديمة معدودة، ولكنّ المعارضة غير التقليد، وإنّما هي من منظور مّا أبرز مظهر من مظاهر ما أضحى اليوم يسمّى "التّناصّ"، ينفعل فيها شاعر بشاعر ويقيم قصيدته بإزاء قصيدته إقامة هادفة إلى التّحدّي، تحدّي الأنموذج بنيّة تجاوزه والمدّ في حيّز إبداعه. والمعارضة أو التّناصّ تفاعل نصّ مع نصّ وانفعال جديد بقديم وشاهد بغائب، جسّمه المتنبّي هنا بأن بكى صاحبه ببكاء على بكاء باكٍ قبله وأراده رهانا على مضاهاة حزن واحدٍ من رموز الحزن في الشّعر العربي لم يشقَ شاعر شقاءه لأنّه فقد بنيه الخمسة دفعة واحدة، وعلى إبداع رثائيّ قلّ نظيره في رثاء البنين وهو أوجع الرّثاء وأشجاه.

1) دلالات التفجّع :

لئن كان مدار التأبين على المرثيّ فمدار التفجّع على الراثي، وأوّل سفور لذات الراثي (أنا الشاعر) كان في هذه القصيدة عبر اسم المفعول (مسهَّد) وقد جاء

لفظًا نكرة وأمعن في إفقاده كلَّ فاعليّة إيراده في نهاية التركيب آخر سلسلة إضافات – فضلةً من فضلة – يتعاور لوازمه العامل وضدّه وهو مسلوب الإرادة مغيّب الفعل تماما :

يتنازعان دموعَ عيْن مُسَهَّـدٍ   هَذا يجيء بها وهذا يرجـــعُ

ينتصب في أوّل الكلام لفظ "الحزن" مشكّلا أول عناصر البذر الشعري وأولى نواة مولّدة له، ويتواتر في صياغة مقاطع التفجّع في القصيدة معجمُ الحزن والدموع والقلق والسّهاد، وتتنازع فيه الذّات الشّاعرة ثنائيّات تعمل في اتّجاهين متناقضين : كلّ يجذبها في اتّجاه، وهوما يجسّمه الظرف "بينهما" (في البيت الأوّل) والفعل" يتنازعان" (في البيت الثّاني) الموحيان بالتّمزّق والتّصدّع، وينقسم فيها مسار الحياة إلى طوريْن : ما قبل موت المرثيّ وما بعده (البيت الثّالث)، وما بعد مـــوت المرثيّ "ليل مُعْيٍ" و"كواكبُ ظلّعُ" : كنايتان عن نصب الوقت وبطء سيـــره تضفيـــان على التفجّع بُعْدًا كونيّا ولّدهما المتنبّي من ليل امرئ القيس (تـ 550 م) الديوان، ص117 من [الطويل] :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدولـه   عليّ بأنواع الهمـــوم ليبـتـلـــي

فقلت له لمّا تمطّـــى بصُلبـــه   وأردف أعجازا ونـــاء بكلكـــلِ

ألا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انجـــلِ   بصبح وما الإصباحُ منك بأمثـلِ (5)

كما ولّدهما من ليل النّابغة الذبياني : (تـ بعد 602 م) من [الطويل] :

كِليني لهمّ يا أميْمـــة ناصـــب   وليلٍ أقـاسيه بطيء الكواكــبِ

تطاولَ حتى قلتُ : ليس بمنقضٍ   وليس الّذي يرعى النّجوم بآيـبِ

في البيت الخامس من القصيدة مقارنة ضمنية بين الموت وفراق الأحبة مفادها أنّ فراقهم أنكى وأعظم أثرا في النفس، لأنه لا تنفع فيه شجاعة الشجاع :

إنّي لأجبُنُ من فراق أحبّتـــي   وتحسّ نفسي بالحمام فأشْجُـعُ

أمّا نهاية المقطع التّفجّعي الأوّل ففيها موقف من الحياة مستمدّ من فاجعة الموت صاغه الشّاعر حين صقل الحزن عقله وجاد به الشّعر حين جدّ: تصفوالحياة للجاهل والغافل والأرعن السّفيه، ولكنّها في عين العاقل كدِرة عكِرة غرّارة ضرّارة حائلة زائلة. هذه حقائقها التي ينبغي للعاقل أن لا يذهل عنها، فهي

5) الديوان دار الكتب العلميّة بيروت 1983 ص 117.

دار الأخطار والفجائع والتحول والنقلة، سبيل البشر فيها الفناء مهما تطاولوا في البنيان فأوهموا أنفسهم بطول البقاء : وفي هذا، على ما يبدو، صدى بعيد لقول أبي العتاهية (تـ 213 هـ) مقصّرا ما بين الموت والولادة وما بين البناء والخراب (الديوان، ص46 من الوافر) :

لدُوا للموتِ وابنُوا للخـرابِ فكلّكم يصيـــر إلى تَبــــابِ

وقد مثّل المتنبّي في أبيات التأمّل هذه (من 6 إلى 9) على حتميّة الفناء بباني "الهرمين" (أين الذي الهرَمان من بنيانه) كناية عن فرعون لأنّ المرثيّ مصريّ، وهذا حظ التّمثيل من التّجديد، أمّا مراجعه فكثيرة من أبرزها قول عديّ بن زيد العِبادي (تـ حوالي 604م) الأغاني،2، 115 [الخفيف]) :

أين كسرى، كسرى الملوكِ أنوشـرْ وانَ أمْ أيـــن قبلَـــهُ سابـــورُ ؟

وإنّ السؤال "أين..." متبوعًا في الغالب "بالذي" أو"بالألى" كثير التواتر في مقاطع التفجّع التأمّلي القديمة وفي مقاطع التأمّل في زوال الدنيا ضمن شعر الرثاء والزهد. وربّما التفت المتنبي في صياغة هذا المعنى إلى هذا كلّه وخصوصا إلى قول أبي العتاهية (الكامل) :

أين الألى شادوا الحصونَ وجنّدوا فيها الجنود، تعـزّزًا، أين الألى
وذو والمنابر والعساكر والدساكر والحضائر والمدائن والقـــرى
وذوو المراكب والكتائب والنجائب والمراتب والمناصب في العُلى ؟

فإن صحّ هذا الظنّ قلنا إنّ رواسب صياغة هذا المعنى في ذاكرة المتنبّي قد أمدّته بلوازمه، وهو ما يرتدّ إليه أيضا قوله (في البيت 26) "مَنْ للجحافلِ والمحافلِ والسّرى..."

في البيت الخامس عشر عنصر تفجّع من نوع آخر، عاطفيّ لا عقليّ، قوام شعريّته مخاطبة الميت وترجّيه أن يتكلّم واختبار قدرته ميْتا بعد اختبار قدرته حيّا لأنّه كان – متى شاء- قادرا على مطلق الفعل (يضرّ وينفع) : حظ المتنبّي في هذا العنصر المعنوي من الإبداع الكناية عن أنّ حرقة الحيّ الفاقد لا يطفئها وغلّته لا يبرّدها إلاّ استئناف الميت الحياة، وهيهات أن يكون ذلك لأنّه من (طلب المحال)، وطرافة فنّه حسن التّنويع على صورة معنى الرّجاء. أمّا نواة المعنى فموجودة قبله عند رموز شعراء الرثاء من أمثال كعب بن سعد الغنوي (جاهلي، كان حيّا في يوم ذي قار، قبل الإسلام بحوالي 50 سنة) ومتمّم بن نويرة (ت نحو30هـ). قال الأوّل في رثاء أخيه أبي المغوار (جمهرة أشعار العرب، ص323 من الطويل) :

وداعٍ دعا يا مَنْ يجيبُ إلى النّديُ فلم يستجبْه عند ذاك مجيبُ
فقلتُ ادعُ أخرى وارفعِ الصّوتَ عاليا لعلّ أبا المغوار منك قريبُ

وقال الثّاني يرثي أخاه مالكًا (المفضّليات، ص267 من [الطويل] :

أبى الصّبرَ آياتٌ أراها وأنّني أرى كلَّ حبلٍ بعد حبلكَ أقطعَا
وأنّي متى ما أدعُ باسمكَ لا تُجبْ وكنتَ جديرا أن تجيبَ فتُسمِعَا

على أنّ مخاطبة الميت أعلى درجات التفجّع وأدلّ معانيه على أماني الإحياء المندسّة في أقدم المراثي، وهي في قصيدة المتنبّي هذه تحتلّ وسط الرثاء وتمثّل أوجه. وقد صاغها الشاعر، في ما سبق أن أشرنا إليه، بالطلب (برّدْ حشاي بلفظة) ثمّ صاغها في الأبيات (19 – 25) – وهي تتضمّن العنصر التفجّعي الثالث – بالنداء وبالاستفهام الدالّ على التعجّب، وكان قوام هذا العنصر ضياع الخطاب وتلاشيه عبر التيقن من سلبيّته وعبثه فالاحتقان بالحزن والبكاء مجدّدا بسبب الشّروع في التّسليم بحقيقة ما آل إليه الميت وانقلاب الدّنيا به (رضيتَ بحلّة لا تُنزع - لبستَ ما لا تخلع).

جديد المتنبّي في هذا الكلام ليس الكناية عن أنّ الكفن آخر كسوة يلبسها الميت، فمرجع هذا قديم أيضا يُلتمس في مثل قول يزيد بن الخذّاق (جاهلي) مستحضرًا يومَ موته وتجهيز قومه إياه للدفن (المفضّليّات ص 300) [البسيط] :

قد رجّلوني وما رُجِّلتُ من شَعَثٍ وألبسوني ثيابا غيْرَ أخْلاق[11]

إنّما جديد المتنبي وبديعه في هذا هوالعتب على كون المرثيّ (الميت) لم يقتل الموت إذ جاءه، وقد كان بطلا باسلا صاحب جيش وسلاح كثير، وتعجّبه أصلا من كون الموت يقتل[6] أقدر النّاس على القتل ثمّ يبقى هو "حيّا" ومن كونه قاتلا أحمق لا يميّز بين" البازي" و"الغراب". يقول في البيت الخامس والعشرين :

وصلتْ إليك يدٌ سَواءٌ عندها الـ ـبازي الأشْيهَبُ والغرابُ الأبقعُ

---

6) قال المتنبّي، في مقام لآخر مرتبط بالرثاء أيضا :

إذا ما تأمّلتَ الزّمانَ وصرْفَهُ تَيَقّنتَ أنّ الموتَ ضربٌ من القتلِ

هذا هو السّبب الثّاني " للاستغراب " الذي أشرنا إليه من قبل والذي تحكّم في شعريّة القصيدة، معجما وتمثيلا وبناء، فأقام برنامجها الجمالي العامّ على المتضادّات والمتناقضات : الغريبة الأولى أن يموت أبوشجاع، والغريبة الثّانية أن يبقى كافور حيّا... أن يموت "البازي" قرين أبي شجاع وأن يعيش "الغراب" قرين كافور.

هذا منطلق آخر مقاطع التّفجّع في القصيدة وهو قمّته وأوجه ومنتهى الخرق في فعل الزّمان وفي تقرير "قبحه" ومنتهى الارتباك في منطق الدّنيا والغرابة في فعلها :

أيموت مثل أبي شجـاع فاتكٌ　　　ويعيش حاسدُه الخَصِيُّ الأوكـعُ ؟

وهذه نبوّة "البازي" و"الغراب" الواردة من قبل، وما أقرب ما بين "الغراب والغرابة"... تأخذ يد الموت البازي "الأشهب" وتترك الغراب "الأسود" فيعمّ السّواد... تأخذ الطيّب وتترك الخبيث فيعمّ الزّيف والنتن : لقد كان المتنبّي حديث عهد بالخروج من مصر وترك بها عدوّا أشقته الحياة به وصديقا هوّن عليه جانبًا من شقائه بها، فإذا بالعدو يعيش والصديق يموت. لهذا خطر للشاعر الهجاء، وهو يرثي، وهي خاطرة هجاء لكافور وجدت لها كوّة في رثاء أبي شجاع فتسلّلت منها.

وإنّ طريف المتنبّي في هذا المقطع هو أوّلا مزجه الرثاء بالهجاء، بل فتحه في الرّثاء تجويفا لم نعهده في الشّعر قبله، نعني شعر الرّثاء، لمحاسبة الأحياء والاعتراض على مشيئة الموت في أخذ مَنْ هم أجدر منهم بالحياة وتركهم هم يعكّرون أجواءها ويعيثون فيها الفساد.

ووظيفة الهجاء في هذا الكلام تأجيج الرّثاء وتكثيف الفقد، فهو استفحال للتفجّع ودرجة ثانية منه، لأنّ حياة كافور ذكرت بمناسبة موت أبي شجاع فكأنّها موت آخر وخسران آخر ومظهر آخر من مظاهر نكد الدّنيا وإساءة الزّمان... وجديد المتنبّي في هذا المقطع هو أيضا الدّعاء على الزّمان "بقبح الوجه". أمّا بقيّته ففيها نظر إلى أبي نواس (تـ 198 م) إذ رثى الأمين فعرّض بالمأمون وذلك قوله الديوان، ص581 من [الطويل] :

لئن عُمّرتْ دورٌ بمنْ لا أحبّهـمْ　　　فقد عُمّرتْ ممّنْ أحـبُّ القبـورُ

هذا التفجّع فكيف التأبين ؟

2) دلالات التأبين :

أصل "التّأبين" في اللغة اقتفاء "الأثر"، ومنطلقه في القصيدة البيت التّاسع :

تتخلفُ الآثار عن أصحابهـا حينًا، ويُدركها الفَنـاءُ فتَتبَعُ

ومعنى هذا أنّنا بإزاء معنى شعريّ يهدف صاحبه من ورائه إلى النفاذ إلى ما هو جوهريّ في إنهاض الشعر بدوره "الأصليّ" وتكرار عمل الشاعر الأوّل في توظيف القول لإحياء الفعل وجعل"الأثر" مخلّدا للـ"عين". وجديد المتنبّي فيه صبغه إيّاه بصباغ التّفجّع أي إرباكه التمايز المعهود قبله في صياغة المعنييْن ودكّ الحدود بينهما.

أمّا معاني التّأبين فأوّلها بُعد الهمّة واتّساع الطّموح وعظمة البأس، وقد صاغه الشاعر في البيت العاشر بواسطة كناية الاتّجاه المخيّلة للاتّساع الفضائي والأفقي وجعل في صياغته له نهاية الفقيد في الزمان (الممات) إيقافًا لاتّساع حركته في المكان (لم يسعْه موضعٌ). وثاني المعاني جود المرثيّ وزهده في المال وكنزه بدلاً منه المكارم وعُدّة اكتسابها أي الخيل والسلاح، وهو معنى للمتنبّي فيه جودة الصّياغة باعتماد العدول التّنغيمي القائم على التّرصيع في قوله (المكارم والصّوارم في البيت 12)، أمّا نواة المعنى فموجودة في شعر كثير قبله منه قول مروان بن أبي حفصة (ت182هـ) في رثاء معن بن زائدة الشيباني (شعره ص146 من الوافر) :

ولمْ يكُ كنـزُه ذهبًـا ولكـنْ حديـدَ الهنـد والحلـقَ المـُذالا

وقول المتنبي "كنّا نظنّ دياره مملوءةً ذهبًا..." كناية عن كرم الفقيد وتخرّقه في البذل.

وثالث المعاني أنّ موت المرثيّ خسارة للمجد ويتم للمكارم ومظهر من مظاهر سوء حظها وسبب من أسباب بوارها وكساد سوقها : هذا ما ذهب إليه شرّاح شعر المتنبي من أمثال الواحدي والعكبري والبرقوقي في شأن البيت 13 :

المجد أخسرُ والمكـارم صفقـة من أن يعيش لها الكريـمُ الأروعُ

وإنّ صيغة البيت والسياق الذي اكتنفه قد يبيحان تأويله على وجه آخر هوأن المكارم والمعالي – وإن كانت جديرة تمام الجدارة بأن يعاش من أجلها – أهون من أن يوقف الكريم الفطن حياته كلّها عليها لأنّ حياته أنفس من كل نفيس. والذي قد يبرّر هذا الفهم هوما سببته فداحة الفقد وشدّة الحزن من نقض للبداهات،

وهو أيضا كون حقائق الشعر نسبية تكيّفها خصوصيّة المقام ودقّة الظرف. أما المردود الفنّي لهذا الإجراء فهوتوليد الشاعر معنى رثائيا جديدا تمثل في تفويقه مرثيّه على القيم نفسها التي لا يكون الإنسان إنسانا إلا بها. والمتنبي معتاد على مثل هذا، فكلما كان انفعاله شديدا حادّا تمرّد على السنن وأربك المواضعات : فقد اعتبر العقل، في بعض مقامات يأسه ونقمته، سببا في التعاسة، وهو قوله الشهير : "ذوالعقل يشقى في النعيم بعقله"... من غير أن يكون ذلك منه موقفا مطلقا ولا نهائيا.

ورابع المعاني تفوّق المرثيّ على أناس زمانه وتفرده في عصره (البيت 14) وقد صاغه الشاعر بواسطة الاستعارة الفضائية (فوق / تحت) عبر المقابلة (الناس أنزلُ / قدرك أرفعُ). وخامس المعاني عفّته وسمو أخلاقه وإحسانه إلى الصديق والخليط (البيت 16). وسادس المعاني رباطة الجأش والصّبر على الشدائد والملمّات. وسابعها ثنائية البأس والجود – وهي لباب ما يمتدح من بطولات الرّجال في الشعر القديم – وقد صاغها الشاعر (في البيت 18) بقوله :

ويـدٌ كـأنّ قتالهـــا ونوالهـــا   فرضٌ يحق عليك وهو تبــرّعُ

ناظرا إلى قول أبي تمام (ت231هـ) في الحسن بن سهل (الديوان، ص26 من الطويل) :

ثوى مالهُ نهبَ المعالـــي فأوجبـــتْ   عليه زكاةُ الجودِ ما ليـــس واجبـــا

وأدّاها بأسلوب التّنويه نفسه القائم على التّرصيع والمقاطع الطّويلة المنفتحة(قتالها/ نوالها) في إطناب على قوله السّابق (المكارم/ الصّوارم) وهو معنى تكمّله ثنائيّة (السُّرى/القِرى) في البيتين 26 و27 وثنائيّة (المحافل/ الجحافل) المصوغة بنفس الأسلوب والدّالة على أنّ المرثي كان بهجة الحرب وبهجة السّلم قبل أن يغرب غروبا لا طلوع بعده (فقدت بفقدك نيّرا لا يطلع)، ممّا يتّسق، في مستوى التّمثيل، مع إيحاء السّواد والظّلام الموصوف في أوّل القصيدة ومع ذكر "الغراب" قبيْل هذا فيضمن للقصيدة وحدة عالمها التّمثيلي القاتم الحزين ويلقي على التّأبين مرّة أخرى ظلال التّفجّع وتنتشر منه أصداء في البيت (36) تخدم وحدة النصّ أيضا.

وآخر التّأبين إطناب على ما سبق منه وتمكين لا تزيد فيه القصيدة على ما قالت ولا على ما قالت القصائد قبلها إلاّ الفنّ ويبدوفيه إبداع المتنبّي نوعيّا خالصا يحتلّ من القصيدة محلّ الخاتمة ومن وصف قصّة الموت محلّ النّتيجة ويحدّد لحظة في الزّمان فارقة بين ماضيه وحاضره، ذلك قوله في البيت (33) وما بعده :

فاليومَ قرَّ لكلّ وحش نافر دمُهُ، وكان كأنّه يتطلّعُ
وتصالحتْ ثَمَرُ السياطِ وخيلُهُ وأوتْ إليها سُوقُها والأذْرُعُ

وقوام الفنّ في هذا الكلام كنايتا اتّجاه تشكّلان صدًى ورجعًا لما سبقهما ممّا يماثلهما فتسهمان في تحقيق تجانس العالم التّمثيلي للنصّ: أولاهما كناية استقرار دماء الوحوش في أبدانها من بعد أن كانت، والمرثيُّ حيٌّ، تتطلّع في كلّ لحظة للخروج منها، والثانية كناية استعادة الخيل سوقها (جمع ساق) أوإيواء أيدي الخيل وأرجلها إلى أبدانها من بعد أن كانت مأخوذة منها أبدا يسحبها منها المدى وتتقاسمها المآرب والغايات. في هاتين الكنايتين تأبين بالشجاعة والبأس والشوكة والخطر تكمّله كناية ثالثة مركّبة على استعارة (في البيت 35) :

وعفا الطرادُ فلا سنانٌ راعفٌ فوق القناة ولا حسام يلمعُ

تدعم فيها صورة انحباس الدم في قول الشاعر "فلا سنان راعف" مثيلتها في قوله "قرّ لكلّ وحش دمه" ويضطلع في صياغتها النفي بدلالة السلب (فلا سنان ... ولا حسام...) بما يفضي إلى معنى أنّ موت المرثيّ توسيع لنطاق الحياة وتكثيف لحركتها في ما حوله وما بعده، ويمهّد لمقارنة (في البيت 40) بين سرعة مضيّ حكم الفقيد في من يقاتل وسرعة مضيّ حكم المنيّة فيه.

وينضاف إلى الفعل "قرّ" (في البيت 33) الدّال على انتفاء الحركة فعل"ولّى" (في البيت 36) الدّال على التّراجع وأخيرا الفعل "كان" (في البيت 37) الدّال على الزّوال والانتقاص، فلا يبقى من حضور المرثيّ في خيال القصيدة سوى الاقتران المعنوي بأسماء عظماء أمم بادت وبادوا (كسرى الفرس وقيصر الرّوم وتبّع العرب) يسلّي الشّاعر بواسطته نفسه ويبحث فيه لفقيده عن عرش رمزيّ بين عروش عظماء الموتى، وهوأمر يشكّل، من زاوية نظر أخرى، إطنابًا على ما سبق من إشارته (في البيت 8) إلى فرعون ممّا يتضمّن إيحاءً تأبينيّا بعظمة الميت وفداحة المصاب فيه.

ولا يبقى، غير هذا، من عمل الشّاعر ونفع الشّعر في واقع الحياة الدّنيا إلاّ أن يدعوعليها - دعاء يتجاوب صداه مع سابق دعائه على الزّمان (قبحا لوجهك) - بأن تُشلّ حركتُها وتبطل. وهي نهاية ناقمة حانقة تقوم نقيضا تامّا لهدوء البداية قبل أن تتفاعل في نفس الشّاعر وخياله غلواء الحزن وغلواء الشّعر، وهي في صيغتها شبيهة – ولعلّها فاعلة - في قول معاصره ومنافسه أبي فراس الحمداني (ت 257 هـ) (الديوان، ص 157) "إذا متّ ظمآنا فلا نزل القطر".

ولئن كانت أبرز مقوّمات التفجّع ظواهر التمثيل فإنّ أبرز مقوّمات التأبين ظواهر التنغيم والإيقاع، فقد انتظمت الجملة الشعرية، لا سيما في مقاطع التأبين،

على هيئة يخضع القول فيها لهندسة تلفت الانتباه باتّساق أبنيتها وتتكفل بجانب من شعريّة القصيدة هو إغناء الشاعر الإيقاع وتكثيفه إيّاه بإحكام تنضيد الخطاب وتنظيمه بواسطة أسلوب المقابلة، وكذلك إغناؤه التنغيم بواسطة النبر التكثيفي، وهو ما يظهر في مثل قوله :

ما قومُهُ / ما يومُهُ

رِمَاحُكَ شرَّعٌ / سيوفُكَ قطّعٌ

المجدُ أخسَرُ / الناسُ أنزلُ

المكارمُ والصوارمُ والقنا / المحافلُ والجحافلُ والسُّرَى

لكلّ قوْمٍ ملجأٌ / في كلّ قومٍ مرْتعُ

لوحلّ في رومٍ ففيها قيصرٌ / أوحلَّ في عُرْبٍ ففيها تُبّعُ

وجلّ هذه المقابلات يخدم، بقيامه على التضادّ، فكرة إنكار موت المرثيّ واستغرابه – فضلاً عن إيحائه بالانسجام والتوازن في شخصه وفعله – فيدعم فيه مستوى التركيب مستوى التمثيل ويجرى فيه، كما جرى في غيره من مستويات النصّ، تيّار من "الدلالة التحتيّة" يدعم دلالاته الظاهرة ويكثّفها.

على أنّ المقوّم الفنّي العام للقصيدة تركيبي – توزيعي، يتمثّل في المقابلة وهي أسلوب ذو شأن في عموم شعر المتنبي. وقد تمثّل اشتغالها، في النصّ الذي نحلل، في تقسيم العالم إلى زمنين وحالين سبق أن أشرنا إليهما إذ علقنا على البيت الثالث من القصيدة: ما قبل موت مرثيه وما بعده، أو تقسيم المجال المفهومي المتصل بالحياة وقرينها الضدّي (الموت) إلى منطقتين معنويتين تنفي إحداهما الأخرى فاضطلعت الثنائيات الضديّة أي المقابلات، في قصيدته بدورين: دور هندسي تنظيمي تمكّن بواسطيته النصّ من التنامي وتقدّم بواسطته تنضيد الكلام فيه وتوسّع بجذب كلّ ضدّ ضدّه واقتضاء كلّ حدث نقيضه بما يوضّح أهميّة الطباق والمقابلة في تجسيم "تجذر الانتظام الثنائي أنتروبولوجيا لأنّه انتظام يهيكل فكر الإنسان وأقدم أنساقه التصويرية" [7]، أمّا الدور الثاني الذي اضطلعت به المقابلة فهو دور رمزي، وحقيقته تنطبق على جميع حقائق الكون وأبرزها في هذه القصيدة حقيقة "الحياة" فهي صفاء في باطنه كدر وطول في باطنه قصر وأمن في باطنه خطر ووجود آيل إلى أثر.

---

7) J. Molino et J.G. Tamine : « introduction à l’analyse de la poèsie » p. 118.

لقد نظم المتنبّي قصيدته هذه في رثاء صديقه أبي شجاع فاتك على ترسيمة غائمة من شعر الرّثاء العربي القديم، كثيرة النّصوص خاصيّتها المشتركة أنّها من مراثي البنين والإخوة والأصدقاء، ممّا يضمن لها صدق الخاطر وأصالة الشّعور، وبنى على فنّ سابقيه فنّه الخاصّ بأن أنشأ لقصيدته عالمها التّمثيلي النّوعي ومناخها النّغميّ وإيقاعها المتفرّد، وبفضل ذلك جاءت "من المراثي الفائقة" كما قال عنها بعض المصنّفين. وهي في تقديرنا مثال صالح للدّلالة على أنّ إبداع المتنبّي إبداع أصيل قائم على تشبّع بعيون النّصوص التي سبقته وعلى قدرة فائقة على الاغتذاء منها والتّصرّف في مادّتها وعناصرها بما يجدّدها ويعيد تصريفها في كيانات فنيّة مبتكرة، متجذّرة، طريفة أصيلة معا. وهي كذلك دليل على أن هذا الشاعر قد كان اختصارا وتأليفا لعصور الشعر العربي وأجياله السابقة له، في مستوى الشعرية والمزاج النفسيّ والفنّي، كما كان اكتمالا لها وتوسيعا لنطاق الابتكار والابداع فيها.

مبروك المناعي

كلّية الآداب والفنون والإنسانيات

جامعة منّوبة

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 111 – 159

فِي نقَل السوابق واللواحق الأجنبِية إلى العربِية

بقلم : إبراهيم بن مراد

0 – تمهيد :

قد أُريدَ لهذا البحث من بداية التفكير في كتابته أن يَكون موسّعًا شاملاً في دراسة السوابق واللواحق الأجنبية ذات الصلة بالترجمة إلى العربية، وأن تقوم الدراسة على المقارنة بين نظم الزيادة في اللغات الأوروبية – وخاصة الفرنسية والانغليزية – وفي اللغة العربية، والنظر في إمكانات نقل السوابق واللواحق الأجنبية إلى اللغة العربية بطرق ثابتة. لكن تحقيق هذا المقصد يبدو صعبًا، لأنّ المسألة كلها ما زالت غفلاً في العربية. فإن الذين عنوا بها نظريا قلة ؛ وأما تتبعها في التطبيق – وخاصة في النصوص المترجمة أو في المصطلحات العلمية والفنية التي تُرْجِمَتْ أو وُضِعَتْ انطلاقا من أصول أجنبية – فلا تعينُ الباحث إلا على تبيّن "الفوْضى المنهجية" الغالبة على أعمال المحدثين في ترجمة السوابق واللواحق ؛ ثم إنّ عدد هذه السوابق واللواحق التي تتعَامل معها العربية كبيرٌ جدا، وهي مختلفة الأصول، لأنّ منها ذا الأصل اليونانيّ، ومنها ذا الأصل اللاتيني، ومنها ذا الأصل الرَّوْمَنِي (roman) أو الأصل الموضوع حديثا. ولا يمكن لدراسة محدودة أن تُحيطَ بجوانبِ المسألة كلها، خاصة وهي لم تُدْرس من قبل كما ذكرنا دراسة لسانيّة موسّعة معمّقة تنطلق من استقراءِ النصوص القديمة والحديثة ومن المقارنة الدقيقة الشاملة بين النظام الصرفيّ الاشتقاقي في اللغة العربية باعتبارها لغة ساميّة، والنظام الصرفيّ الاشتقاقيّ في اللغات الأوروبية الحديثة التي تعتَمدُ

اعتمادا كبيرا على نظام الزيادة. ولذلك كله فضّلنا في هذا البحث إثارةَ القضايا على الإتيان بالحلول، لأنّ الحلول في ما نرى لا يُؤتَى بها إلاّ إذا أثيرت القضايا وعُرفت المشاكل الجوهريّة التي تقتضي الدرسَ والمعالجة.

وقد قسّمنا هذا البحثَ إلى أربعة أقسام : الأولُ في مسألة الزّوائد الصرفية الاشتقاقية في اللغة العربية وخاصة في علاقتها بالتوليد المعجمي الذي يُعَدُّ الاشتقاقُ من أقوى قواعده ؛ والثاني في نقل السوابق واللواحق الأجنبية إلى اللغة العربية في المصادر الحديثة، وليس هذا القسم في اقتراح حلول أو تَصوّر طرق " ثابتة" لترجمة تلك السوابق واللواحق، بل هو في وصف طرُق المحدثين في معالجتها وخاصة في الأعمال المصطلحية التي تنطلق من الترجمة، وقد عرَضنا فيه نماذجَ تمثيليّة في نقل جملة من السوابق واللواحق المهمّة في المصادر الحديثة ؛ والقسم الثالث في مشاكل الترجمة، أي المشاكل التي تثيرها ترجمةُ السوابق واللواحق الأجنبية، بالنظر في ما انتهينا إليه في القسم الثاني من نتائج الاستقراء ؛ والقسم الرابع محاولة لوضع منهجية في نقل السوابق واللواحق، قائمة على جملة من المبادئ والقواعد.

1 – في مسألة الزوائد الصرفيّة في اللغة العربية :

للغة العربية – باعتبارها لغة ساميّة – نظامُ زيادة صرفيّة اشتقاقية. فإن للمفردات فيها – أي الوحدات المعجمية البسيطة، ونخصّ منها بالذكر ما انتمى إلى مقولات الاسم والفعل والصّفة – بُنًى صرفية داخلية ذاتَ تَكوّن صرْفميّ يُظهرُها جذوعًا (bases/stems) بسيطة، ومُركّبة، ومعقّدة. والجذعُ البسيط جذعٌ لا زيادة فيه لأنه يَرجع إلى أصل افتراضيّ هو الجذر(racine) – وهو مركّب صوتيّ صامتيّ (أو حَرْفيّ) محضٌ – قد أضيفت إليه الصوائتُ أو الحركَاتُ، وليست هذه الصوائتُ بالزوائد الاشتقاقية (affixes dérivationnels) ؛ وليست العلاقة بين الجذر والجذع البسيط الذي يَرتبط به – مثل ارتباط [ك. ت. ب] بـ"كَتَبَ" وارتباط [ب. ع. ث] بـ "بَعَثَ" – علاقة صرفيّة فيما نرى بل هي علاقة صوتيّة. والاشتقاقُ الحقيقي لا يكون من الجذر في العربية بل يكونُ من الجذع البسيط – ونسميه جذعا رئيسيّا أيضا – ثم من الجذوع الفروع التي يتولد بعضها من بعض أيضا. والأصول الجذعية التي يتولدُ بعضها من بعض بالاشتقاق في العربية خمسة أصناف كبرى، على عدد المقولاتِ المعجمية، وهي فيما نرى خمسٌ، هي الاسمُ والفعلُ والصفة والظرفُ والأداة، وذلك يعني أن الأصول الخمسة الكبرى هي (1) الأصولُ الاسمية ؛ (2) الأصولُ الفعلية (3) الأصولُ الوصفية ؛ (4) الأصول الظرفية ؛ (5) الأصول الأدَويَّة. وهذه الأصول يُشتقّ بعضها من بعض نظريّا، والأنواعُ التي تشتقّ منها في المستوى النظريّ أيضا

خمسة وعشرون، تَحصل من ضرب الأصول الخمسة في بعضها [1]. لكنّ التحليل الاختباري قد بيّن أنّ الأنواعَ المنتِجة من الخمسة والعشرين ثلاثة عشرَ فقط، فنشتق مثلا الاسم من الاسم، والفعل من الاسم، والصفة من الاسم، والاسمَ من الفعل، والفعل من الفعل، والصفة من الفعل، والاسم من الصفة، والفعل من الصفة، والصفة من الصفة ؛ ولكن لا نشتق – في العربية – الظرفَ من الفعل أو من الاسم أو من الصفة أو من الظرف أو من الأداة، كما لا نشتق الأداة من أيّ من الأصول الأخرى.

ولا تعنينا الأنواعُ الاشتقاقية المنتِجة التي ذكرنا في حدّ ذاتها، بل يعنينا منها أن اشتقاقَ نوع من نوع – مثل اشتقاق الاسم من الفعل والصفة من الاسم – أو اشتقاق الضروب داخل النوع الواحد – مثل اشتقاق الفعل المزيد من الفعل المزيد – إنما يتمّ في أكثر الأحيان بإضافة الزوائد الصرفية الاشتقاقية إلى الجذوع التي تُتّخذُ أصولا للاشتقاق. والتكوّنُ الصرفمي للجذوع المركّبة – وهي المتكوّنة من صرفم حرّ (morphème libre) – ترجمة للأنغليزية "free morpheme" – هو الأصل الجذعي، أي المفردةُ البسيطة، وزائدة اشتقاقية تُسمّى "صرفما مقيدا" (morphème lié)، ترجمة للانغليزية « bound morpheme » أيضا – والجذوع المعقدة – وهي المتكونة من صرْفم حرّ وزائدتين صرفيّتيْن أو أكثرَ – يُظهر دورَ الزوائد الاشتقاقية في توليد الوحدات المعجمية البسيطة الجديدة، وتلك الزوائدُ تكون إمّا سوابقَ (préfixes) إذا زيدتْ إلى أوّل الجذع، وإمّا دواخل (infixes) إذا زيدت في وسط الجذع، وإما لواحقَ (suffixes) إذا زيدت إلى آخر الجذع ؛ وينبغي ألاّ يخْلط بين هذه الزوائد الصرفية الاشتقاقية ذات الوظيفة المعجميّة لأنّ استعمالها مؤدّ إلى توليد وحدات معجمية جديدة، والزوائد التصريفية (affixes flexionnels) ذات الوظيفة النحوية لأنها تستعمل ليعبَّر بها عن المقولات التصريفية، مثل مقولات العددِ والجنس والزّمن في الوحدات المعجمية إذا استعملت في الخطاب، وتلك مقولات نحوية.

والتفريقُ بين ما هو صرفيّ اشتقاقيّ – أي معجميّ – وما هو تصريفيّ نحويّ يقتضي أن يُعالجَ كل صنف من الزيادة في باب مستقلّ، فيُبْحثَ في الزيادة الصرفية في باب علم الصرف الاشتقاقي (morphologie dérivationnelle) – ويسمى أيضا علم الصرف المعجمي (morphologie lexicale) – الذي نخصّه باسم علم الصرف، وفي الزيادة التصريفية في باب علم التصريف

1) ينظر حول هذه الأصول وتطبيقاتها على العربية إبراهيم بن مراد : مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص ص 85 – 91 ؛ نفسه : مقدمة لنظرية المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص ص 145 – 153.

(morphologie flexionnelle). على أن هذا التمييز بين العلمين لم يتيسّر إلاّ في السنوات المتأخرة.

وللخلط بين المبحثيْن في اللغة العربية جذورٌ قديمة. فإنّ اللغويين العربَ – وقد عني بالمسألة منهم النحاةُ خاصّة – ما كانوا يقيمُون حدّا بين العلمين ظاهرا ؛ ولعلّ أعرفهم بالفرق بينهما أبُو الفتح عثمان بن جنّي (ت. 392 هـ/ 1002 م). فقد كان يُدْرِكُ الفرقَ بين ما يتصل بالمفردة وهي ذات بنْيَة داخلية واشتقاقٍ، وما يتّصل بها وهي مُصرّفة في الاستعمال. فقد ذهبَ في مقدمة كتابه "المنصف" إلى "أن التصريف وسيطة بين النّحو واللغة [أي المعجم] يتجاذبانه، والاشتقاقُ أقعدُ في اللغة من التصريف، كما أن التصريفَ أقربُ إلى النّحو من الاشتقاق" (2). على أن شرحَه لمصطلحي التصريف والاشتقاق وتمثيله لهما يدلاّن على أنّه يَرى في "التصريف" ما نسميه اليومَ صرفًا، ويرى في "الاشتقاق" ما نسمّيه تصريفا. والتصريفُ عنده يكون "لمعرفة أنفس الكلم الثابتة" (3) أي بُنى المفردات الداخلية وصيغها، وهو أيضا "أن تَجيء إلى الكلمة الواحدة فتصرّفها على وجوه شتى، مثال ذلك أن تأتيَ إلى ضَرَبَ فتبني منه مثل جَعْفَرٍ فتقول ضَرْبَبٌ، ومثل قِمَطْرٍ : ضِرَبٌّ، ومثل دِرْهَمٍ : ضِرْبَبٌ، ومثل عَلِمَ : ضَرِبَ، ومثل ظَرُفَ : ضَرُبَ" (4) ؛ ولا يختلف الاشتقاقُ عن التصريف في مثل هذا التشقيق للكلام، فالاشتقاقُ عنده أن "تجيءَ إلى الضرْبِ الذي هو المصدرُ فتشتقَّ منه الماضي فتقول : ضَرَبَ، ثم تشتقّ منه المضارع فتقول : يَضْرِبُ، ثم تقول في اسم الفاعل : ضَارِبٌ، وعلى هذا ما أشْبَهَ هذه الكلمة" (5). وهو يعتبر التصريف والاشتقاق لذلك متقاربين متشابكين، لأن بينهما "نَسَبًا قريبا واتصالاً شديدا" (6).

والتصريف في نظر ابن جني إذن هو أن تُستَخْرَجَ من الكلِمِ القائمة في الاستعمال كَلِمٌ أخرى، ذاتُ أبنية وصيغ، أي "ذاتُ أنفسٍ ثابتة" كما قال، ليست بذات وظائف نحوية، وهذا هو الاشتقاقُ بالمفهوم الحديث ؛ وأمّا الاشتقاقُ عنده فهو تصريفُ الكلم القائمة في الاستعمال بجعلها معبّرةً عن المقولات التصريفية التركيبية. ومثل هذا التفريق بين ما هو خاصٌّ بالمفردات من حيث هي "ذاتُ أنفس

---

2) أبو الفتح عثمان بن جني : المنصف، شرح تصريف المازني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، وزارة المعارف العمومية – إدارة إحياء التراث القديم، القاهرة، 1954 ، 1 / 4. وتنظر خلاصة لآراء النحاة اللاحقين لابن جني في التصريف وقضاياه في : G. Bohas et J. – P. Guillaume : *Etude des théories des grammairiens arabes. I – Morphologie et phonologie*. Institut Français de Damas , Damas , 1984, pp.15 – 21.

3) ابن جني : المنصف، 1 / 4.

4) المرجع نفسه، 1 / 4.

5) المرجع نفسه، 1 / 4.

6) المرجع نفسه، 1 / 3.

ثابتة" وما هو متعلق بها إذا صُرِّفت وهي مستعملة في الخطاب يفترض التفريق بين الزيادة المؤدّية إلى تغيير "الأنفس الثابتة" للمفردات – أي بُناها الداخلية – والزيادة المؤدّية إلى استعمال المفردة في أشكال تصريفية مختلفة، وذلك يؤدّي بدوره إلى التفريق بين وظيفتين مختلفتين للزيادة : وظيفةٍ معجمية لأنّ ما يُدْخَلُ على "الأنفس الثابتة" للمفردات من تغيير بسبب إضافة الزوائد إليها يُنْتِجُ مفرداتٍ جديدة ذاتَ بُنى داخلية جديدة ومعانٍ جديدة ؛ ووظيفة تصريفية نحوية لأنّ ما يُدْخَلُ على المفردات من تغيير بسبب إضافة الزوائد إليها ينْتِجُ أشكالاً مصرّفة (formes de mots) منها ولا ينتج مفردات جديدة [7].

ويمكن أن نستنتج مما تقدّم أن اللغويين العرب لم يعنَوا عناية ظاهرةً بالزيادة الصرفية الاشتقاقية وبدورها في التوليد المعجمي [8]. وقد نتج عن هذا أمور، نخص منها بالذكر اثنين :

---

7) قد وجدنا ابن جني في سر صناعة الإعراب يفرق بين "ضربين" من الزيادة : زيادة تكون مصوغة في الكلم، وزيادة تكون غير مصوغة في الكلم ويؤتى بها لمعنى نحوي ؛ فقد قال عن حرف اللام : "وإذا كانت اللام زائدة فهي على ضربين : أحدهما أن تزاد في الكلمة مبنية معها غير مفارقة لها، والآخر أن تزاد فيها لمعنى ولا تكون من صيغة الكلمة " – ينظر ابن جني : سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، 1985، 1 / 312، وينظر أيضا 1 / 325 ؛ وقال عن حرف النون : "وأما زيادة النون فعلى ضربين : أحدهما زيادة صيغت في نفس المثال المزيد فيه، والآخر زيادة لحقت على غير معنى اللزوم" – نفسه، 2/ 444، وينظر أيضا 2 / 446، وكذلك 2 / 632، في الحديث عن زيادة الواو "إذا لم تكن ممزوجة بأنفس الأمثلة". لكنه في حديثه عن الضرب الأول والتمثيل له قد جمع بين الزيادة الاشتقاقية والزيادة التصريفية، ومن ذلك تمثيله للضرب الأول من زيادة النون بالنون في "نَقُول" و "نضْربُ"، والنون في "قِنْعاس" و "رَعْشَنٍ" ؛ كما جمع في الحديث عن الضرب الثاني بين الزيادة التصريفية والحروف – أي حروف المعاني، وهي عندنا من الأدوات – التي عَدَّها من الزوائد، ومن ذلك تمثيله للضرب الثاني من زيادة اللام باللام الجارة ولام التعريف ولام الابتداء، وتمثيله للضرب الثاني من زيادة النون بالنون إذا كانت "علما للجمع والضمير" في مثل "قُمْنَ" و "قَعَدْنَ"، و "عَلَمًا للرفع" في مثل "تَقومان" و "تَقومون" و "تَقُومين".

8) لا نَعْدَم في الحقيقة الإشارة في بعض المصادر إلى صلة الزيادة بتوليد المفردات الجديدة. فإن الزيادة في نظر أبي عثمان المازني تكون لأربعة أغراض، قد عرضها ابن جني ومثل لها في المنصف، 1 / 13 – 17، وهي (1) الزيادة لإلحاق بناء ببناء، مثل زيادة الواو في كوثر والياء في صيْرَفٍ لإلحاقهما بجَعْفَرٍ وسَلْهَبٍ ؛ (2) الزيادة للمدّ، ومثالها زيادة الواو في عجوز والياء في قضيب والألف في كتاب، فقد أريد بهذه الزيادة امتداد الصوت والتكثير بها لحاجتهم إلى الاتّساع في الكلام، لأنهم – كما قال – " قد يعبّرون عن المعنى الواحد بالألفاظ الكثيرة، وهذا يضطرُّ إلى الاتّساع، فمن هاهنا احتيج إلى الزوائد المكثرة للكلام " (ص 15) ؛ (3) الزيادة للمعنى، ومثالها حروف المضارعة التي يؤتى بها لتجعل الفعل صالحا لزمانين، مثل الياء في يقرأ : فإنها تجعل الفعل يعني الزمن الحاضر والزمن المستقبل ؛ (4) زيادة قال إنها " من أصل الوضع "، وقد مثل لها بـ" الهمزة والتاء في افتقر... وتكرير اللام في اشمأزَّ "، فالمثالان لم ينطق بهما إلاّ بزيادة. ويلاحظ ما للنوعين الأول والثاني من الزيادة من صلة بالتوليد المعجمي ؛ فإن الإلحاق مؤد إلى ظهور مفردات جديدة مقيسة الأبنية على أبنية أمثلة سابقة لها في الاستعمال حسب تصور المازني وابن جني، والزيادة للمد يقصد بها تكثير الكلام والتوسّع فيه. ويمكن أن نشير في هذا المقام أيضا إلى جعل أبي بكر بن السرّاج الغرض من الاشتقاق اتّساع الكلام به (ينظر له : رسالة الاشتقاق، تحقيق محمد علي الدرويش ومصطفى الحدري، دمشق،1973، ص 28) ؛ ولكن مثل هذه الملاحظات غير كافية لتجعلنا نعتبر نحاتنا القدامى كانوا ذوي تصور واضح لما للصرف – وخاصة للزيادة الصرفية الاشتقاقية – من دور في التوليد المعجمي.

الأول هو النظرُ إلى الزوائد باعتبارها "حروفا" مُفردة، هي "حروفُ الزيادة". فقد حَصرُوها في عشرة حروف – نظموها في "سألتمونيها" – وعُنوا بمواضع زيادتها في المفردات وبمراتبها فيها، ولم ينظروا إليها باعتبارها وحداتٍ صرفية قد تتكوّن من حَرفٍ واحد مثل السابقة [أ-] في "أخْرَجَ" واللاحقة [- م] في "زُرْقُمٌ"، وقد تتكوّن من أكثر من حرف مثل اللاحقة [- ـان] في "غُفْران" واللاحقة [- ـوت] في "ملكُوت" واللاحقة [- ـيت] في "عِفْريت"؛ وهم قد ينبّهون أحيانا إلى الحرف الواحد يزادُ مع غيره مثل قول المبرّد في المقتضب عن "النون" إنها تزاد مع الألف في "غضبَان" وفي"سَكْران" [9]، وقوله عن "التاء" إنّها تزادُ مع الواو في "مَلَكُوت" ومع الياء في "عِفْريت" [10]، وقد يكتفون بذكر مرتبة الحرف الزائد في المفردة دون ربطه بما يشترك معه في تكوين الوحدة الصرفية الزائدة، مثل قول ابن جنّي في سرّ الصناعة عن "التاء "إنها" تُزاد خامسة في نحو ملكُوت، وجبرُوت، ورَغبوت (...)، وسادسة في نحو عنْكبوت، وتَرْنمُوت" [11]، وقوله عن "النّون" إنها تزاد " خامسة في نحو سكران وغضبان، وسادسة في نحو زَعْفران وعُقْرُبان..." [12].

والأمرُ الثاني هو إخضاعهم الكلِمَ الأعجمية المقترَضة لما أخضعوا له الكلِمَ العربية الخالصة في البحث عن الأصليّ والزّائد من الحروف، وكأنّها هي أيضا ذاتُ أصول عربية خالصة ؛ وقد كانوا في الحقيقة يتوَهّمون ذلك في مفردات كثيرة نتيجة قلّة درايتهم عامّة بالاقتراض في اللغة العربية وبمسالكه إليها. والأمثلة على هذه الظاهرة كثيرة، منها عدُّ النون في "نَرْجِس" زائدةً "لأنه ليس في الأصول مثلُ جَعْفِر بكسْر الفاء " [13] وكأن أصل الكلمة "رجس"، بينما الكلمة كلها أعجمية مقترضة من الفارسية "نَرْكِس" ؛ وعدُّ الياء في "هِلْيَوْن" زائدة [14] وكأن أصلها "هلوَن"، بينما الكلمة مقترضة من اليونانيّة "έλειον" (eleion)، والياءُ والواوُ فيها تنقُلان الصائتَ اليونانيّ المُعقد "ειο" (eio) ؛ وعدّ الياء في "قِنْدِيل" زائدة [15] وكأن أصلها " قنْدل"، بينما الكلمة مقترضة من اليونانية "κανδήλα" (kandêla) – وهذه نفسُها اقترضتْها اليونانيّة من اللاتينية "candēla" – والياء فيها نقل للصائت اليونانيّ "ή" (ê) ؛ وعدّ الياء في فعل

---

9) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، [د.ت]، 1 / 59.

10) المرجع نفسه، 1 / 60.

11) ابن جني : سر صناعة الإعراب، 1 / 158.

12) المرجع نفسه، 2 / 445.

13) المرجع نفسه، 1 / 168، وينظر لابن جني أيضا المنصف، 1 / 104 و 109.

14) سر صناعة الإعراب، 2 / 767.

15) المبرّد : المقتضب، 1 / 57.

"بَيْطَرَ" زائدة [16] وكأن الأصل الذي وُلِدَت منه هو "بَطَر"، بينما الفعلُ مُشتقّ من "بَيْطَار"، وهذه مُقترضةٌ من اليونانيّة "ἱππίατρος" (hippiatros) ومعناها "الطبيب المعالج للدواب"، والياءُ فيها تنقلُ الصائتَ اليونانيَّ المركّبَ "ία" (ia). والطريف أنّ منهم من كان يُحذّرُ الناظرَ في الاشتقاق من "أنْ يشتقّ من لغة العرب لشيءٍ قد أخِذَ من لغة العَجَمِ، فيكونَ بمنزلة من ادّعى أنّ الطيْرَ ولدُ الحُوت" [17].

وقلّةُ عنايةِ لغويّينا القدامى بالزيادة الصرفية الاشتقاقيّة وبدورها في توليد الوحدات المُعْجمية الجديدة ناتجَةٌ في المقام الأوّل فيما نَرى عن موقفهم من "المولّد" في اللغة عامّة، سواءٌ في النّحو أوفي المعجم؛ فقد كانوا يَرْغبُون عن المولّد ويقدّمُون الفصيحَ وينشدونَه، سواءٌ لتدوينِه في قواميسهم أو للاحتجاج به في أمثلتهم وشواهدهم عند وصفهم النحويّ للغة. فإنّ الفصيحَ هو المستعمَلُ الجاري على ألسنة العرَب الفصحاءِ الذين تُرْتَضى عربيّتُهم، وأمّا المولّد فقد وضعه المولّدون الذين لا تُرْتَضَى عربيّتُهم ولا يُحتجّ بها ؛ ولا بدّ من التفريق هنا بين "المُولّد" الذي يضعه المولّدون – وقد ملأ القرنَ الثالثَ الهجريَّ – والفصيح الذي "ولّده" الفصحاءُ مَقيسًا على كلامِ العرب. فالأوّل هو المولّد على الحقيقة، وجلّه مرتبطٌ بعلوم ناشئة أعجميّة المصادر هي "علومُ العجَم" أو "العلومُ القديمَة" و"علومُ الأوائل"، والثاني فرعٌ من الفصيح نُسمّيه "الإسلاميَّ المحدَثَ"، وهو مرتبط بصنف آخرَ من العلوم مُسْتحدَث هو أيضا في الثقافة العربية لكنّه وثيقُ الصلة بالكتاب والسنّة، هو صنْفُ "العلوم الإسلاميّة". وقد كانت القطيعَة بين الصنفين من العلوم شبْه تامّة [18] إذ لم يجْتَمِع الصنفان إلاّ في عدد نادر من

---

16) نفسه، 1 / 57 ؛ وينظر ابن جني : المنصف، 1 / 39، وقد أكدّ أصلها العربي : "وقولهم بيطر الدابّة : أصله من البطْر وهو الشقّ في جلد أو غيره، ويقال : بطرْتُ الجرحَ أبطرُهُ وأبْطِرُه بطرًا ومنه سمّي البيطارُ، لأنهم كثيرا ما يصفونه بالشقّ والنّقب".

17) ينظر ابن السرّاج : رسالة الاشتقاق، ص 31.

18) لا تخلو المصادر القديمة من الإشارة إلى ذلك، مثل قول أبي بكر الرازي في كتاب الطبّ الروحاني (ضمن رسائل فلسفية، تحقيق بول كراوس،القاهرة، 1939، ص 43) : "وهؤلاء القوم [الموسومون بالظرف والأدب] لجهلهم ورعونتهم يحسبون أن العلم والحكمة إنما هو النحو والشعر والفصاحة والبلاغة، ولا يعلمون أن الحكماء لا يعدون ولا واحدا من هذه حكمة ولا الحاذق بها حكيما، بل الحكيم عندهم من عرف شروط البرهان وقوانينه واستدرك وبلغ من العلم الرياضي والطبيعي والعلم الإلهي مقدار ما في وسع الإنسان بلوغه. ولقد شهدت ذات يوم رجلا من متحذلقيهم عند بعض مشايخنا بمدينة السلام، وكان لهذا الشيخ مع فلسفته حظ وافر من المعرفة بالنحو واللغة والشعر، وهو يجاريه وينشده ويبذخ ويشمخ في خلال ذلك بأنفه ويطنب ويبالغ في مدح أهل صناعته ويرذل من سواهم، والشيخ في كل ذلك يحتمله معرفة منه بجهله وعُجْبه ويتبسّم إليّ، إلى أن قال فيما قال : هذا والله العلم وما سواه ريح ؛ فقال له الشيخ : يابني هذا علم من لا علمَ له ويفرح به من لا عقل له" ؛ ومثل قول القفطي (تاريخ الحكماء، تحقيق يوليوس لبّر، ليبزيغ، 1903، ص 174) عن المشتغلين بالعلوم القديمة في القرن الثالث الهجري وكان جلهم من العجم من خريجي مدرسة جنديسابور في

العلماء. وقد كان لغويُونا يَقبلون "الإسلاميّ المُحدَث" – وهم يسمّونه "الألفاظ الإسلاميّة" (19) – ويَرفضون "المُولّد" الذي ظهرَ في الكتُبِ المترجَمة ثمّ في الكتُب العربية المؤلفة في "العلوم القديمة" ؛ وقد اكتفوا بتدوين ذلك الإسلاميّ المحدَث في القواميس لكنّهم لم يَدرُسوا القواعدَ التي وُلّدَ بها ومنها الاشتقاقّ الذي يُعتمدُ فيه على الزيادة الصرفية الاشتقاقية اعتمادا كبيرا.

وقد انتقل الإرثُ اللغويّ العربيّ القديم إلى المحدَثين فكان المحافظون عليه وعلى مقولاتِه – رغم قدمِها واختلاف الرؤى اللسانيّة الحديثة عن كثير من رُؤى القدماء – أكثرَ من الداعين إلى تجديده وإعادة النظر فيه، ولذلك فإننا لا نجد إلى اليوم نظريّة لسانية عربية متكاملة في "الإبداعية المعجمية" (créativité lexicale) عامة، بل لا نجد منهجية عامة ذاتَ أسس نظرية وتطبيقيّة في التوليد المصطلحي مثلا ؛ وجلُّ ما نجده نظراتٌ جزئيةٌ في مسألة توليد المصطلحات العلمية والفنية لا ترقى بأيّ حال إلى مستوى النظرية اللسانية المتكاملة (20)، وضمن تلك النظراتِ الجزئية كان الاهتمامُ بمسألة نقل السوابق واللواحق الأجنبية إلى العربية في العصر الحديث.

2 – في نقل السوابق واللواحق إلى العربية في المصادر الحديثة :

2 – 1. في مسألة المصادر الحديثة :

لم تعْنِ المسألةُ اللغويين العربَ المحدثين إذن – وخاصة المصطلحيّين منهم – عناية ظاهرة، فلم تُخصَّ بالدرس المعمّق الذي يَجمَع بين آراء العربِ القدامى – اللغويين والعلماءِ المترْجمين للنصوص الأعجمية وخاصة النصوصَ اليونانية – فيها والعربِ المحدثين الذين بدؤوا يواجهونها منذ القرْن التاسعَ عشر في بدايات حركة الإحياء العلمي الحديثة، ولم يُنَظَّرْ لها ؛ بل لم تدرَس فيما نَعلمُ دراسة

بلاد فارس : " إن هؤلاء الجنديسابوريين كانوا يعتقدون أنهم أهل هذا العلم [= الطبّ] ولا يخرجونه عنهم وعن أولادهم وجنسهم " ؛ ويمكن أن ننزل ما جرى من مناظرة سنة 326 هـ بين أبي سعيد السيرافي النحوي ومتّى بن يونس المنطقي ورواها أبو حيان التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939 – 1944، 1 / 108 – 128) في الاختلاف بين الفريقين.

19) ينظر مثلا : أحمد بن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص ص 78 – 81 ، وص ص 89 – 90 ؛ جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي،ط. 3، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، [د. ت]، 1 / 294 – 303 ، وفيه نقل عن ابن فارس.

20) قد عالجنا هذه المسألة من قبل بتوسع – ينظر بحث "توليد المصطلح العلمي العربي الحديث : القضايا والإشكاليات" في إبراهيم بن مراد : مسائل في المعجم، ص ص 45 – 77.

وصفيّة موسّعة شاملة تنطلقُ من طرُق القدامى والمحدَثين في نقلها إلى العربيّة [21] ؛ ولذلك فإنّ عملنا سيكون فيما يلي"ميدانيّا" ننطلق فيه من بعض الآراء في معالجة السوابق واللواحق ومن بعض الطرق الحديثة في نقلها اعتمادا على ثلاثة مصادرَ، هي ثلاثة قواميسَ علمية مختصّة في المصطلحات الطبية ممثلة لثلاثة اتجاهاتٍ : الأولُ هو " معجمُ المصطلحات الطبية " لمجمع اللغة العربية بالقاهرة [22]، وهو قاموسٌ انغليزي عربيّ، صدرت منه ثلاثة أجزاءٍ مشتملة على مادة عشرة حروف (A-K) ؛ والثاني هو "معجمُ المصطلحات الطبية الكثيرُ اللغات "، وهو قاموسٌ فرنسيّ عربيّ قد تَرجَم مادّتَه الفرنسية عن قاموس ألكس كليرفيل (Alex Clairville) [23] ثلاثةٌ من أساتذة كلية الطب في الجامعة السوريّة بدمشق هم مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط ومحمد صلاح الدين الكواكبي [24] ؛ والثالث هو " المعجم الطبّيّ الموَحَّد " [25]، وهو انغليزي عربيّ فرنسيّ قد أشرفَ على وضعه اتّحادُ الأطباء العرب بالتعاون مع لجنة العمل الخاصة بالمصطلحات الطبية العربية في المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية بشرق البحر المتوسّط.

---

21) من البحوث الوصفية ذات البعد النظري التي خصت بها المسألة نذكر خاصة : Vincent Monteil : *L'Arabe moderne*, Lib. C. Klincksieck, Paris , 1960, pp.131 - 152، وقد درسها تحت عنوان " النحت " الذي ترجمه بـ "Composition"، وفي الفصل وصف لبعض طرق المحدثين منذ بدايات القرن العشرين في نقل السوابق واللواحق إلى العربية ؛ مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، ط. 3، مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، 1988 ، ص ص 76 – 79، 94 – 96، 196 – 198، وجلّ ما كتبه تعليق على قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة في ترجمة الزوائد الأجنبية ؛ محمد رشاد الحمزاوي : أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص ص 447 – 483، وقد تحدث عنها تحت عنوان " النحت " أيضا، وخص بالقول آراء مجمع اللغة العربية بالقاهرة وطرقه في ترجمة الزوائد الأجنبية ؛ نفسه : العربية والحداثة، ط.2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص ص 183 – 210 (فصل : الصدور واللواحق العلمية ونقلها إلى الفصاحة العربية الحديثة) ؛ نفسه : المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص ص 101 – 116 (فيه ملحقان أولهما مخصص لنقل السوابق والثاني مخصص لنقل اللواحق) ؛ Hassan Hamzé : Un exemple de soumission linguistique : la traduction des formants gréco – latins vers l'arabe, in : Ch. Durieux (éd.) : *La traduction : identités et altérités.* Cahiers de la Maison de la recherche en sciences humaines, MRSH , Caen, num. 44, 2005, pp.59 - 79 .

22) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : معجم المصطلحات الطبية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1985 – 1999 (3 أجزاء).

23) Alex L. Clairville : *Dictionnaire polyglotte des termes médicaux* , 2ème éd., Paris , 1953، وقد صدرت طبعة القاموس الأولى سنة 1950 باللغات الفرنسية والانغليزية والألمانية واللاتينية، ثم صدرت له ترجمة إسبانية سنة 1952، ثم ترجمة إيطالية سنة 1955، والترجمة العربية – عن الطبعة الثانية – هي الثالثة.

24) الدكتور أ. ل. كليرفيل : معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات، نقله إلى العربية مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط ومحمد صلاح الدين الكواكبي، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، 1956.

25) اتّحاد الأطباء العرب : المعجم الطبي الموحد، ط. 3، ميدليفانت، سويسرا، 1983.

والقاموسُ الأوّل يمثّل خَلاصة جُهْدِ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في وضع المصطلحات الطبية، منذُ دوْرات انعقاده الأولى في أوائلِ السنوات الثلاثين من القرن العشرين ؛ ومجمعُ اللغة العربية مؤسّسة علميّة عتيدة ذاتُ تأثير حاسم في العمل المصطلحيّ العربي الحديث عامّة، ليس بالمصطلحات التي أقرّتْها لجانه على امتداد ثلاثة أرباع قرْن من الزمن فقط، بل بالقرارات العلميّة التي وضعها في نطاق توليد المصطلحات الجديدة، ومن تلك القرارات عَشرةٌ تَهمّ نقل السوابق واللواحـــق إلى العربيـــة [26]، والزوائدُ التي اتّخذ فيها قرارا اثنتَا عشْرة : أربعُ ســوابقَ هـــي [a –] و[an –] و[hyper –] و [hypo –]، وثمانِـــي لواحـــقَ هـــي [– able] و[– form] و [– gen] و [– graph] و [– like] و [– meter] و [– oid] و[– scope]. والملاحظ في القرارات الخاصة بهذه الزوائد الأجنبية أمْران : الأول هو عدمُ استيفائها للسّوابق واللواحق التي اعترضت اللجانَ المجْمعية في نقل المصطلحات الأعجمية إلى اللغة العربية، وسنرى عددا منها في الفقـــرة التاليـة، والثاني هو عدمُ استقرار المجمع في زائدة منها – هي اللاحقة [– oid] – على قرارٍ واحد : فقد أقرّ ترجمتَها في قرار أوّل بـ" شبْه" في مثل "شبه غرائي" ترجمة لـ "colloid "، ثم خصّها في قرار لاحق بصيغة النّسَب مع الألف والنون – أي [- ــاني] – في مثل "غرواني" ترجمة لـ"colloid" أيضا، ثم أكّد في قرار ثالث نقلها بصيغـة النّسـب بالألف والنون وألحق بها في ذلك لاحقتين أخريين هما [– form] و [– like].

والقاموسُ الثاني – "معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات" – يمثّل خلاصة عمل مصطلحيّ ممتدّ على قرابة أربعين سنة في كليّة الطبّ بالجامعة السوريّة، وقد شارك في وضع مادّته المصطلحيّة العربيّة أعضاءُ لجنة المصطلحات العلمية في كلية الطبّ، وهم أحمد حمدي الخيّاط ومرشد خاطر ومحمد صلاح الدين الكواكبي، وثلاثتهم من ذوي التجربة الطويلة مع المصطلحات العلمية العربية، ومن ذوي الباع الكبير في وضع المصطلحات الطبية العربية، وقد أخذوا على عاتقهم "مُهمّة وضع معجم شامل يهدف إلى توحيد المصطلحات ويكون مَرْجِعًا يُعْتَمَدُ عليه" [27]، فكانت ترجمة قاموس كليرفيل، دون أن يخلص عملَهم في الحقيقة من التزام كلّ منهم بنهجه الذي درج عليه في وضع المصطلحات "فجاء المعجمُ جامعا لطريقة كلّ منهم لا مُوحّدا لـ[طُرُقهم]"

26) مجمع اللغة العربية : مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما (1934 – 1984)، أخرجها وراجعها محمد شوقي أمين وإبراهيم الترزي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1984، ص ص 176 – 185.

27) ينظر حسني سبح : نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات للدكتور أ. ل. كليرفيل، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، 34 (1959)، ص 91.

[28]. لكنّ المترجمين قد أظهروا في "التنبيه" الذي قدّموا به عملهم أنّ لهم "أسُسًا وقواعدَ" قد جرَوْا عليها في عملهم، وهي سبعة أسس في الأول منها بعض الإشارة إلى ترجمة السوابق واللواحق، وقد خصوا بالذكر لاحقتين هما [able –] و [abilité –] : فقد استعملوا وزْنَ "فَعُول" في ترجمة أولاهما ووزْنَ " فَعُولية" في ترجمة ثانيتهما.

والقاموس الثالث يمثل خلاصة جهدٍ قد بذل في نطاق اتحاد الأطباء العرب منذ السنوات الستين من القرن العشرين : قد بذلته خاصة "لجنة توحيد المصطلحات الطبية" ثم "لجنة العمل الخاصة بالمصطلحات الطبية العربية" في المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية بشرق البحر المتوسط ؛ وقد وُضِّحَتْ في بداية القاموس "الأسسُ التي جرى عليها العملُ في اختيار المصطلحات" [29] وهي اثنا عشر "أسًّا" يُستَخلصُ منها أربعة أمور : (1) الرغبةُ في توحيد المصطلحات الطبية المستعملة في البلاد العربية، والتوحيدُ في نظر المؤلفين يتأتّى من استعمال "كلمة عربية واحدة مقابل التعبير الأجنبي" وعدم استعمال "المترادفات إلاّ في ما ندر" ؛ (2) الميل إلى " المحافظة " في التعامل مع الرصيد المصطلحيّ العربي القديم ومع ظاهرة الاقتراض من اللغات الأعجمية؛ (3) الصرامة المنهجية في الأخذ بالمبادئ العامة في وضع المصطلحات؛ (4) الاهتمام بقضية نقل الزوائد الأجنبية إلى اللغة العربية، وقد خُصّت بالذكر في "الأسّ" الخامس الذي ورد فيه : "ثُبِّتَتْ سوابقُ ولواحقُ تمّ الالتزامُ بها وذكرت في أوّل المعجم مع تفضيل الصيغ الثلاثية المختصرة". وقد أثبت المؤلفون بالفعل في بداية القاموس – على اليسار – قائمة بـ "أهمّ السوابق واللواحق" [30] مشتملة على سبع وخمسين ومائتي (257) زائدة أجنبية، منها ثلاثٌ وخمسون ومائة (153) سابقة وأربعٌ ومائة (104) لاحقة ؛ وجلُّها إما من أصول يونانية وإما مِن أصول لاتينية.

على أنّ الزوائد التي اشتملت عليها القواميسُ الثلاثة وعُنِيَ بطرُق تَرجمتها مَجمعُ اللغة العربية بالقاهرة ومؤلِفُو المعجم الموحّد صنفان قد سبقَ أن أشرنا إليهما في بداية هذا البحث إشارة عامّة : أولهما ينتمِي إلى ما يُسمى في اللسانيات الحديثة "صرافمَ مقيّدة" (bound morphemes)، والصرفمُ المقيّد هو الذي لا يَستقلّ بذاته في الاستعمال بل يكونُ دائما مزيدا إلى مفردة مندَمِجًا فيها، وتمثله في العربية الزوائد الصرفية الاشتقاقية والزوائد التصريفية المسمّاة بـ "حروف

---

28) المرجع نفسه، ص 94 ؛ وينظر حول هذا القاموس وقضاياه المصطلحية إبراهيم بن مراد : المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985 (جزآن)، 1 / 271 - 308.

29) اتحاد الأطباء العرب : المعجم الطبي الموحد (على صفحتين غير مرقمتين).

30) المرجع نفسه (على ثلاث صفحات غير مرقمة أيضا).

الزيادة" أحسنَ تمثيل، وهي كما نعلم إما زوائد مقيدة تصريفية مثل اللاحقة [ـونَ] في "ذاهبُونَ" المعبرةِ عن ثلاثِ مقولات تصريفية هي مقولة العدد وهو الجمع، ومقولة الجنس وهو المذكر، ومقولة الحالة الإعرابية وهي الرّفْع، واللاحقة [ـاتٌ] في" ذاهباتٌ " المعبّرة عن مقولتين تصريفيتين هما مقولة العدد وهو الجمع، ومقولة الجنس وهو المؤنث؛ وإما زوائد مقيدة اشتقاقية لا يُؤتَى بها للتعبير عن المقولات التصريفية بل تُوَظّفُ لتوليد الوحدات المعجمية الجديدة، ومثالها السابقة [أ-] في "أكْرَمَ" والسابقة [اسْتَـ -] في"استَخْرَجَ"، والداخلة [- ـتَـ -] في"اقْتَرَبَ" والداخلة [- ا-] في "كَاتَبَ"، واللاحقة [- ـان] في "سَيَلانٌ" واللاحقة [- ـون] في "خَلْدُونٌ" ؛ والصنفُ الثاني ينتمي إلى ما يسمّى "صرافمَ حُرّةً" (free morphemes) وهي "الجذوع البسيطة" أو الوحدات الصرفية المعجمية الأساسية مثل "ذَهَبَ" من مقولة الفعل و"ذَهَبٌ" من مقولة الاسم. فهي إذن مفردات تامة ترد في الاستعمال مستقلة بذاتها.

والزوائد الاشتقاقية الأجنبية التي عنيت بها مصادرنا تنتمي إلى الصنفين، فإن منها ما هو صرفمٌ اشتقاقيّ مقيدٌ بحق مثل السابقتين [- a] و [- de] واللاحقتين [(in(e–] و [(oid (oïde –]، ومنها ما هو في الأصل صرفمٌ حرّ أيْ مفردة تامّة قد وُظّفَ توظيفا اشتقاقيا واتّخِذ سابقة أو لاحقة، ومثالها السوابقُ [- cephalo] وهي من اليونانية "κεφαλή" (kephalê) ومعناها "رأسٌ"، و[- contra] – ومثلها الفرنسية [- contre] – وهي من اللاتينية "contra" ومعناها "ضِدًّ "، و[-(pneum(on] وهي من اليونانية "πνεύμων" (pneumôn) ومعناها "رئة" ؛ واللواحقُ [algia -] – ومثلها الفرنسية [algie -] – وهي من اليونانيـة "αλγός" (algos) ومعناهـا "ألمٌ"، و[form -] – ومثلها الفرنسية [forme -] – وهي من اللاتينية "forma" ومعناها " شَكْلٌ "، و[-gram] – ومثلها الفرنسية [gramme -] – من اليونانية "γράμμα" (gramma) ومعناها "كِتابة"، و[graph -] و[graphy -] – ومثلهمـا في الفرنسية [graphe -] و[graphie -] – من اليونانية "γράφειν" (graphein) وهو فعل معناه "كَتَبَ" و"خَطَّ"، و[meter -] و[metry -] – ومثلهما الفرنسية [mètre -] و[métrie -] – من اليونانيـة "μέτρον" (métron) – ومعناهـا "القيْـسُ" و"آلة القيـس"، و[therapy -] – ومثلها الفرنسية [thérapie -] – وهي من اليونانية "θεραπεία" (therapeia) ومعناها "علاجٌ".

ومن زوائد الصنف الثاني إذن صرافمُ حرّة بحقّ لأنّها وحداتٌ معجمية تامّة مستعملة في اللغتين الانغليزية والفرنسية، ومثالها في الفرنسية "algie" و"contre" و"forme" و"gramme" و"graphe" و"graphie" و"mètre" و"thérapie"؛ وهذا الصنفُ فيما نرى لا يثيرُ مشاكلَ عويصة ما دامت الوحداتُ

المعجمية التي أصبحت زوائد ذاتَ معانٍ معلومة يمكن الانطلاقُ منها في الترجمة؛ والصنف الأول إذن – أي الصرافم المقيدة الحقيقية – هي التي تتطلب المعالجة والتتبّعَ محاولة لتقييس ترجمتها أو تنميطها ؛ على أنّ البحث في تنميطها أو تقييسها لا يكونُ في بحث سريع يُنجز في وقت ضيق، بل يكون في بحث مطوّل لا يُكتَفَى فيه بالنظر في المصادر الحديثة بل يُرْجَعُ فيه إلى المصادر القديمة للنظر في الطرق التي تناول بها العلماءُ المترْجمون أثناءَ حركة الإنشاء – في القرنين الثاني والثالث الهجريين – الزوائدَ الأعجمية وخاصة الزوائد اليونانية التي نجد لأكثرها حضورا في اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الفرنسية والانغليزية ذاتي التأثير الواسع في اللغة العربية في العصر الحديث، في المشرق وفي المغرب. وهذا الصنف الثاني هو الذي سنعنى به في هذا البحث، دون أن يكون النظر فيه استقصائيا.

ونقدم فيما يلي إذن نقولَ مجموعة غير استقصائية من السوابق واللواحق الأجنبية " المُقيّدة" التي استخرجناها من المصادر الثلاثة التي استقرأنا، دون أن نكرّرَ نقل الزائدة الواحدة إذا اشترك فيه مصدران أو اشتركتْ فيه المصادر الثلاثة، لأنّ الغاية ليست وصف طريقة كلّ منها في تناول المسألة بل هي النظرُ في الطرق العامّة التي اعتمدت في الترجمة، كما أننا لم نعتبر في الاستقراء اللواحقَ المعرّبة في المصطلحات المقترضة مثل [- ويد] في "سَرْكويد" في ترجمة "cercoid" ؛ ولم نعتبر أيضا الترجمة بالصيَغ الصرفية. وسنكتفي بالإحالة إلى المصادر الثلاثة في الفقرات نفسها حتى لا نثقل التعاليق في أسفل الصفحات، وسنرمز إلى قاموس مجمع اللغة العربية بحرفي "مج "، وإلى قاموس كليرفيل في ترجمته العربية بحرفي" كل "، وإلى المعجم الطبي الموحد بحرفي "مو".

2 – 2. في ترجمة السوابق :

2 – 2 – 1. السابقة [a –] :

هذه السابقة ذاتُ أصل يوناني هو [α –] (= [a –])، وهذه نفسها تشترك مع السابقة اليونانية [αν –] (= [an –]) في الأصل والمعنى، و[an –] هي الأصل، فإذا استعملت قبل صامتٍ غير /n/ قامت [a-] مقامها مفردة ؛ والسابقتان تشتركان في معنى النفي (négation) بالدلالة على "لا"، ومعنى "السّلبِ" أو "الحرْمان" (privation) بالدلالة على "بِلا" و "دُونَ". وقد تَرجمها القدماءُ في النصوص التي نقلوها من اليونانية إلى العربية، ووجدنا لها خمسَ ترجمات في كتابين لأرسطو قد نقلهما إلى العربية يحيى بن البطريق (ت. حوالي 220 هـ/ 835 م)، هما كتابُ الآثار العلوية وكتاب الحيوان ؛ والترجمة الأولى هي "لا"،

وقد وردت مع الاسم في مثل "لا نِهاية له" (31) ترجمة لـ"απειρος" (apeiros)، ووردت مع الفعل في مثل "لا ينْهَضِمُ" (32) ترجمة لـ"απεπτος" (apeptos) ؛ والترجمة الثانية هي"بِلاَ" في مثل "بِلاَ علمٍ" (33) ترجمة لـ"αλόγως" (alogôs) ؛ والترجمة الثالثة هي "غيْر" في مثل "غيْر الجامد" (34) ترجمة لـ "απηκτος" (apêktos) ؛ والترجمة الرابعة هي "عَدَم" مضافة إلى الاسم في مثل "عَدَمُ ولاد" (35) ترجمة لـ "ατεκνία" (ateknia) ؛ والترجمة الخامسة هي "عادِمٌ" مضافة إلى الصفة في مثل "عَادمُ وَلَدٍ" (36) ترجمة لـ "αγονος" (agonos). وأما المحدثون فنذكر منهم مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أقرَّ ترجمة السابقتين بـ "لا" النافية ؛ وأمّا مؤلفو المعجم الطبي الموحّد فقد اقترحوا للسابقتين أربعة مقابلات عربية هي "لا" و"بلا" و "انعدام" و "فَقْدٌ" فلم يبعدوا عما رأينا عند يحيى بن البطريق ؛ ومن الجدير بالملاحظة أنّ في العربيّة سابقة شبيهة بـ [a –] و [an –] في الدلالة، هي [أ-] التي توجد في "أفعلَ" ومصدره "إفْعَال" وتدلّ على النفي والسلب مثلما تدلّ على الإثبات والإيجاب، وقد نبّه إليها من القدماء ابنُ جنّي في سرّ صناعة الإعراب (37) وأورد منها أمثلة منها "أعْجَمَ الحَرْفَ والكتابَ" أي أزال عنه استعجامَه، و"أشْكَلَ الكتابَ" أي أزَال عنه إشكاله"، و "أشْكَى زيدا" أي أزال عنه الشّكاية.

فإذا نظرنا في قواميسنا المصادر وجدنا لـ [a –] ستَّ عشرةَ ترجمَة، هي التّالية :

(1) "الاخْتِفاء" في "اختفاءُ لوْن الجلد" ترجمةً لـ "achromie" – كل، ف 142.

---

31) أرسطوطاليس : كتاب الآثار العلوية، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق كازيمير بترايتس، دار المشرق، بيروت، 1967، ص 46 (سطر 5) – وتنظر فيه ص 79 – وقد أحلنا أيضا إلى المسرد اللغوي للمصطلحات التي اشتمل عليها الكتاب ؛ وفعلنا الشيء نفسه بكتاب "في كون الحيوان".

32) المرجع نفسه، ص 115 (س 5) – وتنظر فيه ص 79.

33) المرجع نفسه، 82 (س 10) - وتنظر فيه ص 77.

34) المرجع نفسه، ص 117 (س 5) – وتنظر فيه ص 79.

35) أرسطوطاليس : في كون الحيوان (المقالات 15 – 19 من كتاب الحيوان)، ترجمة يحيا بن البطريق، تحقيق يان بروخمان ويوان دروسّارت لولوفس، بريل، ليدن، 1971، ص 96 (س 3) – وتنظر فيه ص 286 (ولد).

36) المرجع نفسه، ص 52 (س 13 – 14) – وتنظر فيه ص 286 (ولد).

37) ابن جني : سرّ صناعة الإعراب، 1 / 37 – 39 ؛ وقد ذكر معها صيغتين صرفيتين تدلاّن على النفي والسلب أيضا هما "فعّل" ومثالها "مَرّضَ" ومعناها داوى المريض وأحسن القيام على شؤونه (ومنه "الممرّضُ" في العربية الحديثة)، وصيغة "تَفعّل" ومثالها "تأثّم" ومعناه "تابَ عن الإثم"؛ ومثله "تَحَرَّجَ" ومعناه فَعَلَ فعْلاً أزال به عن نفسه الحرج.

(2) "أعْمَى" – صفة مضافة - في " أعْمى الألوان" – أي "الذي لا يميّز الألوان" – ترجمة لـ"achromatic" – مج، 1 / 18 (وينظر (9) فيما يلي).

(3) " امتناع " في "امتناع الخطو"، ترجمة لـ "abasia" – مج، 1 / 5.

(4) "انعدام" في "انعدام الجَفْن"، ترجمة لـ " ablepharia" – مو، ص 2.

(5) "عَجْزٌ" في "عَجْز الإرادة"، ترجمة لـ "abulia" – مج، 1 / 14.

(6) "عدم" مضافة إلى الاسم في "عدم تَكَثُّر الكريّات البيض"، ترجمة لـ "aleucocytosis" – مج، 1 / 37.

(7) "عديم" - صفة مضافة - في"عديم اليد"، ترجمة لـ"acheirus"– مو، ص 8.

(8) "عَمَهٌ" في "عمَهٌ حِسِّيٌّ"، ترجمة لـ " agnosia" – مج، 1 / 35.

(9) "عَمًى" مضافة إلى الاسم في"عَمَى الألوان"، ترجمة لـ"achromatopia" – مو، ص 8.

(10) "عَـوَزٌ" في"عَوَز الكلسيوم"، ترجمة لـ"acalcerosis " – مو، ص 5.

(11) "غيَابٌ" في "غيَاب الحُمّى" ترجمة لـ "apyrexia" – مو، ص 59.

(12) "فَاقَةٌ" في "فَاقَةُ الكلسيوم" ترجمة لـ "acalcerosis" – مو، ص 5.

(13) " فقْد" في"فقْد العُصَارة" ترجمة لـ "achylia" – مج، 1 / 18.

(14) "فِقْدَان" في" فقدان حسّ الوَزْن" ترجمة لـ"abarognosi" – مج، 1/ 5.

(15) "لا" نافية للاسم في "لاتذوّق" ترجمة لـ"ageusia" – مج، 1 / 33 - ونافية للصفة في "لاخطْوي" ترجمة لـ "abasis" – نفسه، 1 / 5.

(16) "نُدْرَةٌ" في "نُدْرَةُ اللُّعاب" ترجمة لـ "aptyalia" – مو، ص 59.

2 – 2 – 2. السّابقة [– an] :

تتّفق هذه السابقة في المعنى مع [– a] كما رأينا في الفقرة السابقة وتُعْطيَان عادة وظيفة واحدة لدلالتهما المشتركة على النفي والسلب، ولذلك سوّى بينهما مجمع اللغة العربية فجمعهما في قرار واحد وأقرّ ترجمتهما بـ"لا" النافية، وكذلك فعل مؤلفو المعجم الموحّد إذ نسبوا إلى [– an] المعانيَ الأربعة التي نسبوها إلى [– a] وهي " لا، بلا، انعدام، فقْدٌ ". لكنّ هذا الإجماعَ "النظريَّ" على اشتراك

السابقتين في ما يقابلهما لم يُظْهِرْهُ التطبيق، فإنّ لـ [– an] في المصادر الثلاثة ستّ عشرة ترجمة – هو عدد الترجمات الذي رأيناه لـ [– a] فيما تقدّم – منها ما ورد في القاموسين (مج) و (مو) دون أن يكونَ له ذكر في ما أقرّ لـ[– an] من مُقابلاتٍ. والترجماتُ الستّ عشرة هي :

(1) " إزالة " في " إزالة الألم "، ترجمة لـ " analgesia" – مج، 1 / 47.

(2) " انعدام " في " انعدام الأذن "، ترجمة لـ "anotia" – مو، ص 43 (وتنظر الترجمة التالية).

(3) " بِلاَ " في " بِلاَ ماء " ترجمة لـ"anhydride" – كل، ف 763.

(4) " عديمٌ " – صفة مضافة - في " عديم الأذن "، ترجمة لـ"anotus" – مو، ص 43.

(5) " عمَةٌ " في"عَمَهُ المرض "، ترجمة لـ " anosognosis" – مج، 52/1.

(6) "عَوَزٌ" في"عَوَز الأكسجين" ترجمة لـ "anoxia" – مو، ص 43 (وينظر (15) فيما يلي). .

(7) " غيْر " في " غَيْر عُضْويّ "، ترجمة لـ " anorganic " – مو، ص 43.

(8) " فَقْدٌ " في " فقْدُ الألم " ترجمة لـ "analgésie" – كل، ف 643.

(9) " فِقْدَانٌ " في" فقدان الحِسّ " ترجمة لـ " anesthésie" – كل، ف 691.

(10) " فقرٌ " مضافة إلى الاسم في " فقر الدم " ترجمة لـ "anaemia" – مج، 45/1.

(11) " فَقِيرٌ " - صفة مضافة - في " فقيرُ الدّم" ترجمة لـ"anemic" – مو، ص 36.

(12) "لا" نافية للاسم في " لا ألم " ترجمة لـ " analgésie" – كل، ف 643، ونافية للصفة في " لاإباضي " ترجمة لـ " anovular" – مو، ص 43.

(13) " مُسكّن " في " مُسَكّن الألم " ترجمة لـ " analgésique" – كل، ف 644.

(14) " مُفْقِدٌ " في " مُفْقِدُ الألم " ترجمة لـ " analgésique" – كل، ف 644.

(15) " مُعْوِزٌ " في " مُعْوِزُ الأكسجين" ترجمة لـ "anoxic" – مو، ص 44.

(16) " نَقْصٌ " في " نقص الأكسجين " ترجمة لـ" anoxia" – مج، 52/1.

2 – 2 – 3. السابقة [– anti] :

هذه السابقة ذات أصل يوناني أيضا هو [-αντί] (= [– anti]) ومعناه " ضِدّ"، وقد اقترح لها المعجم الموحد مقابلين في العربية هما " ضدّ " و "مُضَادٌّ"، وقد أكثر في الحقيقة من اعتمادهما في المصطلحات التي ترجمَ. ولكن النظر فيه وفي (مج) و(كل) قد أظهر وجود ثماني ترجمات مختلفة لها، هي :

(1) " صادٌّ عن " في " صادٌّ عن الحياة " ترجمة لـ"antibiotique" – كل، ف 843.

(2) "ضِدّ" في "ضِدّ الحالة الدموية" ترجمة لـ"antihemolysin"– مو، ص 48.

(3) " طاردٌ " في " طاردُ الديدان" ترجمة لـ"antihelmintic" – مو، ص 48.

(4) "مانع" في " مَانِعُ الفلح" ترجمة لـ"antilithic" – مج، 54/1.

(5) " مُزِيلٌ " في " مُزِيلُ ألم الأسْنَان" ترجمة لـ"antidontalgic" – مج، 54/1.

(6) " مُضَادٌّ " في " مُضَادُّ التّجَلُّط" ترجمة لـ"anticoagulent" – مج، 54/1.

(7) " مُعاكس " في " مُعَاكسُ المسيرة" ترجمة لـ"antidromic" – مو، ص 47.

(8) " مُقَابِلٌ " في " مُقابلُ الوَتَدَة" – أي" وتَد الأذن" – ترجمة لـ"antitragus" – كل، ف 883.

2 – 2 – 4. السابقة [– bi] :

هذه السابقة ذات أصل لاتيني هو "bis" ومعناه " مَرّتان " و " مُكرّرٌ"، وهي مرادفة لسابقة أخرى هي [– di]، وهذه ذات أصل يُوناني كما سنرى. والسابقة [– bi] كثيرة الاستعمال مُعرّبَة بـ [بـ -] أو [بيـ -] في المصطلحات الكيميائية مثل" بيوكْسيد " (bioxyde) و" بيكربونات" (bicarbonate) ؛ وأما في مصادرنا فقد وردت مترجمة، ولها فيها سبْعُ ترجمات :

(1) حرف الجر " ب" مع المثنّى في " بالعينيْن" ترجمة لـ"binocular" – مو، ص 107.

(2) "ثنائيّ " مع المفرد في " ثُنَائيٌّ الثقب " ترجمة لـ"biforate" – مج، 82/1.

(3) " ذو " مع المثنى في " ذو إصبعين " ترجمة لـ"bidigital" – كل، ف 1642، ويستعمل مؤنثه " ذاتُ " مع المثنى في صفة الأنثى أو الإناث في " ذاتُ قرنين" – في وصف الرَّحِمِ – ترجمة لـ"bicornuate" – مج، 82/1.

(4) حرف الجر " على " مع المثنى في " على الجانبين " ترجمة لـ"bilateral" – مج، 83/1.

(5) " مُزْدَوِجٌ " في صفة المفرد في " عدسة مزدوجة البؤرة" ترجمة لـ"bifocal lens" – مج، 82/1، ويستعمل الجمع " مُزْدَوِجاتٌ" في صفة الجمع في " مزدوجات النوى" ترجمة لـ"binucleata" – مج، 85/1.

(6) حرفُ الجرّ " من " مع المثنّى في " مِن بيضَتيْن" ترجمة لـ"biovular" – مو، ص 107.

(7) صفة بالنسبة مثنّاة في " أذُنَانِيٌّ " – وهي صفة لما ينسب إلى الأذُنيْن معا – ترجمة لـ"binaural"، وفي " أذَيْنَانيّ " – وهي صفة منسوبة إلى الأذيْنَيْن معا – ترجمة لـ"binauricular" – مج، 85/1.

2 – 2 – 5. السّابقة [de –] :

وهي تشترك مع [dis-] في المعنى والأصل، ومثلُها السوابقُ الفرنسية [de-] و [dé-] و [des-] و [dés-]، وكلّها من السابقة اللاتينية [dis-] ولها معاني " الإبعادَ " و" الفَصْلَ" و " الحرْمانَ" ؛ وقد وضع لها (مو) ثلاث ترجمات هي " نَزْعٌ، إزالة، زوالٌ ". ووردتْ لـ [de -] و [dé -] و [des -] و [dés -] في مصادرنا ثماني عشْرة ترجمة، هي التالية :

(1) " إبْطالٌ " في " إبطالُ التَّحَسُّس " ترجمة لـ"désensibilisation " – كل، ف 4085.

(2) " إتْلافٌ " في " إتْلافُ التّامور" ترجمة لـ"de-epicardialization" – مج، 10/2.

(3) " إزالةٌ " في " إزالةُ النشاطِ " ترجمة لـ"deactivation" – مج، 5/2.

(4) " دَفْعٌ " في " دَفْعُ الانسمَام " ترجمة لـ"désintoxication" – كل، ف 4098.

(5) " رَفْعٌ " في " رَفْعُ الكَبْتِ " ترجمة لـ"depression" – مج، 22/2.

(6) " زَوالٌ " في " زَوال الطَّفْح " ترجمة لـ"deflorescence" – مو، ص 219.

(7) " ضياعٌ " في " ضياعُ الشخصيّة " ترجمة لـ"dépersonnalisation" – كل، ف 4006.

(8) " طَرْحٌ " في " طَرْحُ السّموم " ترجمة لـ"détoxication" – كل، 4098.

(9) " عَزْلٌ " في " عَزْل الحسّ " ترجمة لـ"de-afferentation" – مج، 5/2.

(10) " غير" مضافة إلى الصفة في " غيْر متوازن " ترجمة لـ"déséquilibré" – كل، ف 4088.

(11) " فصْلٌ " في "فصْلُ المُخَيْخ " ترجمة لـ"decerebrellation" – مج، 7/2.

(12) " فقدٌ " في " فقدُ الهويّة " ترجمة لـ"depersonalization" – مج، 20/2 (وتنظر الترجمة (7) وفيها " ضياع" في ترجمة الفرنسية).

(13) " فَكٌّ " في " فكُّ ارتكاز " ترجمة لـ"désinsertion" – كل، 4097.

(14) " مُزيلٌ " – صفة للفاعل مضافة إلى الاسم – في " مُزيلُ الرّجَفَان " ترجمة لـ"defibrillator" – مو، ص 219.

(15) " مَعْزُولٌ " – صفة للمفعول مضافة إلى الاسم – في " مَعْزُول المُخّ " ترجمة لـ"decerebrate" – مج، 7/2.

(16) " نَزْعٌ " في " نَزْعُ الأنابيب " ترجمة لـ"decannulation" – مج، 7/2.

(17) " نَقْصٌ " في " نقصُ النَّسْل " ترجمة لـ"denatality" – مج، 16/2.

(18) " وقْفٌ " في " وقْفُ الرَّجَفَان " ترجمة لـ"defibrilation" – مج، 11/2.

2 – 2 – 6. السابقة [– di] :

وهي ذات أصل يوناني هو [– δίσ] (= [– dis])، وهذه في الأصل ظرفٌ للزمان هو " δίς" معناه " مَرّتان"، ويحذف منه / ς/ قبل الصوامت فيصبح

[δι –] (= [– di])، وتوافق السابقةُ [– di] في المعنى السابقة [– bi] ذاتَ الأصل اللاتيني "bis" ؛ وقد وردت للسابقة [– di] في مصادرنا خمس ترجمات فيها جميعا معنى التثنية :

(1) "ثاني" – صفة مضافة إلى الاسم – في "ثاني أكسيد" ترجمة لـ"dioxide" – مو، ص 231.

(2) "ثنائيّ"– صفة مضافة – في "ثُنَائيّ المركز"، ترجمةً لـ"dicentric" – مج، 40/2.

(3) "ثُنَائيّة"– اسمٌ مضاف – في "ثنائيّةُ الشّكل"، ترجمة لـ"dimorphism" – مو، ص 231.

(4) "ذو" مضافة إلى المثنى في "ذُو الكَفَيْن" ترجمة لـ"dicheirus" – مج، 40/2.

(5) "مُزْدَوج" ترجمة لـ"مزْدوجُ الرأس" ترجمة لـ"dicephallus" – مج، 40/2.

2 – 2 – 7. السابقة [– dis] :

هي ذات أصل لاتيني هو [– dis] وله معاني "الإبعاد" و"الفَصْل" و"الحرْمان"، وتشترك السابقة مع [– de] و [– dé] و[– des] و [– dés] في المعنى ؛ وقد وجدنا لها في مصادرنا ستّ ترجمات، هي :

(1) "إبْطَالٌ " في "إبطال المناعة" ترجمة لـ"disimmunization" – مج، 56/2.

(2) "حزٌّ" في "حزّ المفصل" ترجمة لـ"disarticulation" – مج، 49/2.

(3) "عَديم" – صفة مضافة – في "عَديم المناعة" ترجمة لـ"disimmune" – مج، 56/2.

(4) "فقْدٌ" في " فقد الترابط " ترجمة لـ"disaggregation" – مج، 49/2.

(5) "لا" نافية للاسم في " لاتناسُب" ترجمة لـ"disproportion" – مو، ص 233.

(6) " نَزْعٌ " في "نزْع الحُمُوضة" ترجمة لـ"disacidification" – مج، 49/2.

2 – 2 – 8. السابقة [dys –] :

هذه السابقة ذات أصل يوناني هي السابقة [δυσ –] (= [dus –]) التي تفيد معنى "الصعوبة" و"العُسْر" و"الحالة السيّئة" ؛ وقد وجدنا يحيى بن البطريق يستعمل في نقلها "عُسْر" في "عُسْر ولادٍ" [38] ترجمةً لـ"δυστοκία" (dustokia)، و"عُسْر الانفصال" [39] ترجمة لـ"δυσόριστος" (dusoristos)، و "عُسْرَةٌ" في "عُسْرَةُ حركَة" [40] ترجمة لـ"δυσκινησία" (duskinêsia) ؛ واستعملَ الصفة "عَسير" مضافة في "عَسِيرُ الحركة" [41] ترجمة لـ"δυσκίνητος"(duskinêtos) ، كما استعمل الصفة "رديء" في "رديء المزاج" [42] ترجمة لـ"δύσχυμος" (duskhumos)، وفي "رديء النّضُوج" [43] ترجمة لـ"δύσπεπτος" (duspeptos) ؛ وأما مؤلفو (مو) فقد وضعوا لها ثلاث ترجمات هي "عُسْرٌ، سوءٌ، خَلَلٌ"، لكنّ ترجماتها في مصادرنا تبلغ الثلاث عشرة، وهي :

(1) "اختلال" في "اختلال الصبغ" ترجمة لـ"dyschromia" – مج، 78/2.

(2) "اضطراب" في "اضطراب النوم" ترجمة لـ"dyssomia " – مج، 86/2.

(3) "انحباس" في "انحباس العرق" ترجمة لـ"dyshidrose" – كل، ف 4516.

(4) "تشَوّش" في "تشوّش النظم" ترجمة لـ"dysrythmie" – كل، ف 4537.

(5) "تشوّه" في "تَشَوُّه الرأس" ترجمة لـ"dyscephaly" – مج، 78/2.

(6) "تغيّر" في "تغيّر الكيلوس" ترجمة لـ"dyschylia" – مج، 78/2.

(7) "خَلَلٌ" في "خلل التوتّر" ترجمة لـ"dystomia" – مو، ص 241.

(8) "سوءٌ" في "سوء المزاج" ترجمة لـ"dyscrasia" – مو، ص 240.

(9) "ضيقٌ" في "ضيق النّفَس" ترجمة لـ"dyspnea" – مو، ص 241.

---

38) أرسطوطاليس : في كون الحيوان، ص 12 (سطر 4) – وتنظر ص 253 (عسِرٌ).
39) أرسطوطاليس : الآثار العلوية، ص 106 (س 2) – وتنظر ص 85.
40) أرسطوطاليس : في كون الحيوان، ص 178 (س 9 – 10) – وتنظر ص 253 (عَسر).
41) المرجع نفسه، ص 177 (س 18) – وتنظر ص 253 (عسر).
42) المرجع نفسه، ص 167 (س17) – وتنظر ص 232 (رديء).
43) المرجع نفسه، ص 167 (س 5) – وتنظر ص 232 (رديء).

(10) "عَدَمٌ" في "عدَم تَزامُن" ترجمة لـ"dyschronism" – مج، 78/2.
(11) "عُسْرٌ" في "عُسْر الكلام" ترجمة لـ"dysphasia" – مو، ص 241.
(12) "عمَةٌ" في "عَمَةٌ نسْخيٌّ" – وهو عدم القدرة على نسخ الكلمات – ترجمة لـ"dysantigraphia" – مج، 77/2.
(13) "فقْدٌ" في "فقد الحركات الاختيارية" ترجمة لـ" dyskinésie" – كل، ف 4510.

2 – 2 – 9. السابقة [– hyper] :

هذه السابقة ذات أصل يوناني هو "ὑπέρ" (huper)، وهو ظرف وأداة جرّ، يدلّ على التجاوز للحدّ، والإفراط والمبالغة، قد استعمل سابقة. وقد ترجمها يحيى بن البطريق بـ"إفراط" في "إفراط عِظَمٍ" [44] ترجمة لـ"ὑπερβολή" (huperbolê)، وبـ"زيادة " في ترجمة المفردة نفسها في الآثار العلوية [45]، ونقلها بـ"فَضْلَة" [46] وبـ "زيادة" أيضا [47] في ترجمة "ὑπεροχή" (huperokhê). وقد أقرّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة لهذه السابقة مقابلاً واحدا هو "فَرْطٌ" [48]، وكذلك فعل مؤلفو (مو)، أما مترجمو (كل) فقد خصوا [– hyper] مع [– sur] بمدخل (ف 12966) وترجموا السابقتين بـ"فوْقَ". و"فرْط" تستعمل في ترجمة السابقة في المصطلحات الاسمية، فإذا كان المصطلح وصفيّا عوّضت "فرط" بالصفة "مفْرِط "، وقد كثر في الحقيقة استعمال "فرْط" في القاموسين (مج) و(مو)، ولكننا نجد فيهما وفي (كل) معهما تسعَ عشرة ترجمة، منها سبعَ عشرةَ زائدة على "فرط" و "مُفْرِط"، والترجمات هي :

(1) "ارْتفاعٌ" في "ارتفاع ضغْط الدّم" ترجمة لـ"hypertension " – مج، 130/3.
(2) "إفراطٌ" في "إفراط التّوتّر" ترجمة لـ"hypertonicity" – مو، ص 318.
(3) "تباعُدٌ" في "تباعُدُ الأعضاء" ترجمة لـ"hypertelorism" – مج، 130/3.
(4) "تَزَايُدٌ" في "تزايُد النّموّ" ترجمة لـ"hypertrophia" – مج، 133/3.

---

44) المرجع نفسه، ص 170 (س 20 – 21) – وتنظر ص 259 (فرط).
45) الآثار العلوية، ص 74 (س 7) – وتنظر ص 108.
46) في كون الحيوان، ص 156 (س 2) – وتنظر ص 261 (فضل).
47) المرجع نفسه، ص 65 (س 20) – وتنظر ص 234 (زاد).
48) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : مجموعة القرارات العلمية، ص ص 178 – 179.

(5) "تَزَيّدٌ" في "تزَيُّد الخلايا" ترجمة لـ"hyperplasia" – مج، 127/3.

(6) "رَهافةٌ" – في معنى "زيادة" – في"رهافة الشَمّ" وهي"زيادة الإحساس بالروائح"، ترجمة لـ"hyperosmia" – مج، 124/3.

(7) "زائدٌ" – تكون صفة في مركّبٍ إضافيّ – في "زائدُ التّوتّر" ترجمة لـ"hypertonique" – كل، ف 6963، وقد وردت الصفة عنصرا ثانيا في مركّب وصفي في مثل "هوسٌ زائدٌ" ترجمة لـ"hypermania" – مج، 121/3.

(8) "زيادة" في "زيادة خلَويّة" ترجمة لـ"hypercytosis" – مج، 112/3.

(9) "شدّةٌ" في "شدّة الإنفاذ" ترجمة لـ"hyperlucency" – مج، 120/3.

(10) "ضُخَامٌ" في "ضُخَام الأظافر" – وهو "زيادة مرضية في حجم الظفر" – ترجمة لـ"hyperonychosis" – مج، 123/3، وقد اجتمع في هذه الترجمة معنى السابقة وصيغة "فُعال" الدالة على المرض، لتقابل اللاحقة [osis –].

(11) "طولٌ" في "طول النظر" ترجمة لـ"hyperopia" – مج، 123/3.

(12) "غزارةٌ" في "غزارة البول" ترجمة لـ"hyperuresis" – مج، 134/3.

(13) "فرْطٌ" في "فرْط الامتصاص" ترجمة لـ" hyperabsorption" – مج، 107/3.

(14) "فوْقَ" في "فوْقَ المُعَدّل" ترجمة لـ"hypernormal" – مج، 123/3.

(15) "فوْقانيٌّ" في "احْولالٌ فوقانيٌّ "ترجمة لـ"hyperphoria" – مو، ص 317.

(16) "كثْرَةٌ" في "كثْرَةُ الأصابع" ترجمة لـ"hyperdactylia" – مو، ص 316.

(17) "مدٌّ" في "مدُّ البصر" ترجمة لـ"hypermetropia" – مو، ص 317.

(18) "مُرهَفٌ" في "مُرْهَفُ الحسّ" ترجمة لـ"hypersensitive" – مج، 128/3.

(19) "مُفْرط" في "مفْرط الحرارة" ترجمة لـ"hyperthermal" – مو، ص 318.

2 – 2 – 10. السابقة [hypo –] :

وهذه السابقة أيضا ذات أصل يونانيّ هو "ὑπο" (hupo)، وهو ظرف وأداة جرّ، معناه "تحْتَ" و"خَلفَ" و"دونَ"، ويستعمل عامّة لإفادة معنى النقص وعدم الكفاية. وقد قرّر مجمعُ اللغة العربية بالقاهرة أن تترجم هذه السابقة بـ"هَبْطٌ" (49)، أما مؤلفو (مو) فقد وضعوا لها ثلاثَ ترجمات هي "نَقْصٌ" و"قُصورٌ" و"تَحَتَ". وقد خصّها مترجمو (كل) بمدخل تحت [-sub] الذي جمعوا فيه بين [– sub] و [– sous] و[– hypo] و [– infra] وترجموها بـ"تَحْ" – ترخيما لـ"تحْتَ" – و "تَحْتَ" و "ما تحْتَ" (ف 12834). وإذا استثنينا "ما تحْتَ" التي وردت عندهم مقابلاً لـ[– infra] في "ما تحتَ الأحمر" ترجمة لـ"-infra rouge" (ف 7284) (50) جاز لنا أن نقول إنّ "تحْتَ" تقابل السوابق الثلاث الأخرى، دون تقيّدٍ بها في الحقيقة على عادة مصادرنا في عدم التقيد بما تلتزم به نظريًا من ترجمة للزوائد. ويمكن القول إذن إن الترجمات المقترحة للسابقة [-hypo] في مصادرنا أربع – وهي كثيرةٌ – هي "تَحْتَ" و"قُصُورٌ" و"نَقْصٌ" و"هَبْطٌ" ؛ ولكن النظر في القواميس الثلاثة قد أظهر إحْدى وعشرينَ ترجمة، أكثرُها في (مج)، أغلبها إمّا اسمٌ وإمّا صفةٌ، وهي التالية :

(1) "انْخِفاض" في "انخفاض الحرارة" ترجمة لـ"hypothermia" – مج، 151/3 (وينظر (21)).

(2) "تحْتَ" في"تحتَ البلعوم" ترجمة لـ"hypopharynx" – كل، ف 6959.

(3) "تَحْتَانيّ" في "احْوِلالٌ تحْتَانيّ" ترجمة لـ"hypophoria" – مو، ص 320.

(4) "تَخَلّفٌ" في "تَخَلّفٌ عقليّ" ترجمة لـ"hypophrenia" – مج، 148/3.

(5) "خافضٌ" في "خافِض الضغْطِ" ترجمة لـ"hypotensive" – مو، ص 321.

(6) "خَفْضيّ" في "احْوِلالٌ خَفْضيّ" ترجمة لـ"hypophoria" – مج، 148/3 (وينظر (3)).

---

49) المرجع نفسه، ص 179.

50) هو أحد مدخلين قد بُدِئا بـ [– infra] وترجما في حرف " i "، والثاني هو "infratemporal" وقد ترجم بـ" صُدْغيّ سُفْليّ " (ف 7285).

(6) "خفيف" في "خفيف الهوس" ترجمة لـ"hypomaniac" – مج، 145/3.

(7) "سُفْليّ" في "البلعومُ السُّفْليّ" ترجمة لـ"hypopharynx" – مج، 148/3 (وتنظر (2)).

(8) "صِغَرٌ" في "صِغَر الفم" ترجمة لـ"hypostomia" – مج، 150/3.

(9) "ضعف" في "ضعف الشمّ" ترجمة لـ"hyposmia" – مج، 149/3.

(10) "عوز" في "عـوز الأكسجيـن" ترجمـة لـ"hypoxia" – مو، ص 321.

(11) "قصُور" في "قصور الكظرية" ترجمة لـ"hypoadrenalism" – مو، ص 319.

(12) "قلة" في "قلّة الحِمْضية" ترجمة لـ"hypoacidity " – مج، 136/3 (وينظر (19)).

(13) "قليلٌ" في "قليل الصّدى" ترجمة لـ"hypoechoic" – مج، 141/3.

(14) "ما تحْتَ" في "ما تحْتَ الطبْلة" ترجمة لـ"hypotimpanum" – مج، 153/3.

(15) "مُقلّل" في "مقلّل التلوّن" ترجمة لـ"hypopigmenter" – مج، 149/3.

(16) "مُنْخَفِضٌ" في "مُنْخفض الحرارة" ترجمة لـ"hypothermic" – مج، 152/3.

(17) "مُنْقِصٌ" في "مُنْقِصُ شحوم الدّم" ترجمة لـ"hypolidemic" – مج، 145/3.

(18) "ناقصٌ" في "ناقصُ الضّغْط" ترجمة لـ"hypobar" – مو، ص 319.

(19) "نَقصٌ" في "نقص الحموضة" ترجمة لـ"hypoacidity" – مو، ص 319 (وينظر (12)).

(20) "هَبْطٌ" في هَبْط زلال الشحم" ترجمة لـ"hypoalbuminemia" – مج، 137/3.

(21) "هُبوطٌ" في "هُبُوط الحرارة" ترجمة لـ"hypothermie" – كل، ف 6969 (وينظر (1)).

2 – 3. في ترجمة اللواحق :

تختلف اللواحق الأجنبية عن السوابق في أنها أقلّ استقرارا ودقة دلالية ؛ ثم إن للهجات التي اشتركت في تكوين اللغات الأوروبية الحديثة فيها أثرا ظاهرا سواء في أشكالها أو في معانيها ؛ فالسوابق تختلف في هذا اختلافا بيّنا عن اللواحق لأنّ أغلب السوابق من أصول يونانيّة أو من أصول لاتينيّة قد اشتركت في تكوين رصيد مهم من مفردات اللغات الحديثة وحافظت على مواقعها فيها المتصدّرة لها ؛ وأما اللواحق فمنها ما هو من أصل يونانيّ مثل [oid –] – وفي الفرنسية [oïde –] – التي تزاد لتوليد الصفات، وأصلها "ειδης" (eidês) – وقد تكتب "ειδες" (eides) أيضا – ومعناها "الشبيه"، من "ειδος" (eidos) ومعناها العـام "المظهرُ الخارجيّ" و "الشّكل" و"الهيئة" ؛ و[osis –] – وفي الفرنسية [ose –] – التي تزادُ لتولّد بها الأسماءُ الدالة على أمراض غير التهابيّة، وأصلها "ωσις" (ôsis) ومعناها الأصلي "الدّفعُ" و"الارتطامُ" ؛ ومن اللواحق ما هو من أصل لاتينيّ، لكنّ الأصول اللاتينيّة قد تكون منتقلة انتقالاً مباشرا إلى اللغات الحديثة، مثل [ic –] – وفي الفرنسية [ique –] – التي تُولّد بها الصفات، وأصلها [icus –]، وهذه نفسها من اليونانية [ικος –] (=[ikos –]) ؛ واللاحقة [ive –] – وفي الفرنسية [if –] في المذكر و[ive –] في المؤنّث – التي تزاد لتوليد الصفات خاصة للتعبير عن معاني "الميْل" أو "النزعـة"، و"الاستعداد"، و"الوظيفة"، وأصلها [ivus –] ؛ واللاحقة [ium –] – وهي مشترَكة بين الفرنسيّـة والانغليزيـة – التي تزاد لتوليد أسماء العناصر الكيميائية خاصة، وأصلها [ium –] ؛ واللاحقة [ous –] – وفي الفرنسية [eux –] في المذكر و[– euse] في المؤنّث – التي تزاد لتوليد الصفات والتعبير عن معان كثيرة منها "الامتلاءُ" و"الإعطاءُ" و"الاتصافُ بصفة ما" و"الشَبَهُ"...إلخ – وأصلها [– osus] ؛ على أنّ من اللواحق ما قد يكون ناشئا عن تداخل بين لاحقتين لاتينيّتَيْن، مثل اللاحقة الفرنسية [eur –] – وتوافقها في الانغليزية اللاحقة [or –] – التي تزادُ لتولد بها صِفَاتُ الفاعلين – أو"أسماءُ الفاعليـن" (noms d'agent) – التي تكونت من التقاء اللاحقتين [orem –] و[atoerm –] [51] ؛ بل إنّ اللاحقة في الاستعمال الحديث قد لا تكون ذاتَ أصل قديم البتّة، مثل [ol –] في بعض المصطلحات الكيميائية مثل "diol" و"éthanol"، فإنّ [ol –] فيهما مقيسَةٌ على "ol" في" alcool" في الفرنسية، ذات الأصل العربي لأن المفردةَ من "كُحُول"

---

(51) ينظر : J. Picoche : *Dictionnaire étymologique du français* , éd. Le Robert , Paris , 1979 : p.275 ؛ والملاحظ أن السوابق واللواحق في القواميس العامة والقواميس التأصيلية الأوروبية ذات مداخل مستقلة تُوَصّل فيها ويؤرخ لظهورها. أما قواميسنا العربية فليس فيها شيء من ذلك.

العربية ؛ ومثل اللاحقة [ose –] في المصطلحات الكيميائية الدالة على السّكريّات مثل "amylose" و"lactose"، فهي مأخوذة من [– ose] في "glucose".

وقد ظهر أثر هذا الاختلاف بين الصنفين من الزوائد في ترجمة اللواحق في مصادرنا إذ كان الاضطرابُ في ترجمتها أظهَر مما رأينا في ترجمة السوابق ؛ ونورد في ما يلي نماذجَ من ترجمة اللواحق للتمثيل، وقد صنفنا النماذج إلى صنفين راعينا في أوّلهما ما سميناه "الترادفَ"، وهو أن تُعبّر المقابلاتُ العربية الكثيرة عن معنى اللاحقة الأجنبية الواحدة، فتكون الزائدة الأجنبية واحدة والمقابلات العربية كثيرة، وهذا ما غلب على كلّ النماذج في ترجمة السوابق التي أوردناها في العنصر السّابق ؛ وراعينا في الثاني ما سمّيناه " الاشتراك"، أي أن تشتركَ المجموعة من اللواحق الأجنبية في المقابل العربـي الواحد، فتكون الزوائد الأجنبية متعدّدة ويكون المقابلُ العربيّ لها واحدا.

2 – 3 – 1. الترجمة "الترادفية" للواحق الأجنبية، اللاحقة [-oid] نموذجا :

قد اخترنا – بخلاف ما تقدّم من النماذج في ترجمة السّوابق – نموذجا واحدا من اللواحق رأيناه كافيا لتمثيل الظاهرة التي نريد الحديث فيها، هي اللاحقة [oid –] – وهي في الفرنسية [oïde –] – ذات الانتشار في الاستعمال. وهذه اللاحقة كما ذكرنا منذ حين ذات أصل يوناني ؛ وليست هي حديثة الظهور في العربية بل إنّ لها ظهورا في النصوص العلمية العربية القديمة، المترجمة والموضوعة. ومن الكتب المترجمة التي وردت فيها كتابُ الحيوان لأرسطوطاليس، ومن الكتب الموضوعة التي وردت فيها كتاب العشر مقالات في العين لحنين بن إسحاق (ت. 260هـ/ 873 م). وقد ترجمها يحيى بن البطريق في كتاب الحيوان بـ "الشبيه" وبعض المشتقات الفعلية والوصفية من "الشَّبَه". فقد نُقِلَتْ بـ"الشبيه" في "الشبيه بالبيض" (52) ترجمة لمصطلح "ωοειδής" (ôoeidês)، وفي مصطلح "شبيهٌ بكرة" (53) ترجمة لـ"σφαιροειδής" (sphairoeidês)، وترجمها بـ"مُشابهٌ" و"مُتشابهٌ" في مصطلحي "مُشابه الصورة" (54) و"مُتشابه الصورة" (55) المقابلين لـ"ομοειδής" (omoeidês)،

52) أرسطوطاليس : في كون الحيوان، ص 54 (سطر 19) – وتنظر ص 211.

53) المرجع نفسه، ص 119 (س 20) – وتنظر ص 268.

54) المرجع نفسه، ص 130 (س 20) – وتنظر ص 240.

55) المرجع نفسه، ص 33 (س 21) – وتنظر ص 240.

وترجمت بالفعل "يُشْبه" في "يُشْبه المشيمة" (56) في مصطلح "χοριοειδής" (khorioeidês).

أما في كتاب العشر مقالات في العين فقد وردت في أكثر من موضع مترجمة بـ"الشبيه"، وبياء النسبة. فقد ترجمَ حُنين "ωοειδες υγρον" (ôoeides hugron) بـ"الرطوبة الشبيهة ببياض البيض" (57) و"بالرطوبة البيضيّة" (58)، وترجم "υαλοειδες υγρον" (hualoeides hugron) بـ"الرطوبة الشبيهة بالزجاج" (59) وبـ"الرطوبة الزجاجية" (60)، وترجم "χιτων ραγοειδής" (rhagoeidês khitôn) بـ"الطبقة العِنَبية" (61)، و"χοριοειδής χιτων" (khorioeidês khitôn) بـ "الطبقة الشبيهة بالمشيمة" (62) و"الطبقة المشيميّة" (63)، و"κερατοειδής χιτων" (keratoeidês khitôn) بـ"الطبقة القرْنيّة" (64).

ويُلاحَظُ في الأمثلة التي تقدّمت أن ابن البطريق وحنينا بن إسحاق لم يُخرجا اللاحقة اليونانية عن معناها الأصلي وهو "الشبيه"، وقد طوّر حنين ترجمتَها فاختصر المركّب الخماسيّ العناصر في "الرطوبة الشبيهة ببياض البيْض" – باعتبار حرف الجر عنصرًا مكوّنا – والرباعي العناصر في "الرطوبة الشبيهة بالزُّجاج" و"الطبقة الشبيهة بالمشيمة" بمركّب نعتيّ ذي عنْصُرين هو "الرّطوبة البيضيّة" و"الرطوبة الزجاجيّة" و"الطبقة المشيميّة"؛ وأما ما شابَهَ العنبيّة وما شابَهَ القرنيَّة من طبقاتِ العين فقد ترجَمَ مقابليْهما اليونانيَّيْن بالمركّب النّعتِي ذي العنصريْن مباشرة، فقال" الطبقة العنبيّة" و"الطبقة القرنيّة".

وهذا الذي نجده عند القدماء من الوضوح في نقل اللاحقة [oid –] لا نجده عند المحدثين. فقد أقرّ مجمعُ القاهرة كما رأينا من قبل ترجمة اللاحقة بـ"شبه" فيقال "شبه غرائي" في ترجمة "colloid" و"شبه مُخاطيّ" في ترجمة

---

56) المرجع نفسه، 108 (س 7) – وتنظر ص 275.

57) حنين بن إسحاق : العشر مقالات في العين، تحقيق ماكس مايرهوف، المطبعة الأميرية بالقاهرة، القاهرة، 1928، ص 74 و 75.

58) المرجع نفسه، ص 74.

59) المرجع نفسه، ص 74.

60) المرجع نفسه، ص 76.

61) المرجع نفسه، ص 75 و 80.

62) المرجع نفسه، ص 74.

63) المرجع نفسه، ص 74 و 80.

(64) المرجع نفسه، ص 75 و 80. وتنظر أمثلة أخرى لترجمتها بـ"شبيه" عند القدماء في : إبراهيم بن مراد : مسائل في المعجم، ص ص 113 – 114.

"mucoid" (65) ؛ لكنّ المجمعَ عدل عن قراره هذا في قرار آخرَ لاحقٍ جاء فيه : " كلّ كلمة أجنبية فيها الكاسعة (oid) التي تدلّ على التشبيه والتنظير تُترجَمُ في الاصطلاحات العلميّة بالنسب مع الألف والنون، مثل غَرواني وسِمْسَماني فيما يُشبه الغِراءَ والسِّمْسِم" (66) ؛ لكنّه قد قيّد هذا القرارَ في قرار آخر لاحق – جمع فيه بين [oid –] و[form –] و[like –] – (1) بأن "تُستَعْمَل صيغة النّسب مع الألف والنّون في كلّ الاصطلاحات الطبية " التي تنتهي بإحدى اللواحق الثلاث، و(2) بألاّ يتنافى ذلك الاستعمال "مع الذوق العربي" (67) ؛ ومن شأن قرار مثل هذا يقيّد الاستعمال بـ "الذوق العربي" أن يفتح بابَ الاجتهاد أمامَ المجتهدين لترجمة اللاحقة بما لا يتنافى مع الذوق العربي. والحقّ أننا وجدنا لجنة المصطلحات الطبية في المجمع تُحاول الالتزامَ بترجمة [oid –] بصيغة النسب مع الألف والنون حتى في حالات قد يتولّد فيها عن تطبيقه مصطلح لا يخلو من إغرابٍ في الصيغة وإغْماضٍ في الدلالة فلا يُفْهم إلاّ بالرجوع إلى مقابله الأجنبيّ، مثل مصطلح "أُذُنَانيٌّ" – صفة لما ينسبُ إلى الأذنين معا – ترجمة لـ"binaural" (مج، 85/1) و"فِيلانِي" – نسبة إلى ما له علاقة بداءِ الفيل أو ما يشبهُه – ترجمة لـ"elephantoid" (مج، 106/2)، و"لِيفِينَاني" – صفة لما يُشبه الليفين – ترجمة لـ"fibrinoid" (مج، 205/2) ؛ وقد فعل مثلَهم في الحقيقة مؤلفو (مو) ؛ وأما مترجمو (كل) فقد كانوا أكثر حرية في الترجمة. وقد وجدنا في المصادر الثلاثة إحدى عشرة ترجمة لمقابلة هذه السابقة (68)، هي التالية :

(1) باللاحقة [- ـاني] – أي بصيغة النسبة مع الألف والنون كما أقر المجمع – في "مُخَاطاني" ترجمة لـ"blennoid" – مج، 92/1.

(2) باللاحقة [- ـانيّة] في "أحْمرانِيّة" – وهي التهاب جلديّ – (69) ترجمة لـ"erysipeloid" – مج، 162/2.

(3) باللاحقة [- ـاوي] في "قُرْصَاويٌّ" ترجمة لـ"discoid" – مو، 232 (وينظر (7) في ما يلي).

(4) "شِبْهٌ" في "شبه المشيمة" ترجمة لـ"choroïde" – كل، ف 2605.

---

65) مجمع اللغة العربية : مجموعة القرارات العلمية، ص 183.

66) المرجع نفسه، ص 184.

67) المرجع نفسه، ص 185.

68) لم نعتدَّ بترجمتها إذا حُذِفتْ – فكانت الترجمة بحذفها – في مثل "جدرة" ترجمة لـ"cheloid" – ينظر (مج)، 154/1 ؛ (كل)، ف 2469 ؛(مو)، ص 155، وقد عالجنا من قبل مشاكل ترجمة هذه اللاحقة وانتهينا من الاستقراء في جملة من المصادر إلى وجود سبع عشرة ترجمة عربية لها، فما وجدناه هنا إذن جزئيّ – ينظر إبراهيم بن مراد : مسائل في المعجم، ص ص 114 – 117..

69) على أن (مج) قد أورد المصطلح نفسه في موضع آخر (167/2) مقابلا لـ "erythrosis " بمفهومين مختلفين عن المفهوم الذي ذكر.

(5) "شبه" مع "ياء النسبة" في الصفة في "شبه قُرْصي" ترجمة لـ"discoid" – مج، 50/2.
(6) بنَحْتِ "شبْ" – ترخيما لـ"شبه" – مع ياء النسبة في الصفة في "شِبْلوري" ترجمة لـ "cristalloïde" – كل، ف 3570 [70].
(7) "شبيه" في "شبيه الأمشاج" ترجمة لـ "gametoid" – مج، 251/2.
(8) "نظير" في "نظير الجلد" ترجمة لـ "dermoïde" – كل، ف 4068.
(9) باللاحقة [-ـوي] في "أخْرمي غُرابَويّ" ترجمة لـ "acromiocoracoid" – مو، ص 13.
(10) بتعريبها [- ويد] في "قلويد" ترجمة لـ"alcaloïde" – كل، ف 468.
(11) بياء النسبة مفردة [- ـي] في "سريريّ" ترجمة لـ"clinoid" – مو، ص 172.

وتُلاحَظُ في الترجمات الإحدى عشرة استعمالُ ستّ لواحق منْها خمس عربيّة ولاحقة معرّبة مزيدةٌ إلى أصل عربيّ ؛ وأما بقية الترجمات فقد اشتركت فيها "شبْه" و"شبيهٌ" مع "نظير"، وكلّها في الحقيقة متقاربَة في الدلالة على "الشبيه" التي تحملها اللاحقة الأجنبية. وتعدّدُ الطرق ناتج في الحقيقة عن عدم التقيد بقاعدة واحدة في ترجمة هذه اللاحقة الأجنبيّة ؛ وقد كان من الممكن أن تُبْنَى النماذجُ المقدَّمة جميعا مع [- ـاني] دون أن يضطربَ المفهومُ المراد للمصطلح ما دامت اللاحقة العربية قد اصْطُلِحَ على أن تدلّ على " الشبيه" في أيّ موضع وردت فيه.

2 – 3 – 2. اشتراك اللواحق الأجنبية الكثيرة في لاحقة عربية واحدة :

وهذه الظاهرة مُغلّبَة في مصادرنا، وقد اخترْنا منها حالة واحدة هي ترجمةُ جملة من اللواحق الأجنبية التي تُولّد بها عادة صفاتٌ دالّة على الانتماء والانتساب والاتّصاف بصفة ما، بياء النسبة [- ـي] العربيّة. وقد اخترنا من هذه اللواحق ثلاثا :

الأولى هي [al –] بالانغليزية والفرنسية، ولها في الفرنسية رديفٌ هي اللاحقة [el –]، وقد استعملت اللاحقتان في كل. وقد اتّفقت المصادرُ الثلاثة على ترجمتها بياء النسبة في مثل ترجمة "facial" في مج (191/2) ومو (ص 267 وفي كل (ف 5516) بـ"وجْهيٌّ"، نسبة إلى الوجه ؛ وترجمة "confusional" في

---

70) وقد استعمل (كل) – ف 2866 – الصيغة في الجمع أيضا في " شبْغَريّات" ترجمة لـ"colloïdes".

مو (ص 186) بـ"تخليطي"، وتُوافقها "confusionnel" في كل (ف 3051) وقد تُرْجِمت فيه بـ"اختلاطي" ؛ و"essential" في مج (170/2) وقد ترجمت بـ"جَوهريٌّ"، وتوافقها "essentiel" في كل (ف 5243) الذي ترجمها بـ"أساسيّ" (71).

والثانية هي [ar –]، وتوافقها في المعنى اللاحقة [ary –]، وتوافقهما اللاحقة الفرنسية [aire –]، وكلها من أصل لاتيني واحد هو [arius –] وتدلّ على النسبة والانتماء إلى مهنة أو إلى شيء ما ؛ وقد اتفقت المصادرُ الثلاثة على ترجمتها بياء النسبة أيضا في مثل "follicular" التي ترجمت بـ"جُرَيْبي" في مج (226/2) وفي مو (ص 277)، ومثلها في الفرنسية "folliculaire" وقد ترجمت في كل (ف 5877) بـ"جِرابيّ" و"جُريبي" ؛ و"heriditary" وقد ترجمت في مج (52/3) وفي مو (ص 307) بـ"وراثيّ"، وقد وضعت الترجمة ذاتُها لـ"héridiitaire" في كل (ف 3055).

والثالثة هي [ous –]، وتوافقها في الفرنسية اللاحقة [eux –]، وهي تردُ في المصطلحات الطبية كما تردُ في المصطلحات الكيميائية، فإذا كانت في مصطلح كيميائي لم تَعْدمْ من يُعرّبها مع العنصر الكيميائي الذي تكونُ فيه، ومثال ذلك "أرسينوس" لترجمة "arsenous" في مو (ص 65)، وإذا كانت مصطلحا غير كيميائي غلب الميلُ إلى ترجمتها بياء النسبة، ومثال ذلك ترجمة "acinous" بـ"عنقودي" في مج (19/1) وبـ"عُنَيْبيّ" في مو (ص 12)، وترجمة "acineux" بـ"عِنبيّ" في كل (ف 240).

وهذا الصنف من اللواحق يثير في العربية في الحقيقة قضية المقابل الدقيق، لأن النسبة في اللغتين الفرنسية والانغليزية يُعبَّرُ عنها بلواحق كثيرة لا تخلو من فُوَيرقات بينها رغم تقاربها الشديد في المعني، وتعبر عنها العربية بلاحقة واحدة هي ياء النسبة.

والمشكلة التي ذكرنا ليست إلا مظهرا من المظاهر الإشكالية الكثيرة التي تثيرها ترجمة السوابق واللواحق الأجنبية إلى العربية. وقد تعمّدنا في الفقرات السابقة الإتيان بمجموعة كبيرة من النماذج التّرجميّة للسوابق واللواحق اعتمادا على ثلاثة من المصادر المهمّة في القاموسية العربية المختصّة الحديثة لنظهر انطلاقا منها جوانبَ من تلك المظاهر ونحاول مناقشتها.

---

71) قد تتغير اللاحقة لكن ياء النسبة لا تسقط منها مثلما نجد في " أمونيائي" ترجمة لـ"ammoniacal" (مو، ص 30) وفي "عاماويّ" – نسبة إلى العام من الزمن – ترجمة لـ"circannual" (مو، ص 167)، فقد ترجمت اللاحقة بـ [- ـائي] في المثال الأول وبـ [- ـاوي] في المثال الثاني.

3 – في مشاكل ترجمَة السوابق واللواحق :

قد اكتفينا في فقرات القسم المتقدّم بالتمثيل لترجمة جملة من السوابق – وعددها عشْر – واللواحق في ثلاثة مصادر من القواميس العربية المختصة الحديثة ؛ وأبرز ما يلاحظه الباحث في الأمثلة المتقدّمة هو تعدّد الترجمات لمختلف السوابق، ومن أبرز ما يستنتجه أيضا عند النظر في المعاني التي تفيدها السوابقُ الأجنبية في لغاتها الأصلية هو أنها معانٍ محدّدة ومحدودة. فإن منها خمسا تفيد عامة معنى "الحرمان" (privation) و"النفي" (négation) هي [a –] و [an –] و [anti –] و [de –] و [dis –] (1 و 2 و 3 و 5 و 7) ؛ ومنها اثنتان تفيدان معنى "المضاعفة" و"التكرار" هما [bi –] و [di –] (4 و 6) ؛ ومنها ثلاثُ سوابق تستقلّ كلّ منها بمعناها هي [dys –] (8) التي تفيد معنى "العُسْر"، وهو مندرج معجميّا في معاني "النفي"؛ و [hyper –] (9) التي تفيد معنى "الإفراط" و"المبالغة" ؛ و [hypo –] (10) التي تفيد "النقص" و"عدم الكفاية"، وهما مندرجان معجميّا في معاني النّفي أيضا. وإذن فإنّ السوابقَ العشرَ تفيد جملة معانٍ يمكن جمْعها في ثلاثة كبرى هي النفيُ و التكرارُ والمبالغة ؛ ولذلك فإنّ تعدّد ترْجماتها يثيرُ جملة من القضايا المتعلقة بالترجمة ووضع المصطلح في اللغة العربية وبالتقييس أو التنميط (normalisation) فيهما؛ والقضايا الأساسية التي تثيرها ثلاثٌ، هي التالية :

3 – 1. قضية الترادف :

الترادف في الأمثلة التي قدّمنا هو أنْ يكون للسابقة أو اللاحقة الواحدة ترجماتٌ مختلفة لتأدية المعنى الواحد. ويسهل تبيّن الترادف في النماذج التي قدمنا من عدد الترجمات الجملي أوّلا ثم من عدد الترجمات المسنَدة إلى كلّ سابقة من السوابق ثانيا. فإن السوابقَ عشرٌ، لكنّ ترجماتها قد بلغت مجتمعة في المصادر الثلاثة مائة وإحدى وعشرين (121) ترجمة ؛ ثم إن من السوابق ما بلغ عدد ترجماته إحدى وعشرين مثلما رأينا في ترجمة [hypo –]، أو تسع عشرة مثلما رأينا في ترجمة [hyper –]، أو ثماني عشرة مثلما رأينا في ترجمة [de –]، أو ستّ عشرة مثلما رأينا في ترجمة السابقتين [a –] و [an –] ؛ وإذن فإن السابقة الواحدة تُقابَلُ بعدد من الترجمات رغم اختصاصها بمعنى مركزيّ أصليّ ودلالتها على فُوَيْرقات في المعنى يمكن حصرها. ويمكن أن نجد لظاهرة الترادف هذه أسبابا تبرّر بعض اللجوء إليها، منها :

3 – 1 – 1. اختلافُ المصادر :

فإن المصادر التي اعتمدنا في الاستقراء ثلاثة، وهذا التنوع في المصادر مؤدّ لا محالة إلى وجود اختلاف في النظر إلى السوابق وطرق نقلها إلى العربية. ولكنّ هذا التنوع في المصادر لا يُعَدّ مبرّرا قويا، لسببين :

الأول هو وجودُ الترادف في المصدر الواحد، ورغم حذفنا من الأمثلة المقدمة الترجمات المكرّرة في أكثرَ من مصدر واكتفائنا بإيراد مثال واحد على الترجمة الواحدة من مصدر واحد من المصادر الثلاثة – وذلك لا يُظهرُ إظهارًا تامًا تَعدّد ترجمات السابقة الواحدة في المصدر الواحد – فإنّ في الأمثلة التي قدّمنا ما يدلّ على وجود الترادف في المصدر الواحد ؛ من ذلك وجود إحدى عشرة ترجمة اسميّة لـ [– hyper] في (مج) هي"ارتفاعٌ" و"تباعدٌ" و"تَزَايُدٌ" و"تَزَيُّدٌ" و"رَهافةٌ" و"زيادةٌ" و"شِدّةٌ" و"ضُخَامٌ" و"طولٌ" و"غزارةٌ" و"فَرْطٌ" ؛ ووجود ثماني ترجمات وصفية لـ[– hypo] في المصدر نفسه هي "خَفْضيّ" و"خَفيفٌ" و"سُفْليٌّ و"قليلٌ" و"مُقِلٌّ" و"مُنْخَفِضٌ" و"مُنْقِصٌ" و"ناقِصٌ"، ولا ندري ما هي المبررات المفهوميّة التي أدّتْ إلى وجود ثنائيّات مثل " التزايد" و"التزيّد"، و"الغزارة" و"الفرط"، و"الخَفْضيّ" و"السفْليّ"، و"المقلّ" و"المُنقِص" ؟

الثاني هو ذهاب المصادر الثلاثة مذهبَ " التوحيد" و"التقييس". فإنّ اثنين منها – هما (كل) و (مو) – قد كان منطلقُ المترجمين والمؤلفين فيهما "توحيدَ" المصطلح الطبيّ العربيّ كما أشرْنا إلى ذلك من قبل ؛ وأما الثالث – (مج) – فمن وضْع مؤسّسة عتيدة هي مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي يعرض في مختلف دورات انعقاده ما تضعه "لجنة المصطلحات الطبية" فيه من مصطلحات فيناقشها ويقرّها ؛ ومن أهمّ ما يُغَلّبه في مناقشاته لأعمال لجانه عامّة أن تَتَقيّد بقراراته العلمية في الترجمة ووضع المصطلحات، ومن تلك القرارات ما اتّصل بترجمة السوابق، ومنها [a –] و[an –] و[hyper –] و[hypo –] كما رأينا، وقد أقرّ المجمع لكلّ منها مقابلاً واحدا هو "لا" للأوليَيْن و"فَرْطٌ" للثالثة و"هَبْطٌ" للرابعة، وفي دعوة المجمع هذه إلى اعتماد المقابل الواحد للسابقة الواحدة دعوة للجانه إلى "التوحيد " في ترجمة المصطلح ووضعه. ولا شكّ أن هذا المذهبَ إلى "التوحيد" يقتضي من أعضاء المجموعة الواحدة أوّلاً – أي لجنة المصطلحات الطبية في مجمع القاهرة، ولجنة المصطلحات الطبية في الجامعة السورية، مترجمة "معجم" كليرفيل، ولجنة المصطلحات الطبية العربية باتّحاد الأطبّاء العرب واضعة "المعجم الطبيّ الموحد" – أن يوحّدوا طرقهم في الترجمة وأن يلتزموا بما وضعوه أو ما أقرّته مؤسّساتهم من "قواعد" أو "مبادئ" في ترجمة الزوائد الصرفية الاشتقاقية الأجنبية، ثم هو يقتضي من المجموعات كلها أن تأخذ بطريقة

في النقل موحَّدة تأخذُ بما وضع المتقدّمون فتعتمده ولا تضيف إليه إلا ما أوجبته المراجعة النقدية أو اقتضاه تطوّر العلم.

3 – 1 – 2. ترجمة الصفات والأسماء :

ذلك أن من المصطلحات المصدّرة بسوابق أو المُنْهاةِ بلواحق التي أوردنا ترجماتها ما هو في الأصل اسميّ وما هو وصفيّ. وهذا الاختلاف في الانتماء المقولي بين الاسم والصفة في اللغات المصادر، مثل اليونانية في القديم والانغليزية والفرنسية في الحديث، ليس بذي تأثير في بنية المصطلح إذا كانت الزائدة سابقة، لأن السّوابق فيها عناصرُ قارّة لا تتبدّلُ مواضعُها ولا تتغيّر معانيها العامة، بل الذي يتغيّر في المصطلحات الوصفيّة هو المعنى نتيجة وجود اللواحق فيها وليس نتيجة وجود السوابق. والمشكلة إذن بالنسبة إلى مترجمينا في نقل المصطلحات الوصفية تتمثل في أنهم أمام صنفين من الزوائد في هذا الصنف من المصطلحات : هي السوابق واللواحق معا، وذلك يضطرهم إلى البحث عن الوسيلة التي يلائمون بها بين الصنفين من الزوائد في المفردة الواحدة ؛ وقد كان هذا سببًا لتعدد ترجمات السابقة الواحدة. ولكنّ القضية هنا هي أنْ تَتَعدَّدَ ترجمةُ السابقة الواحدة في مصطلحات منتهية بنفس اللاحقة، وذلك ما نلاحظه مثلا في مصطلحات مبدوءة بـ [– hypo] ومنتهية بـ [ic–] قد نقلت السابقة فيها في (مج) بـ "مُنْخَفِضٌ" و"مُنْقِصٌ" و"ناقِصٌ" ؛ وفي مصطلحات مبدوءة بـ [– an] ومنتهية بـ [ic–] قد نقلت السابقة فيها في (مو) بـ "غير" و"فقير" و"مُعْوز". ولم ينتبه مجمع اللغة العربية في القرارات التي وضعها لنقل السوابق واللواحق كما لم ينتبه مترجمو (كل) ومؤلفو (مو) إلى أن معاملة الصفات – والسوابق واللواحق جزءٌ منها – غيرُ معاملة الأسماء. وليس ذلك فيما نرى بالعذر المقبول.

3 – 2. قضية الاشتراك :

ونقصد بالاشتراك أن يشترك مقابلٌ عربيّ واحدٌ في ترجمة أكثرَ من سابقة أو لاحقة أجنبية واحدة ؛ وهو إذن مخالف للترادف الذي تشترك فيه مقابلاتٌ عربية مختلفة في ترجمة السابقة أو اللاحقة الأجنبية الواحدة. فمثلما سمح أصحاب المصادر الثلاثة بأن تتعدّد المقابلاتُ العربيّة للسابقة أو للاحقة الأجنبية الواحدة، سمحوا أيضا بأن يُسْنَد المقابلُ العربيُّ الواحدُ إلى أكثرَ من سابقة أو لاحقة أجنبية واحدة. وقد وجدنا في النماذج التي أوردنا في التمثيل لترجمة السوابق خمسَ عشْرة ترجمة عربية قد وضعت لأكثر من سابقة أجنبية، منها ثمان اشترك كلّ منها في سابقتين، هي "إزالة" لـ [an–,de –]، و"انعدام" لـ [a–,an –]، و"ثنائيّ" لـ [bi–,di –]، و "غير" لـ [an–,de –]، و"فقدان" لـ [a–,an –]، و"مزدوج" لـ

[bi,di]، و"مزيل" لـ [– anti–,de]، و"نَـزْعٌ" لـ [– de–,dis] ؛ ووجدنا ستًا قد اشترك كل منها في ثلاث سوابق أجنبية، هي "عَـدَم" لـ [– a –,dis –,dys]، و"عـديمٌ" لـ [– a–,an-,dis]، و"عَمَهٌ" لـ [– a –,an –,dys]، و"عَوَزٌ" لـ [a- – ,an-,hypo]، و"لا" لـ [a-,an-,dis-]، و"نقصٌ" لـ [– an-,de-,hypo] ؛ ووجدنا ترجمة واحدة قد وضعت لخمس سوابق، هي " فَقْدٌ" التي قابلت [a-,an- – ,de-,dis-,dys]. ويلاحظ أن السوابق الأجنبية – عدا [– bi-,di] – معبرة عن معاني النفي، ولذلك كانت المقابلات العربية التي اشتركت في ترجمتها معبرة عن معاني النفي أيضا ؛ لكنّ هذا الاشتراك الذي نراه في هذه الحالة مناقض لما رأيناه من ترادف في الحالة السابقة، فإن ترجمة المجموعة من السوابق الأجنبية بالمقابل العربي الواحد تتناقض وترجمة السابقة الأجنبية الواحدة بمجموعة من المقابلات العربية ؛ ذلك أن ترجمة السابقة الواحدة بمجموعة من المقابلات العربية تفترض أن تكون السابقة الأجنبية من المشترك الدلالي، أي ذات دلالات مختلفة توجب أن توضع لها مقابلات مختلفة ؛ كما أن ترجمة المجموعة من السوابق الأجنبية بالمقابل العربي الواحد تفترض أن يكون المقابل العربي من المشترك الدلالي أي ذا معان مختلفة توافق مختلف السوابق التي جُعِلَتْ مقابلا لها ؛ وليس أيّ من التعليلين بصحيح، لأن للسوابق الأجنبية في العادة في لغاتها الأصلية معانيَ محدّدة ومحدودة، وخاصة إذا كانت مثل النماذج التي مثلنا بها، منتمية إلى دلالة معجمية رئيسية واحدة هي النفي أو الحرمانُ، وهي بلا شك ذات فُوَيْرِقَاتٍ (nuances) دلالية إذا لم تكن من أصل واحد، لكنّ تلك الفويرقات لا تبرّر وجود واحد وعشرين مقابلاً للسّابقة [– hypo] مثلا ؛ ثم إنّ المقابلات العربية التي أُشْرِكَتْ في ترجمة أكثر من سابقة أجنبية واحدة ليس لها من التعدد الدلالي ما يؤهّلها لتقوم مقام السوابق التي وضعت مقابلا لها. ويمكن أن نَتَبَيَّنَ ذلك في "فَقْدٌ" ومقابلاتها. فإن للفقد حسب لسان العرب معنيين متقاربين هما الانعدامُ إذا كان مصدرا لـ "فقدَ الشيءَ" إذا عَدِمَهُ، والغيابُ إذا كان مصدرا لـ "فقدَ فلانًا" إذا غاب عنه ؛ والمعنيان متقاربان لأنّ في الغياب نوعًا من الانعدام. وأما السوابق الخمس التي تقابلها فتفيد ثلاثة معان أساسيّة : الأول هو النفي الذي تفيده "لا" و"بلاً" و"دونَ" وتؤديه السابقتان [– a] و[– an] ؛ والثاني هو "الفَصْلُ" الذي تفيده السابقتان [– de] و[– dis] ؛ والثالث هو "العُسْرُ" الذي تفيده السابقة [dys-]. ولا شك أن "الفقد" واقع في دائرة النفي الذي يجمع بين السوابق الأجنبية الخمس، ولكن ليس فيه أيّ من المعاني التي ذكرناها لها إلاّ إذا تأوّلنا " بلاً" و"دون" تأويلاً مجازيّا . والخلاصة التي نخرج بها بعد هذا هي أن ظاهرة "الاشتراك" في ترجمة السوابق الأجنبية ناتجة عن عدم التقيد بمبادئ وقواعد منهجية واضحة في ترجمة الزوائد الصرفية الاشتقاقية الأجنبية إلى العربية.

3 – 3. في ترجمة الزائدة الأجنبية وترجمة المعنى :

من أبرز نتائج عدم التقيد بمبادئ وقواعد منهجية واضحة في ترجمة الزوائد الاشتقاقية الأجنبية إلى العربية غلبة الميل عند المترجمين، كما يبدو من المصادر الثلاثة التي اعتمدنا في الاستقراء، إلى ترجمة المعاني – أو المفاهيم – العامة التي تحملها المصطلحات، دونَ معاملة الزوائد – السوابق واللواحق – معاملة قارة بتخصيص مقابل واحد أو مقابلين لها – نتيجة ورودها في الأسماء وفي الصفات خاصة – والتقيد به أو بهما في الاصطلاح. ولا شكّ أن للنظر إلى العربية باعتبارها لغة ساميّة ذات بنية مقيدة لا تقبل التسلسل (concaténation) – أو هي إذا قبلته كان قبولها مقيدا جدّا – أثرا في هذا الموقف. فإن العربية من هذا المنطلق لا تقبل أن تُزادَ إلى أول الكلمة فيها سوابقُ غيرُ السوابق الخاصة بها وإلى آخرها لواحقُ غير اللواحق التي عرفت فيها. ولكن هذا الموقف لم تُمْله طبيعةُ العربية بل هو موقف اللغويين القدامى الذين جاراهم في ما ذهبوا إليه اللغويّون المحدثون. ونحن نجد في العربية بعض المظاهر الدالة على "شجاعتها" في قبول ظواهر تعتبر غريبة عنها، منها التركيبُ المزجي في مثل "حَضرموتَ"، ومنها النّحتُ في مثل "حيْعَل" من "حيّ على" و "عبْشميّ" من "عبد شمس" و"ليْسَ" من "لا أيْس" و"لاَشَى"من "لا شيْء"، ومنها قبول اللواحق الأعجمية مثل قبولها للاحقة [ـ ُوت] ذات الأصل الآرامي [ûtho –] في مثل "طاغُوتّ" و"جبروتّ"، واللاحقة [ـ ـون] ذات الأصل الآرامي [ûno –] في مثل "عبْدون" و"حَمْدون". ولو بحثنا عن مثل هذه الظواهر فيها باستقراء النصوص القديمة والحديثة لوجدنا منها شيئا غير قليل. ووجودها فيها يدلّ على أنها ذاتُ قابلية لأنْ تُصاغ منها وحداتٌ معجمية منْحوتة أو مركبة تركيبا مزجيّا تُتيح للزوائد الأجنبية المترجمة في المصطلحات العلمية والفنية على الأقل أن تصبح عناصر مكوّنة للبنية الصرفية فيها مثل ما أصبحت "لا" في " ليْسَ" وفي "لاَشَى" منذ القديم.

وقد نتجت عن الميل إلى ترجمة المعاني العامة للسوابق ظاهرتان :

الأولى هي ترجمة الوحدات المعجمية الأجنبية البسيطة – أي المتكونة من مفردة واحدة – بوحدة معجمية مركبة، أي متكونة من مفردتين. والمصطلحات الأجنبية البسيطة التي ذكرناها وأوردنا ترجماتها أمثلة قد ترجمت كلها بوحدات مصطلحية مركبة، وجل المركبات كانت إما إضافية وإمّا نعْتيّة، ولا شكّ أن الوحدة البسيطة أخف من الوحدة المركبة أو المعقدة وأيسر تناولاً.

والظاهرة الثانية هي كثرة المعاني المتقاربة أو المترادفة في ترجمة السابقة أو اللاحقة الواحدة، وهي معان يمكن تعويضها إذا التزم المترجم بمنهج دقيق

بمقابلات قارة، وخاصة لما اتُّخِذَ له من الزوائد مقابلٌ في قرارات مجمع اللغة العربية. ومن المعاني المتقاربة "عَوزٌ" و"فاقةٌ" في ترجمة السابقة [a –]، و"فقْد" و"فقْدانٌ" في ترجمة السابقة نفسها وفي ترجمة السابقة [an –] ؛ و"فقرٌ" و"عَوَزٌ"، و"فقير" و"معْوز" في ترجمة [an –] أيضا ؛ و"ثنائي" و"مزدوج" في ترجمة السابقتين [bi –] و [di –] ؛ و"صادّ" و"طارد" و"مزيل" في ترجمة [anti –]، و"مضادّ" و"معاكسٌ" و"مقابل" في ترجمة السابقة نفسها ؛ ومنها في ترجمة السابقة [de –] "إبطال" و"إتلافٌ" و"دفْعٌ" و"طرْحٌ" و"فَصْلٌ" و"نَزْعٌ" ؛ و"إفراط" و"تزايد" و"تزيّد" و"زيادة" و"غزارة" و"كثرة" في ترجمة [hyper –] ؛ ومنها في ترجمة اللاحقة [oid–] " شبيهٌ" و"نَظيرٌ".

وإذن فإن المطلوب من المترجم هو أن يترجم السابقة أو اللاحقة ترجمة قارة تجعلها مرتبطة بدلالة مخصوصة واستعمال مخصوص تعرف بهما وتشتهر، لا أن يتّبع هواه وذوقه في البحث عن المعاني المتقاربة أو المترادفة المناقضة لمبدإ التقييس والتوحيد في الترجمة عامة.

4 – نحو منهجية موحّدة في ترجمة السوابق واللواحق الأجنبية :

لا بد من التنبيه أولاً إلى أن وضع منهجية موحَّدة وموحِّدة في ترجمة السوابق واللواحق الأجنبية ليس من شأن فرد من الأفراد، وما ينبغي لفرد أن يجرؤ على ذلك فيما نرى، بل إن مثل ذلك العمل ينبغي أن تقوم به المؤسسات التي تعنى بالترجمة وعلم المصطلح مثل المنظمة العربية للترجمة والمجامع اللغوية والعلمية؛ فليس في وسع فرد – وخاصة إذا كان الوقت المتاح له محدودا – أن يستقصيَ القولَ في الزوائد الاشتقاقية الأجنبية، سواء بتتبّعها جميعا – وهي كثيرة جدا (72) – أو بتتبّع طرق ترجمتها في النصوص العربية القديمة والحديثة. فليس ما نحاوله في هذا البحث إذن بالمنهجية التي ندعي فيها الاستيعاب والاستقصاء، إنما هو تصوّر تمهيديّ لما يمكن أن تكون عليه المنهجية التي نتحدث عنها.

والمنهجية التي نقترحها تقوم على مبادئ عامة وعلى قواعد قد استخلصنا جلها من القسم الثاني من هذا البحث ؛ والمبادئ العامة هي الموجِّهة للقواعد التي تقترح لترجمة السوابق واللواحق. والمبادئ تختلف عن القواعد اختلافا جوهريا

---

72) قد ذكر مؤلفو القاموس التأصيلي والتاريخي الجديد سبعمائة وخمسا وثلاثين (735) زائدة من أصل يوناني ولاتيني مما يدخل في تكوين المفردات الفرنسية – ينظر : A. Dauzat , J. Dubois et H. Mittérand : *Nouveau Dictionnaire étymologique et historique* , 3eme éd., Librairie Larousse , Paris, 1964 , pp.XXVI – XLI . وليس كلّ الزوائد التي ذكروا " صرافم مقيدة" حقيقية بل إن عددا كبيرا منها وحدات معجمية أصلية – أو صرافم حرة – يونانية ولاتينية قد وظفت توظيف الصرافم المقيدة في تكوين المفردات الفرنسية.

لأن من شأنها أن تحدّد الإطار النظريّ الاختياري العام الذي يتنزّل فيه عمل العالم المصطلحي أو المترجم في وضعه للمصطلحات انطلاقا من لغةٍ مصدر (langue source) أجنبية ؛ وأما القواعد فتقنّن عملية الوضع ذاتها [73]، والخلط بين الاثنين مؤد إلى الاضطراب لا محالة.

وننبه قبل تقديمها في الفقرات التالية إلى جملة من الملاحظات :

(1) لم نستوف ذكرَ السوابق واللواحق الأجنبية بل اخترنا منها نماذج.

(2) أخذنا بما أقرّه مجمعُ اللغة العربية بالقاهرة في ترجمة الزوائد التي اتّخذ فيها قرارا وأوردناها في هذا المشروع.

(3) اعتمدنا في الحديث عن الزوائد الأجنبية وخاصة في تأصيلها وذكر معانيها على عدد من المراجع المعجميّة الفرنسية والانغليزية الحديثة، كنّا قد اعتمدناها في القسم الثاني من البحث أيضا [74].

(4) استعملنا في المبادئ مصطلح "الزائدة" في معنى "affixe". للدلالة على السابقة واللاحقة معا، فإذا احتجنا إلى التخصيص خصصنا التسمية.

(5) الأمثلة التي ذكرناها في مختلف الفقرات مأخوذة من المصادر الثلاثة المعتمدة في البحث.

(6) رمزنا إلى اللغة الانغليزية بحرفي (ان) وإلى اللغة الفرنسية بحرفي (فر).

---

(73) ينظر حول تطبيقات المبادئ والقواعد والخلط بين الاثنين في أعمال المحدثين إبراهيم بن مراد : مسائل في المعجم، ص ص 50 – 76.

(74) نذكرها فيما يلي مرتّبة تاريخيّا : A. Bailly : *Dictionnaire grec – français* , 26ème éd., Librairie Hachette , Paris , 1963 ; A. Ernout et A. Meillet : *Dictionnaire étymologique de la langue latine. Histoire des mots* , 4ème éd., Librairie Klincksieck, Paris, 1959 ; A. Dauzat , J. Dubois et H. Mittérand : *Nouveau Dictionnaire étymologique et historique* ; J.Picoche : *Dictionnaire étymologique du français* ; A. Cailleux et J. Komorn : *Dictionnaire des racines scientifiques*, 3ème éd., CDU et SEDES, Paris, 1981 ; *The Random House College Dictionary – Revised edition* , The Random House, New York, 1984 ; *Le Petit Robert*, Dictionnaires Le Robert , Paris, 1987 ; R. Grandsaignes D'Auterive : *Dictionnaire des racines des langues européennes*. Nouvelle éd., Larousse, Paris, 1994 ؛ وقد سبق ذكر كتاب Dauzat ورفيقيه وكتاب Picoche.

4 – 1. المبادئ العامة :

4 – 1 – 1. تُعْطى للزوائد الأجنبية في الترجمة معانٍ تُسْنَدُ إليها بالاصطلاح ونُكْسِبُها بالاستعمال حتى تُصْبِحَ ثابتة لها مشهورة بها .

4 – 1 – 2. تترْجَم الزائدة الأجنبيّة الواحدة بمقابل عربي واحد إلاّ إذا كانت دالة على أكثر من معنى، فإنه يجوزُ ترجمتُها بمقابلين أو ثلاثة ؛ أو إذا كانت مما يُزادُ لتوليد الأسماء والصفات معا فإنها تترجَم عندئذ بمقابلَيْن، يوضع أحدهما لترجمة الزائدة في الاسم ويوضع الثاني لترجمة الزائدة في الصفة ؛ مثال ذلك الزائدة [hypo –] التي تترجم بـ"هَبْطٌ". فإن "هبطٌ" تستعمل في ترجمة الاسم مثل ترجمة " hypoacidity" بـ" هبط الحموضة "، و"هبْطيّ" تستعمل في ترجمة الصفة مثل ترجمة " hypothermic" بـ"هَبْطيّ الحرارة".

4 – 1 – 3. يخصّصُ مقابل عربي واحد للزائدة الأجنبية الواحدة فلا تشترك في المقابل العربي الواحد زائدان أجنبيتان أو أكثر، إلاّ إذا كانت الزائدان الأجنبيتان مترادفتين في أصلهما مشتركتين في الدلالة، مثل السابقتين [a –] و [an –] الدالتين على النفي والسلب، فإنه يجوز ترجمتهما بمقابل واحد يشتركان فيه.

4 – 1 – 4. يُراعى في نقل الزوائد الأجنبية إلى العربية الترجمةُ لا التعريبُ فتنقل الزوائد بالمقابلات العربية الموضوعة لها في هذه المنهجية، إلاّ في ترجمة العناصر الكيميائية فإنّه يجوز تعريبُ اللواحق مثل تعريب اللاحقة [yl –] في "نمْليل" ترجمة لـ"formyl".

4 – 1 – 5 . تراعى عند ترجمة الزوائد الأجنبية أصولُها اليونانيّة واللاتينية وخاصة لمعرفة معانيها الأصلية.

4 – 1 – 6. تترجم الزوائد الأجنبية المولدة من مفردات يونانية أو لاتينية تامة – مثل [therapy –] و [form –] – بمعانيها المعجمية التي تدلّ عليها.

4 – 1 – 7. تُراعى في ترجمة الزوائد الأجنبية ضروراتُ الدقة والخصوصية في نقل المعنى وليس مقتضيات الذوق اللغوي.

4 – 1 – 8. تُستغلّ في ترجمة الزوائد الأجنبية طاقاتُ العربية الذاتيّةُ ما أمكن.

4 – 1 – 9 . يُستغلّ نظامُ الزيادة في اللغة العربية لترجمة الزوائد الأجنبية بما يوافقها أو يصطلح على موافقته لها من الزوائد الأجنبية، مثل اللاحقة [ـ ـاني] الدالة على الشبه واللاحقة [ـ ـوت] الدالة على المبالغة.

4 – 1 – 10. تُعتمَدُ الصيغُ – أو "الأنماطُ الصيغيّةُ" – ذاتُ المعانِي لترجمة المفردات الحاملة لزوائد تَجعلها موافقةً لها في المعنى، مثل ترجمة المفردات المنتهية باللاحقة [-able] بمفردات من النمط الصيغيّ "فَعُول" الدالّ على القابلية.

4 – 1 – 11. يُلْجَأ إلى النحت لبناء مفردات مشتملة على ترجمات للزوائد مُرَخّمة مثل ترْخيم " فرْط" المقابلة لـ[– hyper] بـ"فرْ" في" فرْشَم" – من "فرْط الشمّ" – ترجمة لـ"hyperosmia" ؛ وفي هذا استئناسٌ بمذاهبِ العرب القدامى في النحت مثل نحتهم "الليْس" من " لا أيْس" أي "لا وجود".

4 – 2. القواعد :

4 – 2 – 1. في ترجمة السوابق :

4 – 2 – 1 – 1. السابقة [– a] :

هذه السابقة من أصل يوناني هوالسابقة [– α] ([– a]) التي تفيد معنى النفي بالدلالة على "لا"، ومعنى السلب بالدلالة على "بلا"، ومعنى الحرمان بالدلالة على "دون" ؛ وهي تُتَرْجَمُ بـ"لا" في الاسم في مثل "لاتكوّن" ترجمة لـ"agnesia" ؛ وبـ"بِلا" في الصفة في مثل "بلا يَدٍ" ترجمة لـ"acheirus".

4 – 2 – 1 – 2. السابقة [– an] :

تشترك هذه السابقة مع [a-] في الأصل والمعنى، ولذلك فإنها تترجم مثلها بـ"لا" في الاسم مثل "لاألم" ترجمة لـ"analgesia" وبـ"بلا" في الصفة في مثل "بلا ماء" ترجمة لـ"anhydride".

4 – 2 – 1 – 3. السابقة [– anti] :

هذه السابقة من أصل يونانيّ هو السابقة [– αντι] ([– anti]) ومعناها " ضدّ" وتستعمل خاصة للدلالة على الصفة، وهي تترجم بـ"ضدّ " في مثل "ضدّ الحُمَة" ترجمة لـ"antivirus".

4 – 2 – 1 – 4. السابقة [– bi] :

هذه السابقة ذات أصل لاتيني هو "bis" ومعناه " مرّتان" ؛ وهي تستعمل بكثرة في المصطلحات الكيميائية. فإذا استعملت في غير المصطلحات الكيميائية ترجمت بـ"ثنائي" في مثل "ثنائي الإصبع" ترجمة لـ"bidigital" ؛ وإذا وردت في المصطلحات الكيميائية جاز تعريبها في مثل "بيوكسيد " تعريبا لـ"bioxyde".

4 – 2 – 1 – 5. السابقة [– de] :

ولها في الفرنسية بدائل هي [– dé] و[– des] و[– dés] وكلها من أصل لاتيني هو السابقة [– dis] ولها معاني " الفصل" و"الحرمان" و"الإبعاد" و"الفقد"، وهي وبدائلها الفرنسية كثيرة الاستعمال، مع فويرقات في المعنى. ويجوز لذلك أن تترجم بمقابلين هما (1) "فَقْد" إذا كانت في اسم مثل "فقد الشخصيّة" ترجمة لـ "depersonalization" – وتستعمل منها الصفة "مُفْقِد" و"فاقد" إذا كانت في صفة – و(2) "نَزْعٌ" إذا كانت في اسم مثل "نزع الهيدروجين" ترجمة لـ "dehydrogenation"، وتستعمل منها الصفة "نازع" و"منزوع" إذا كانت السابقة في صفة.

4 – 2 – 1 – 6. السابقة [– di] :

أصل هذه السابقةِ السابقةُ اليونانية [– διασ] ([– dis]) وهي في الأصل ظرف للزمان معناه "مرّتان"، فهي إذن مرادفة في المعنى للسابقة [– bi] ذات الأصل اللاتيني. وهي تستعمل في المصطلحات الكيميائية وفي غيرها ؛ فإذا استعملت في المصطلحات غير الكيميائية ترجمت بـ"ازدِواجٌ" في الاسم مثل "ازدواج اللسان" ترجمة لـ"diglossia" – ومنها الصفة " مُزْدَوِج" – وإذا استعملت في المصطلحات الكيميائية جاز تعريبها في مثل "ديوكسيد" تعريبا لـ"dioxyde".

على أن [– di] تكون أيضا بديلاً في الانغليزية لـ [– dis] الواردة في الفقرة التالية، إذا سبقت بعض الصوامت مثل /b/، /d/، /l/، /m/...، وهي تعامل معاملة [dis-] في الترجمة.

4 – 2 – 1 – 7. السابقة [– dis] :

هي ذات أصل لاتيني هو [– dis] وتفيد معاني" الإبعاد" و"الفصل" و"الحرمان"، وهي تشترك إذن مع [– de] وبدائلها في المعنى، وهي تترجم بـ "عَدَم" في الاسم مثل "عَدم المناعة" ترجمة لـ"disimmunization"، وبـ"عَديم" في الصفة مثل "عديم المناعة" ترجمة لـ"disummine".

4 – 2 – 1 – 8. السابقة [– dys] :

هي سابقة ذات أصل يوناني هو السابقة [– δυσ] ([– dus]) وتفيد " الصعوبة" و"العسر" و"الحالة السيئة". ويجوز أن تترجم بـمقابلين هما (1) "عُسْرٌ" في الاسم مثل "عُسْر الكلام" ترجمة لـ"dysphasia" – والصفة منه "عَسِيرٌ" – و(2) "سُوءٌ" في الاسم مثل "سوء المزاج" ترجمة لـ"dyscrasia"، والصفة منه "سَيِّءٌ".

4 – 2 – 1 – 9. السابقة [– hyper] :

هي سابقة ذات أصل يوناني هو الظرف أداة الجرّ "ὑπερ" (huper) الدالّ على "التجاوز للحدّ" و"الإفراط" و" المبالغة" ؛ وهي تترجم بـ"فَرْط" في الاسم مثل "فَرط الامتصاص" ترجمة لـ"hyperabsorption" وبـ"مفرِط" في الصفة في مثل "مُفْرِط الحرارة" ترجمة لـ"hyperthermal".

4 – 2 – 1 – 10. السابقة [– hypo] :

هي سابقة ذات أصل يوناني أيضا، هو الظرف أداة الجرّ "ὑπο" (hupo) ومعناه "تحتَ" و"خلفَ" و"دونَ" ؛ وهو يفيد عامة النّقص وعدم الكفاية ؛ وهذه السابقة تقرب في معناها من سوابق أخرى هي [– infra] و[– sous] و[– sub] ؛ وهي تترجم في الاسم بـ"هَبْط" اصطلاحا في مثل "هَبْط الحموضة" ترجمة لـ"hypoacidity" ؛ وأما في الصفة فيجوز أن تترجم بـ"هَبْطيّ" في مثل "هبْطيّ الهرمونات" ترجمة لـ"hypohormonic".

4 – 2 – 1 – 11. السابقة [– in] :

أصلُ هذه السابقة السابقةُ اللاتينية [– in]، وهي دالة على النفي والسلب ؛ وتبدل /n/ في الفرنسية وجوبا بـ/l/ إذا سبقت الصامت نفسه، وبـ/r/ إذا سبقته أيضا، وبـ/m/ إذا سبقت /b/، /m/ و/p/ . وتشترك معها الزائدة الانغليزية [– un] في الأصل وترادفها في المعنى، لكن [– in] مستعملة بكثرة في الانغليزية أيضا ؛ ويكثر استعمال الزائدين لتوليد الصفات خاصة، لكنهما تستعملان في توليد الأسماء أيضا ؛ ثم إن الزائدتين قريبتان جدا في المعنى من الزائدتين [– a] و [– an] الدالتين على النفي والسلب والحرمان. وتترجم الزائدتان بـ "لا" في الاسم منحوتة معه في مثل "لاتناسق" مقابلاً للفرنسية "incohérence " وللانغليزية "incoordination" ؛ وأما في الصفة فتترجم بـ"غَيْر" في مثل " غير ظاهر" ترجمة لـ"inapparent" و"غير صحيّ" ترجمة لـ"insanitary".

4 – 2 – 1 – 12. السابقة [– re] :

هي سابقة ذات أصل لاتيني هو السابقة [– re] الدالة على الحركة إلى الوراء أو الرجوع إلى الخلف ؛ وتكتب السابقة في الفرنسية [– r] فقط أمام الصوائت، و[– ré] أيضا. وهي تدل في الفرنسية والانغليزية على "التكرار" و"العودة إلى حالة سابقة" ؛ وهي كثيرة الاستعمال في الأفعال وفي الأسماء والصفات. وتترجم في المصطلحات الاسمية بـ"كَرّ" في مثل " كرُّ الخَلْع" ترجمة لـ"redislocation" – بالانغليزية – و"كرُّ الزّرْع" – أي زرْع الجراثيم – ترجمة

لـ"repiquage" بالفرنسية ؛ أما ترجمة الصفات فيمكن التصرّف فيها باستعمال الصفات المناسبة مثل صفة الفاعل "متفاعلة" لترجمة "reactant" (ان) و"كاشفٌ" لترجمة "réactif" (فر).

4 – 2 – 1 – 13. السابقة [sub –] :

وهي ذات أصل لاتيني هو الأداة الجارّة"sub" ومعناها "تحْتَ"، وقد رأينا من قبل أنها مرادفة في المعنى لـ[– hypo] و[– infra] و[– sous] ؛ وهي تترجم في الأسماء وفي الصفات بـ"تَحْتَ" في مثل "تحت المخاطية" ترجمة لـ"submucosa" و"تحْت اللسان" ترجمة لـ"sublingual ".

4 – 2 – 2. في ترجمة اللواحق :

4 – 2 – 2 – 1. اللاحقة [– able] :

هي ذات أصل لاتيني هو اللاحقة [– abilis] ومعناها "ما يُمْكِنُ" أو "القابِل للإمكان"، وهي تزادُ لتوليد الصفاتِ وتفيد " القابلية" عامة ؛ وتترجم اصطلاحا بصيغة "فعُول" العربية الدالة – زيادة على المبالغة – على القابلية في مثل "مَثول" ترجمة لـ"assimilable" أو بالفعل المضارع المبني للمجهول في مثل " يُشْرَبُ" لترجمة "potable" و"يُستَثَارُ" ترجمة لـ"excitable" [75].

4 – 2 – 2 – 2. اللاحقة [– ability] :

وهي بالفرنسية [– abilité]، وهي متكوّنة في الحقيقة من لاحقتين قد اندمجتا هما [– able] التي سبقت و[– ity] (ان) و[– ité] (فر) ؛ ويُترجم الاسمُ الذي تلحقه بالمصدر الصناعي المشتقّ إما من اسم المفعول مثل "ممْدوديّة" ترجمة لـ"extensibility" وإما من الصفة المصوغة على "فعُول" مثل

---

75) ليست "فعُولٌ" في الاستعمال اللغوي العربي صيغة مبالغة فقط بل هي قد تستعمل للدلالة على ما لا مبالغة فيه من المعنى؛ وقد وردت لها أمثلة كثيرة في العربية لا تدل فيها على المبالغة، منها قولهم "دابّة رَكوبٌ" أي ذات قابلية لأن تُركَبَ وليست هي من الممتنع ركوبه ؛ و"ماء شَرُوبٌ" أي "يُشْرَبُ"، فليس هو ممتنعًا عن الشرب لعيب فيه ؛ و"دواءٌ غَرُورٌ" أي "يُتَغَرْغَرُ به" ؛ وقد تلحقها التاء إذا كانت صفة لمؤنث مثل قولهم "شَاةٌ أكُولةٌ" وهي التي تُسَمَّنُ للأكل. وهذا الاستعمال هو الذي جَوَّزَ للمحدثين استعمال الصيغة للدلالة على القابلية. على أننا قد وجدنا مجمع القاهرة يستعمل في الصفة الفعل المضارع المبني للمجهول مسبوقا بـأداة التعريف "الـ" و"ما" الوصلية في مصطلح "المَايُكْشفُ" ترجمة لـ"detectable"، وهو "ما يمكن الكشْفُ عنه" – ينظر مجمع اللغة العربية : مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع،القاهرة، 1957 – 1964 (6 أجزاء)، 1 / 170، لكنه استعمل الفعل المضارع المبني للمجهول مع أداة التعريف لترجمة اللاحقة [– ible] أيضا في "اليُؤْكَلُ" ترجمة لـ"edible" – المرجع نفسه، 1 / 172 ؛ كما استعمل في ترجمة [– able] صيغة "فعُول" والصفة " قابلٌ" مع الجار والمجرور، وذلك في ترجمة "malleable" بـ"طَرُوق" (المرجع نفسه، 1 / 180) وبـ"قابل للطرْق" (نفسه، 1 / 220).

"طَرُوقيّة" ترجمة لـ"malleability"، من "طَرُوق" ترجمة لـ"malleable"، وإما من المصدر العادي المشتق – في الاستعمال – من الفعل المضارع المبني للمجهول، مثل "استثاريّة" ترجمة لـ "excitability"، من فعل "يُستَثارُ" ترجمة لـ"excitable".

4 – 2 – 2 – 3. اللاحقة [– in] :

وتكتب في الانغليزية [ine –] أيضا، وهي بالفرنسية [ine –]، وهي من أصل لاتيني هو [inus –]، وتدل السابقة على طبيعة الشيء أو جوهره ؛ ويكثر استعمالها في المصطلحات العلمية، وفي المصطلحات الكيميائية خاصة ؛ ويغلب في النصوص العربية الحديثة تعريبها باللاحقة [ـ ـين] ؛ لذلك تعرّب بـ[ـ ـين] في مثل "غُضْرَوفين" ترجمة لـ"cartilagin" (ان) و"بُنِّين" ترجمة لـ"caféine" (فر).

4 – 2 – 2 – 4. اللاحقة [– ic] :

وهي بالفرنسية [ique –]، وأصلها لاتيني هو [icus –]، وهذه من اليونانية [– ικος] ([– ikos]) ؛ وتزاد عادة لتوليد الصفات من الأسماء، وتدل على الانتماء والانتساب إلى شيء ما ؛ وتترجم بياء النسبة [ـ ـي] في مثل "إثنِيٌّ" ترجمة لـ "ethnic"، كما يمكن ترجمتها بصيغة وصفية مناسبة مثل صفة المفعول في "مكلوبٌ" ترجمة لـ"hydrophobic" و"مؤرَّقٌ" لترجمة لـ"insomnic".

على أنها تستعمل في المصطلحات الكيميائية لتناقض اللاحقة [ous –] (ان) أي [eux –] (فر)، فإن ما يوصف بزيادة [ic –] يكونُ ثلاثيّ التكافؤ (trivalent) وما يوصف بزيادة [ous –] يكون ثنائي التكافؤ (bivalent) ؛ وفي كلتا هاتين الحالتين تعرّب اللاحقة في المصطلحات الكيميائية بـ [ـ ـيك] في الأولى و[ـ ـوز] أو [ـ ـوس] في الثانية، فيقال "حَديديك" ترجمة لـ"ferric" (ان) و"ferrique" (فر)، و"حديدوز" أو "حديدوس" ترجمة لـ"ferrous" (ان) و"ferreux" (فر).

4 – 2 – 2 – 5. اللاحقة [ics –] :

هذه اللاحقة تعدّ "جمْعا" للاحقة [ic –] التي سبقت، قد استعملت في الأصل لوصف جملة من العناصر المنتمية إلى مجال مخصوص، ثم تطور استعمالها فأصبحت تستعمل استعمال المفرد لتدل على مجال بعينه من مجالات العلم أو النشاط البشري العام، وقد انتقلت إلى الفرنسية مفردة – [ique –] – لتقوم

بالوظيفة نفسها ؛ وتُترجم هذه اللاحقة بـ [- ـات] في مثل "لسانيات" ترجمة لـ"linguistics" (ان) و"linguistique"(فر).

4 – 2 – 2 – 6. اللاحقة [osis-] :

وهـــي بالفرنسيــة [ose –]، وهي ذات أصــل يوناني هو [ωσις –] ([ôsis –]) ومعناها الأصلي "الدفع" و"الارتطام" ؛ وهي تزادُ في الفرنسية والانغليزية لتوليد الأسماء الدالة على الأمراض غير الالتهابية ؛ وهي تترجم بالمصدر على صيغة "فُعال" في مثل "كُبَاد" ترجمة لـ"hepatosis" (ان) و"hépatose" (فر)،أو على صيغة "تَفَعُّل" في مثل "تَلَيُّف" ترجمة لـ "fibrosis" (ان) و"fibrose" (فر)، أو على صيغة "فَعَالَة" في مثل "شَحَامَة" ترجمة لـ"adiposis " (ان) وبالفرنسية "adipose" (فر) التي تُرجِمَت بـ"سَمَانَة" أيضا.

4 – 2 – 2 – 7. اللاحقة [ous –] :

وهي بالفرنسية [eux –] كما سبق في (4 – 2 – 2 – 4) ومؤنثها في الفرنسية [euse-]. وأصل هذه اللاحقة – في الانغليزية وفي الفرنسية – هي اللاحقة اللاتينية [osus –]، وهي تزاد لتوليد الصفات والتعبير عن معان منها "الامتلاء" و"الإعطاء" و"الشَبه" و"الاتّصاف بصفة ما". وهي تترجم بياء النسبة [- ـي] في مثل "كِيلوسي" ترجمة لـ "chylous" (ان) و "chyleux" (فر)، أو بصيغة مناسبة مثل صيغة المفعول "مُفَعّل" في "مُعَنَّب" ترجمة لـ"acinous" (ان)، و"acineux" (فر). على أن هذه اللاحقة تزاد لوصف العناصر الكيميائية وتخالفُ بها الصفة المولدة بزيادة [ic-]، وهي في هذه الحالة تعرّب إما بـ [- ـوز] وإما بـ [- ـوس] (تراجع القاعدة 4 – 2 – 2 – 4).

4 – 2 – 2 – 8. اللاحقة [oid –] :

وهــي بالفرنسية [oïde –] ؛ وهي من اليونانية وأصلها فيها اللاحقة [– εἰδής] ([eidês –]) ومعناها الأصلي " الشبيه"؛ وهذه اللاحقة تزاد بكثرة في لغة العلوم لتوليد الصفات، وقد غلبت ترجمتها بالألف والنون وياء النسبة – أي باللاحقة [- ـاني] – في المصادر الحديثة، لذلك فأنها تترجم اصطلاحا باللاحقة [- ـاني] مطلقًا، ومثالها "جِلْدَاني"ترجمة لـ"dermoid"، وبالفرنسية "dermoïde" ؛ و"نَشَوَاني" ترجمة لـ"amyloid " (ان) و"amyloïde" (فر).

5 – خاتمـــــة :

لم تكن الغاية من البحث الذي قدمنا استيعابَ القول واستقصاءه في مسألة انتقال السوابق واللواحق الأجنبية إلى اللغة العربية، بل كانت في المقام الأول إثارة القضايا المتعلّقة بها؛ وفي هذا السياق يتنزل القسم الرابع من البحث ؛ فإن ما قُدّم فيه تصوّرٌ عام لمشروع منهجية في نقل السوابق واللواحق الأجنبية مطبّقة على نماذجَ محدودة، يمكن أن يناقش إطارها العام وخاصة المبادئ العامة التي وجهتها لتعدل ويضاف إليها في عمل لاحق ينبغي إن يكون عمل هيئة أو عمل لجنة منتمية إلى هيئة علمية. ويبدو لنا أن مثل العمل الذي أشرنا إليه ضروري ؛ وهو ليس ضروريا في حد ذاته، بل هو ضروري لينجز ضمن تصور عام لما نسميه بـ "النظرية العامة للإبداعية المعجمية" في اللغة العربية.

فإن العرب كانوا ينظرون إلى المُولّد في اللغة نظرة الاستنقاص، ولم يعنوا بقواعد التوليد في العربية بل عنوا بالعربية باعتبارها ذات بنية لغوية تامّة متكاملة هي البنية النحوية التي يغلب عليها الاستقرار، ولم يعنهم المعجمُ إلا من حيث هو قائمة من المفردات التي تجمع من مصادر بعينها وتدوّن في قاموس مرتبة ومعرّفة ؛ أما التطور في المعجم فلم يكن قد عناهم. وقد تواصل هذا الإهمال في العصر الحديث : فلقد عني العرب بالمولد في أبحاثهم وأعمالهم المصطلحية ؛ ولكن اهتمامهم هذا قد شابته شائبتان : الأولى أنه كاد ينحصرُ في المجامع اللغوية، والمجامع قد تأسست ومن أهمّ أهدافها هدفان يبدوان متناقضين : الأول هو تطوير اللغة العربية، والثاني هو المحافظة على سلامتها، وقد كان الهدف الثاني مانعا في حالات كثيرة من تحقيق الهدف الأول ؛ والشائبة الثانية أن الأعمال المنجزة في معظمها لم تكن من عمل لغويين متخصصين في مسائل المعجمية وعلم المصطلح، بل كانت من عمل أدباء ومثقفين تدفعهم النوايا الحسنة ويوجههم الحماس الصادق لخدمة العربية ؛ ومن أهم ما ترتب على هذا الوضع من النتائج أننا لا نجد حتى اليوم منهجية متكاملة العناصر ذات مبادئ عامة وقواعد قابلة للتطبيق في التوليد المعجمي ؛ ولذلك بقيت مسألة نقل السوابق واللواحق الأجنبية إلى العربية قضية غُفْلاً، وقد أردنا في ما قدمنا في هذا البحث أن نثير بعضا من قضاياها النظرية والتطبيقية تمهيدا لمعالجتها معالجة أوسع وأشمل.

إبراهيم بن مراد

كلّية الآداب والفنون والإنسانيات

جامعة منّوبة - تونس

حوليات الجامعة التونسية - عدد 2008/53 ص ص 161 - 187

كتابة الذّات في السّيرة الذّاتيّة وتجلّياتها

لدى لطيفة الزيّات ونوال السّعداوي

بقلم : **جليلة الطريطر**

مقدّمــة :

كيف يمكن أن نقرأ علاقة الذات بفعل الكتابة في السيرة الذاتيّة ؟ هل الذات بالفعل سلطة تملي والكتابة فعل يثبت وينصاع انصياعا لسياسة الذات وهي تشكل ذاتها بذاتها في المكتوب وجودا ملموسا يخرج من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل ؟ أم أنّ للكتابة سلطة و"سياسة" لا تقلاّن شأنا عن سلطة الذات وسياستها ؟ وهو أمر يدعو إلى التفكر فيه، خاصّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تنزّل المكتوب في قلب المؤسّسة اللغويّة المتلبّسة دائما بكلّ ما هو اجتماعيّ وثقافيّ. هذا بالإضافة إلى أنّ الكتابة الأدبيّة باعتبارها رصيدا من النّصوص المتفاعلة لا تكون إلاّ في حالة انفتاح متواصلة على سنن الإبداع الفنيّة التي تضرب بجذورها في سياقات الدّلالات الرّمزيّة والقيم الثقافيّة كما يتلقاها المبدع وينفعل بها في النّصوص التّي تمثّل جدوله القرائيّ.

إنّ الحديث عن المكتوب مقابل الشّفويّ هو في الأصل حديث عن تحوّل جذريّ في تاريخ المعرفة الإنسانيّة. ذلك أنّ المكتوب هو النّصّ الذي ثبت في الزّمان والمكان - المتن الورقيّ - على نحو ما أي تجسّد نهائيا في صورة خطيّة أمسى بواسطتها وثيقة مستقلّة بذاتها، مستقلّة عن منشئها ومستقلّة عن قارئها. أفليست هذه الوضعيّة تمثّل في ذاتها سلطة من أقوى السّلط المتحكّمة في آليّات التّأويل ؟ إنّ فعل الكتابة هو إذن فعل تبعيد بالنسبة إلى القارئ ومنشئ النّص الذي لا يمكنه اعتباره مجرّد فعل ذاتيّ استنساخيّ شفّاف، أو منظومة من الأدبيّات والمقتضيات التي يدخل معها في نوع من التّفاوض السّلميّ أو الواعي دائما.

هذه الإشكاليّات الأساسيّة هي التي أردناها أن تكون مدخلا يؤسّس للمجال الأوسع الّذي تتنزّل في سياقه قضايا سلطة الذّات ومقتضيات تشكّل الكتابة كما تجلّت لنا أبرز مظاهرها في نماذج من الخطابات السّيرذاتيّة العربيّة الحديثة. وهي تدرج عموما في صنف أجناسيّ أشمل يصطلح عليه بالكتابة الذّاتيّة.

إنّ مصطلح "كتابة الذّات" الّذي يشمل بالإضافة إلى السّيرة الذّاتيّة المذكّرات واليوميّات والصورة الذّاتيّة أو'البورتريه'، يثير إذن بدءا من صيغته إشكالا مفهوميا، فهل نفهم صيغة النّسبة هنا فهما تخصيصيا إطلاقيا تستبعد منه آليات التبعيد التّي تتحكّم عادة في صنوف الكتابات غير الذّاتيّة، أم نعتبر صفة "الذّاتيّة" مجرّد قيمة خلافيّة نسبيّة لاغير لا تقدر على إلغاء فعل الكتابة بما أنّه دائما فعل من أفعال التبعيد على نحوما ؟

إنّنا بتنا لا نشكّ في أنّ علاقة الذّات بالفعل الكتابيّ في مجال الكتابة الذاتيّة الحميمة علاقة مشكليّة معقّدة إلى أبعد الحدود، لأنّها تستند إلى مواضعة أجناسيّة دقيقة تفترض ضمنيّا إمكانيّة اضطلاع النّص المكتوب بوظيفة الإحالة التّاريخيّة المباشرة على حياة كاتبه كما كانت في الواقع، إحالة النّسخة الأمينة على أصلها المفترض. ولكن صعوبة التّسليم بهذه الفرضيّة التّصوّريّة إن لم نقل استحالتها أصلا لم تكن لتخفى منذ القديم عن المترجمين لذواتهم، والحال لا يختلف مع المتلقّين سواء أكانوا قرّاء أم نقاد أدب، إذ المعروف عنهم أنّهم مولعون في مقاربة أدب السّيرة الذاتيّة بالمشاكسة، دؤوبون على التّشكّك وطرح الأسئلة المحرجة. فما المقصود إذن بكتابة الذات في السيرة الذّاتيّة خاصّة ؟ وكيف يمكن أن نقرأ أو نفكّك مختلف الآليّات المتحكّمة في إنتاج المشروع السّيرذاتيّ انطلاقا من استقراء أوجه الاشتباك ومستويات التّفاعل بين طرفيه الأساسيين، وهما الذّات باعتبارها تحيل على وجود تاريخيّ متحوّل من جهة، واللغة باعتبارها مؤسّسة اجتماعيّة وثقافيّة من جهة ثانية ؟

نقترح معالجة هذه القضيّة في ثلاثة محاور، الأوّل منها جعلناه تحسّسا لوجهة نظر بعض المترجمين لذواتهم كما عبّروا عنها في مواثيقهم السيرذاتيّة خاصّة، أمّا المحور الثّاني فصرفنا نظرنا فيه إلى مراتب الحضور الذّاتيّ وأبعاده المفهوميّة في السّيرة الذّاتيّة. وانتهينا ثالثا وأخيرا إلى تفحّص عمليّة بناء الوعي بالذّات انطلاقا من الكشف عن أهمّ الفعاليّات التّي يتمتّع بها فعل الكتابة الذّاتيّة باعتباره الأفق الملموس الذّي تتفاعل فيه كتابة الواقع مع واقع الكتابة.

1 - معضلة كتابة الذّات من خلال نصّ الميثاق السّيرذاتيّ:

تعدّ المواثيق السّيرذاتيّة في أغلب الحالات نصوصا افتتاحيّة تمهيديّة ذات وظيفة أجناسيّة بالخصوص، لذلك نصطلح عليها بالفواتح النّصيّة السّيرذاتيّة

Incipits–[1] - وهي عقود أدبيّة يصرّح فيها الرّاوي السّيرذاتيّ بأنّه يتحدّث بذاته عن ذاته حديثا مستمدّا من واقعيّة شخصه المدنيّ. وعلى هذا النّحو يشرّع لإنماء نصّه إلى حقل الكتابات المرجعيّة الذاتيّة التي تستدعي حصول تطابق بين ما يسمّيه فيليب لوجون Ph. Lejeune الهويّات الثلاث، التي هي هويّة الكاتب خارج النّص وهويّتا الرّاوي والشّخصيّة داخله [2]. انطلاقا من هذه الوضعيّة التلفظيّة المخصوصة نتبيّن أنّ مفهوم الذّات في هذه الكتابة ليس أبدا مسطّحا ولا بسيطا وإنّما هو مفهوم متعدّد ومركّب يتفرّع إلى ثلاثة أبعاد على الأقلّ كما سنبيّن لاحقا. ولمّا كان المشروع السيرذاتيّ يستند إلى مقولة الهويّة ويراهن على بلورتها في الخطاب- وهوما اصطلحنا عليه بالهويّة السرديّة[3]- فإنّ المترجمين لذواتهم أخذوا على عاتقهم إقناع متقبّلي قصص حيواتهم بإمكانيّة ملامسة الكتابة لحقيقة شخصيّاتهم الفرديّة محاولين بشتّى الطرق كسب تعاطف هؤلاء القرّاء المفترضين وحملهم على الثّقة بالسرد السيرذاتيّ والاطمئنان إلى مصداقيّته. ورغم أهميّة هذه الاستراتجيّة التّواصليّة[4]، فإنّ العديد من كتّاب السيرة الذاتيّة لم يعمدوا إلى تجاهل

---

1) انظر في تحديد مفهوم الفاتحة النّصيّة وتطبيقها على النّص السيرذاتيّ: جليلة الطريطر: "في شعريّة الفاتحة النّصيّة، حنّا مينه نموذجا في ثلاثيته : بقايا صور- المستنقع- القطاف"، علامات في النّقد، م.7، ج. 29، ص. 144-178.

2) يحدّد الملفوظ المرجعيّ بتطابق الكاتب والرّاوي: ك = ر، أمّا الملفوظ المرجعيّ الذاتي فهويتطلّب إلى ذلك تطابق الرّاوي مع الشّخصيّة، وهوما يمثّل بما يلي: ك = ر، ر= ش، ← ك = ش. وتختلف الملفوظات الذّاتيّة عن الملفوظات المرجعيّة الصرفة في مستوى موضوع الكلام أيضا، فللأولى دوافع مختلفة عدّدها جورج ماي وصنّفها إلى دوافع عقلانيّة كالشّهادة والتّبرير وأخرى عاطفيّة كالتّباري مع الزّمن و"عثور المرء على معنى وجوده"، وهو في رأينا العامل الأساسيّ المحدّد لخلافيّة السّيرة الذّاتيّة، لذلك وجّهنا عنايتنا إلى استكشاف آليات انبثاق "الحقيقة الذاتيّة" في الخطاب السّيرذاتيّ. راجع : جورج ماي، السّيرة الذّاتيّة، تعريب محمّد القاضي وعبد الله صولة، قرطاج، بيت الحكمة،1992، ص ص.47-68.

3) " إنّنا نعتبر أنّ مبدأ الهويّة في السّيرة الذّاتيّة يتّصل بمرحلتين أساسيتين متكاملتين: الأولى نسمّيها تحديدا Désignation وقوامها الرّبط بين الضّمير السّيرذاتيّ أو الذّات المتلفّظة واسم العلم،والثّانية نسمّيها تعريفا Identification وقوامها الرّبط بين اسم العلم والملفوظ السّيرذاتيّ باعتباره محمولا متعلّقا بموضوع، الهدف منه التّأسيس لمرجعيّة تعريفيّة وهي التي تتأسّس بفعل العمليّة السّرديّة. وبناء على ذلك اصطلحنا عليها بالهويّة السّرديّة." راجع : جليلة الطريطر، مقوّمات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث- بحث في المرجعيّات- تونس، مركز النّشر الجامعيّ/ مؤسّسة سعيدان للنّشر، 2004، فصل:" وظيفة الملفوظ السّيرذاتيّ : أو قضيّة بناء الهويّة السّرديّة"، ص.240.

4) يسم فيليب لوجون الميثاق السّيرذاتيّ بأنّه ليس مرجعيا فحسب، بل هو"**علائقيّ**" أيضا، وهو يريد بذلك تأكيد العلاقة الإنسانيّة الحميمة التي تشكّل خصوصيّة الفعل التّواصليّ السّيرذاتيّ. وقد ورد في هذا الموضوع قوله التّالي :

« Une autobiographie, par opposition à la fiction, mais aussi à la biographie ou à l'histoire, est un texte relationnel : l'auteur demande au lecteur quelque chose, et il lui propose quelque chose Plus que dans la fiction ? Oui. Quelque chose de très particulier ! Il demande au lecteur de l'aimer en tant qu'homme et de l'approuver. Le discours autobiographique implique une demande de reconnaissance, ce qui n'est pas le cas du discours de fiction. »,M. Delon, 2007, Entretien avec Philippe Lejeune, « Une pratique d'avant- garde », *Magazine littéraire,* les écritures du moi, autobiographie, journal intime, autofiction, n° 11, pp.9-10 ,2002.

حقيقة الإشكاليّات الّتي يتلبّس بها فعل كتابة الذات بمفهومها التّاريخيّ الواقعيّ ومصداقيتها الإنسانيّة. هكذا إذن بدا هؤلاء معنيّين قبل غيرهم بالتّفكير في هذه الوضعيّة الكتابيّة الّتي لا تطرح مطلقا في القصّ التّخييليّ، وهو ما يكشفه لنا الخطاب الماورا سرديّ أو"الماورا سيرذاتيّ" كما نفضّل أن نصطلح عليه.

لقد نمّت الافتتاحيّة السيرذاتيّة في النّصوص العربيّة التّأسيسيّة بالخصوص عن وعي حادّ بالمعاناة المنهجيّة الّتي يقترن بها فعل إنتاج الصورة الذّاتيّة في الخطاب. فهذا أحمد أمين (1886-1954) يبدأ بالتّنبيه على انطلاقه من وضعيّة كتابيّة استثنائيّة مربكة معرفيّا وإنسانيا وأدبيا فذاته تحضر إلى الخطاب في هذه المرّة باعتبارها موضوعا فيه وفاعلة منتجة له في الوقت نفسه. يقول المؤلّف : "لم أتهيّب شيئا من تأليف ما تهيّبت من إخراج هذا الكتاب، فإنّ كلّ ما أخرجته كان غيري المعروض وأنا العارض أو غيري الموصوف وأنا الواصف، وأمّا هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف والعين لا ترى شخصها إلاّ بمرآة والشّيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته والنّفس لا ترى شخصها إلاّ من قول عدو أو صديق أو بمحاولة للتّجرّد ثمّ توزيعها على شخصين : ناظرة ومنظورة وحاكمة ومحكومة وما أشقّ ذلك وما أضناه"[5].

هكذا تنشطر الذّات في السّيرة الذّاتيّة إلى شطرين متوازيين، مؤتلفين مختلفين، متلاحمين متباعدين، وعلى صفحة المكتوب يتمشهد صراعهما ورضوخهما المضمّخ بصرخة المعاناة في ظلّ سلطة الكتابة الّتي تقود اللّعبة السّيرذاتيّة بلا هوادة. فينجلي للإدراك أنا سيرذاتيّ منقسم على نفسه متشظّ بالقوّة وبالفعل لأنّه البؤرة اللّغويّة الّتي تذوب فيها وتتفاعل كلّ المفارقات المكوّنة لهذه النّوعيّة الكتابيّة المخصوصة. والملاحظ أنّ هذه الوضعيّة المشكليّة لم تؤل إلى نسف المشروع الكتابيّ بقدر ما عملت على إنجاحه وتغذيّته حتّى غدا قائما على المراهنة باستمداد أسباب طرافته ومظاهر إغرائه من هذه التّناقضات نفسها. أفليس ميخائيل نعيمة[6] (1889-1988) أوّل القائلين بأنّ مشروع الكتابة السّيرذاتيّة مغامرة ينقاد إليها الكاتب مخيّرا لامسيّرا ؟ ولا شكّ أنّ كلّ مغامرة هي مواجهة للمجهول الكامن في خبايا النّفس في مراوغتها في تأبّيها في اختلاط حقيقتها وانسيابها في مجرى الزّمان. ولأنّ كلّ مغامرة هي مخاطرة مجهولة العواقب فهي مغرية كأشدّ ما يكون الإغراء مثيرة كأشدّ ما تكون الإثارة، تهدّد

5) أحمد أمين : حياتي، بيروت، دار الكتاب العربيّ، 1971، ص. 47.

6) ميخائيل نعيمة : سبعون، المرحلة الأولى 1889-1911، بيروت، مؤسّسة نوفل، 1981. نحيل على دراسة فوزيّة الزّاوق الصقار- تقديم المنجي الشّملي- - وعنوانها: التّرجمة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث : كتاب سبعون لميخائيل نعيمة نموذجا، ط.1، تونس- البلفدير- الخدمات العامّة للنّشر، 1999.

بالهزيمة المرّة مثلما تبشّر بالانتصار اللذيذ. فالأنا كاشف ومكتشف، منقبض ومنبسط، معلن وخفيّ، فاعل ومفعول، ومن هذه المغامرة التلفظيّة المربكة ذات الأبعاد الإنسانيّة العميقة تستمدّ الكتابة السيرذاتيّة بعدا لا يستهان به من أبعاد شعريّتها الخلافيّة.

إنّ هذه الوضعيّة التلفظيّة المخصوصة المتلبّسة بفعل الكتابة السّيرذاتيّ تطرح بلا شكّ إلى جانب ما رأينا قضايا ابستمولوجيّة عميقة لأنّها وضعيّة تصل فعل التّأويل السّيرذاتيّ باعتباره يبحث في الحقيقة الفرديّة بالإشكاليّات المنهجيّة المتعلّقة بمقاربة الحقيقة التّاريخيّة في منظومة العلوم الإنسانيّة بصورة أعمّ. وبالتّالي ليس الخطاب الماورا سيرذاتيّ - في رأينا- مجرّد لعبة فنيّة بل هو مدخل يحلّل أبعاد الفعل السّردي ويناقش حدوده المعرفيّة كما يمارسه المترجم لذاته باعتباره مؤرّخا لحياته الفرديّة، أي ذاتا وموضوعا في الوقت نفسه.

2- مراتب حضور الذّات في السّرد وأبعادها المفهوميّة في السّيرة الذّاتيّة :

إذا كانت الذّات في السّيرة الذّاتيّة ليست بالذّات الواحدة الموحّدة، وإنّما هي ذوات منقسمة متعدّدة(7)، غالبا ما تسكن ضميرا لغويا واحدا يظللها هو أنا المتكلّم، فإلى أيّ حدّ يمكن أن نسلّم بأنّ لهذه الذّوات المتعددّة، المتّصلة المنفصلة، سلطة واحدة متجانسة يمكن الوقوف على طبيعتها أو حتّى إدراك حدودها وكيفيّات اشتغالها وتفاعلها في الخطاب ؟

يقودنا التّحليل السّرديّ المعمّق لخطابات السّيرة الذاتيّة إلى أنّ الذّات السّيرذاتيّة مفهوم نظريّ للغاية لأنّه يحجب عمليّا أنماطا من الحضور والغياب، حضور الذات في غيابها أحيانا، وغياب الذات في حضورها أحيانا أخرى. وهي حالات معقّدة ومتداخلة في الآن ذاته. ولعلّ أوضح مستويات التّعدّد والتّداخل التي يمكن رصدها تظهر- خاصّة في القصّ السّيرذاتيّ بضمير المتكلّم - في التّرابط العضويّ المفترض بين شخصيّة الرّاوي - وهو المتلفظ القصصيّ بالأصالة في الكتابة المرجعيّة- وبين ذاتين أخريين هما الكاتب والشّخصيّة، يراهن الرّاوي السّيرذاتيّ على الربط بينهما. فالذّات الكاتبة هي من بعض جوانبها، هويّة مدنيّة

7) درس فيليب لوجون في مؤلفه" أنا هو الآخر"- وهي قولة للشاعر رنبو Rimbaud (18911854-)- وجوه تعدّد الأنا السّيرذاتيّ ومظاهر انقسامه على ذاته رغم إيهامه بالشّفافيّة. ولكنّ لوجون اقتصر على دراسة هذه الظّاهرة من الوجهة السّرديّة التّقنيّة الصرفة ومن خلال مختلف الأشكال الماديّة الحديثة الّتي تتجلّى فيها السّير الذّاتيّة. راجع :

Ph. Lejeune, *Je est un autre, l'autobiographie, de la littérature aux média*, Paris, Seuil, 1980

كائنة في العالم كما أنّها بما تنتجه من نصوص ذات ثقافيّة، أمّا الذات المشخّصة في الحكاية فهي تحيل في واقع الأمر على أنوات متعدّدة ومتطوّرة الصور في الزّمان، يوظّف السّرد عبر الفعل التّذكّري لابتعاثها وتمثيلها في الخطاب تمثيلا يوهم في السّير الذّاتيّة الكلاسيكيّة خاصّة بوحدتها ويسعى إلى إجلاء ثوابتها في ظلّ متغيّراتها المشروطة بتارخيّتها. فإلى أيّ حدّ يمكن أن نطمئنّ إلى أنّ هذه الهويّات الثلاث هي بالفعل في علاقة تطابقيّة انسجاميّة دائما- كما يوحي بذلك الميثاق السّيرذاتيّ- بحيث لا تمثّل الخصوصيّات الوظيفيّة والمرجعيّة الفاصلة بين وضعيّاتها في مستويي الواقع والكتابة إرباكا لوحدتها النّظريّة المزعومة ؟

إنّ أقلّ ما يمكن التنبيه إليه هوأنّ الهوّة الفاصلة بين الذات الكاتبة الواقعة في الخارج والذّاتين الواقعتين في النّص: الرّاوي والشخصيّة لا يمكن تجاهلها، فإذا كان الكاتب حيّا مستمرّا وجوده بعد سيرته الذّاتيّة مثلما أنّه كائن بالفعل قبلها، فإنّ الهويتين الأخريين من نحته ومن ثمار قدرته الكتابيّة الفنيّة التي لا وجود لها إلاّ على الورق. فهو فضاء هاتين الشّخصيّتين المحدود، المسيّج لوجودهما الافتراضيّ "الذي لا سبيل إلى إخراجه إلى حيّز الوجود بالفعل إلاّ من خلال حدث القراءة الذي يمثّل إنجازا تأويليا. ولكن ألا يمكن لهويّتي الرّاوي والشّخصيّة السرديّتين أن تدخلا بفعل التّأويل القرائيّ المابعديّ في علاقة جديدة فاعلة في الذّات الكاتبة المتعالية مبدئيا عن السّرد، وذلك عندما يحاور الكاتب صورته المنتجة في الخطاب ؟ وهل يحقّ لنا بالتّالي أن نحصر فاعليّة السلطة في الذّات الكاتبة الواقعيّة وحدها، أم أنّ السلطة حدث كتابيّ ارتداديّ المفعول إذ يمكن للذّات المكتوبة أن تعكسه على ذات الكاتب الأنطولوجيّة الواقعة في العالم الخارجيّ بفعل الصّياغة السرديّة ؟ وهل الغاية من فعل الكتابة السّيرذاتيّة أخيرا تحقيق التّطابق الانعكاسيّ بين الهويّات الثّلاث أم تحقيق ضرب من التّفاعل الذّاتيّ المنتج لمعرفة جديدة بالأنا تتولدّ من الوظيفة السّرديّة ؟ كلّ هذه التّساؤلات تتنزّل في سياق ربط الصّلة بين تاريخيّة الأنا الأنطولوجيّ ولعبة الكتابة السّرديّة باعتبارها أكثر من مجرّد استراتيجيّة جماليّة، خاصّة بالقياس إلى حقل الملفوظات المرجعيّة الذّاتيّة.

.إنّ واقع التّحليل يدعونا إلى أن نميّز بين وضع الكاتب قبل كتابة سيرته الذّاتيّة ووضعه بعدها. ففي الطور الأوّل لا تتصّل هوّيته مباشرة بما يكتب لا سيّما إذا تعلّق الأمر بكتابات تخييليّة، ولكنّه لا يلبث أن يتحوّل في طوره الثاني إلى هويّة متّصلة بالكتابة السّيرذاتيّة اتّصالا عضويا لأنّ الكاتب يبني هذه المرّة حقيقته الفرديّة التي تكيّف نهائيّا وعيه بذاته. فمن الثّابت أنّ المترجمين لذواتهم لا يكتبون أكثر من سيرة ذاتيّة واحدة في حياتهم. لذلك لا نعتبر الصوت السّيرذاتيّ مجرّد

"صوت أسطوريّ" كما يريد فيليب لوجون[8] له أن يكون، بل نراه على العكس من ذلك فعل وجود حيويّ يفجّر في الخطاب حوارا متعدّد الأطراف والأصوات، ويخوض مغامرة بناء وعي سرديّ بالأنا الواحد المتعدّد يتجلّى في صورة لفظيّة ترسم تضاريس شخصيّة الكاتب النّفسيّة والذّهنيّة. وعلى ذلك يصحّ لنا أن نغادر مقولة انعكاس الوجود السّيرذاتيّ في اللّغة إلى مقولة تبلوره في الخطاب بفضل الوساطة الحيويّة التي يضطلع بها التّرميز اللّغويّ في عمليّة إنتاج المعنى الذّاتيّ. وبذلك أيضا تنقلب القيم المفترضة، لأنّ هويّة الكاتب الواقعيّة لا تحيل مبدئيا على شيء محدّد مسبقا قبل تشكّلها في خطاب مكتمل، كما أنّ الصورة اللّفظيّة المتعلّقة بها – ونسمّيها هويّة سرديّة- لها من السطوة ما به تتمكّن من التّحوّل إلى سلطة فاعلة في ذات الكاتب الحقيقيّة وفي إحساسه بالعالم. إنّ كاتب السّيرة الذّاتيّة كائن موجود ولكنّ وجوده يتغذّى من كتابته وكتابته تنصهر في وجوده [9] لتبني وعيه وتحدّد أسلوب تموقعه الخاصّ في التّاريخ. هكذا إذن لا تكون السّلطة في السيرة الذّاتيّة إلاّ تفاعليّة وارتداديّة تتبادل خلالها الذات النّصيّة الرّاوية والذّات الكاتبة خارج النص مواقع التّأثير المتبادلة.

إنّ الكتابة السّيرذاتيّة ترسم إذن في اعتقادنا لحظة تحوّل معرفيّة وبالتّالي فهي حدث وجوديّ له دلالة عميقة في تاريخ كاتبها. ولكي نتعمّق آليات هذا التّحوّل، لا بدّ من أن نراجع وضعيّة الرّاوي السّيرذاتيّ السّرديّة، فما من شكّ

---

8) يرفض فيليب لوجون مقولة انعكاس الوجود في اللّغة التي تؤول إلى التّسليم السّاذج بأنّ أنا المتكلّم يعبّر في السّيرة الذّاتيّة عن شخصيّة الكاتب النّفسيّة خارج النّص. ولكنّ ما لا نوافقه عليه، هوقوله بأنّ الأنا السّيرذاتيّ صوت أسطوريّ محض، لم يؤسّس لغير أسطورة الفرد في السّيرة الذّاتيّة الأوربيّة، لأنّه كان ولا يزال مسكونا بغيريّة اللّغة. إنّ غيريّة اللّغة لا تنفي في نظرنا قدرة الفرد على التّموقع بفضل الكتابة صلب هذه الغيريّة في محاولة لمحاورتها وتفجيرها. ولولا ذلك لما أمكننا أن نفهم كيف تتحقق هذه الغيريّة وكيف تتحوّل تاريخيا إن لم تكن للأفراد سلطة ما في تشكيلها ومراجعتها انطلاقا من مستجدّات سياقاتهم، بل نميل إلى اعتبار السّيرة الذّاتيّة من أهمّ مقامات الصدام بين الغيريّ المكرّس والفرديّ الفاعل فيه باستمرار. راجع رأي فيليب لوجون المذكور في: Ph. Lejeune, *Le pacte autobiographique*, Paris, Seuil,1995,p.34.

9) عبّر مونتاني Montaigne (1533-1592) في مؤلّفه الموسوم بالمقالات Les essais الذي رسم فيه صورته الذّاتيّة عن الفكرة المذكورة من خلال هذا الشّاهد: « Me peignant pour autruit, je me suis peint en moy de couleurs plus nettes que n'étaient les miennes premières. Je n'ai pas plus fait mon livre que mon livre m'a fait, livre consubstantiel à son auteur, d'une occupation propre, membre de ma vie ; non d'une occupation et fin tierce et étrangère comme tous les autres livres» وقد علّقت النّاقدة إيفون برلنجيرعلى مفهوم "المقالات" الذي يعكس استراتيجيّة كتابيّة مهيكلة للأنا المستعصي عن الإدراك خارج التّجربة السّرديّة الذّاتيّة من خلال قولها: « D'abord par son titre : Les Essais. Ce terme modeste … traduit une double tentative intéressante, celle de se connaître pour se dire et en même temps de se dire pour se connaître ; se chercher pour se produire, et du même coup se déterminer. En l'occurrence, dire (ou écrire), c'est donc faire : se faire et devenir par l'écriture. »Y. Bellenger, 2007, « Montaigne L'autoportrait et le devenir » *Magazine Littéraire*,Les écritures du Moi n° 11, Mars- Avril, p.31.

عندنا في أنّ التّصوّرات السرديّة السّائدة إلى اليوم في النّقد السّيرذاتيّ - كما نظّرله فيليب لوجون متأثرا بسياقه البنيويّ- تكتفي بتطبيق المقولات السّرديّة المشتقة في الأصل من المتخيّل الأدبيّ دون التّساؤل عن مدى مشروعيّة هذا الإجراء ونجاعته في مستوى الكشف عن أبعاد الكتابة السّيرذاتيّة الخلافيّة من الوجهة الوجوديّة. وقد لاحظ جيرار جُنَات G. Genette (10) في كتابه Fiction et Diction خلافيّة الملفوظات السّرديّة المرجعيّة ودعا إلى ضرورة استنباط سرديّات تنبع من طبيعة هذه الملفوظات الخاصّة وهو أمر لا يزال بعيدا. فمن هو إذن الرّاوي السّيرذاتيّ ؟ كيف يضطلع بإدارة اللّعبة السّرديّة، وما هي خصائص الوظائف الّتي توكل إليه في نظام السرد السّيرذاتيّ ؟

إنّ ما دأب عليه النّقاد من اعتبار الرّاوي السيرذاتيّ عليما بالأصالة لأنّه يروي قصّة حياته التي لا يجهل العديد من تفاصيلها في حاضر السّرد، لا يكفي للتّدليل على خصوصيّته السّيرذاتيّة، فما يميّزه أوّلا بالقياس إلى كلّ من الكاتب والشّخصيّة، أنّه صوت لغويّ بحت ليس له وجود خارج سياقه السّيرذاتيّ مطلقا، خلافا لمفهوم الشّخصيّة السّيرذاتيّة التي لها وجود واقعيّ افتراضيّ خارج السّرد لأنّها ترتبط عضويا ونسبيا بالأطوار التاريخيّة التي تكوّنت منها هويّة الكاتب الواقعيّة. ممّا يجعلنا نعتبر الشّخصيّة السّيرذاتيّة وجودا واقعيا متعدّدا وغير محيل على كتلة منسجمة ومتجانسة في أغلب الحالات إن لم يكن في كلّها. وهو ما يؤكّده اعتراف **إدوارد سعيد** (1935- 2003) في سيرته الذّاتيّة "خارج المكان" الّتي يقول فيها :" إنّ هويّتي ذاتها تتكوّن من تيّارات وحركات لا من عناصر جامدة" (11). ويعتبر من ناحية أخرى تماهي الرّاوي السّيرذاتيّ مع الكاتب والشخصيّة أمرا مفيدا من جهة دلالته الأجناسيّة على الفرق الأساسيّ بين المتخيّل الأدبيّ والسّرد السّيرذاتيّ ولكنّه يظلّ في اعتقادنا تماهيا شكليا لا غير، ذلك أنّ الرّاوي السيرذاتيّ ليس مهمّا بما يقوم به من وساطة تقرّب ما بين هويّتي الكاتب والشخصيّة بقدر ما هو مهمّ بما له من قدرة على إنتاج هويّتي الكاتب والشخصيّة في الخطاب وقدرة على تمحيض اللّعبة السّرديّة لإنتاج حوار بنّاء بينهما. وهو ما يجعلنا ننظر إلى الرّاوي السّيرذاتيّ باعتباره أوّلا وأخيرا **عاملا لغويا إجرائيا** يضطلع أساسا بوظيفة تبعيد تنسيقيّة تؤثّر ايجابيا في وعي الكاتب بشخصيّته

10) يقول جيرارجنات في هذا الموضوع : "... Or, quels que soient au stade où nous en sommes, les mérites et les défauts de la narratologie fictionnelle, il est douteux qu'elle nous épargne une étude spécifique du récit factuel. Il est certain en tout cas qu'elle ne peut indéfiniment se dispenser d'une interrogation sur l'applicabilité de ses résultats, voire de ses méthodes, à un domaine qu'elle n'a jamais vraiment exploré avant de l'annexer silencieusement, sans examen ni justification. », G. Genette, *Fiction et Diction*,Paris,Seuil,1991,p.66.

11) إدوارد سعيد، خارج المكان، بيروت، دار الآداب، 2000، ص.9.

لاسيّما في الحالات التي يشكوخلالها من اختلال توازنه النّفسيّ والذّهنيّ، إذ يحصل نوع من الشّفاء – كما سنرى - بفعل ممارسة الكتابة السّيرذاتيّة والكتابات الذّاتيّة بوجه عامّ. فالمتّفق عليه هو أنّ كتابة الذّات تتوجّه بدرجة أولى إلى صاحبها وبصورة ثانويّة إلى متقبّل افتراضيّ. كما أنّها كتابة تنبثق عادة من أزمة وتنتعش في ظروف اجتماعيّة مضطربة أو استثنائيّة. وعلى ذلك نقترح تسمية وظيفة التّبعيد السّرديّة التي يقوم بها الرّاوي **تجسيرا**[12] وهو استعمال استخدمه إدوارد سعيد في سيرته الذّاتيّة الآنفة الذّكر. كلّ هذه المقترحات سنحاول التّدليل عليها خاصّة من خلال أنموذج لطيفة الزّيّات(1923-1996) اللافت والمتمثّل في سيرتها الذّاتيّة" حملة تفتيش، أوراق شخصيّة" [13]

إنّ ما اصطلحنا على تسميته بوظيفة **التّبعيد التّنسيقيّة** التي تسم في نظرنا خلافيّة الرّاوي السّيرذاتيّ الواقعيّة يمكن تفريعها منهجيا إلى وظيفتين متعاضدتين، الأولى **تبعيديّة تمثيليّة**، والثانية **تبعيديّة تفكّريّة**

أ- وظيفة التّبعيد التّمثيليّة:

إنّ ما يسمّى عادة بالأنا السّيرذاتيّ، هوكما قلنا أنا مبهم شديد التّعقيد، هذا التّعقيد يمكن قراءته في مستويين على الأقلّ: التّراكم والتّعالق. فعلى المستوى التراكميّ الأوّل، لابدّ من تأكيد تعدّديّة الشّخصيّة السّيرذاتيّة، لأنّها في واقع الأمر ذات مركّبة متلبّسة بأبعادها التّاريخيّة المتراكبة خاصّة في الزّمان، الذي يمثّل أبعاد تطوّرها وحلقات تحوّلها المختلفة. هكذا إذن يعمل الرّاوي السيرذاتيّ على تفجير صوته الموهم في السّرد بأنّه يتحدّث باسم هويّة واحدة وموحّدة إلى صور أو وجوه متعدّدة لهويّة متراكمة أبعادها أو بالأحرى أنواتها. ولاشكّ أنّ هذا الانفجار هو ضرب من التّمثيل السّرديّ المخصوص في السّيرة الذّاتيّة، ذلك أنّه يمثّل أحد مستويات التّبعيد التي ينهض الرّاوي بآدائها فيها. ينطلق هذا الفعل السّرديّ التّفجيريّ من مرجعيّة تذكّريّة مابعديّة لأنّه فعل استحضاريّ بالأساس، ينشأ من معاناة تذكّريّة تدعمه وتمدّه بصور كامنة أو مختزنة في الذّاكرة الفرديّة ولكنّها على الأرجح صور مشوّشة متداخلة مختلطة قد ينجح في استحضار بعضها وقد يخفق في تذكّر بعضها الآخر إخفاقا غالبا ما يشفّ عنه السّرد. لذلك يعمد الرّاوي بفضل آليّات التّبعيد السرديّة إلى إعادة إنتاج الصور المتذكّرة فيبدأ بتسميتها فمشهدتها على سطح الخطاب السّيرذاتيّ.

---

12) استعمل إدوارد سعيد كلمة" تجسير" في سيرته الذّاتيّة ليعبّر عن الوظيفة التّحويليّة التي تلعبها الكتابة السّيرذاتيّة في مستوى ترميم الانفصام الكائن في هويّة الكاتب بين ماضيه وحاضر السّرد.

13) لطيفة الزيّات حملة تفتيش أوراق شخصيّة، كتاب الهلال، ع.502، ربيع الثّاني، أكتوبر 1992.

إنّ "حملة التفتيش الشّخصيّة" التي خاضتها لطيفة الزّيّات بحثا عن حقيقتها المغيّبة في طيّات ذواتها المعلنة منها والمضمرة، كانت تعني إذن أكثر من مجرّد بعثرة لمراتب وجودها، ولكنّ فعل البعثرة يظلّ بالرّغم من أنّه ليس الغاية النّهائيّة المدخل الأساسيّ لتفكيك التّركيبة الذاتيّة وتفجيرها في الخطاب إلى أنوات مسمّاة أوّلا وممشهدة ثانيا. هكذا ولّدت الرّاوية في خطابها سلسلة من هذه الأنوات المسمّاة والموصوفة التي أصبح بإمكانها السّيطرة عليها: "الصبيّة"، "الفتاة"، "المرأة في مقتبل العمر"، "امرأة سجن الحضرة"، "المرأة في بداية زيجتها الثّانية". ولا شكّ أنّها أنوات تمثّل أهمّ الأطوار التي تمكّنت الرّاوية من إدراكها وعزلها في حاضر الكتابة. كما أنّها محّضت الكلام لابتعاث كلّ هذه الشّخصيّات واستحضار الملامح الممثّلة لمظاهر وجودها المتلاشية في الزّمن، حتّى ليخيّل إلينا أنّنا صرنا نلامسها ونراها عن كثب وهي تحيا وتنفعل بالحياة في مختلف أحوالها ووجوهها، الحلوة منها والمرّة: "الصبيّة اللاّهية لا تكفّ تجمع حبات البرد في طبق الصاج وهي تعرف أن البرد لن يلبث إلاّ ومضة ويزول، تجري في حديقة المنزل عارية الذّراعين وثوبها المبتلّ لصق جسدها محمولة على الرّيح في وجه الريح، قدماها تعرفان الطريق في ظلمة الغيوم وانفراجتها تطير في الهواء ترقص رقصتها المجنونة، وأمّها متدثّرة تنهيها [كذا] من خلف زجاج الردهة للمرّة الألف، تنذرها ألاّ فائدة من جمع حبّات البرد للمرّة الألف، ونواهي الأمّ وتنبّؤاتها تضيع في صيحات فرح مجنونة تطلقها الصبيّة اللاّهية لحظة تدقّ الأجراس الفضيّة والبرد يتساقط على طبق من الصاج، لحظة يضوي البرد كحبّات الماس على شعرها الأسود، ويلفّ الكون أكمله بالبياض"[14] تنفصل الرّاوية على هذا النّحو عن أناها السّيرذاتيّ الكليّ الموحّد لترسم صورة نابضة بالحياة لصبيّة متذكّرة تبدو مستقلّة ومكتفية بذاتها في سياق انبعاثها ذاك، فيصبح ضمير الغائبة المفردة المشار به إليها علامة على الإيهام بالتّباعد الكائن بين الرّاوية الكهلة المستحضرة والصبيّة المستحضرة.

إنّ التّمثيل أوفعل المحاكاة كما يسمّيه أرسطو يتمثّل هنا بدرجة أولى في تجريد الرّاوية من ذاتها ذاتا مفارقة في الظاهر تتحدّث عنها حديث من يرصدها بعين غيريّة. وما من شكّ عندنا في أنّ جانبا لا يستهان به من شعريّة التّمثيل

14) المصدر نفسه،ص.32.

السّيرذاتيّة يستمدّ من لعبة هذا الانفصال والاتّصال[15] بين الذّات الرّاوية والذوات المرويّة المنتزعة منها. وهي شعريّة تدعمها هنا الصّيغة التّعاقديّة الواقعيّة للحكي وتحصّن تأويلها في الآن ذاته من الوقوع في مأزق المتخيّل المحض. ولا شكّ أيضا في أنّ شعريّة التّمثيل السّيرذاتيّة تدعمها من ناحية أخرى في الشّاهد المذكور الرّؤية المصاحبة (وهي تعرف أنّ البرد لن يلبث ومضة ويزول)، لأنّ التّبئير الدّاخلي هنا يوهم بحياد الرّاوية وتحرّر الشّخصيّة من رقابتها، رغم أنّ الرّاوي في السّيرة الذّاتيّة يعتمد عادة التّبئير الصفر، لأنّه يمثّل الرّؤية الأنسب دلالة على أنّ منظور الرّاوي الكهل المتأخّر هو الّذي يوجّه لعبة السّرد ويمكّن من احتواء مختلف صور الأنا المستحضرة في الخطاب والتّأليف بينها.

لذلك لم يلبث حرص الرّاوية الرّاهنة على لملمة شتات أنواتها المبعثرة المنضوية تحت راية أناها الافتراضيّ العليم أن استدعى الإمساك من جديد بزمام التّبئير، وهو ما يتجلى في قولها:"...**فأنا أدرك الآن** أنّ لونا من الموت لازمني من البداية: خطوط خفيّة شدّت إلى حافة الرّحم الطفلة والصبيّة والفتاة والمرأة الّتي كنتها بالرّغم من كلّ شيء".[16]، فالرّاويّة المتحدّثة بضمير المتكلّم المفرد هنا هي الّتي أضحت تدرك، أي تقوّم أطوار حياتها في حاضر السّرد. ولئن أمكننا أن نقف في مقام روائيّ تخييليّ ما على جملة سرديّة تقترب من الشّاهد المذكور، فإنّ الفرق الأساسيّ الّذي نراه بين التّمثيل السّردي التّخييليّ والتّمثيل السّردي السّيرذاتيّ يتبلور خاصّة في مستوى الفعل القرائيّ التّأويليّ الّذي لا يلبث في السّيرة الذّاتيّة أن يرتدّ على أعقابه بفعل الميثاق السّيرذاتيّ، فيتحوّل من تبعيد تمثيليّ محض إلى تقريب مرجعيّ بين مستويات التّمثيل وشخصيّة الكاتب. وقد عبّرت هذه الوضعيّة في تجربة لطيفة الزيّات عن آليّة سرديّة محّضتها الرّاوية لاستبطان[17] هويّتها التّاريخيّة المتعدّدة المستعصية على الإدراك بصورة مجرّدة

---

15) وظّف محمّد القاضي دراسته السّرديّة الدّقيقة لوضعيّات أعوان السّرد في نصّ " الأيّام" للبرهنة على أنّ صهر نظام التّبئير لتشتّت أعوان السّرد الظاهر يقوم دليلا من داخل النّصّ على إمكانيّة إنمائه إلى السّيرة الذّاتيّة رغم غياب الميثاق السّيرذاتيّ. ونرى إلى جانب إقرارنا بمشروعيّة هذا التّوجه في التّأويل أنّ لعبة الانفصال والاتّصال بين أعوان السّرد قائمة حتّى في النّصوص السّيرذاتيّة الصريحة ولا سيّما الّتي تمزج منها بين ضمائر القصّ (المتكلّم والغائب والمخاطب أحيانا)، وبالتّالي فإنّ الوضعيّات الّتي حلّلها محمّد القاضي تظلّ في رأينا صالحة ومفيدة في نطاق أشمل ونعني تفهّم آليات إنتاج "الهويّة السّرديّة" في خطاب السّيرة الذّاتيّة باعتباره نمطا من أنماط تحليل الذّات وإعادة هيكلتها في ظلّ الممارسة السّرديّة. راجع في ذلك بحث المؤلف:" الظاهر والباطن في كتاب الأيّام: بحث في التّبئير" ضمن كتاب وقائع مائويّة طه حسين، ط.1، قرطاج- بيت الحكمة، ص ص. 207-233.

16) حملة تفتيش، أوراق شخصيّة، ص. 31.

17) يمكن تقريب الكتابة السّيرذاتيّة من التّحليل الذّاتيّ L'auto- analyse الّذي يمثّل آليّة شفائيّة، رغم افتقاره لما يعرف في التّحليل النّفسي ب" النّقل"Le transfert المتمثّل في العلاقة الاتّصاليّة الّتي تربط بين المريض والمحلّل النّفسانيّ. ويرى فرويد Freud S.أنّ التّحليل الذّاتيّ آليّة تأليفيّة لا تتجاوز الوقوف على الأعراض النّفسيّة السّطحيّة وتعتبر الكتابات الذّاتية مجالا لممارستها، خلافا للتّحليل النّفسي الذي يمثّل آليّة تحليليّة تمكّن المريض من الانفصال فعليا عن عقده بصورة تلقائيّة ومباشرة. وهو رأي لم يحظ بإجماع علماء النّفس .

خارج الأطر السّرديّة المتاحة لهذا الغرض، كما تجسّدت وتمشهدت في صفحة المكتوب.

إنّ الغاية من تفجير الأنا في السّرد السّيرذاتيّ وتمثيل صوره هو إذن الإحاطة بمختلف أبعاد التّركيبة الذّاتيّة لغاية عزل عناصرها والسّيطرة عليها ثمّ إعادة بنائها. وهي استراتجيّة نراها مطابقة تماما في جوهرها الإجرائيّ -على سبيل القياس- لعمليّة تبلور الفكر وتجلّيه لذاته وللآخر بفضل تمفصله في اللّغة كما أوضح ذلك دي سوسير F. De Saussure - في مستوى علاقة الدّال بالمدلول-، إذ لا يمكن للرّاوية خارج نطاق اللّعبة السّرديّة أن تتمكّن من تبيّن خصائص مكوّنات عالمها الذّاتيّ وأن تنجح في بناء وعي متماسك بحقيقة واقعها النّفسيّ والذّهني الملتبسة. وبالإضافة إلى مختلف صور الأنا المشخّصة الّتي استعرضناها، فإنّ طبقات الذّات وتشكّلاتها متفاعلة متعالقة، ولكنّه تعالق غير مفهوم دائما في واقع الحياة بالنّسبة إلى المترجم لذاته، فـ"الطّفلة" و"الفتاة" و"المرأة" الّتي كانت إيّاها الكاتبة لطيفة الزيّات لم تكن منسجمة ولا متطوّرة دائما في خطّ مؤتلف متناسق. لذلك أضحت الرّاوية تتساءل وهي تنشئ خطابها عن أسباب التّصدّع ومظاهر الغربة عن الذّات الّتي استشعرتها الكاتبة في ضميرها والّتي بلغت مبلغ تصدّع الكيان وتأزّم الهويّة الفرديّة. والحقّ أنّ أغلب النّصوص السّيرذاتيّة تنشأ بفعل استفحال هذا التّصدّع وتضخّمه بحيث يضحي فعل الكتابة السّيرذاتيّ نوعا من المواجهة الضروريّة لتمزّق الكيان الذّاتيّ. إنّ التّبعيد التّمثيليّ يتعدّى إذن في السّيرة الذّاتيّة مجرّد التّصوير الفنّي ويؤدّي إلى التّساؤل عن الأبعاد الوجوديّة والفكريّة لصور تعالق وجوه الذات المتعدّدة وعقلنة الوعي بها. وهوما يقودنا إلى طرح وظيفة التّبعيد التّفكّريّة الّتي يضطلع بها الرّاوي السّيرذاتيّ باعتبارها وظيفة تكميليّة، لأنّها لا تنفصل عن الوظيفة التّمثيليّة بقدر ما تجعل منها مرقاة لإنتاج رؤية سرديّة تفسيريّة لتاريخ الشّخصيّة الفرديّة قادرة على إفراز وعيّ صحيّ بماهية الذّات.

ب وظيفة التّبعيد التّفكّريّة:

الكتابة هي أساسا فعل سيطرة على الحياة لأنّها محاصرة فكريّة للمعيش أي تأويل مابعديّ له. فالتّحليل السّيرذاتيّ مثلا، هو خروج من تجربة الحياة إلى واقع الكتابة عن الحياة، لأنّ التّحليل يشكّل في كلّ الحالات مجهودا للفهم وإعادة إنتاج للتّجارب الحسّيّة في مقولات ذهنيّة تصنّف حوادث الحياة إلى أسباب وعلل، إلى كلّيات وإلى جزئيّات، لتنشئ رابطة ذهنيّة بين ما لم يكن في الأصل مترابطا أو بين ما لم يكن مهيّأ بالضرورة لإفادة ترابط محدّد وهو ما جعل فرويد Freud (1856-1939) يعتبر الكتابة السّيرذاتيّة من قبيل التّأليف النّفسي Psychosynthèse. ليس المعنى السّيرذاتيّ بالشيء المعطى إذن، لأنّه دائما حادث

ومستحدث بفعل التّأويل اللّغوي. وبناء على ذلك كان من الطّبيعيّ جدّا أن تبدوالرّاوية في "حملة تفتيش أوراق شخصيّة" عازفة عن السّرد الوقائعيّ التّعاقبيّ، منغمسة في إنتاج خطاب تمثيليّ تفسيريّ لم يكن من الممكن تركيبه مطلقا إلاّ بفعل ارتجاع المنظور السّرديّ المتأخّر عن الوقائع المسرودة الّتي كانت في بدايتها مجرّد أوراق خاصّة متناثرة لأنّها كتبت في مناسبات متفرّقة ولم تنتظم بين دفّتي كتاب إلاّ لاحقا:"... لم تدرك يوم وقعت في الحبّ وتزوّجت زيجتها الثّانية أنّها عادت إلى أحضان الأب وإلى البيت القديم" [18]. وتقول الرّاوية في موضع تعليليّ آخر:" من الإنصاف القول إنّ الفتاة والمرأة عاشت قبل زيجتها الثّانية وخلالها على إشباع نصف ملكاتها الإنسانيّة على حساب النّصف الآخر، وأنّ هذه الحقيقة شكّلت سببا من الأسباب الّتي أدّت إلى اختلال سير حياتها..." [19] هكذا أضحت الرّاوية سلطة معرفيّة توظّف التّبعيد التّمثيليّ توظيفا تعليليا تربط من خلاله بين أطوار متباعدة من تاريخ شخصيّات لطيفة الزيّات المتعدّدة، هذه الأطوار تنصهر في السّرد وتتكامل فيه لتكوّن منظومة علائقيّة ذات أبعاد تفسيريّة مترابطة.

هذه النّتائج تدعونا إلى اعتبار الراوي السّيرذاتيّ عموما منفصلا معرفيّا من بعض وجوهه عن الكاتب والشّخصيّة معا. فهومن ناحية سلطة معرفيّة متجاوزة لوعي الكاتب الماقبل سرديّ، كما أنّه في نفس الوقت متجاوز لكلّ صور الشّخصيّة السّيرذاتيّة الّتي ينتجها في الخطاب، لأنّه يستفيد من تموقعه في حاضر السّرد المتأخّر عن أطوار تشكّلها. تقول الرّاوية في" حملة تفتيش أوراق شخصيّة" : " كانت صغيرة، ولم تعرف بعد قواعد لعبة التّحقيق ولا هدفها، ولا عرفت إلى أيّ مدى يمكن أن يمتدّ الوعد، وإن عرفت بعدا من أبعاد الوعيد وهي تستمع إلى أنّات التّعذيب في مبنى محافظة الإسكندريّة..." [20].. هذه الوضعيّة تجعلنا نعيد النّظر في مقولة تماهي الهويّات الثّلاث الّتي أكّدها فيليب لوجون في مستوى تبرير واقعيّة الملفوظ السّيرذاتيّ، ولكنّه لم يتعمّق في توصيف آليّات تفاعلاتها السّرديّة والانعكاسات الشّعوريّة المترتّبة على ذلك في مستوى إنتاج ما يسمّيه "مبدأ الهويّة"، ونفضّل تسميته "هويّة سرديّة". إنّ الرّاوي السّيرذاتيّ يفجّر رؤية جديدة، لأنّه قادر في زمن الكتابة لا قبله ولا بعده على أن يتدارك نسبيا جهل الكاتب أو غفلته عن العوامل الحقيقيّة المحرّكة لوجوده المبهم المستعصي. فلا يخفي أحيانا اندهاشه من هذا الجهل وفي هذا المعنى تقول الرّاوية المحال عليها

18) حملة تفتيش، أوراق شخصيّة، ص.33.

19) المصدر نفسه، ص.143.

20) المصدر نفسه، ص.133.

سابقا : " يا إلاهي كم طالت الفترة، كيف غيّبت امرأة سجن الحضرة ولم ؟[21].
ورغم هذا الانتصار المعرفيّ، فإنّ الرّؤية الجديدة المفرزة ترتطم أحيانا بحدودها الّتي ترسم دورانها في بوتقة العجز عن النّفاذ إلى مطلق الحقيقة السّيرذاتيّة الّتي تبقى على الدّوام حقيقة إنسانيّة نسبيّة. ويتّخذ هذا الجانب في "حملة تفتيش" صورة المناجاة أو"المونولوج" الاعترافيّ الّذي تبوح فيه الرّاوية للقارئ أو لنفسها بحدود مقاربتها المعرفيّة، وبالتّالي تتراجع الحكاية لصالح إبراز استعصاء فعل الكتابة وعجز الرّاويّة/ الكاتبة عن إدراك الحقيقة المطلقة:" أكتب وأشطب ما كتبت وأنا غير قادرة على تبيان أسباب مثل هذا التّغيير ومن ثمّة أجد نفسي في حدود رصد الأعراض".[22]. ليست الكتابة إن بالكشف النّهائيّ إذن لأنّها تظلّ معاناة مستمّرة لا تخفي هذه اللّحظات المسدودة الّتي تمثّل أحيانا انقطاعا في الرّؤية التّفكيكيّة للذّات ممّا يدلّ على أنّ الاستبطان اللّغويّ الذّاتيّ محدود النّجاعة نسبيا لا مطلقا، لأنّ الفشل في السّيطرة على أسباب اختلال الشّخصيّة أو العصاب Névrose وارد في وضعيّتي التّحليل الذّاتي Auto- analyse أو التّحليل النّفسي Psychanalyse الّتي تعتمد النّقل أي إسقاط الصوّر المترسّبة في اللاّوعي على شخصيّة المحلّل النّفسي.

إنّ الرّاوي السّيرذاتيّ هو بلا شكّ الوسيط اللّغويّ الّذي يجسّر المسافة الفاصلة ما بين ماضي الكاتب وحاضره المأزوم. وعلى ذلك فهو يسعى من خلال تفعيل كفاءته السرديّة إلى الرّبط بين تفكيك أطوار شخصيّة المترجم لذاته كما بيّنّا وإعادة تركيبها في السّرد تركيبا ائتلافيا تنصهر فيه وقائع الحياة الشّخصيّة المفردة. وهي الآليّة الّتي اصطلح عليها بول ريكور Paul Ricœur [23] في مؤلفه "الزّمن والحكي" بـ:"التّأليف بين الظّواهر اللاّمتجانسة"، والّتي اعتبرها الفيلسوف المذكور أهمّ الوظائف المميّزة للظاهرة المعرفيّة السّرديّة بغضّ النّظر عن الطّبيعة التّخييليّة أو الواقعيّة للأحداث المفردة المشتغل عليها في السّرد. إنّ الرّاوي السّيرذاتيّ سلطة تنتج معرفة مزامنة لفعل القصّ. وبذلك يكون عونا سرديا منتجا وليس منتجا فحسب. إنّه راوبنّاء، يهدف إلى إعادة هيكلة شخصيّة المترجم لذاته هيكلة حقيقية ومؤثّرة في بنية وعيه الذّاتيّة، وذلك بفعل تحوّله من مقام الكاتب إلى مقام القارئ الأوّل لما يكتب، ففي هذا التّحوّل بالذّات كما في توجّه الفعل القرائيّ بدرجة أولى إلى منتجه تتمثّل في رأينا الخصوصيّة الخلافيّة للرّسالة السّيرذاتيّة، إنشاء وتقبّلا.

---

21) المصدر نفسه، ص.125.
22) المصدر نفسه، ص.82.
23) يقصد بول ريكور ب"التّأليف بين الظّواهر غير المتجانسة" الوظيفة التّنسيقيّة الّتي تضطلع بها الحبكة لإيجاد ترابط منطقيّ بين مختلف مكوّنات العالم القصصيّ. راجع: P. Ricœur, *Temps et récit*,T.1, Paris, Seuil, 1983, pp.103-105.

لقد أمكننا أن نقتفي آثار هذه المعرفة المعمّقة لوعي الذات بذاتها من خلال البصمات الأسلوبيّة وصيغ التّعبير التي تلبّست بفعل الاستبطان السّرديّ، فوقفنا في نصّ لطيفة الزّيّات المعتمد على تكرار عبارة " **وأنا أعرف الآن...**" تكرارا لافتا يوقع لحظات السّرد التّأمليّة التي أضحت تنكشف باعتبارها لحظات تجلّ معرفيّة مزامنة لحدث الكتابة. فحاضر السّرد يترجم من هذه النّاحية عن حالة خلاص تعبّر عن إعادة هيكلة لبنية الشّخصيّة إذ لم يكن من الممكن إطلاقا أن تتجلّي الذّوات المغيّبة في مرآة الوعي لولا الوساطة السّرديّة المعقلنة لفوضى العالم النّفسي وتنافر عناصره. تقول الرّاوية العاكفة على فكّ لغزها الكامن: "**أعرف الآن** أنّ الحبّ الكبير لم يكن وحده محرّكي إلى زيجتي الثّانية، الحبّ الكبير برّر كل ّشيء قنّع الرغبة في التّوائم في الرّجوع إلى البيت القديم وإلى أحضان الأب خوفا ورعبا، في الارتداد على ما كان، في محوه من ذاكرة الآخرين. أتوقف الآن لاهثة الأنفاس، وأنا أدرك أنّ الإقرار بهذه الحقيقة اقتضاني عمرا غيّبت خلاله عامدة ومتعمّدة، خائفة ومرعوبة، محمّلة بالشعور بالذّنب والإثم دون معرفة الجريرة التي يصدر عنها الشّعور، وأنّ تغييب هذا الإقرار هو الّذي جعلني ردحا من الزّمن هشّة كقطعة من البورسلين، قابلة للجرح من هبّات النّسيم، خائفة من الجرح دائما وأبدا، واقعة دائما وأبدا، وأيا كانت الأوضاع والظّروف في منطقة الخطأ ومستعدّة للاعتذار عن خطئي وما من خطإ ارتكبت، وأنّ تغييب هذا الإقرار هو الّذي حمّلني بالتّالي الشعور بالهزيمة الدّائبة، بألاّ قدرة لي على الفعل، بأنّ فعلي إن بدأ لن ينتهي إلى شيء وبلاني بالشلل حين أصبت بالشلل وبالخوف من معاودة الشلل وأنا أبرأ من الشلل. **أعرف الآن**"[24].

إنّ الكتابة السّيرذاتيّة، كتابة هادمة وبانية في ذات الوقت، تسعى إلى هدم شتات الذّات وعدم انتظامها لتعيد بناء وحدتها وانسجامها. إنّها في نظر لطيفة الزيّات كتابة قوامها تعرّي الذّات لذاتها في حركة مواجهة شجاعة تستهدف كسر أسطورة الأنا المريض المشوّه واستبدالها بوعيّ صحيّ محرّر،لأنّ الرّاوية نجحت بفعل الوساطة السّرديّة في تصعيد مكبوتاتها المدمّرة لتوازنها النّفسي والذّهنيّ معا: " **أعرف الآن** أنّ هذا الإقرار سيقودني بالضرورة إلى إقرار آخر أشدّ إيجاعا، إقرار من شأنه أن يعصف بحرزي وبتميمتي وتعويذتي، بالمثال الذي استهديت به، ولويت رأسي لأراه في الظلمة لأستنيربه في حلكة الظلمة. **أعرف الآن** أنّ هذا الإقرار سيقودني بالضرورة إلى إقرار آخر يحطّم أسطورتي، آخر أساطيري أو أرجو أن تكون : المرأة التي دخلت سجن الحضرة في السّادسة والعشرين. ولا أهتمّ، لا أعود أهتم، شيء ما في حاضري يتبلور يغنيني عن الحاجة إلى أسطورة، عن لوي [كذا] عنقي إلى الخلف، شيء ما يبقيني مكتفية

---

24) تفتيش، أوراق شخصيّة، ص.152.

بذاتي ومستغنية، راضية ومتصالحة مع هذه الذّات، ولا أعود أهتمّ وأسطورتي تتحطّم، آخر أساطيري، أو أرجو أن تكون"[25]. الرّاوية المتكلّمة هنا صوت يتشكّل ويكتمل نفسيا ومعرفيا بالتّوازي مع تنامي الفعل التّلفّظي مرتدا على شخص الكاتبة الواقعيّة خارج النّص. لذلك تختلف كتابة الذّات عن القصّ التّخييليّ لكونها ارتداديّة، تجعل من الكاتب السّيرذاتيّ أنا متحوّلا أو صائرا في سيولة قلمه الذي ينوب عنه ويرمز إليه الرّاوي السّيرذاتيّ. يحدث ذلك إلى درجة أنّ القارئ يشعر بأنّه ينتهي إلى ملامسة هذه الصيرورة في توحّد الكاتب المتحوّل عن ماضيه بالرّاوي الرّمزي المستبطن له، وبالتالي نستشعر أنّ خاتمة القصّة السّيرذاتيّة هي في الحقيقة خاتمة ردم الهوّة المعرفيّة التي كانت تفصل الرّاوي الإجرائيّ عن الكاتب الذي انتهى إلى الالتحام به. وهو ما دلّت عليه صيغة المضارع في الشاهد السّابق : "ولا أهتمّ، لا أعود أهتمّ، شيء ما في حاضري يتبلور يغنيني عن الحاجة إلى أسطورة". ولئن كانت هذه الوضعيّة السّيرذاتيّة حقيقة أمكننا معاينتها، فإنّها تخفي حقيقة ثانية وهي هشاشة الالتحام المذكور، في المستوى النّظري على الأقلّ، ذلك أنّ سلطة الكلمة وقدرتها الافتراضيّة على إعادة تفجير أبعاد الحياة الواقعيّة في اتّجاهات جديدة أو مجهولة يبقيان أمرا واردا. فكلّ لحظة حياة جديدة حاملة لانقلابات في التّأويل جديدة أيضا. كما أنّه من المحتمل أن تكون لعبة الاستبطان الكلاميّة منقوصة أو موجّهة بعوامل خفيّة ليس بالإمكان السّيطرة عليها وبعبارة أخرى أسطورة جديدة للذّات ولكنّها مريحة نفسانيا : " أرجو أن لا يكون هذا تبريرا أو خداعا جديدا للذّات."[26]

هكذا يشفّ الخطاب السّيرذاتيّ للطيفة الزيّات أكثر من مرّة عن هذا الوعي المتقدّم أو المجاوز للسرد الحكائيّ، فيتحوّل الكلام نصّا على النّص، ويتمشهد خطّيا في شكل قوسين يحدقان بالتّخمينات المنذرة بالهدم لولا أنّها مسيّجة ولكنّ لعبة الكتابة تشفّ عنها ولا ترضى بإخفائها. كذلك يرتدي الرّاوي الإجرائيّ قيافة الرّاوي الممكن أي ذلك الوجه المعرفيّ المطلق القابل للانفجار على الدّوام بفضل كمون الكفاءة السّرديّة فيه وملازمتها لمقامه الوظيفي، فتهتزّ مرّة أخرى علاقة الالتحام المطلقة بين الكاتب والرّاوي ولكنّه اهتزاز افتراضيّ لا غير، لأنّ الرّاوي النّاقص غير متحقق في السّرد وإنّما متعلّق أو معلّق بزمن محتمل. إنّ جانبا هامّا من طرافة سيرة لطيفة الزّيّات الاستثنائيّة في رأينا يعود أساسا إلى هذه القدرة المميّزة التي جعلت الفعل السّرديّ حكاية تتطوّر وقصّة نفس تلتئم في نطاق مغامرة كتابيّة تتمشهد متقلّبة ما بين أدائها لوظيفتها المحرّرة للذّات وتسليمها بحدودها الممكنة.

---

25) المصدر نفسه، ص.152.

26) المصدر نفسه، ص.146.

3- مستويات التّفاعل بين كتابة الواقع وواقع الكتابة:

إنّ مظاهر التّشكّك التي انتهت إليها الرّاوية في"حملة تفتيش" بخصوص إمكانيّة قيام فعل استبطانيّ سرديّ حياديّ، بمعنى غير مخاتل وغير تمويهيّ، تدعونا إلى أن نمضي قدما في تعمّق هذا الاتّجاه المناوئ، الّذي يعمّق عمليّة الحفر في آليات الكتابة السّيرذاتيّة وتحسّس أنماط من السّلط المتعايشة فيها. ولعلّ أبرزها وأكثرها حظّا من التّدارس سلطتا الوعي واللاّوعي اللّتان جرى الخوض فيهما منذ ظهور علم تّحليل النّفس الفرويديّ الّذي أثّر في العديد من كتّاب السّيرة الذّاتيّة العرب، وعلى رأسهم أحمد أمين ألّذي لم يغفل في "حياتي" عن الإشارة إلى العوامل النّفسيّة وإدراجها ضمن صعوبات استنطاق الذّات الفرديّة[27].

إنّ اللاّشعور يمثّل بلا شكّ بعدا من أبعاد الذّات الحاضرة الغائبة، لأنّ الرّواسب المكبوتة تظلّ فاعلة في الأنا رغم اختفائها ومراوغتها للشّعور. والسّؤال المطروح في السّيرة الذّاتيّة هو إلى أيّ حدّ يمكن الاستبطان السّردى الذي تمارسه الذّات المتكلّمة عن ذاتها الإنسانيّة من السّيطرة فعليّا على المكبوتات وتصعيدها وبالتّالي التّحكّم فيها ؟ هذا هو الاستفهام الأساسيّ الّذي أفرزته سيرة لطيفة الزيّات الذّاتيّة وهو يحتاج في نظرنا إلى متابعة متخصّصة، خاصّة وأنّ الرّاوية أكّدت استثنائيّة التّجربة الكتابيّة الذّاتيّة وخلاّقيتها بالقياس إلى القصّ التّخييليّ. ولكنّ هذا السّؤال يجرّنا بدوره إلى آخر. إلى أيّ مدى تتنزّل الحياة المستقرأة في سياق الذّات النّفسيّ وحده، أفليست أداة هذا الاستقراء المكيّفة له وهي اللّغة تتنزّل بدورها في سياق أشمل، هو سياق التّمثيلات Représentations الاجتماعيّة والثّقافيّة، الّتي تخترق الفعل السّردي وتؤثّر في مساره التّأويليّ. ولا شكّ أيضا أنّ كتابة الذّات تتمّ أيضا عبر استدعاء تجارب كتابيّة تحضر المترجم لذاته كلّما أمسك بالقلم وهمّ بتشكيل تجربته الحياتيّة ؟

نميل إلى القول بأنّ الفصل بين وجهي الذّات الكاتبة: الوجه الإنسانيّ الخاصّ، والوجه اللّغوي: الكتابيّ والثّقافيّ، ليس إلاّ فصلا منهجيا، فالكتابة ليست تعبيرا في المطلق تشفّ مباشرة عن موضوع تعبيرها، وإنّما هي بالأحرى صناعة تتمركز في قلب المنظومتين الثّقافيّة والفنيّة الإبداعيّة، فهي بالتالي حالة مكتسبة تدخل في تفاعل مستمرّ مع واقع المبدع، لذلك قلّما نلمس انفصالا في السّيرالذّاتيّة بين الحياتين الخاصّة والقلميّة، فحكاية المترجم لذاته هي دائما حياة وقائع حياته ووقائع قلمه، وكلتاهما مدمجة في أفق قراءاته. الكتابة هي إذن

---

27) يقول أحمد أمين في هذا المعنى:" ثمّ إنّ للنّفس أعماقا كأعماق البحار، وغموضا كغموض اللّيل، فالوعي واللاّوعي، والعقل الباطن والظّاهر، والشّعور البسيط والمركّب، والباعث السّطحيّ والعميق، والغرض القريب والبعيد. كلّ هذا وأمثاله يجعل تحليلها صعب المنال وفهمها أقرب إلى المحال"، حياتي، بيروت، دار الكتاب العربيّ، 1971،ص.4..

وضعيّة، والكاتب هويّة مركّبة فرديّة/ ثقافيّة. ينشأ الحوار في السّيرة الذّاتيّة من ثنائيّة هذا التّموقع، فإذا هو تارة حوار صامت أوضمنيّ يفرز مع كلّ حالة نمطا من أنماط التّفاعل الّذي يقرأ في مستوى تأويل أبعاد الخطاب، وهو تارة أخرى حوار واع يتّخذ صيغة الخطاب الماورا سرديّ النّقديّ. إنّنا على رأي الفيلسوف الفرنسيّ بول ريكور القائل باستحالة مقولة " اعرف نفسك بنفسك" [28] خارج وساطة الرّموز اللّغويّة بشكل عامّ واستراتجيّات السّرد بشكل خاصّ، الأمر الّذي ينطبق تمام الانطباق على المشروع السّيرذاتيّ.

إنّ التّعريف بالذات والتّعرّف إليها، لا يتمّ كما رأينا إلاّ في الخطاب أو بواسطته، فليس بإمكان أيّ كان أن يبني وعيه بذاته أو بالعالم خارج أطر اللّغة المتاحة له سواء كانت شفويّة أو كتابيّة، أو خارج بناها الرّمزيّة المتلبّسة بشتّى المواضعات الاجتماعيّة والسنن الثّقافيّة الثّاوية في تضاعيف الخطابات الّتي يتلقاها الكاتب. لذلك تبدأ عمليّة اكتناه الذّات لذاتها منذ أطوارها الأولى انطلاقا من تمثّل اللّغة في تجلّياتها الشّفويّة وانخراط المحاورة الذّاتيّة في سياقات تواصليّة مخصوصة تمثّلها منظومة القيم الاجتماعيّة والعقديّة بالإضافة إلى أنماط السّلوك والعادات والتّقاليد... وقد لمسنا أنّها مثّلت في السّيرالذّاتيّة مرجعيّات تحسّس الهويّة في مراحل المقاربات السّابقة للكتابة. ولا شكّ أيضا أنّ آثار هذه المقاربات الأوّليّة تتعمّق مع الزّمن ومع تحوّل الفرد إلى كاتب مبدع يزداد اشتباكه بالخطابات الإبداعيّة إثراء لحالات تحسّسه لهويّته في مختلف أبعادها، فينفتح الأفق القرائيّ باعتباره بعدا من أبعاد التّجريب الفرديّ على تلك المقاربات ويفعل فعله فيها. وهو ما يدلّ على أنّ مقاربة الهويّة في السّيرة الذّاتيّة صاهرة لحالات الذّات الإنسانيّة والكاتبة بلا فرق.

يمكن الوقوف بالفعل على الآثار المخصوصة الّتي يتركها هذا التّموقع المزدوج في نصوص السّيرة الذّاتيّة عندما نقارن النّصوص الذّكوريّة منها بالأنثويّة. ففي الخطابات الأولى لا نشعر مثلا أنّ الذّكورة تمثّل قيمة مشكليّة أو مربكة للشّخصيّة، في حين أنّ الأمر يختلف تماما مع المترجمات لذواتهنّ، فوعيهنّ بشخصيّاتهنّ ينفجر من بؤرة قيميّة قهريّة يتلقينها وينفعلن بها في عمليّة التّواصل الاجتماعيّة كما يرتطمن بها في المرجعيّات الثّقافيّة المكرّسة لقيم الذّكورة المهيمنة اجتماعيا. هذه الوضعيّة وسمت جلّ السيرالذّاتيّة النّسائيّة بملامح

(28 « Le sujet affirmais-je ne se connaît pas lui- même directement, mais seulement à travers les signes déposés dans sa mémoire et son imaginaire par les grandes cultures. Cette opacité du cogito ne concernait pas en principe la seule expérience de la volonté mauvaise, mais toute la vie intentionnelle du sujet », P. Ricœur, *Réflexion faite*, Autobiographie intellectuelle,éd. Esprit, 1995,p.30.

متشابهة نسبيا. فالخطاب فيها يطفح بالأنين والشّكوى التي تتحوّل كما هو الحال عند نوال السّعداوي (1931-) إلى غضب جامح وتمرّد ينذر بالقطيعة مع المنظومة الاجتماعيّة المنحازة. لقد عبّرت الكاتبة المذكورة في سيرتها الذّاتيّة " أوراقي...حياتي...[29]" عن المعاناة المستمرّة الّتي تشعرها بأنّ الأنوثة الّتي لقنتها في سياقها التّواصليّ الاجتماعيّ كابوس ثقيل أو مرآة مدمّرة لصورتها الآدميّة كما تستشعرها تلقائيا في أعماقها، فحالها كمن يطالب بارتداء لباس خشن فضفاض لا يناسب حجمه ولا شكله. وعندما تفرّ نوال السّعداوي الرّاوية إلى الكتابة لتتملص من هذه الصورة الاغترابيّة التي تلاحق شخصيّتها لا تجد في اللّغة ولا في المرجعيّات الثّقافيّة الذّكوريّة الّتي تسكن أفقها القرائيّ ما يوفّر لها مجالا أفضل للتّعبير عن ذاتها المرجوّة. ويدلّ ذلك على أنّ مقام الكتابة بالنسبة إلى المرأة الكاتبة هو بحدّ ذاته مقام اغترابيّ إلى حدّ ما أو امتداد لاغترابها الإنسانيّ الاجتماعيّ، خلافا للرّجل الكاتب الّذي لا يطرح عليه وهو يبني كلامه عن ذاته أن يؤسّس للّغة مغايرة تجري في غير أنساقها وصورها وتعابيرها المتواترة. فالكاتب الرّجل لا يشقّ طريقه مجهولا متمرّدا، بل متلطفا متماهيا إلى حدّ كبير مع أهمّ صور المواضعات المتجذّرة في تاريخ الثّقافة الذّكوريّة.

لذلك فمغامرة بناء الهويّة السّردية بالنسبة إلى المرأة المترجمة لذاتها هي بالأساس مغامرة ابتداع لغة خلافيّة أو نصّ مؤسّس ومشاكل في الوقت ذاته لوجود أنثويّ له احتمالاته وإمكانيّاته وتصوّراته الخاصّة الّتي لا يمكنها أن تتبلور للآخر أو أن تشفّ عن ذاتها دون أن تبدع الكاتبة على هامش اللّغة المنمّطة لغتها وسياقها ومخيالها وجماليّاتها المستمدّة من كينونتها الأنثويّة. ولمّا كان هذا المطلب ليس بالهيّن اليسير لا تبنيه إلاّ أجيال من الكاتبات وأنماط كثيرة من المحاولات الكتابيّة ولمّا كانت لطيفة الزيّات ونوال السّعداوي من ممثّلات التّجارب الكتابيّة النّسائيّة الرّياديّة نسبيا، فقد كان عليهما أن تواجها هذا التّحدّي لفرض الصّوت النّسائيّ العربيّ الغضّ الّذي يفسح لهما مجال إنتاج صورة شخصيّة أصيلة.

في هذا السّياق تنوّعت الاستراتيجيّات السّرديّة، فبدأت مع نوال السعداوي في شكل كلام على الكلام، يفضح انحياز اللّغة المسبق للذّكورة واستعصاء انغلاقها النّسقيّ على محاولات الرّاوية التي تعمل على فتحها بمعنى تفجيرها ومراجعتها وتطويعها لما لم تطوّع له. ترسم الرّاوية بالكلمات صراعها للكلم فتقول:"...يتحرّك القلم دون أن يكتب شيئا، ترمقني الصّفحة البيضاء بسخرية

---

29) نوال السّعداوي، أوراقي ..حياتي...،3 ج.، بيروت،دار الآداب، 2000-2001. يمكن التّعمق في فهم مختلف أبعاد تجربة نوال السّعداوي من خلال النّظر في مؤلّف فرج بن رمضان، المرأة بقلم المرأة، دراسة تحليليّة نقديّة لتجربة نوال السّعداوي، مع ملحق: المرأة التّونسيّة بعد قرن من التّحديث، ط.1، صفاقس، دار محمّد علي للنّشر،1976، 376 ص.

كأنّما لم أكتب في حياتي سطرا، تبدو اللّغة غريبة، كلماتها مبنيّة للمجهول حروفا مقدّسة تخاطب المرأة بصيغة المذكّر، كلّ شيء مذكّر في اللّغة..[30]" ثمّ لا تلبث أن تعود في سياق آخر إلى الإشكاليّة ذاتها لأنّها باتت أخيرا سمة مميّزة من سمات حكاية صراعها الكلّي مع العالم الّذي تعيش فيه : "...لكنّ الكلمات فوق الورق لم تكن أبدا هي الحقيقة، صراع لم يكن ينتهي بيني وبين الكلمات بدل أن تكون الحروف أداة اتّصال تصبح عازلة بيني وبين الأشياء"[31] إنّ الجملة الأولى التي تؤكّد الانفصال الدرامي بين الكلمات : واقع اللّغة، والحقيقة : جوهر الواقع الذّاتي، ترتدّ بنا إلى تجربة لطيفة الزيّات العكسيّة باعتبارها تجربة تحرّر ذاتيّة لا يعوقها الفعل اللّغوي بقدر ما يبنيها. فهل يعني ذلك أنّ الثّانية أقلّ حساسيّة بالإعاقة الأنثويّة من الأولى والحال أنّ إشكاليّة التّعامل مع أنوثتها كانت في قلب معاناتها الذّاتيّة ؟ أم أنّ نوال السّعداوي كانت أكثر إفصاحا عن هذه القضيّة على المستوى النّظريّ لا غير، إذ اهتمّت بصياغتها وإبرازها في خطابها كقضيّة ابستمولوجيّة تحتاج إلى تنبيه.

إذا كانت اللّغة بلا شكّ وسيطا يقوم بعمليّة بلورة الوجود الخّاصّ والعامّ، فإلى أيّ حدّ يصحّ التّسليم بمباشريّة هذه الوساطة، أليست في واقع الأمر وساطة قائمة عبر وساطات، أي تخترقها دائما وبلا انقطاع تجارب إدراكيّة للعالم مكيّفة لها ومتكيّفة بها. ولا شكّ أنّ الوساطة الذّكوريّة من أشدّها هيمنة وتأثيرا لأنّها المنسّقة رسميا للتّجارب المحفورة في جسد اللّغة. لذلك تبدأ المرأة الكاتبة بوعي جسدها وأبعاد وجودها من خلال لغة الآخر الذّي يتملّكها على نحو ما ويرغمها على تملّي ذاتها في مرآته، مرآة اللّغة التي ذلّلها منذ زمن بعيد في التّاريخ حتّى أضحت المنظار الّذي يعمّم به وجوده على الكون وكائناته جميعا. وهي تجربة جسّمتها خير تجسيم في حياة لطيفة الزيّات زيجتها الثّانية التي وسمتها" بتضييع الكيان في الكيان"[32]، هذا التّضييع الذي لعبت فيه لغة العشق الآسرة عند زوجها الدّور الأوّل في استدراجها وأسرها في عالم ذكورته المنتصرة.

ولكنّ السّؤال الّذي يفرض نفسه هنا هو التّالي : ألا يمكن أن تتحولّ غيريّة اللّغة الذكوريّة إلى وساطة مبلورة لموقف مغاير، أليس تراكم التّجارب الكتابيّة النّسائيّة هو السّبيل الوحيد لافتكاك سلطة الكتابة من الرّجل باتّجاه التّأسيس لتاريخ لغويّ ديمقراطيّ مشترك تتحرّر خلاله المرأة والرّجل من أحاديّة المنظور، فتغتني اللّغة وتتفاعل الرؤيتان إيجابيا في كنف الاختلاف النّوعيّ المشروع ؟. ما

---

30) المصدر نفسه، ج.3، ص.7.

31) المصدر نفسه، ج.1، ص.47.

32) حملة تفتيش، أوراق شخصيّة، ص.69.

من شكّ اليوم في أنّ جانبا كبيرا من الطّريق قطع في هذا الاتّجاه، وما من شكّ أيضا في أنّ تجربتي الزيّات والسّعداوي متكاملتان، الأولى أبرزت البعد الكتابيّ التّجريبيّ النّفسيّ، في حين وضعت الثّانية إصبعها على المقوّمات السوسيوثقافيّة للفعل الكتابيّ والتّمثّل اللّغوي للذّات المهمّشة. لقد لمسنا في " حملة تفتيش أوراق شخصيّة" استراتيجيّة عمليّة لافتة على المستوى الأسلوبيّ لمواجهة ذوبان التّجربة الأنثويّة الخلافيّة في مرجعيّات اللّغة الذّكوريّة، وهو ما يتجلّى في مغادرة السنن التّعبيريّة المنمّطة إلى السّجلّ التّعبيريّ الصوفيّ ذي الأبعاد الدلاليّة المفارقة للدلالات المعجميّة الوضعيّة.

هكذا أمكن للرّاوية عبور المتداول من المفاهيم لتأسيس رؤى جديدة أخذت تنحتها من الكلمات المتداولة عينها، ولعلّ عبارتها"...وجديد الشيء قديمه" خيرما يترجم عن فلسفة هذه الاستراتيجيّة القديمة الجديدة. رغم كلّ الصعوبات الّتي فصّلنا القول فيها، فإنّ السيرالذّاتيّة النّسائيّة لم تتراجع ولم تمت حروفها في المهد بل تدفّقت واندفعت بقوّة لأنّ الكتابة حياة أولا تكون. فالصمت وحده هو الغياب، هو الموت الأقسى. لذلك كان لزاما على الكاتبات العربيّات أن ينشئن نسقهنّ الإبداعيّ المخصوص وهنّ يحفرن بأقلامهنّ صلب الأنساق والمرجعيّات الثّقافيّة الذّكوريّة المهيمنة. هنا يكمن في تقديرنا واحد من أهمّ الرّهانات الّتي خاضتها المترجمات لذواتهنّ في السّيرة الذّاتيّة النّسائيّة العربيّة الحديثة.

هكذا تبيّن لنا، أنّ اللّغة تلعب في نطاق وظيفتها التّواصليّة دور المحكّ. فالأنا الفرديّة تحتكّ بالأنا الغيريّة عبر العمليّة التّخاطبيّة، لذلك ليس الوعي بالذّات في الأصل إلاّ ظاهرة حواريّة جدليّة ولا يمكنه أن يكون آليّة استبطانيّة مجرّدة تدور في مجال إطلاقيّ بحت هو الفكر الخالص الشّفاف. فمن خلال تملّك اللّغة والانغماس في المرجعيّات الاجتماعيّة والثّقافيّة يتوغّل الكاتب في تحسّس عالمه الذّاتيّ والتّعرّف إليه. لذلك يمثّل اكتساب اللّغة أوّلا ثمّ التّمكن من الكتابة ثانيا سلطتين مكيّفتين ومؤثّرتين في بنية الوعي الشّخصيّة، كلتاهما تعمل على سحب الوعي الفرديّ إلى دائرة التّصوّرات الجمعيّة المشتركة وتحمله على تمثّل القيم المكرّسة. ولكنّ أهمّ السّير الذّاتيّة هي تلك الّتي نجح أصحابها في مجادلة الجمعيّ على نحو ما واستطاعوا أن يضفوا على السّائد الفكري والاجتماعي والثّقافيّ جديدا نبع من ذات أنفسهم بما هي ذات فريدة لا تتكرّر أبدا.

إنّ النّظريّة القائلة بتبعيّة الفرد للمجموعة البشريّة وحصر القوى التّاريخيّة المغيّرة للواقع في ما يعرف بالقوى التّاريخيّة اللاّمنظورة قد فات وقتها، إذ

أضحت البحوث التّاريخيّة المعاصرة [33] أكثر اعتبارا لدور الفرد في التّعامل مع سياقه التّاريخيّ ودخوله معه في تفاعلات ذات تأثير على المدى القصير. ومن هذا الموقع الجديد ازداد اهتمام المؤرّخين بالسيرالذّاتيّة مدرجين إيّاها ضمن ملف وثائقهم التّاريخيّة الإستثنائيّة.

ولاشكّ أنّ أنموذج طه حسين (1889-1973)، كما تجلى في "أيّامه" على وجه الخصوص، قد خلخل الموازين المهيمنة وأربك منظومة القيم السّائدة حتّى اعتبر بالنسبة إلى معاصريه فاتحة عصر جديد وعلامة عليه. فكما أنّ العالم يحضر إلى الإنسان مؤثرا فيه، كذلك يؤثر الإنسان بدوره وعن طريق العامل اللّغوي في العالم ويكيّفه نسبيا.

إنّ كسر نمطيّة العالم لصالح دعم الأنموذج الفرديّ والإقناع بحداثته يفسّر إلى حدّ كبير المعاناة العميقة التي تصاحب هذه المشاريع الفرديّة الاستثنائيّة. فالوقوف مثلا على مقام الفرديّة هو بالضّرورة وقوف في السّيرة الذّاتيّة على عتبة العزلة والشّعور بالغربة قياسا إلى المواضعات المتداولة. ولاشكّ أنّ هذا الصّراع كما لمسناه في موقف لطيفة الزيّات من الحبّ والنّضال والزّواج يمنح سيرتها بعدا تجريبيا فذّا، يحرّك الأجيال القارئة لها باتّجاه مراجعة الواقع السّائد. والأمر ذاته يقال عن نوال السّعداوي وكذلك طه حسين. وليس من الغريب قطّ أن نرى الكاتبتين[34] تهرعان إليه كلّما افتقدتا المرجع الذي بإمكانه أن يسند مشروعيهما الكتابيّ الخلافيّ. فرغم أنّ طه حسين يدرج مبدئيا في خانة الذّكورة، فإنّ معالجته للواقع كانت تجعل منه أنموذج الحداثة المطلق بالنسبة إلى هؤلاء الكاتبات الشّاقات لعصا الطّاعة.

إنّ طه حسين مثّل في الأدب العربيّ الحديث ظاهرة أدبيّة وفكريّة استقطبت أجيالا متلاحقة من الأدباء والمفكّرين، ولكنّه مثّل إلى ذلك، في أيّامه خاصّة، سلطة كتابيّة ذات جاذبيّة بلاغيّة غير مسبوقة سحبت إلى دائرتها عددا لا يستهان به من النّصوص وخاصّة السّيرذاتيّة منها. وهو ما يدلّ على أنّ إنتاج الهويّة السّرديّة خاضع لواقع الكتابة كما يبلوره منوال نصّيّ ما مدمج لتاريخيّة الواقع الفرديّ بشكل ما في بلاغة ذلك النّمط. فلا شكّ إذن أنّنا في مثل هذه الحالة إزاء

---

33) منذ مطلع السّبعينات بدأ يظهر في أوربا تيّار تاريخيّ جديد يهتمّ بالتّاريخ للواقع اليّوميّ ويكشف عن أبعاد التّجارب الفرديّة في صنع الحدث التّاريخيّ، وهو ما جعل العناية تتّجه من جديد إلى إعادة النّظر في القيمة الوثائقيّة للنّصوص الذّاتيّة. راجع : J. Revel, Jeux d'échelles, la micro-analyse à l'expérience, Paris, Seuil Gallimard, 1996.

34) ذكرت لطيفة الزيّات في سيرتها الذّاتيّة أنّها أحسّت يوم توفي طه حسين بأنّها لم تكن تشيّع رجلا بل عصرا هوعصر العلمانيين الذّين جرؤوا على مساءلة كلّ شيء. واعترفت نوال السّعداوي بأنّها كانت تبحث عن أنموذج كتابيّ تقتدي به فلم يكن أمامها غير طه حسين.

وساطة لغويّة فنّية من درجة ثانية هذه المرّة تجعل من كتابة التّاريخ الفرديّ سلسلة من التّحويلات المتداخلة لوقائع المعيش الفرديّ الخّامّ، على افتراض أنّ مثل هذا المعيش غير المتكيّف له بالفعل وجود مستقلّ مفصول، أي قائم بذاته في الوعي الفرديّ للمترجم لذاته. إنّ للمكتوب سلطة[35] تخلق في كثير من الأحيان تمثيلات تاريخيّة جارفة لها من قوّة التّأثير ما به تتحوّل إلى بنية تمثيليّة كبرى مختزلة لمرحلة تاريخيّة في رؤية رمزيّة فاعلة وقابلة بواسطة التّواصل القرائيّ لإفراز توظيفات نصيّة للتّاريخ مشاكلة لهذه البنية أومتحوّلة بالقياس إليها. إنّ النّص كما نراه هو بذاته علامة تاريخيّة لأنّ التّاريخ فيه ليس معنى يحال عليه بل هو شكل حالّ في بلاغة النّص نفسه. هذا ما يمثّل من وجهة نظرنا جوهر قيمة نصّ الأيّام، أمّا ما عدا ذلك من إضافات أخرى كثيرة فهو ليس إلاّ من قبيل الفروع التّي تتّصل من قريب بالأصل الذي أثبتنا.

الخاتمــة :

نودّ في خاتمة هذا البحث تأكيد مجموعة من الملاحظات تبدولنا أساسيّة :

1 - يمثّل الإشكال الذي طرحناه - في جانب منه - مراجعة لمفاهيم ووظائف سرديّة مطبّقة على خطاب السّيرة الذّاتيّة من خلال نصّ لطيفة الزيّات اللاّفت " حملة تفتيش، أوراق شخصيّة"، وهو نصّ لم يستثمر نقديا في ضوء المقاربة التّي اعتمدناها.

2 - وتتدرج هذه المقاربة في عمومها في سياقين : نقدي وإبستمولوجيّ.

أ) السّياق النّقديّ :

الهدف منه التّنبيه إلى أنّ التّطبيقات السّرديّة التّي مارسها فيليب لوجون في مستوى نقد الخطاب السّيرذاتيّ وتحليله كانت علامة تواصل مع اتّجاهات النّقد البنيويّة، وهي اتّجاهات تحلّل الظاهرة السّرديّة في مستوى تجلّياتها النصّيّة الجماليّة المرتهنة بلعبة الكتابة دون فتحها على الواقع التّاريخيّ الذّي يعتبر عمدة الإحالة في السّيرة الذاتيّة. ورغم تمحور نظريّة لوجون المتعلّقة بالكتابة الذّاتيّة

35) تتجلى هذه السّلطة على نحولافت في محكيّ الطّفولة Récit d'enfance الذي كتبه محمّد العروسي المطوي بعنوان" رجع الصّدى"، تونس، الدّار العربيّة للكتاب، 1991 . كما تجلت عند كتّاب عرب آخرين، وهي ظاهرة ننوي دراستها في بحث آخر بعنوان: أثر " أيّام " طه حسين في كتابة السّيرة الذّاتيّة العربيّة.

حول مفهوم التّعاقد السّيرذاتيّ وواقعيّة الملفوظات الذّاتيّة، فإنّ تطبيقاته السّرديّة وأدواته التّحليليّة كانت تدور في فلك سرديّات جيرار جنات المشتقة في الأصل من طبيعة الملفوظات الرّوائيّة التّخييليّة ولا تكاد تعنى في مستوى الخطاب السّيرذاتيّ بالتّساؤل عن أبعاده الوظيفيّة الأنطولوجيّة التي تجعل منه خطابا ذا قيمة إستثنائيّة بالنّسبة إلى المترجمين لذواتهم . وهو ما أدّى في نظرنا إلى تهميش خصوصيّات الإحالة المرجعيّة في الملفوظات الذّاتيّة الواقعيّة.

ب) السّياق الإبستمولوجيّ :

نعتبر مقاربة أعوان السّرد في الملفوظ السّيرذاتيّ كما مارسناها في هذا البحث محاولة لتعميق مفهوم "الهويّة السّرديّة" – الذي سبق لنا أن اعتنينا به في "مقوّمات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث - بحث في المرجعيّات -"[36] -، وذلك باعتباره مفهوما يؤسّس لإمكانيّة إنتاج" حقيقة سيرذاتيّة" يفرزها السّرد الذّاتيّ بوصفه نشاطا لغويّا مهيكلا لبنية الوعي بالشّخصيّة. وبالتّالي تتنزّل المقاربة السّرديّة المقترحة لنصّ لطيفة الزيّات" حملة تفتيش، أوراق شخصيّة" في نطاق إبستيمولوجيّ يخرج بنا من حيّز جماليات التّمثيل الذّاتيّ إلى حقل المعارف الإنسانيّة، ومن أهمّها هنا " علم نفس الصّحة" La psychologie de la santé الذي يهتمّ أعلامه [37] باستثمار الخطابات السّيرذاتيّة في تحليل أوجه تفاعل الظّواهر النّفسيّة مع العمليّة السّرديّة في بعديها الشّفوي والكتابيّ، باعتبارها تمثّل آلية شفائيّة تمكّن من إعادة بناء التّوازن النّفسيّ بالنّسبة إلى كلّ من يمارس كتابة الذّات. وقد انتبهت نوال السّعداوي في سيرتها الذّاتيّة" أوراقي..حياتي" إلى أنّ الفعل الكتابيّ الذّاتيّ ليس فعلا تلقائيا شفّافا كما قد يتوهّم البعض، بل إنّه يمثّل مقاما مشكليّا بالنّسبة إلى الفئات التي لم تمسك بزمام سلطة الكتابة إلاّ نادرا أو عرضا وهي تقصد خاصّة فئة النّساء الكاتبات اللاّتي يتموقعن بالضرورة في مقام اغترابيّ مسكون باستيهامات الذّكورة وتمثيلاتها المترسّبة في أنساق اللّغة على مدى التّاريخ. وعلى ذلك لا يكون الخطاب الأنثويّ الذّاتيّ كما مارسته الكاتبة إلاّ خطابا مضادا أو مشاكسا، أو كتابة ضدّ الكتابة. وهو ما يجعلنا نرى أنّها طرحت

---

36) راجع : جليلة الطريطر، مقوّمات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث- بحث في المرجعيّات-، تونس، مركز النّشر الجامعيّ/ مؤسّسة سعيدان للنّشر، 2004، فصل" مفهوم الهويّة السّرديّة"، ص.235.

37) نحيل في الموضوع المذكور على بحوث ميكائيل موراي M. Murray وهوأستاذ كرسيّ بإنجلترا ومدير مركز البحوث النّفسيّة المتعلقة بعلم نفس الصحّة والاجتماع التّطبيقيين. من أهمّ مراجعه في موضوعنا : M. Murray 2000 , « Levels of narrative analysis » in *health journal of health psychology*,5(3),331-342.

استفهاما أساسيا في مستوى إشكاليّات المرجع في كتابة الذّات الأنثويّة لأنّها وضعت حدود " الحقيقة الذّاتيّة" وناقشت علاقتها بالمنظومتين اللّغويّة والثّقافيّة في تلبّسهما بمقولة "النّوع". ولا نشكّ في أنّ هذه النّافذة الّتي فتحتها نوال السّعداوي تمثّل خيطا رفيعا يشدّ قضايا الحقيقة السّيرذاتيّة من النّاحية الإبستيمولوجيّة- في مظهر من مظاهرها- إلى مشكليّة "الحقيقة التّاريخيّة" عامّة باعتبارها تتجلّى في بنية سرديّة ويكيّفها واقع الكتابة إلى حدّ بعيد.

جليلة الطريطر
كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة
جامعة تونس

حوليات الجامعة التونسية – عدد 53/2008 ص ص 189 – 213

تجديد التفكير الديني وإصلاح التعليم

(نخبة المغرب العربي أنموذجا)

بقلم : **عبد الرزاق الحمّامي**

إنّ ما عرفه العالم العربي من تجانس في اللغة والدّين عموما جعل مشاكله تكاد تكون واحدة وشواغل نخبته متشابهة إلى حدّ كبير، غير أنّ خصوصيّة اللحظة التاريخية وخصوصيّة المكان أيضا يكون لها أثرها في تلوين الفكر وطبعه بميسم له من العلامات ما يميّزه عن غيره في لحظة أخرى وفي مكان آخر، فإذا هي خصوصيات في نطاق الوحدة وفوارق في إطار التّجانس الظاهري العام. فالفكر الإصلاحي في العالم العربي ومنذ مبادرات روّاده كالطهطاوي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني في المشرق وخير الدين وابن أبي الضياف وبيرم الخامس في تونس اتّسم بالاتّصال والانفصال في نفس الآن. واعتبارات الزمان والمكان والاتّصال والانفصال في الفكر الإصلاحي عموما تقودنا إلى تسليط الضوء على جانب من فكر نخبة المغرب العربي في النّصف الأوّل من القرن العشرين باعتبارها حلقة وصل بين ما تقدّمها من مفكّري الإصلاح ومن لحقها، وقد ظهر فكرها في بيئة ثقافية خاصّة، واجهت أبرز حملات الاستلاب الفكري بعد أن استقرّ الاستعمار الفرنسي بجيوشه ومؤسساته وثقافته بالمنطقة، وأخذت أفكاره ونظريات أعلامه تنتشر بسرعة، فكيف كانت ردود النّخبة على هذا التحدّي وكيف وظّفت آلية تجديد التفكير الديني وإصلاح التّعليم للدفاع عن الذّات والتّصدي للانقلاب، وهل كانت تعبّر عن سلفيّة جديدة تكرّر خطابا قديما في غير زمنه فإذا بتأثيره يصبح محدودا ونتائجه مجهضة ؟ ثمّ ما هو مضمون هذا الفكر ومناهج أصحابه في حدّ ذاته أوّلا وفي علاقته بالفكر الإصلاحي المشرقي ثانيا ؟ وهل بينهما تكامل أو تناقض أو تمايز في سياق الاتّصال والانفصال ؟

إنّ ظروف نشأة الفكر الإصلاحي بالمغرب العربي شبيهة بظروف نشأة صنوه بالمشرق وقد استقطبه حلم تحقيق "النهضة" ؛ ومع ذلك فإنّ فروقا ومميّزات طبعت فكر النخبة المغربية ولم يسلم أصحابها من التّأثر بذات الحلم. لقد شهدت منطقة المغرب العربي نوعا من التفكك الاجتماعي مردّه إلى تباين المدينة عن البادية في شكل تصادمي بين بنيتين اقتصاديتين واجتماعيتين وثقافيتين وسيحتاج تحقيق الوحدة بينهما إلى وقت طويل؛ ولم تكن الوحدة تحصل إلاّ عندما يطرأ هدف جهادي لإنقاذ "المسلمين" أو للدّفاع عن الكيان الوطني، وعلامة التفكك هذه كانت سائدة أيضا بين مختلف أقطار المنطقة وأسباب التقارب والتوحد كانت هي ذاتها : الخطر المحدق بالدّين وتهديد الدخيل للهويّة، فمنذ القرن التاسع عشر وبتزايد انتصار البورجوازية الأوروبية واستعمارها لشمال إفريقيا بشكل مباشر فإنّ تاريخ المنطقة الحديث وتاريخ "نهضتها" سيرتبط بالصّراع ضدّ الاستعمار الأوروبي إذ هيمن على المغرب العربي في ظلّ انحطاط شامل لجوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكرّس الانقسام داخل الأمّة ونشأت بورجوازية استغلالية عميلة للأجنبي على حساب مصالح البلاد مستفيدة مقابل ذلك ببعض الامتيازات وفي ظلّ هذه الأوضاع أخذ مشروع مفكّري الإصلاح يتبلور بالتدرّج وبالتّوازي مع قيام بعض الأحزاب السياسيّة وانتشار الصحف والجمعيات الثقافية وبعض الحركات المسلحة أيضا (حركة الشباب التونسي 1908 – الحزب الحرّ الدستوري بتونس 1920 – جمعية طلبة شمال إفريقيا 1928 بباريس – ثورة الأمير عبد القادر على فرنسا من 1832 إلى 1847 – ثورة الريف المغربي سنة 1911). فالمشروع الإصلاحي كان ذا وجهين ثقافي وسياسي، وارتبطت بذلك الحركة السلفية بالحركة الوطنية، وفي هذا السياق لا نغفل مدى تأثير المدّ الإصلاحي الشرقي وصحفه في منطقة المغرب العربي "فالعروة الوثقى" و"المنار" بعدها كانت متداولة في أوساط المتعلّمين وحظيت كتابات الأفغاني وعبده برواج واسع إضافة إلى انتشار الإنتاج الأدبي المشرقي مقالة ونقدا ومسرحا وما كان للمغاربة من رحلات نحو الشرق واتّصالهم مباشرة بأعلامه ومفكّريه.

إنّ العوامل المشتركة بين البيئة الثقافيّة والسياسية شرقا وغربا متعدّدة إلاّ أنّ بعض الفوارق والتي لها تأثيرها الخاص يمكن التنبيه اليها، من ذلك تأخّر ظهور البورجوازية في المغرب العربي مقارنة بالمشرق، وكذلك سرعة دخول الاستعمار بكل خصائصه للمغرب قبل المشرق، ثم ارتباط الحركة الفكريّة الإصلاحيّة السلفية بالحركة الوطنية، وهو ما لم يحصل بنفس الصورة في المشرق كذلك، لكن خصوصية البرنامج الثقافي المغربي الموسوم بطابع قوي فرضته طبيعة الاستعمار الفرنسي الاستيطاني وكان هدفه استلاب الشعوب

المستعمرة وتغريبها ثقافيا فتأثر ردّ الفعل الثقافي الوطني بطبيعة الفعل الثقافي الاستعماري وخصوصيّته، ومن أبرز خاصيات نهضة المغرب العربي تجاوز حركة الفعل السياسي العسكري للجماهير ضدّ المستعمر لحركة الفكر السّلفي الوطني للنخبة المغربية، فكان العمل السياسي أشدّ تأثيرا من التّنظير والأفكار لكن رغم كلّ ذلك فإنّ نخبة الفكر الإصلاحي أنتجت مواقف وعبّرت عن وجهة نظر مما يحدث فحاولت التصدّي للاستلاب الاستعماري بالتنبيه إلى ضرورة تجديد التفكير الديني والقيام بإصلاح شامل للتعليم، نسعى في هذه الدراسة إلى إبراز أهمّ خصائصه ومدى قيمته.

إنّ شعور نخبة المغرب العربي الحادّ بوطأة الاستعمار وتهديده لكيان شعوبها من خلال تأثير النظريات الاستعمارية وانتصار الأفكار العلمانيّة وأطروحة "المهمّة التمدينيـة الفرنسية" وتشبّع المقيمين العامين الفرنسيين بها، فرض عليها الدفاع عن مقوّمات الهويّة : الدّين واللغة خاصّة، فكانت أبرز شواغلهم محاولة تجديد التفكير الدّيني من منطلقات متعدّدة ومتكاملة أحيانا سواء بالدّعوة إلى إصلاح العقيدة عبر الكشف عن مقاصد الشريعة والعود إلى الأصول أو بإحياء الاجتهاد، وفي نفس الاتجاه كانت دعوتهم صريحة إلى إصلاح التّعليم المسؤول عن بناء شخصيّة الفرد وإنقاذ المجتمع.

أ - تجديـد التفكير الدّينـي :

يتنزّل في هذا السّياق كتاب "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"[1] لمحمّد الطاهر ابن عاشور (1879 – 1973). والهدف منه : "بيان الأسباب التي أفادت المسلمين نهوضا ساميا في بادئ أمرهم وما مهّده لهم الدّين القويم من أسباب الرّقي وانتشار العمران، ثمّ أتبعه بيان الأسباب التي رجعت بهم عن ذلك التقدم الباهر ثمّ أعقبها بالبحث عن وسائل إصلاح أحوالهم حتّى يعودوا كما بدءوا من كمال الارتقاء" [2]. إنّ ابن عاشور يقرّر أنّ المسلمين مرّوا من الرقيّ إلى التراجع والنكوص والسبب في الحالتين هو الدّين، فعند التمسك به تقدّموا، وعند التخلّي عنه تراجعوا والعود والكمال والارتقاء أي إصلاح أحوالهم يمرّ عبر الدّين مجدّدا، وهذا الرأي من المقولات الثابتة في الفكر الإسلامي الكلاسيكي والتقليدي أيضا فعوارض أزمة المجتمعات ناتجة عن تخلّيها عن الدين وبناء على ذلك فلا حلّ لها إلاّ بالرجوع إليه والاستلهام منه... فلروح الإسلام تأثير في "تأسيس المدينة الصالحة" يسعى إلى إبرازه ويرشد المسلم في نفس الآن "إلى مناهج الخير

---

1) الشركة التونسية للتوزيع – الدّار العربيّة للكتاب، تونس 1977 وقد ألفه منذ 1964.

2) ن م ص 5.

والسّعادة" فمن أكبر "أسباب النهوض والسقوط" حسب "علماء الاجتماع" كما يرى حالة الدّين والعقيدة [3].

وإذا ما تجاوزنا تعريف ابن عاشور لهدف الأديان ومقارنة الإسلام بغيره من الأديان السماوية "الاتّساع أصوله" وضبطه أحوال النّظام الاجتماعي للأمّة في تصاريف الحياة نظرا إلى امتزاج الدين بالشريعة فإنّ مسألة إصلاح المجتمع جوهريّة عنده وهذا الإصلاح متوقف في نظره على إصلاح الأفراد، ولذلك بوّب الكتاب قسمين : 1- أصول إصلاح الفرد. 2- أصول إصلاح المجتمع، وينتهي إلى أنّ "إصلاح عقل الإنسان هو أساس إصلاح جميع خصاله ويجيء بعده الاشتغال بإصلاح أعماله وعلى هذين الإصلاحين مدار قوانين المجتمع الإسلامي"[4].

إنّ إصلاح العقيدة يتصدّر في برنامج ابن عاشور كلّ إصلاح فالإسلام "لا يضارعه دين من الأديان في شدّة الاهتمام بتوضيح العقيدة وتحديد معانيها والحرص على تلقينها وإقامة دلائلها"[5] بل يقرّر أنّ "العقيدة أساس التفكير" ويميّز إصلاح التفكير عبر إصلاح العقيدة "وإن كانت العقيدة من التفكير" لأنّ العقيدة "تفكير مقدّس ومختصّ بموضوع معيّن (...) أمّا إصلاح التفكير فهو هنا التفكير بما يرجع إلى الشؤون في الحياة العاجلة والآجلة لتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنجاح في الحياتين..."[6]. والهدف من إصلاح التفكير نجاح المرء والجماعة في المجتمع. والنّواحي التي يتركّز عليها الإصلاح في الإسلام هي : تلقي العقيدة وتلقي الشريعة والعبادة وتحصيل النّجاة في الحالتين والحزم والمعاملة والأحوال العامة ومصادفة الحقّ في المعلومات؛ وإذا كانت الأمّة الإسلاميّة ذات دين يضمن لها "صحّة التفكير في كلّ النّواحي العارضة في الحياة العقلية والعلميّة" فإنّها جديرة بما نالته من سيادة العالم أيّام كانت أخلاقها الدينيّة غير مشوبة بخليط الخطأ في فهمه حقّ فهمه، ولتوقن بأنّ تراجعها القهقرى له مزيد اتصال بنبذ هذا الأصل عندهم إلى الوراء"[7]. فأزمة المسلمين إذن تعود بالأساس وكما أسلفنا إلى تفريطهم في "أخلاقهم الدينية" ولا يختلف ابن عاشور في هذا المستوى عن سائر المفكّرين التقليديين فالأزمة روحية في الأصل لكنّه عند ربط العمل بالمعتقدات والأفكار في الإسلام يعالج جانبا من أدواء المجتمع الإسلامي كما يراها فالجمهور أساؤوا فهم معاني التوكّل والرضى بالقضاء "وهما خصلتان

---

3) ن م ص 9.
4) ن م ص 45.
5) ن م ص 49.
6) ن م ص 51.
7) ن م ص 63.

من أعظم الأخلاق الإسلاميّة [8] ووضعوها في غير موضعها "وشاع سوء الوضع بينهم حتّى صار كاليقين فكان ذلك سبب نكبات كثيرة" ولم يتردّد في نقد دلالة التوكّل المقترنة بالاستسلام والفشل والقعود عن العمل مستثنيا "التّسمية الإصطلاحية" عند الصوفية مؤكدا أنّ العمل بحاجة إلى مواصفات ليحقق أهدافه ومنها النّظام والتّوقيت والدّوام وترك الكلفة والمبادرة والإتقان.

ومن الوسائل الجديدة التي يقترحها ابن عاشور لإصلاح العقيدة اعتماده الوازع النفسي "فضعف هذا الوازع في المسلمين اليوم" كشف عمّا هم فيه "من انحطاط الأخلاق الدينيّة وضعف تنافسهم في الصالحات [9]، ولهذا الوازع الأثر المباشر في الإصلاح الاجتماعي فضلا عن أثره في إصلاح الفرد الذي بصلاحه يصلح كامل المجتمع، إذ من وجوه إصلاح الفرد طلب العلم، والسّياق يوحي بأنّ العلم المقصود مقتصر على مجال الدّين ولا علاقة له بمفهوم العلم Science رغم وعيه بالفرق بين علوم الشريعة و"العلوم الزمنية".

إنّ إعادة الاعتبار للقيم الإسلاميّة كانت مسألة شديدة الوضوح في مواقف محمد الطاهر ابن عاشور وذلك لشدّة اقتناعه بأنّ أزمة المسلمين ذات أصل عقدي ديني وأنّه لا سبيل إلى الخروج من المأزق ما لم يقع الرّجوع إلى تطبيق ما نادت به الشريعة في إطار الاتحاد والتكتّل على أساس الدّين، وقد استعرض فوائد الاتّحاد ومظاهر المواساة بين المسلمين في العهد الرسالي وحلّل مختلف أنواعها (الزكاة، الصدقة)[10] لعلّه من الطّريف الإشارة إلى عنايته بقيمة الحريّة [11] ودورها في استعادة المسلمين مكانتهم المرموقة فإذا به يحلّل مدلول الكلمة وكيف كان وكيف تطوّر بداية من الثورة الفرنسيّة باحثا عن مرادفه بالعربية، مقارنا النظام الإقطاعي في الغرب بالرقّ في الإسلام فينكر على الفرنسيين والإنقليز والأمركان "تبجّحهم" بتحرير العبيد وقد سبقهم الإسلام "بتسعة قرون على الأقلّ". وفي تحليله "للمعنى المتداول [للحريّة] في هذا العصر" يتداخل الفلسفي بالديني : " تنقسم الحرية إلى حريّة اعتقاد وحريّة تفكير وحرية قول وحرية فعل، وكلّ هذه الحريات الأربع محدودة في نظام الاجتماع الإسلامي ما حدّدت شريعة الإسلام أعمال الأمّة الإسلامية في تصرّفاتهم الفرديّة والجماعيّة..."[12]

---

8) ن م ص 73.

9) ن م ص 73.

10) ن م ص ص 135 – 142

11) انظر : دراويل جمال الدين، مسألة الحرية في مدوّنة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار الهادي، بيروت 2006.

12) ن م ص 170.

ورغم سلفيّة ابن عاشور فإنّه يبدي تسامحا في حريّة الاعتقاد لكن داخل سياج الإسلام السنّي "فللمسلم أن يكون سنّيا سلفيا، أو أشعريا (...) وقواعد العلوم وصحّة المناظرة تميّز ما في هذه النّحل من مقادير الصّواب والخطأ أو الحقّ والباطل. ولا نكفّر أحدا من أهل القبلة"[13].

وهو بهذا الرأي يحاول وضع حدّ لما عرفه المسلمون من فتن على امتداد تاريخهم بسبب الانتماءات المذهبية والاختلافات بين الفرق كالصراع بين السنّة و الشيعة أو الخلاف بين المعتزلة و الخوارج ويؤكّد مفهوم التسامح باعتباره قيمة من القيم التي تأسست عليها الرسالة الإسلامية.

وإذا كانت فكرة انغلاق باب الاجتهاد سائدة عند أغلب المتأخّرين فإنّ ابن عاشور على خلافهم يذهب إلى وجوب الاجتهاد لحاجة الأمّة الإسلاميّة إلى علماء في فقه الشريعة للإمداد بالمعالجة الشرعية ويعتبر العالم آثما إن انصرف عن هذا الواجب والعامة آثمة في سكوتها عن المطالبة بذلك، واقترح على علماء "هذا العصر" أن يكوّنوا مجمعا علميّا يضمّ " أكبر العلماء بالعلوم الشرعية "في كلّ قطر على اختلاف مذاهب المسلمين في الأقطار ويبسطوا بينهم حاجات الأمّة ويصدروا فيها عن وفاق فيما يتعيّن عمل الأمّة عليه ويُعلموا أقطار الإسلام بمقرّراتهم..."[14] ولعلّه بمثل هذا الرّأي يؤكّد ضرورة سدّ الفجوة بين النصّ والواقع ويعتبر بما يحصل في التاريخ من تطوّرات وتحوّلات تقضي بضرورة استنباط أحكام لما يحدث وتجذّر منهج الإصلاح والتدارك.

وتحقيقا لمفهوم الإصلاح ينزع إلى إعادة ترتيب المدوّنة الفقهيّة على نمط جديد لا يخلو من التّعليل والتّحليل والاجتهاد، متذرّعا بنزعة نقدية واضحة يتوجّه بها إلى فقهاء الإسلام القدامى أو إلى أصحاب بعض النّزعات الفلسفيّة والتيّارات الفكرية الحديثة متجاوزا بذلك حدود المفكّر السّلفي التقليدية بحكم اطلاعه على اللغة الفرنسية وعلى مختلف فروع المعرفة الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النّفس والتاريخ والأدب والاقتصاد إلخ... وفي نفس هذا التوجّه يندرج تفسيره "التّحرير والتنوير"، إذ مارس فيه الاجتهاد والتّأويل مستندا إلى حجج نقليّة وأخرى عقليّة من ذلك مثلا موقفه من المرأة في تفسير الآية الاولى من سورة المجادلة أو تأويله لمعنى المشيئة و دلالتها في تفسير الآية 30 من سورة الإنسان، وبذلك تكتسي مؤلّفاته ضربا من التكامل خاصّة وأنّ كتاب "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" لخّص بيان الإصلاح الدّيني عنده لاشتماله على نظرات إصلاحيّة في

---

13) ن م ص 172.

14) مقاصد الشّريعة الإسلامية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978 ص 141.

مختلف شؤون الدين والدنيا إذ عرض لنظام الحكم ولمبادئ العدل والحريّة والمساواة وحقوق المرأة من وجهة نظر إسلاميّة.

ونظرا إلى انتماء عبد الحميد بن باديس (1889 – 1940) إلى نفس المدرسة السلفيّة وتتلمذه على محمد الطّاهر ابن عاشور بجامع الزيتونة فإنّ مواقفه من إصلاح المجتمع الإسلامي تكاد تكون هي ذاتها، فلا صلاح للمجتمع دون إصلاح الفرد ولذلك اعتنى الإسلام بتهذيب الفرد وتقويم خُلقه واستقامة سلوكه، سالكا في ذلك طريقتين : 1- إصلاح عقائد الفرد من الشرك، 2- إصلاح أخلاقه من المفاسد والمساوئ. فالعقائد والأخلاق هما أساس الأعمال والمجتمع، وهو ما يبرّر تنبيهه إليهما باستمرار فالعقائد السّليمة هي قاعدة الإصلاح الاجتماعي في رأيه، وما بلغه المسلمون من تدهور مردّه تدهور العقيدة عندهم وتطرّق الشرك الخفيّ إليها، وعليه فلا علاج لهذا التقهقر إلاّ بإصلاح العقيدة الدينيّة، إنّه نفس ما انتهى إليه ابن عاشور وغيره أيضا من مفكّري الإصلاح "إنّ الذي نوجّه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظّاهر"[15]

ويطرح الخطوط الكبرى لإصلاح المجتمع عبر الدين بداية من الإيمان بتطهير العقائد من الشرك وتنقية الأخلاق من الشرك، والتضامن والاتحاد، وضمن دعوته إلى مقاومة الشرك تندرج حملته على رجال الصوفيّة لتأثيرهم السلبي في عقيدة البسطاء من النّاس واستئثارهم بكرامات مزعومة تشرّع للشرك بالله وتُضعف قوى الأمّة عن مكافحة الاستعمار وتبدّدها في انتظار الحلول من لدن الصّوفية والأوليـاء !

ولعلّ انتماء ابن باديس إلى المدرسة السّلفية لم يحكم عليه بالانغلاق داخل سياجها والاكتفاء فقط بالدّعوة إلى إحياء الماضي لتحقيق الإصلاح واسترجاع ما كانت عليه الأمّة من تقدّم ورقيّ ومقاطعة الحاضر، فهو دعا إلى ضرب من التوفيق على نحو ما اقترحه قبله خير الدين التونسي (1822 - 1890) منذ القرن التاسع عشر، أي المزاوجة بين الجوانب الإيجابية للماضي من جهة واقتباس وسائل الحضارة الحديثة من الأمم المتقدّمة شرط عدم الذوبان فيها وفقدان الشخصية وركائز الهويّة، فقد خاطب المواطن الجزائري في بعض مقالاته "بالشهاب" واعظا : "...حافظ على مالك فهو قوّام أعمالك، فاسلك كلّ سبيل مشروع لتحصيله وتنميته، واطرق كلّ باب خيري لبذله، حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلاّ بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة

---

15) ابن باديس : حياتـه وآثاره، جمـع ودراسـة عمّار الطالبـي ط، دار الغرب الإسلامي بيروت د.ت ج I ص 339.

لهذا كلّه فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتّعامل، كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدّنك ورقيّك"[16]

ومن أطرف مواقف ابن باديس الإصلاحيّة وعيه بعامل الزّمن ودوره في تقدّم الأمم إن هي أدركت قيمته ودوره في الحياة فعند تفسيره للآية 79 من سورة الإسراء "أقِمِ الصلاةَ لدلوكِ الشّمس إلى غسق الليل" يعلّق بأسلوب تعليمي : "في ربط الصّلاة بالأوقات تعليم لنا لربط أمورنا بالأوقات ونجعل لكلّ عمل وقته، فللنّوم وقته، وللأكل وقته، للراحة وقتها، ولكلّ شيء وقته وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته وتطرد أعماله ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال..."[17]

ومثل هذا الوعي ينسجم عموما مع رأيه في ضرورة الإعداد للنهضات الإصلاحيّة فهي لن تقوم على الفوضى أو الارتجال بقدر ما تحتاج إلى الفكر والتّخطيط والتنظيم والدقة، لكن عند تحديد أدواء المجتمع الإسلامي وحاجته الماسّة إلى العلاج أو الإصلاح يكتفي بدواء واحد هو القرآن، فقياسا على مجتمع الدّعوة ومرحلة الخلافة الراشدة وهو مجتمع تكوّن في أحضان القرآن فكان "سليم العقل والضمير والوجدان قويّ الجسم والخلق والإرادة " ينبغي في رأي ابن باديس الرجوع إلى القرآن لإنقاذ المجتمع من كلّ ما يعانيه فضلا عمّا يوفّره من وازع نفسي لمقاومة أعداء الإسلام الذين اغتصبوا أرضه : "لا نجاة لنا من هذا التّيه إلاّ بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه "[18]

وإذا كان القرآن وسيلة جوهرية لعلاج العقيدة والأخلاق وهما متلازمان في جلّ مواقف ابن باديس ومؤدّيان إلى علاج باطن المسلم فينعكس ذلك على سلوكه في الحياة العملية فإنّ مجهودات الفرد لتحقيق نهضة المجتمع الإسلامي الشاملة تبقى ضئيلة وعليه فلا بدّ من تنظيم يوحّد المسلمين في شكل حركة أو جمعيّة، تتّفق أهدافها وطرق عملها.

وقد أسّس ابن باديس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 وكان له دور هام في التصدّي للبدع ونشر التعليم العربي ومقاومة الاتجاهات السياسيّة المنحرفة كالفرنسة والتّجنيس والإندماج، وتقوية العاطفة الدينيّة في نفوس الجزائريين بما ساهم في دعم حركة التّحرر الوطني والثورة على الاستعمار.

---

16) ن م ج III ص 178.
17) ن م ج I ص 312.
18) ن م ج I ص 410.

وعبّرت جمعيّة العلماء هذه بواسطة رئيسها عن رؤية إسلامية شاملة للأوضاع ولطريقة إصلاحها، ففي سياق التصدّي للبدع والضلالات وجّه بيانا إلى علماء الزيتونة في جريدة "البصائر" سنة 1936 يستنكر فيه صمتهم عن مقاومة البدع بعد أن تحرّك علماء الأزهر وعلماء طرابلس الغرب وطالبوا بوجوب إلغاء ممارسات أصحاب الطرق وشعوذتهم وتوجيه علماء المغرب نداءً إلى ملكهم يدعو إلى منع بدع الطوائف كالعيسوية، فهو يسائلهم مستنكرا "فأين أنتم أيّها الشيوخ، وأين إيمانكم ؟ لقد سئلتم عن رفض الشريعة الإسلاميّة بسبب التجنّس ذلك الرفض المخرج عن الإسلام فسكتم، وقال الناس إنّكم خفتم على مناصبكم، وها أنتم أولاء تسألون اليوم عن البدع والمنكرات الفاشية في المسلمين باسم الدّين، تنكر البدع التي أماتت ضمائرهم وخدّرت عقولهم وجمّدت أفكارهم وأفسدت أخلاقهم وأضاعت أموالهم، وسلبتهم حقيقة دينهم، وتركتهم بلاءً على أنفسهم، وفتنة لغيرهم، فهل أنتم اليوم أيضا ساكتون، وبالتّخويف على مناصبكم معتذرون ؟ "[19]

والأصل أنّ هذا البيان على علاقة وثيقة بردود على فتوى أصدرها شيخ الإسلام المالكي في تونس محمد الطاهر ابن عاشور حول قراءة القرآن على الميت بجريدة "الزّهرة" سنة 1936، وهي ردود قام بها عبد الحميد بن باديس على امتداد أسابيع بجريدة "البصائر" الناطقة بلسان جمعية العلماء، خالف فيها أستاذه ابن عاشور وعكست وجها من وجوه الحوار داخل المدرسة السلفيّة وشدّة الحماس للدفاع عن مبادئ الدّين واعتباره الوسيلة المثلى لأي إصلاح [20]. فدور العلماء في تحقيق الإصلاح جوهري ومسؤوليتهم جسيمة في نظر ابن باديس " إنّ مسؤولية العلماء عند الله فيما أصاب المسلمين في دينهم لعظيمة، وإنّ حسابهم على ذلك لشديد طويل، ذلك بما كتموا من دين الله، وبما خافوا في نصرة الحقّ سواه، وبما حافظوا على منزلتهم عند العامّة وسادة العامّة، ولم يحافظوا على درجاتهم عنده... [21].

كان تجديد التفكير الديني بإحياء العقيدة وإعادة الدّور الفاعل للاجتهاد من أهمّ ما اعتنى بدرسه والدّعوة إليه علال الفاسي أيضا (ت 1974)، أحد علماء الطبقة الأولى بجامعة القرويين فهو يقرّر في كتابه "النّقد الذاتي" منذ سنة 1949 أنّ ما من أمّة سرى فيها الإتحاد وتهاونت بالدّين "إلاّ رجعت القهقرى وآلت بعد

19) ن م ج III ص 117.

20) انظر صدى الجدل في ن م ج III ص ص 73 – 114.

21) ن م و ج ص 115.

عزّتها ومجدها إلى الانحلال وما حافظت في شؤونها على مراعاة المثل الأعلى الإلهي إلاّ احتفظت بحياتها وفخرها ومكانتها "[22]

والفاسي يؤكّد أنّ جوهر الفكر الإسلامي هو الثورة على المجتمع الفاسد وتحرير العقل من سيطرة أيّ طغيان ولذلك ينبغي التعامل مع هذا الفكر تعاملا وظيفيّا واتخاذه وسيلة لإصلاح واقع المسلمين المتردّي ولا تقتصر نظرته على المسلمين بل هي للناس كافة ، تنطلق من الإسلام إلى كافة الإنسانيّة قياسا على دعوة الإسلام في بدايته، فعمل المسلمين جزء من "الكفاح البشري المتواصل لنصر الحرية ومقاومة الاستعباد "[23] بل يتجاوز الألوان والأصول والاتجاهات ويتعلّق فقط بالعقيدة "عقيدة الفطرة الصّحيحة وعقيدة الفكر الحرّ والنّظر المستقلّ والتآخي البشري ونصر العدل والكفاح ضدّ الطغيان، ولو لم يدخلوا في الإسلام ولم يعترفوا به كدين سماوي منزّل" [24]. ويخرج الفاسي بهذا الموقف عن ضيق أفق المتزمتين ويبدي تحرّرا فكريّا تطغى على خطابه المقولات الفلسفية والسياسية فالهدف هو الدّفاع عن حرية الفكر وتحقيق العدل والاستقلال مطلقا، ولا يغيب عنا أيضا تأثّر هذا المصلح بتجربته السياسية في هذا السّياق فهو مارس السياسة عندما أسس حزب الاستقلال ونظّر لها وقد كان على وعي بموقع المسلمين عامّة من الحضارة وتردّي منزلتهم في العصر الحديث، فانطلاقا من تراث المسلمين يمكنهم بلوغ العصر، عصر الانبعاث الحقيقي وبما أنّه كان على وعي بأنّ "الزمان قد استدار دورته" والإنسانية لا تعرف الانتظار والتريّث فقد دعا المسلمين إلى إعادة قراءة فكرهم وتجديده لتحقيق النهضة المرتقبة ومزاوجة ذلك بما حققه العصر من إنجازات، أي أنّ أيّ إصلاح لا يكون مجديا إن هو اقتصر على إحياء التّراث دون الالتفات إلى الواقع الجديد، ودون أن يحدّد صيغة الاقتباس أو المزاوجة فإنّه ينبّه إلى ضرورة تجديد "آلة السّير ونتّخذ من وسائل العصر ما يقينا من الوقوع في تلك الآفات الاجتماعية مرّة أخرى"[25] خاصّة وأنّ الفكر الإسلامي يعني بالنسبة إليه "الانتباه والحذر والحركة الذاتية والتّجديد المستمرّ في الأسلوب وخصوصا في الآلة النفسية ..." والإشارة إلى تجديد الآلة وتطوير الفهم توحي ضمنيّا برفضه لكلّ أشكال الجمود والخمول وتوحي بضرورة الثورة عليهما لتحقيق معاني العدل والحريّة.

ثمّ إنّ من أسباب انحطاط المسلمين وتقهقرهم في نظره غلق باب الاجتهاد واعتبار المتزمّتين من يجتهد فاسقا، مارقا، سالكا سبيل غير المؤمنين ! لكن هذه

---

22) النقد الذاتي، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، القاهرة، بغداد ، 1966 ص 114.

23) ن م ص 123.

24) ن م ص 124.

25) ن م ص 129.

النظرة بدأت تتغيّر عندما انتبه بعض العلماء إلى ضرورة النّظر والاجتهاد وإعادة الاعتبار للشرع "وللنّظر والعلم الصحيح مكانتهما".

إنّ "النقد الذاتي" يرتكز على أنّ مشكل المجتمع المغربي والأمّة الإسلاميّة عموما ذو طبيعة دينية بالأساس والحلّ يتمثّل في بعث ديني جديد، فضرورة الضرورات المحافظة على الدّين من الخطر المحدق به ويكون العمل السّياسي وسيلة لتحقيق هذه الغاية.

وهكذا نفهم إصراره على بعث العقيدة الدينية النّقية الموروثة عن السّلف الصّالح وتدارك الفجوة التي أحدثتها عصور الانحطاط وتخليص الدّين ممّا علق به من شوائب وجمود وما طغى عليه من تأويلات وتحريفات وهو في هذا السّياق يتّفق تقريبا مع مقولات الحركة الوهابيّة لكنّه يتجاوزها في الحرص على إيقاظ الوعي ونشر التجديد الفكري وتطويره على مختلف المستويات في إطار مبادئ الدّين، خاصّة أنّ الدّين الإسلامي شامل في نظره من حيث المبادئ والمناهج والأهداف لمجموع القضايا والحاجيات المعاصرة في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ولا حاجة لنا إذن بالأخذ عن الغرب إلاّ إذا كان ذلك على سبيل الانتقاء أي الاقتباس الوظيفي "نحن نعتقد أنّ الإسلام ومعه الوطنيّة، يستطيع أن يمزج كلّ ما في الفلسفات والنظريات الغربية من حياة وحركة، ويتعدّاها بما هو خالد أبديّ" ويعني الإيمان، ولا يخلو هذا الرأي من مبالغة مبرّرها الموقف الذاتي الروحي المتعالي على حقائق الواقع وحقائق التاريخ والهادف إلى خلق الثّقة بالذات والإيمان بأنّ المستقبل للإسلام وللمسلمين.

لقد اتّفق مفكّرو الإصلاح بالمغرب العربي على تردّي واقع المسلمين وتقهقر منزلتهم الحضارية بسبب تفريطهم في دينهم ولا سبيل إلى النهضة والرقي إلاّ باستلهام قيم الإسلام ومثله وإعادة الاعتبار للفكر الإسلامي بإحيائه وبثّ الروح في العقيدة وتثبيت أسس الإيمان القويّ ليتصدّى المسلمون بواسطته إلى كلّ حملات الغزو والاستعمار والاستلاب الثقافي، فالإسلام هو الحلّ" و"المستقبل لهذا الدّين"، دون الانغلاق الكلّي على الذّات فالالتفات إلى العصر ضروري والاستفادة من الغرب ممكنة لكن بشروط وفي حدود تحافظ على الشخصية الإسلامية وتمنعها من الذّوبان في الآخر، فيكون الاقتباس أو الاستلهام مدروسا وفي إطار شمولية المبادئ الإنسانية العامّة الهادفة إلى تحقيق الحريّة والعدل والتآخي... وعلى هذا الأساس فإنّ فكر مصلحي المغرب العربي بشأن تحقيق النهضة وإصلاح الأوضاع الفاسدة، لا يكاد يخرج عن دائرة الحركة الإصلاحيّة

التجديدية التي بدأت في الشرق منذ القرن التّاسع عشر، فلا إصلاح إذا لم تصلح العقيدة ولا نهضة للمجتمع إذا لم يبدأ العلاج من الفرد وإعادة الثقة له بدينه وشريعته، ولذلك اتّفق مصلحو المشرق والمغرب على العناية بالإصلاح الدّيني، لأنّه مقدّمة للإصلاح الاجتماعي وأولوا التربية والتعليم اهتماما خاصّا في العناصر الأساسيّة التي تقوم عليها عمليّة تجديد الفكر الإسلامي من ناحية وعمليّة "الإحياء" أو "البعث" أو "النهضة" لتجاوز الجمود ومواكبة العصر والالتحاق بركب الحضارة العالمي من ناحية أخرى.

ب- التربيـة والتعليـم :

لم يختلف مفكرو الإصلاح بالمغرب العربي في منابع التربية وأصول التعليم أو نوعيّته، إذ اتفقوا على العموم في أنّ التربية ينبغي أن تكون إسلاميّة، هدفها إنقاذ مجتمعاتهم ممّا هي فيه وإنشاء إنسان جديد سليم من كلّ العيوب الأخلاقية، ويكون التعليم ضمن هذا التصوّر أشدّ الوسائل نجاعة لبثّ مثل هذه التربية المأمولة وتنفيذها في أوساط المجتمع، لكن درجة اهتمامهم بهذا المحور تفاوتت من مفكّر إلى آخر بحكم شواغل كلّ منهم وقضايا لحظته التاريخية في كلّ قطر بالذّات.

فمحمّد الطّاهر ابن عاشور يضمّن تفسيره "التحرير والتنوير" أو تحليله لمقاصد الشريعة الإسلامية مواقف تربوية يدعو فيها من زاوية الدّين إلى إصلاح المجتمع معبّرا عن وعيه بما تفشّى في عصره من أمراض أخلاقية يطالب بضرورة التصدّي لها بالعلاج، فمن وسائل حفظ العقل عنده كما ورد في المقاصد أنه "يجب منع الشخص من السّكر ومنع الأمّة من تفشّي السّكر بين أفرادها وكذلك تفشّي المفسدات مثل الحشيشة والأفيون والمورفين والكوكايين والهروين وغيرها، ممّا كثر تناوله في القرن الرابع عشر الهجري"[26]. وينبّه في نفس السياق الإصلاحي إلى ظاهرة الإجهاض والانقطاع عن الحمل إراديا، وكانت مستحدثة في المجتمع التونسي باعتبارها من نتائج الاحتكاك بالثقافة الفرنسية الدخيلة.

وإذا كان ابن عاشورلم يخصص مؤلفا للتربية بحكم انشغاله بالفقه والتفسير والأدب وظلت ملاحظاته التربوية مبثوثة في تضاعيف تآليفه فإنّه خصّ إصلاح التعليم بكتاب جعل عنوانه "أليس الصبح بقريب ؟ "ممّا يوحي بالتفاؤل، عبّر فيه عن أفكاره الإصلاحية في التعليم الزيتوني منذ سنة 1910 ولم ينشر الكتاب بتونس إلاّ في سنة 1967، فقد شهد جامع الزيتونة[27] صعود تيار طلاّبي تجديدي ينادي

---

26) مقاصـد الشريعـة الإسلاميـة ص 80.

27) العياشـي مختـار : البيئة الزيتونية 1910-1945 ,مساهمة في تاريخ الجامعة الاسلامية التونسية دار التركي للنشر تونس 1990 ص 27.

بجملة من الإصلاحات تصدّت لها نزعة محافظة من قبل أغلب الشيوخ وتطوّرت الأحداث إلى حدّ الإضراب سنة 1910 ولم يستقرّ الأمر إلاّ سنة 1912 تاريخ أوّل إصلاح بعد إصلاح لجنة سنة 1897 المعارضة لمشروع "ماشويل" (28). وقد عيّن محمد الطاهر ابن عاشور نائبا عن الدولة في لجنة 1912 لكنه أعفي من مهامه مباشرة بعد انتهاء اجتماعات هذه اللجنة بسبب مواقفه الإصلاحية التي اعتبرها بعض المشائخ خارجة عن أفكار أهل السنّة.

إنّ ابن عاشور قد تسلّح بنزعة نقدية كشف بواسطتها مواطن الضّعف في التعليم الزيتوني وأسباب عجزه عن مسايرة التطور، فمن عيوب هذا التعليم : الفوضى المستشرية في نظامه حيث لا تحديد لساعات العمل ولا ضبط لكتب مدرسيّة مقرّرة ولا تفريق بين مراتب الدّراسة ولا حزم في عدد الدروس المطلوب حضورها. فالتعليم خاضع للمشيئة الفردية ولرغبة المدرّس ولعلّ السبب في ذلك غياب المكافأة الحافزة والأجر المحترم فيفتر عزم المدرّس وتنعكس سلبيته على مستوى البذل والاجتهاد في التدريس ويمسّ ذلك جمهور الطلبة.

ومن النقائص التي نقدها ولها علاقة بما تقدّم طريقة انتداب المدرّسين أو تعيينهم فالطريقة المعمول بها تقتضي التّسوية من حيث العدد بين المدرّسين المالكيين والمدرّسين الحنفيين تعظيما للمذهبين، والتمسّك بالجانب العددي وبالتّسوية يقصي بعض المتميّزين لتجاوزهم النّصاب المطلوب فيكون التعليم أبرز متضرّر.

ومن حيث محتوى الدّراسة فضعفه يبدأ من عدم مسايرة التأليف لتطوّر العصر والاكتفاء بالتقليد والترديد دون اجتهاد أو تجديد وهو ما يسمح للجمود بالثبات والدّوام، فإذا التّعليم بالزيتونة كما يرى ابن عاشور مفكّك الأجهزة، متقادم المضامين لتقادم التآليف وهو تعليم عقيم يحول دون تهذيب اللسان وتوسيع اللغة التي تقتضيها حاجات المدنيّة، وقد كانت صورة التّعليم الحديثة على نمط المدرسة الصادقية ماثلة في ذهنه، وهو يشدّد النقد للجامع بكامل الجرأة، فغيرته على مؤسّسة الجامع الأعظم دفعته إلى مثل هذا النّقد المتحمّس الذي أثار حفيظة بعض المشايخ واعتبروا البعض من مواقفه مخالفا للسّنة!

لكنه بعد النقد عرض البديل المقترح من خلال أربعة شروط :

1- جعل التعليم إلزاميا، 2- ضبط أوقات التدريس، 3- ضبط محلّ العمل، 4- تأهيل التلاميذ على العلوم والدّروس مثلما هو سائر في المدرسة الحديثة، ومن

---

28) سليمان محمد، مشروع التعليم عند لويس ماشويل (1883 – 1906) : دراسة نقدية، شهادة الدراسات المعمّقة بإشراف كمال عمران، 2003 – 2004.

ناحية مضمون المادّة التعليمية نرى إلحاحه على تلقين الناشئة العلوم، وقد أفاض في بيان فضلها من جهة صقل المواهب وترقية الأفكار وتنقسم هذه العلوم إلى دينيّة كالتّفسير والحديث والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام، ولغويّة مدار البحث فيها عن أسلوب التكلم ومادّته إلى جانب النّحو والصرف والبلاغة والإنشاء، ودنيويّة كالفسلفة والتاريخ والعلوم الرياضية والطبيعيّة.

وقد كانت صورة خرّيج الزّيتونة من أطرف ما توصّل إليه ابن عاشور في نظرته الإصلاحية إلى التعليم وهو ما يحدّد هدف التعليم وغايته بعد أن كان مطلق الغاية، فمن علامات الخرّيج أن يكون مستعدّا للتدريس والإفتاء والإشهاد (العدل). وبذلك نلاحظ أنّ ما طالب به ابن عاشور من إصلاح للتعليم الزّيتوني يتداخل فيه البعد الديني بالبعد الدنيوي الوظيفي، فنظام التّعليم وخضوعه لأهداف مركّزة كفيل بتخريج إطارات ممتازة تحتلّ مناصب التدريس والإفتاء، ثمّ إنّ مشروعه الإصلاحي لنظام التعليم بمؤسّسة الزيتونة يندرج ضمن الإصلاح الاجتماعي الشامل على أساس ديني تأصيلي لا يتعارض مع التطوّر والإفادة من منجزات العصر، فيكون بذلك منسجما مع مشروع محمد عبده الذي زار تونس في مناسبتين 1884 – 1903 وكان له تأثير مباشر(29) في تصوّرات النخبة التونسيّة والمغربية عموما لإصلاح الفرد المسلم من خلال إصلاح التعليم خاصّة. غير أنّ دعوة ابن عاشور الإصلاحيّة في حقل التّعليم تظلّ ذات بعد قطري مقترن بلحظته التاريخية إذ اقتصرت نظرته على مؤسّسة الجامع الأعظم وكانت وليدة ما شهده الظرف من اضطرابات وصراع بين نزعتين تجديدية ومحافظة داخل نفس المؤسّسة ولم ترق تصوّراته الإصلاحيّة إلى ما بلغته مواقف محمد عبده فضلا عن الطهطاوي قبلهما من شمولية وبعد إسلاميّ عام.

أما عبد الحميد بن باديس فقد ترك مقالات عدّة في التربية والتعليم منطلقها إصلاح الجزائري المسلم، وأبعادها تستهدف المسلم على وجه العموم فقد تركّزت التربية عنده على محورين أساسيين :

1- الدين الإسلامي بما يتضمّنه من إرث روحي وثقافي وحضاري وأخلاقي.
2- واقع المجتمع الجزائري، العربي المسلم بما فيه من مشاكل وأمراض وتخلّف.

وفي هذا الإطار تتنزّل حملته على أباطيل الطرقية وبدعها وتكريسها الجهل بالدّين النّقي تحت ستار الكرامات والأولياء والمزارات... فالتربية

29) حوليات الجامعة التونسيّة، العدد 3، 1966 ص 7.

الصحيحة هي المؤسسة على العقيدة الخالصة من البدع والضلالات والمعتمدة على الأخلاق الإسلاميّة وبذلك تتحقق نهضة المجتمع الجزائري بل المجتمع الإسلامي عموما. ولا تختلف جهوده في تطهير العقيدة عن جهود من تقدّمه من المصلحين، من محمد بن عبد الوهاب إلى جيل الأفغاني ومحمّد عبده ومحمّد رشيد رضا. وليس من سبيل إلى تطهير العقيدة غير التربية والتعليم من ناحية والإصلاح الديني والاجتماعي من ناحية أخرى ذلك أنّ المدرسة هي المخبر الذي يصنع عقول الأجيال ومنه يتخرّج القادة والمدرّسون والمفكّرون الذين تقوم على كاهلهم عمليّة التغيير الثقافي والحضاري في المجتمع، فابن باديس يقرّ بضرورة النّخبة المثقفة لقيادة سائر الأمّة إلى الأفضل.

ولعلّ من أطرف ما نبّه إليه ابن باديس تلازم النظرية والتطبيق في التعليم، فلا قيمة لمطلق النظريات إذا لم تتحوّل إلى إنجاز على أرض الواقع، والتعليم النظري يظلّ ترفا فكريا لا نفع يُرجى من ورائه فينبغي لكلّ متخرّج أن يلقن حرفة من الحرف اليدوية يكسب بها قوت يومه فلا يكون عالة على المجتمع. لكنّ كل إصلاح يظلّ كالعادة مرتبطا عنده بالفرد وإصلاح ذاته أوّلا حتى يكون قدوة لغيره.

لقد ركّز ابن باديس في ما حرّره من مقالات بمجلّة "الشهاب" أو بجرائد "المنتقد" و"البصائر" و"السّنة" و"الصّراط" و"الشريعة" على استلهام أصول للتربية استمدّها من الإطار العام للتربية الإسلامية من جهة عنايتها بالجانبين الدّيني والأخلاقي في شخصيّة المسلم وحثّه على تحصيل المهارات العمليّة المطلوبة لنجاحه في الحياة ويكون ذلك قطعا بتأديب النّفس وتزكية الرّوح وتثقيف العقل وتقوية الجسم. وقد تجلّى ذلك أيضا في النظام التربوي الذي وضعه لتربية طلبته وتعليمهم بالجامع الأخضر بقسنطينة وفي مدارس جمعية التربية والتعليم التي أنشأها وكان يترأسها وفي مدارس جمعيّة العلماء أيضا.

فهو آمن أنّ طريق النهضة بالجزائر وإنقاذ البلاد من خطر الفرنسة والتّنصير والتجنيس والإدماج يتمثّل في التربية الإسلاميّة فقط، لكن رغم تمسّك الجزائريين بدينهم كما يرى فإنّ ممارسة الدّين لم تسلم من الخرافات والبدع، فإذا هو إسلام محرّف ومدسوس عليه ولذلك فإنّ أوّل عمل يقوم به المصلح، إرجاع الإسلام إلى منابعه الأولى : الكتاب والسنة وعمل السّلف الصالح فيعود كما كان في عهد النبيّ وخلفائه الراشدين؛ وهكذا نفهم أمل ابن باديس في أن يكون للجزائر جيل قرآني في العصر الحديث على غرار الجيل الذي كوّنه القرآن عند ظهور الإسلام، وهذا الجيل الجديد سيكون الرّائد والقائد إلى تحرير الجزائر من الاحتلال وإقامة نهضة شاملة على أساس حضارتها الإسلامية العربيّة. ومثل هذا الموقف نجد صداه يتردّد عند أغلب الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة التي نادت

بضرورة تنشئة جماعة أو جيل على نمط الرجال الذين عاضدوا الدّعوة الإسلاميّة في بداية عهدها وإحياء قيم الإسلام ونشرها في المجتمع، وهو موقف يقيس الحاضر على الماضي أو يسلّط الغائب على الشاهد دون تقدير لفوارق اللحظة التاريخية وخصوصيّة كلّ مرحلة.

وممّا لا شك فيه أن هذا التصوّر للتّربية الإسلاميّة يقيم اعتبارا كبيرا للتربية الأخلاقية فابن باديس يعتقد أنّ التربية الأخلاقيّة يجب أن تقوم على أساس تربية خلق الفرد وضميره وإصلاح عقيدته حتّى يمكن للإصلاح الاجتماعي والتّربوي والدّيني أن ينجح على نطاق الوطن والأمّة بل إنّ القرآن عنده هو أصل الأخلاق. والأخلاق وفق المنهج الإسلامي كما يراها ابن باديس أخلاق شخصيّة متعلّقة بذات الفرد كالاعتدال في الإنفاق والتوسّط بين التبذير والتّقتير فهو في الحالتين يضرّ بنفسه، وأخلاق اجتماعية تتّصل بتنظيم العلاقات بين النّاس كالإحسان والتكافل والاحترام المتبادل وآداب التعامل اليومي (الوفاء بالعهد، اجتناب الكذب...)

أمّا مجالات التربية الأخلاقية فيحدّدها بالمنزل والمدرسة والمجتمع لما يمثّله المنزل من دور في تكوين شخصية الطفل وما يتعرّض له الطفل فيه من عادات وتقاليد وتلقّ للتراث، وفي هذا السياق ندرك مدى عناية ابن باديس بالأسرة ودورها الأخلاقي والتربوي، كما تساهم المدرسة في بناء شخصيّة الطفل وسلوكه العام، ولذلك كانت مؤسّسة ذات وزن خاص أفاض هذا المصلح في تحليله سواء عند التّنظير لبرامج التعليم أو في ما مارسه هو بالذّات مدرّسا أو خطيبا أو مؤسّسا للجمعيات والمدارس، أما المجال الأخير للتربية الأخلاقية أي المجتمع فهو بمؤسساته وأحزابه ومنظّماته وجمعيّاته أوسع يخوض فيه الإنسان تجربة الحياة، فإذا لم يكن مجتمعا منسجما متواضعا على جملة من المبادئ والقيم السامية فإن الانحراف مصيره والتردي مآله.

إنّ أفكار ابن باديس التّربوية على صلة وثيقة بمواقفه النظرية والعملية من التعليم فقد شرع في حركته التربوية قبل الحرب العالمية الأولى أي منذ تخرّجه من جامع الزيتونة بعد حصوله على العالمية وعودته إلى الجزائر سنة 1913 وامتدّت إلى سنة وفاته 1940، فقد حرص وفاء لموقعه السّلفي أن يكون التعليم دينيّا ولغويّا يقوم على دراسة العلوم الشرعية وما له بها من صلة إلى جانب الأدب العربي شعرا ونثرا وفنون اللغة العربية وشيء من التاريخ والجغرافيا والرياضيات، فلم يتجاوز بذلك نوع التعليم السائد في المعاهد الإسلاميّة البارزة كالزيتونة والأزهر والقرويين في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين. والتعليم كان أبرز أسلحة ابن باديس لتدارك ما آلت إليه اللغة العربية من ضعف والدين الإسلامي من انتكاس فإنقاذ الشخصية الجزائرية التي تقوم في نظره على

الإسلام والعروبة وإنقاذ الجزائر لن يكون بغير نشر التعليم العربي الإسلامي الممهّد للنهضة الشاملة.

وانسجم منهج التعليم عنده مع مضمونه لذلك حرص من ناحيته على قيمة علم النّفس في العملية التربوية ومتابعة نموّ المتعلّم في مختلف أطوار التلقي فمن واجب المعلّم معرفة "أساليب التفهيم"، وفهم نفسية المتعلّمين، وحسن التنزل لهم، والأخذ بإفهامهم إلى حيث يريد بهم حسب درجتهم واستعدادهم. لكنّ هذه الدقة تنتفي عندما يقرّر في سياق آخر أنّ التعليم لا يصلح " إلاّ إذا رجعنا به للتعليم النّبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلّم (ص) وفي صورة تعليمه فقد صحّ عنه (ص) فيما رواه مسلم أنّه قال "إنّما بعثت معلّما".

والالتباس في هذا السّياق يظلّ في مستوى دلالة عبارة معلّم فالرسول يشير لا محالة إلى العلم بالدّين وشؤونه ولا يعني التدريس.

لكن الطريف في مواقف هذا المصلح من التعليم وأهدافه أنّه سلك منهجا نقديّا فعرّض بما كان سائدا في عصره من أساليب التعليم بالمعاهد والمؤسسات الإسلامية كالزيتونة والأزهر حيث غلبت المماحكات اللفظية والمبالغة في العناية بالفروع على حساب الأصول والاهتمام المبالغ فيه بتحصيل علوم الوسائل من نحو وصرف وجدل وإغفال علوم المقاصد كالفقه والحديث والتفسير والتهاون بالعلوم الإنسانية، و قد نقد عقم أساليب التعليم بالزيتونة وكان طالبا بها من 1908 إلى 1912 قائلا : "فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك من أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوما منزلة القرآن من تعليم الدّين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية في ذلك"[30] وامتدّ نقد ابن باديس إلى مناهج التدريس بالمغرب الإسلامي عموما واعتبرها مسألة ذات أسباب تاريخية مستدلا بكلام ابن عبد البرّ القرطبي في "جامع بيان العلم وفضله" منذ القرن الخامس الهجري وبنقد ابن العربي في كتابه "العواصم من القواصم" منذ القرن السّادس الهجري لمناهج التّدريس وتفكّكها وخضوع الفقهاء للجمود والتقليد، فانتهى إلى أنّ اقتلاع هذه الظواهر لا يخلو من عسر وأنّ الرجوع "بالتعليم إلى التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالمآخذ والأدلّة أعسر وأعسر".

وإذا كان وضع التعليم بالمغرب الإسلامي متردّيا راهنا وماضيا فإنّ الأمر بالمشرق لا يقلّ عنه تدهورا ويتجلّى ذلك من خلال نقد ابن باديس لمناهج التدريس بالأزهر حيث تنقطع الصّلة بين المدرّس والطّالب فيحصّل الطلبة العلوم والفنون

---

30) ابن باديس حياته وآثاره، مرجع مذكور ج 3 ص 219.

مجرّدة دون اكتساب الروح التي ينفخها المدرّس أو الإمام في تلاميذه فتظلّ شخصيّة الطالب محرومة من التوجه العلمي والرّوحي والأخلاقي وهي وسائل تركيز ذاته في المجتمع ودفعه للقيام بدوره كاملا في الحياة.

لقد جعل ابن باديس إصلاح التعليم ونشره بالجزائر قضيّة وطنية فحرصه على توفير أسباب النجاح لمشروعه التعليمي وسهره المباشر على متابعته جعله يتوجّه سنة 1936 إلى الأمّة المسلمة بنداء تحت عنوان "نداء وبيان إلى الأمّة الجزائرية بالوطن وخارجه وجميع المحبيّن : محبّي الخير للمسلمين" دعا فيه قائلا : "أيّها الشعب المسلم الجزائري الكريم، بالله لن تكون مسلما إلاّ إذا حافظت على الإسلام ولن تحافظ عليه إلاّ إذ فقهته ولن تفقه إلاّ إذا كان فيك من يفقهك فيه، ولهذا فرض الله على كلّ شعب إسلامي أن تنفر منه طائفة لتتفقّه في الدّين وترجع إلى قومها بالإنذار" ويضيف " أيّها الشعب الكريم (...) ندعوك بدعوة الله إلى مزيد من المعونة على هذا العمل الواجب العظيم، ندعوكم لتمدّوا صندوق هؤلاء الطلبة بما استطعتم من خير..."[31].

لم يهمل ابن باديس في مشروع إصلاح التعليم دور المرأة فدعا إلى تعليمها تعليما وظيفيا يتناسب مع مؤهلاتها ومع دورها في الحياة، ولئن تحمّس إلى ضرورة تعليمها فإنّه اشترط أن يكون هذا التعليم هادفا إلى تلقينها المثل الدينية والقومية والأخلاقية" ولا يجعل منها نصف رجل ولا نصف امرأة" كما يرى ثمّ إنّ المرأة بدينها ولغتها وقوميّتها.

وما حرصه على تعليم المرأة أيضا إلاّ للتصدّي للمشروع الاستعماري الذي أصبح يعتني بتعليم البنات حتّى يصبحن عامل تخريب اجتماعي مباشر. وقد كانت لجمعيّة العلماء المسلمين بالجزائر طريقتها في نشر التعليم والقيام بتربية الشباب والتصدّي لنزعة الإلحاد عند بعضهم بأسلوب نظامي تحت رئاسة عبد الحميد بن باديس فهي الوجه العملي لما نادى به من إصلاح وتغيير في مختلف كتاباته ودروسه.

وأما كتاب "النقد الذاتي" لعلال الفاسي فاشتمل على فصول عدّة عمّق فيها النّظر في التربية والتعليم باعتبارهما من أسس الإصلاح بالمغرب وبالعالم الإسلامي عموما فتساءل عن أغراض التّربية وتبسّط في تحليلها : "يجب أن نتساءل عن أغراض التربية هل هي كسب الرّزق ؟ هل هي التعليم والتهذيب ؟ أو هي العلم لذاته ؟ أو هي الأخلاق ؟ وهل هي راجعة لمصلحة الفرد وحده أو للجماعة وحدها ؟ "[32]. وينفي الفاسي عن التعليم أيّة قيمة إذا لم يكن مصحوبا

---

31) ن م و ج ص 230.

32) النقد الذاتـي، ص 324.

بالعقيدة وإذا كان تحصيله لغايات ماديّة عاجلة كالوظيف والرّبح السّريع ضمن حقّ الشباب في التفكير في ضمان مستقبلهم "ولكن لا ينبغي أن يملك على الشباب كلّ تفكيرهم، بل عليهم أن يثقوا بأنّ العلم المصحوب بالعقيدة والخلق المتين خير ضمان لكلّ ما سعى إليه الإنسان"[33].

فالأخلاق تشغل حيّزا مركزيا في فكر الفاسي التّربوي وهو لا يختلف بذلك عن غيره من المصلحين "والحقّ أنّ تنمية الخلق الطيّب في نفوس النّاس يجب أن تكون بمثابة السّلك النّاظم الذي تنتظم فيه كلّ الأغراض (...) لتنسيق عقد التربية الصّحيح ومقياسها السّليم النافع" [34].

لكن الجديد عند هذا المصلح لفته النّظر إلى الجانب الصحّي ودور الرياضة في تنمية التربية، فمن واجب المعلّمين عنده أن يلقّنوا تلاميذهم مبادئ حفظ الصحّة وتطبيقها.

ولا يستثني الفاسي في دعوته إلى التعليم من أجل دفع الأمية طرفا في الأمّة فينبغي أن يشمل التعليم الذكور والإناث والفقراء والأغنياء وتكون المدرسة كفيلة بتعليمهم القراءة والكتابة والحساب مبدئيا ويضاف إلى ذلك البعد التطبيقي الوظيفي فيمكن "تعليم الصغار بعض المهن التي يتوقفون عليها في معاشهم مضافة إلى البرنامج الدّراسي بحسب الإقليم الذي يوجد فيه التلاميذ، فأبناء الزّراع تضاف لهم حصص في الزراعة تتّفق مع طبيعة إقليمهم، وأبناء الصّناع كذلك تضاف لهم معلومات أوّلية تسهّل عليهم تعاطي إحدى الصناعات الموجودة في بلدهم متى أرادوا وهكذا" [35]. لكنّ هذا حلّ لا يخلو من مثالية لعسر تطبيقه وفق هذا التصور أوّلا ولتقيّده بنزعة وراثة نفس الحرفة أو الصّنعة ثانيا، فماذا لو اختار ابن الفلاّح توجّها آخر غير توجّه أبيه في الحياة ؟

وإذا سلّمنا بترسّم الفاسي خطى غيره من المصلحين في أنّ هدف التعليم الأكبر هو الأدب والخلق والسّلوك فإنّ دعوته إلى ضرب آخر من التّربية تبدو طريفة لجمعها بين المنزع الأخلاقي والمنزع السّياسي إذ يجب تربية خلق المواطنة في نفوس التلاميذ بتدريبهم على حبّ وطنهم والإخلاص له والعمل من أجله وتحمّل المسؤوليات في سبيله".

ومن وسائل تحقيق ذلك "دراسة تاريخ الوطن وأماني الأمّة والتغني جماعة بالأناشيد القومية والاجتماعية وغير ذلك من أساليب الغرس المنتج"[36].

---

33) ن م ص 344.
34) ن م ص 345.
35) ن م ص 346.
36) ن م و ص

إنّ تنوّع المدارس وبرامجها بالمغرب : مدارس فرنسية عربية لأبناء المسلمين أو لبناتهم ومدارس إسرائيلية لليهود المغاربة ومدارس فرنسية بربرية ومدارس فرنسية للفرنسيين ذكورا وإناثا ومدارس بدويّة ومدارس حضرية ومدارس أصلية لم يُثر حيرة الفاسي بقدر ما جعله ينشغل بمشكل لغة التّعليم، فاللغة العربيّة " ليست لغة تعليم كامل إلاّ في المدارس الأصليّة وهي المدارس القرآنية المتطوّرة والمتخرّج من هذه المدارس لا يجد أمامه تعليما ثانويا "ليحصل بلغته القومية على ما يحصل عليه غيره بلغة أجنبيّة"[37]. فالعلوم لا تدرّس إلاّ باللغة الأجنبيّة، ولا يخفى أن تعدّد لغات التعليم في الوطن الواحد "يضرّ أضرارا فاحشة بتكوين الأبناء ومستقبل الثقافة في الوطن "فقد كان التعليم بالمغرب بالفرنسية أو بالإسبانية بحسب اختلاف المناطق ولذلك نجده يدعو إلى توحيد لغة التعليم بالمغرب ويختار العربية لأنها إحدى مقوّمات الأمّة الأساسية ومميّزاتها، هذا دون مقاطعة سائر اللغات الأجنبية التي تفتح لنا آفاق الاتصال بالعالم الغربي الذي نتطلّع إلى الاقتباس من تجاربه وفلسفاته" عندئذ يعود الوضع سويّا إذ لا توجد "أمّه على وجه الأرض تضحّي بلغتها التي هي عنوان وجودها وتنتحل لغة أخرى ولو بلغت من الحيويّة ومن السموّ ، إلاّ إذا كان ذلك عن طريق القوّة والاضطهاد غير المقبولين"[38]. فعلال الفاسي أثار بهذه المواقف قضيّة التّعريب بصورة مبكّرة مقارنة بغيره من مفكّري الإصلاح الذين اهتمّوا بالعامل الديني قبل العامل اللغوي، ولعلّه لم يبرز لهم في بعده الإشكالي بعد : "إنّ أهمّ خطوة في سبيل إصلاح التعليم هو جعله بلغة واحدة هي لغة البلاد. ذلك هو الهدف القومي الذي يجب أن يسعى له الجميع".

غير أنّ تركيز الفاسي على التّعريب وانكبابه على علاج مشكل لغة التعليم لم يصرفه عن دينية التعليم - إن لم يكن هناك اقتران بين اللغة والدّين في رؤيته - فبعد تحليل وضع الدّين وتدريسه في المغرب سواء بفرنسا أو بأنقلترا ومناقشة مفهوم حياديّة البرامج وتعليل ذلك بأسباب تهمّ تاريخ الكنيسة ولا علاقة لها بالإسلام يقرّر أنّه إذا كان للدّولة دين رسمي فعليها "أن تهتمّ بشأن تعليمه والعناية به وحمايته من كلّ اعتداء مهما كان مصدره، دون أن تفرّط في حقّ الأقلّيات الأخرى أو تحرمها من نفس العناية وعين الرعاية "[39]، بل يذهب إلى أنّ تعليم الدين واجب وجوب اللغة والتاريخ والحساب...

---

37) ن م ص 349.

38) ن م ص 351.

39) ن م ص 357.

فالفاسي يؤكّد أنّ الحياد المدرسي "قضيّة خرافة" ولابدّ للتلميذ بالمغرب من ثقافة دينية ومن وقت كاف للتعليم الدّيني، دون إكراه غير المسلمين على تعلّم الإسلام لكنّه يوظّف الإسلام في خدمة الوطنية "فإنّ الإسلام لا يزيدنا إلاّ تثبيتا في الأصول التحريرية والمبادئ الاجتماعية التي من شأنها أن تنشر العدل وتشعر الفرد بالمسؤولية أمام الجماعة وواجبه في خدمتها "[40]

ومن الأوضاع التعليمية التي تصدّى لها علال الفاسي بالنّقد ودعا إلى ضرورة إصلاحها ما في التعليم من امتيازات واقتصاره على طبقات دون أخرى إذ "يقوم نظام التّعليم الحالي بالمغرب على أساس اعتبار المكان المدرسي منحة للأبناء يحرم منها أولاد الشعب وأبناء الفقراء ويتمتّع بها أبناء الأعيان وبعض من يساعدهم الحظّ من ذوي الوسائط والحيثيّات"[41]. ولتدارك مثل هذا الحيف دعا إلى إجبارية التّعليم، فلكلّ مواطن الحقّ في أن يتعلّم وعلى الدّولة أن "تضمن له وسائل الحصول على ما يجب عليه من علم"[42].

ويشتدّ حماس الفاسي لقضيّة التعليم فيعتبرها "قضيّة حياة أو موت لأنّ كلّ ما نريده للأمّة من رفاهية وأمن وحريّة لا يمكن أن يتمّ إلاّ إذا أعدته لنفسها بنفسها" ويقترح في مشروعه الإصلاحي الخطوط الكبرى لمضمون برامج التّعليم ومنهجه مركّزا التحليل على اللغة العربية والتربية الوطنية وهي المادّة المفقودة في برامج التّعليم آنذاك مستندا إلى تقارير أهل الاختصاص العرب. وفي ما يتعلّق بمادّة التاريخ فإنّه يعلّق على توصيات المؤتمر الثقافي الأوّل للجامعة العربية وقد أشارت إلى ضرورة أن يتعلّم تلميذ المرحلة الابتدائية تاريخ قطره أوّلا مع العناية بدراسة الصّلات بين قطره وسائر البلاد العربيّة قبل الإسلام وبعده إلى سقوط بغداد، بأنّ المؤتمر "تناسى ضرورة دراسة تاريخ المغرب العربي قبل الإسلام وبعده إلى سقوط الأندلس ثمّ دراسة عصر النّهضة مع العناية بالروابط الثّقافية والتاريخية المتعدّدة التي كانت بين مختلف أنحاء العالم العربي من جهة والعالم الخارجي من جهة أخرى"[43].

ونظرا إلى تعدّد أنماط المدارس بالمغرب فإنّ المناهج لم تكن منسجمة الأمر الذي جعل الفاسي يطالب بتوحيدها في منهج واحد لكنّه يوضّح أنّه يقصد الوحدة في الهدف وليس التوحيد في كلّ المواد الدراسية أي التوحيد "في أصول

40) ن م ص 358.
41) ن م ص 359.
42) ن م ص 362.
43) ن م ص 368.

التربية والتعليم الضرورية للخميرة العامّة للمعرفة"[44]. وإذ ينقد النمط الفرنسي منذ عهد نابوليون فإنّه لا يرى مانعا من اقتباس شيء من مناهج التعليم "في الديمقراطيات الشعبية وهي متّفقة إلى حدّ بعيد مع الأسلوب الأمريكي وهكذا يمكننا أن نحقق فكرتنا في إجبارية التعليم الابتدائي والثانوي" فهو يقترح تقسيما لمراحل التعليم يبدأ بروضة الأطفال إلى حدود السّابعة من العمر حيث يلتحق التلميذ بالابتدائي يقضّي فيه أربع سنوات وبعدها ثلاث سنوات في المرحلة المتوسّطة ليرتقي إلى الثانوية ويتخرّج منها بعد ثلاث سنوات وقد "حصل على الشهادة الثانوية فينصرف إلى حيث ينجح من نواحي التخصّص أو يقبل على حياة عملية حرّة "[45].

وتتكفّل الدولة في ظلّ هذا التصوّر بتكوين عدّة "جامعات وكليات دينية وأدبيّة وعلمية وزراعيّة ومهنيّة، حيث يجد كلّ واحد من هؤلاء الحاصلين على ثانوية المدارس القومية الموحّدة مراكز للتخصّص الكامل الذي تقتضيه حاجة البلاد الروحية والماديّة والفنيّة".

ولم يهمل الفاسي ضمن مشروع إصلاح التعليم، "التعليم المهني" لأنّه ضروري للأمّة والبلاد بحاجة إلى بنّائين وحدّادين وفلاّحين حاجتها إلى أطباء ومحامين وأدباء، ويقترح توجيه التلاميذ إليها بحسب كفاءاتهم ومواهبهم ولا دخل لحالتهم الاجتماعية في التّوجيه "فلا ندع الطبّ والمحاماة مثلا لأبناء الأغنياء والأعيان، والحدادة والنّجارة ونحوهما لأولاد الفقراء مثلما هو واقع الآن"[46].

وممّا كان فيه الفاسي سبّاقا لغيره من مفكري الإصلاح بالمغرب العربي في مسألة التّعليم ما نبّه إليه من إمكانية "تعليم الكهول" ورفع الأمية عنهم "لأنّ السن لا ينبغي أن تكون حاجزة دون المعرفة"[47] والاهتمام بتعليم الكبار لا يقلّ قيمة عن تعليم الصغار وتعليم الكهول يتّجه إلى تعليم الأميين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة وتعليم غيرهم من أنصاف الأميين أي الذين لم يستكملوا دراستهم الابتدائية أو الثانوية أو العالية" وقد اقترح برنامجا تعليميا لكلّ من الصنفين وتجاوز الدعوة إلى التطبيق من خلال إنجازات حزب الاستقلال الذي كان يرأسه بعد أن قام الحزب الوطني منذ سنة 1936 بحملة في الغرض لم تثمر نتائج مشجّعة، وينتقد بالمناسبة الحكومة "ولو أن لنا مثل ما لغيرنا حكومة حرّة لكان

---

44) ن م ص 372..
45) ن م ص 373.
46) ن م ص 380.
47) ن م ص 385.

النجاح أكبر، والفوائد أكثر تحقيقا؛ فمكافحة الأمية ليست بالأمر السّهل الذي يقوى عليه بصفة منظّمة مجهود الحركات وحدها [48]".

* * * *

كان للتربية والتعليم في الفكر الإصلاحي بالمغرب العربي المكانة البارزة، فقد أجمع المفكرون على أنّ التربية الإسلامية هي الحلّ لانتشال المسلم ممّا تردّى فيه من أوضاع بائسة وأنّ استعادة الأخلاق الدينية واستلهام المثل الإسلاميّة على نحو ما كانت عليه في المرحلة الرسالية كفيل بإصلاح الفرد ثمّ كامل المجتمع وكان التعليم في مثل هذا التصوّر الوسيلة الأساسية لتطبيق مثل هذه التربية، فتأثير الاستعمار ومؤسساته الثقافية من جهة وتفكك التعليم التقليدي بمؤسسات كالزيتونة والقرويين من جهة ثانية جعل قضيّة التعليم من أبرز شواغل رجال الإصلاح إذ اتفقوا تقريبا في ما أبدوه من نقد للأوضاع القائمة واقترح كلّ من جهته جملة من الحلول المنطلقة من المنظومة الدينية والمركّزة على اللغة العربية باعتبار الدين واللغة من مكوّنات الهوية الوطنية المهدّدة. وبذلك اتّخذ اهتمامهم بموضوع التعليم اتجاهين بارزين : توفير تعليم يجدّد الفكر الإسلامي ويطوّره ويهيّء شخصيّة المسلم للمستقبل ويمكّنه من تحقيق النّهضة، ولئن التبست أفكار كلّ مصلح بخصوصية قطره أو بمشاكل لحظته التاريخية القريبة مثل اكتفاء محمد الطاهر ابن عاشور بإصلاح التعليم الزيتوني فإنّ الرؤية الشاملة طبعت عمل ابن باديس والفاسي أيضا فكلّ منهما ينطلق من خصوصيات الجزائر أو المغرب ليعمّم الدّعوة الإصلاحية على سائر الأقطار الإسلامية، هذا إلى جانب اقتران إصلاح التعليم بالأهداف السياسية النضالية الرامية إلى التحرّر من الاستعمار وإعداد المواطن المتعلّم، المثقف المتوازن المتشبث بتراثه والمنفتح في ذات الوقت على سائر الثقافات واللغات الأجنبية بلا تزمّت ولا انغلاق، ولم تقتصر آراء ابن باديس على ماهو نظري وإنّما مارس برنامجه الإصلاحي في حقل التعليم عند التدريس أو من خلال ما أسّسه من مدارس تابعة لجمعية العلماء المسلمين بالجزائر، و لم يقتصر الفاسي بدوره على "النقد الذاتي" وإنّما عرض تصوّرات إصلاحية لتدارك وضع التعليم مثل إجبارية التّعليم أو التّعليم المهني بل مارس حزبه " حزب الاستقلال " دورات تدريبية لنشر تعليم الكهول أو رفع الأمية، وعلى العموم فإنّ اهتمام مفكّري الإصلاح بقضيّة التعليم كان وليد عوامل مباشرة ونتيجة واقع مارسوه أكثر من مجرّد تأثّر بأفكار محمد عبده في إصلاح التعليم بالشرق وإن كان هذا التأثّر غير مستبعد تماما. فخطط الاستعمار الفرنسي وتوجّهاته بالمنطقة فرضت المبادرة بالإسراع لتدارك أوضاع التعليم لقطع الطريق على سبيله ومنعه

---

48) ن م ص 378.

من تنفيذ مشروع الاستلاب الثقافي أو الحدّ من خطورته بإحياء القيم التربوية الإسلامية ونشر التعليم المناسب لتطوّرات العصر مع المحافظة الشديدة على اللغة والدين، ففضلا عن المحتوى التقليدي لبرامج التعليم أصبحت الدّعوة ملحّة لتعلّم الرياضة البدنية وقواعد حفظ الصحّة والأعمال اليدويّة التطبيقية في التعليم المهني إلى جانب تأثّر المناهج التعليمية بما ثبتت قيمته البيداغوجية والعلمية في الغرب.

خاتمـــة :

لم يكن الفكر الإصلاحي بالمغرب العربي في القرن العشرين منفصلا عمّا سبقه في المنطقة من ممهّدات ثقافية وعوامل سياسيّة فهو وليد إرهاصات متواترة منذ القرن التاسع عشر، إذ خضع بحكم الانتماء إلى الخلافة العثمانية وباستثناء المغرب لما عرفه المشرق العربي من توترات وبداية وعي بضرورة "النهضة" على إثر الاحتكاك بالغرب بعد الثورة الفرنسية وحملة نابليون بونابرت على مصر خاصة، إلاّ أنّ تمركز الاستعمار الفرنسي بجيوشه وأفكاره ومؤسّساته بالمغرب العربي على مراحل متلاحقة وبأساليب متنوّعة أهمّها التسرّب الاقتصادي في البداية ولّد تيّارا معاديا للمشروع الاستعماري انتبه في حينه إلى خطورة الاستلاب الثقافي فحاول التصدي له فرديا وجماعيا بواسطة ما نشأ من حركات وجمعيات وبفضل المقالات الصحافية والخطب، واستقطب عنصرا الدّين واللغة اهتمام كلّ المنادين بضرورة الإصلاح فهما رمز الشخصية أو الهويّة والدفاع عنها أفضل وسيلة لمجابهة الاستلاب الدّاهم.

ولهذا السّبب بالذات لاحظنا قيمة الفكر الاجتماعي في حركة الإصلاح بالمغرب العربي وتفوّقه على سائر المجالات فكان **الإنسان** وإصلاحه هو الهدف الأوّل وبإصلاحه يصلح **المجتمع** ويمكن عندئذ الالتفات إلى إصلاح **المؤسّسات** خلافا لما كان عليه توجّه مفكّري الإصلاح في القرن التاسع عشر فقد سعى جلّهم إلى إصلاح هرم السّلطة السياسية بتغيير نظام الحكم وإبطال حكم الإطلاق والنفوذ الفردي وإقرار مبادئ العدل والمساواة والحرية حتّى يصلح حال المجتمع وتتمتّع النّفوس بالأمن فيزدهر الاقتصاد...

لقد استهدف مفكّرو الإصلاح بالمغرب العربي إصلاح عقيدة المسلم وعقله وإرجاعه إلى صالح الأعمال وقويم السّلوك، وذلك بواسطة نزعة إحياء الفكر الديني التي سادت أعمالهم والدعوة إلى ضرورة الاجتهاد حتّى تواكب أحكام الدّين التطوّر الملاحظ في العصر الحديث. وبرغم تردّد الفكر الإسلامي المذكور بين التقليد والإحياء ورغم انخراطه في مقولة لا يصلح آخر هذه الأمّة إلاّ بما صلح به أوّلها واتخاذه اللحظة الرسالية والراشدة مقياسا للمجتمع المثالي فإنّنا نلمس فيه

بعض القبسات المنفتحة على الحداثة كالوعي مثلا بالزّمن وقيمته وبدورة التاريخ وتخلّف المسلمين عنها ممّا جعل بعضهم ينادي بضرورة "الاقتباس" أو "الانتقاء" في شكل توفيقي بين التّراث وإبداعات الغرب مع المحافظة على الشخصية واجتناب الذوبان، ولئن كان هذا نفس ما دعا إليه خير الدين تقريبا فإنّ الإضافة عند من جاء بعده من سائر المصلحين المغاربة تمثّلت في التّنبيه إلى دور التفكير والتخطيط والإعداد النّظري لأيّ إصلاح سواء كان اجتماعيا أو سياسيّا.

لقد أجمع مفكّرو الإصلاح في المغرب العربي على دور العقل وقيمته وأنّ إصلاحه الجوهري سيغيّر "الذهنية" حتما ويدفع النّاس إلى النهضة فهو أساس كلّ إصلاح خاصّة بعد تشخيص أعراض الأزمة ومظاهر التخلّف واعتبارها عقديّة بدرجة أولى نتجت عنها أزمة أخلاقية سلوكية فوسائل العلاج تبدأ بإصلاح عقيدة الفرد وعقله وبإعادة الاعتبار للتربية على أساس إسلامي وتوجيه التّعليم وجهة إصلاحية حتّى تنتشر القيم الإسلامية من جديد وتتحقّق النهضة. وإذا كان هذا التصوّر منسجما مع تشخيصهم لأعراض الأزمة من زاوية نظر دينيّة فإنّ الجديد في طرحهم اتخاذ التعليم وسيلة نضال ثقافي ضدّ الاستعمار والتمسك باللغة العربية دون نبذ سائر اللغات، فالرهان على الإنسان جعلهم يتّخذون من التعليم السائد موقفا نقديا لمحاولة البحث عن بديل له، من ذلك التنبيه إلى ضرورة اقتران النظرية بالتطبيق في التعليم واقتراح مناهج تعليمية جديدة تولي الرياضة البدنية والثقافة الصحية قيمة فضلا عن التعليم المهني، ورفع الأمية عن الكهول ومساهمة التعليم في بثّ الحسّ السياسي الوطني من خلال دراسة التاريخ وتعليم التلاميذ الأناشيد الوطنية.

لقد واجه المصلحون الاستعمار الهادف إلى تفكيك شخصية المستعمرين بفرض مدارسه ونظم تعليمه عليهم بنفس سلاحه، فحرصوا على تأسيس المدارس وتعميم البرامج العربية ذات التوجّه الديني بالتركيز على اللغة العربية والإسلام حتى يكون التعليم وسيلة لتجديد الفكر وإعداد قيادات المستقبل ونخبه ومن هذه الزاوية اقترن إصلاح التعليم عندهم بالأهداف السياسية النضالية الرامية إلى تحرير الوطن من الاستعمار وإعداد المواطن المتعلّم، المتوازن في ثقافته بين التشبّع بتراثه والانفتاح على اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة فيكون بذلك مواكبا للنهضة والتطوّر دون استلاب ودون ذوبان في الآخر...

عبد الرزاق الحمامي

كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات

جامعة منوبة

حوليات الجامعة التونسية – عدد 53/2008 ص ص 215 – 243

علاقة الاشتقاق بالإعراب

بقلم : توفيق العلوي

تبدو علاقة الاشتقاق بالمعجم وعلاقة التصريف بالإعراب علاقة تلازم مستقرّة في البحث اللساني[1]، ويستند هذا التلازم بين ركني كلّ علاقة إلى إفادة الأوّل للثاني، فالاشتقاق مثر للمعجم والتصريف خادم للإعراب، والمختزل في هاتين العلاقتين علاقة الصرف بالإعراب والمعجم في الوقت نفسه.

وعلى خلاف هذا التصوّر العامّ تبدو علاقة الاشتقاق بالإعراب علاقة لافتة للنظر، إذ نجد لها في التراث النحوي العربي مظاهر عديدة ويعتبرها التأليف اللساني الحديث إحدى القضايا اللسانية الهامّة.

فالعنصر الاشتقاقي يمكن أن يكون في علاقة مباشرة مع مكوّن الإعراب، وفي هذا مناقشة لمبدإ لساني سائد يفصل بين الاشتقاق والإعراب، مفاده حسب فرادان Fradin أن العمليات الإعرابية يتعذّر إجراؤها داخل الكلمات [2]، يقصد بذلك أن هذه العمليات لا تؤثّر ولا تتأثّر بالبنية الاشتقاقية للكلمات.

ويندرج إثبات هذه العلاقة بين الاشتقاق والإعراب بداهة ضمن الاسترسال Continuum كما يراه العرفانيون، فهو مفهوم غير فاصل بين المستويات النحوية، إذ المعجم والصرف والإعراب تكوّن استرسالا لبنى رمزية[3]، وفهم هذه العلاقة لا ينتظم إلاّ في إطار السائد من هذه المستويات تحديدا للعلاقات المستقرّة

---

1) انظر في هذا مثلا :

- Katamba , Francis ,(1993), p 208

2) Fradin , Bernard ,(2003) , p 13.

3) Langacker Ronald W. (1987) , volume 1 , p 3.

بينها وإبرازا لما بين الاشتقاق والإعراب من علاقة تشهد بها بعض الظواهر اللغوية.

وقد استوجبت منّا غاية البحث في علاقة الاشتقاق بالإعراب أربعة عناصر، الأوّل الإطار النظري اللساني العامّ والثاني نوع العلاقة بين الاشتقاق والإعراب في التراث النحوي واللسانيات، أمّا الثالث فنعرض فيه بعض مظاهر التداخل بين الاشتقاق والتصريف تمهيدا للعنصر الرابع الذي نقترح فيه مقاربة في "الاشتقاق الرمزي" Dérivation symbolique.

1. الإطار النظري العامّ :

إن دراسة العلاقة بين الاشتقاق والإعراب تستوجب أوّلا ضبطا لمفاهيم المصطلحات الأساسية، وهي الصرف Morphologie والاشتقاق Dérivation، والتصريف Flexion، والإعراب Syntaxe والاسترسال باعتباره المرجعيةِ النظرية التي يمكن أن تتحرّك ضمنها العلاقات بين المستويات النحوية.

1.1. الضبط المفهومي :

ليس القصد من هذا الضبط التعرّض إلى جدل اصطلاحي حول المفاهيم المذكورة (صرف، اشتقاق، تصريف إعراب) أو مقارنة بين التراث النحوي العربي واللسانيات في استعمال هذه المصطلحات، بل المقصد ذكر المفاهيم المعتمدة للمصطلحات المذكورة في هذه الدراسة، فقد عرف التراث النحوي تداخلا اصطلاحيا مفهوميا، فالمصطلح الواحد قد يعبّر عن أكثر من مفهوم والمفهوم الواحد قد نجد له أكثر من مصطلح [4].

والمقصود بمصطلح "إعراب" دراسة كيفية تركيب الجملة استنادا إلى علاقة العوامل بمعمولاتها بصفة تسيّر مكونات هذا التركيب وتنظّمها لإفادة المعاني النحوية من فاعلية ومفعولية وإضافة، وهذا المصطلح بالمفهوم المذكور نجده في التراث النحوي مقابلا لمفهوم الصرف، فابن الحاجب يصف كتابه "الكافية" بأنه مقدّمة في الإعراب، وذلك في مقابل كتابه "الشافية" في الصرف [5]، والاستراباذي يعتبر أن الكلام غير المفيد " كلمات غير مركبة تركيب الإعراب " [6].

---

4) عبّر عن مفهوم الصرف في التراث بمصطلح أكثر شيوعا نجده في الكتاب لسيبويه، وهو مصطلح التصريف، وكذلك عند لاحقيه مثل ابن جني في الخصائص وابن يعيش في شرح المفصّل و ابن عصفور الإشبيلي في الممتع في التصريف...: انظر في هذا : المهيري (1998)، ص ص 18-23

5) الاستراباذي رضي الدين، شرح الشافية، ج1، ص 1

6) الاستراباذي رضي الدين، شرح الكافية، ج1، ص 6.

انظر كذلك : ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، المجلد 1، ص 1055

أمّا "الصرف" فدراسة البنى الداخلية للكلمات، وهو المفهوم نفسه الذي نجده في التراث النحوي وإن عُبّر عنه كذلك بمصطلح تصريف، فالصرف فيما استقرّ في المجال اللساني يشمل الاشتقاق والتصريف [7]، وهي ثنائية يسمّى ركنها الأوّل الصرف التكويني Morphologie constructionnelle (وهو الصرف الاشتقاقي) ويهتمّ بتكوين الوحدات المعجمية Lexèmes، أمّا الركن الثاني، وهو الصرف التصريفي Morphologie flexionnelle (أو الصرف إعراب Morphosyntaxe)، فيدرس الكلمات المنتحاة Mots grammaticalisés وهي الكلمة المستعملة في سياق إعرابي ما [8].

وهذه المفاهيم المذكورة للصرف بفرعيه والإعراب تندرج ضمن مفهوم عامّ لمصطلح "نحو" Grammaire في التراث النحوي، إذ يقصد منه دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والإعرابية [9]. ومع هذه الحدود الفاصلة فإن المستويات النحوية المذكورة وإن بدت منفصلة بعضها عن بعض بحكم مفاهيمها المحدّدة لها فإنّ بعضها متّصل بالآخر في نطاق مفهوم الاسترسال.

2.1. الاسترسال

إن الناظر في مؤلفات التراث النحوي يلاحظ انعدام الفصل بين المستويات النحوية، فالكتاب لسيبويه شمل مادّة نحوية متّسعة منها الصوتية والصرفية، بفرعيها الاشتقاقي والتصريفي، والإعرابية بصفة لاءمت تعريف النحو بمعناه الواسع، وقد تكون في هذا إشارة إلى تصوّر تأليفي لا يعدم بداهة تصنيف المستويات النحوية.

بالمقابل فقد سيطر الفصل بين الصرف والمعجم lexique والإعراب على مختلف التيارات اللسانية المعاصرة منذ نشأتها، لكنّ هذا الفصل من وجهة عرفانية لا يعتدّ به، وهو فصل لا مبرّر له إلاّ تنظيم الوصف[10].

---

7) التصريف في التراث له قسمان : "أحدهما جعل الكلمة على صيغ مختلفة لضروب من المعاني، نحو : ضرَب، وضرّب وتضرّب...والآخر...تغيير الكلمة عن أصلها، غير أن يكون ذلك التغيير دالاّ على معنى طارئ على الكلمة، نحو تغييرهم "قول" إلى "قال"...: الممتع في التصريف، ص ص 31-32.

8) Kerleroux Françoise , (2003) , p p 13-14.

9) الخصائص، ج 1، 34.
وللمصطلح نفسه مفهوم ضيق مرتبط بأحوال أواخر الكلم، ويعبّر عنه كذلك بمصطلح إعراب : الإيضاح في علل النحو، ص 91.
وانظر في تفسير هذين المفهومين : مهيري عبد القادر (1998)، ص ص 14-18.

10) Delbecque Nicole, (2002) , p 97.

فالاتصال بين المعجم والصرف والإعراب مكوّن للاسترسال [11]، وهو استرسال يحتاج إثباته إلى قرائن لسانية دالة عليه تبرز مدى حاجة الظواهر اللسانية على مختلف مستوياتها إلى تعامل بينها.

وليس الاسترسال بين المستويات اللغوية اختيارا لسانيا، إنما هو علاقة تمليها الآلية اللغوية فيما تحتاج إليه الظاهرة اللسانية ويشهد له الواقع اللغوي نفسه بما فيه من خصائص كلّ لسان، فهو "حاجة لسانية" لا يناسبها الفصل بين المستويات.وهذا الفصل يرى العرفانيون أنه "تعسّف على المعطيات اللغوية فيفترضون استرسالا بين مختلف هذه المستويات، وإن كانوا يختلفون بعض الاختلاف في مداه" [12].

وترى دلباك في إطار الاسترسال أن الصرف يحتلّ موقع الوسيط، فهو جزء مكمّل للمعجمية Lexicologie والإعراب [13]، وهي وساطة بديهية لما للصّرف من ثنائية الاشتقاق والتصريف، فالاشتقاق في علاقة بالمعجم والتصريف في علاقة بالإعراب [14].

وليس ما يعنينا في الاسترسال إلا ما نحتاج إليه في إبراز علاقة الاشتقاق بالإعراب دون تبنّ للنظرة العرفانية باعتبار أن الزاوية التي نعتمدها في وصف علاقة الاشتقاق الرمزي بالإعراب زاوية ذات منطلقات شكلية لفظية لا تخرج عن التيار البنيوي الذي لا يستند بداهة إلى الاسترسال [15]. فهذا التيار ليس للاسترسال فيه مكانة تذكر، ذلك أن البنيوية نشأت في إطار إشكالات من العلاقات الجدولية Relations paradigmatiques والعلاقات النسقيةRelations syntagmatiques يفترض معها الاحتياج إلى التقطّع Discontinuité لا إلى الاسترسال، كذا الأمر بالنسبة إلى الأنحاء التوليدية التحويلية لمركزية الإعراب فيها والالتجاء إلى الشكلنة [16] Formalisme.

فليس لنا من مشغل في إطار الاسترسال إلا البحث في علاقة الاشتقاق بالإعراب، وهي علاقة تبدو على عكس علاقات الاسترسال المذكورة علاقة غير

---

11) idem , p 98
انظر في الاسترسال بين المعجم والاشتقاق والتصريف فصلا عنوانه :
The lexical / Derivation / Inflectional continuum : Bybee, Joan L , (1985) , p p 81-110

12) المجدوب عزالدين، (2003)، ج2، ص 792.

13) Delbecque (200), p 98.

14) انظر هذه العلاقات في الرسم المثبت في : idem , p 98.

15) في مقابل هذا يرى العرفانيون أن التركيب نتيجة المعنى (التصوّر)، انظر في هذا : صولة عبدالله، (2004)، ص ص 49-67.

16) Ben Gharbia Abdeljabbar, (2004) , p 43.

سائدة في المجال اللساني، فالسائد في هذا المجال انعدام العلاقة بين الاشتقاق والإعراب.

2. صلة الاشتقاق بالإعراب :

نعرض فيما يلي إلى إبراز صلة الاشتقاق بالإعراب التي يحكمها الانفصال والاتصال.

1.2. الاشتقاق منفصلا عن الإعراب :

نشير فيما يلي إلى موقع الاشتقاق ضمن النظام النحوي واعتبار البنية الاشتقاقية بنية منغلقة بصفة تساهم في إبراز انفصال علاقة الاشتقاق بالإعراب.

يرى بلومفيلد Bloomfield أن الألسن تختلف بصرفها أكثر من اختلافها بالإعراب [17]، فالإعراب وإن اختلفت النظرة إليه في اللسانيات فإنه يعتبر مقوّما أساسيا من مقوّمات النظام النحوي بإجماع النظريات اللسانية، أمّا الصرف حسب ما أورده كتمبا Katamba فلم يخل من تشكيك في مدى الحاجة إليه خصوصا أن كثيرا من الخصائص الصرفية للكلمات يجب النظر إليها بقواعد إعرابية Syntactic rules، أمّا الخصائص التصريفية فتحدّد بالإعراب، وهذا ما يعني عدم اعتبار المكون الصرفي أحد مكونات النظام النحوي[18].

وتظهر هذه النظرة في النحو التوليدي، فهو نحو يقوم في بداياته على ثلاثة مكونات أساسية، هي المكوّن الإعرابي والمكون الصوتمي والمكون الدلالي [19]، لكنّ هذا لا يعني غياب المكوّن الصرفي، بل يعني فقط عدم وجود تصوّر واضح له، من ذلك أن تشومسكي أدرج الاشتقاق في المرحلة الأولى من النظرية التوليدية ضمن التحويلات، ثمّ أدرجه في مرحلة ثانية ضمن خصائص المعجم الذي يعنينا فيه من هذه الوجهة علاقته بالإعراب [20]. فالصرف في كتابات تشومسكي الأولى لا نجد له أثرا ملحوظا[21]، فحتى البدائل التصريفية Les variations flexionnelles يرمز إليها مباشرة داخل المعجم، وتكوين الكلمات

17) Bloomfield (1970) , p 195.

18) Katamba , (1993) , p 217

19) Chomsky (1971) , p 31.

20) انظر علاقة المعجم بالإعراب عند تشومسكي في : Pollock , Jean-Yves (1997), pp 47- 64.

21) يذكر فرادان أن في العقود الثلاثة الأخيرة شهد الصرف تطوّرا ملحوظا في التيار التوليدي أو في المقاربات الرافضة للمسلمات أو المناهج الصرفية، وهو تطوّر حسب اللساني نفسه أصبح ضروريا باعتبار أن عديدا من الظواهر اللغوية تنفلت عن مجالي الصوتمية والإعراب :

Fradin , B. (2003) , p p 23-24 .

مُوكل إلى الآليات التحويلية [22]، فدراسة المكونات التصريفية والاشتقاقية مندرجة ضمن آليات التحليل التوليدي دون اعتبارها مجالا صرفيا بعينه. ويذكر تشومسكي في هذا أن مسارات الاشتقاق تطرح على النحو التوليدي إشكالا أكثر صعوبة مقارنة بما لا تحدثه الأنظمة التصريفية، وذلك لأن هذه المسارات مشتّتة وليست إلاّ شبه إنتاجية [23] Quasi productifs.

واستنادا إلى ما ذكرنا فإن النظرية التوليدية "لا نجد فيها تصوّرا واضحا لموقع النظام الاشتقاقي من النظام النحوي، ولا تصوّرا واضحا لنظام التصريف"[24].

وينضاف إلى هذا عامل موضوعي لا يخصّ تيارا لسانيا دون آخر، يتمثّل في خصيصة مرتبطة بالبنية الاشتقاقية نفسها في بعض الألسن هي خصيصة انغلاق هذه البنية، فالبنية الاشتقاقية تبدو عنصرا منفصلا عن بقية البنى النحوية، ليس له من دور إلاّ حمل معنى معجمي، فالتشكّلات الاشتقاقية حسب ربينس Robins لا تضع الكلمة بصفة مباشرة في علاقة مع بقية المكونات مثلما نجد ذلك في التشكّلات التصريفية " [25].

ومن مظاهر هذا الانقطاع أن الدلالة الاشتقاقية (يسمّيها ملشوك Mel'cuk المعينم الاشتقاقي Dérivatème، وسنرى هذا لاحقا) ليست مرتبطة عادة بالإعراب، ومن مبرّرات ذلك حسب هذا اللساني أن هذا المعينم الاشتقاقي لا يستعمل في قواعد المطابقة والعمل، ينضاف إلى هذا أن القاعدة الإعرابية لا تشير إلى هذا المعينم (يحيل على تشومسكي 1970) [26].

فالبنية الاشتقاقية بناء على هذا تبدو منقطعة عن السياق الإعرابي لا تؤثّر فيه ولا يؤثّر فيها، وفي هذا تبدو هذه البنية من الزاوية النظرية المجرّدة دائرة منغلقة على نفسها منقطعة عن بقية مكونات الوحدة اللسانية الدالة، لكنّ هذا لا يعني البتّة عدم وجود مظاهر تعامل بين الاشتقاق والإعراب.

---

22) idem , p 23.
عن : Lees 1963

23) Chomsky (1971) , p 250.

24) الشريف (2002)، ج 1، ص 296

25) Robins , 1973, p 218
عــن : Kerleroux , Françoise (2003) , p 24

26) Mel'cuk , Igor, (1993) , t 1, p 295

2.2. مظاهر التعامل بين الاشتقاق والإعراب

نبرز فيما يلي بعض مظاهر هذا التعامل في التراث النحوي العربي وبعض زوايا التصوّر اللساني.

1.2.2. علاقة الاشتقاق بالإعراب في التراث النحوي العربي :

إن علاقة الاشتقاق بالإعراب في التراث النحوي علاقة ذات مظاهر عديدة مختلفة يخرج حصرها عن مقاصد هذا المقال، ويكفي في هذا المجال لتبيّن هذه العلاقة إبراز بعض مظاهر الحاجة المتبادلة بينهما.

أ. حاجة الاشتقاق إلى الإعراب :

تعبّر عن هذه الحاجة عدّة مظاهر، من أهمّها الشروط الإعرابية المفرّقة بين اسم الفاعل والصفة المشبهة، فقد ذكر ابن هشام أحد عشر فارقا بين هذين المشتقين[27]، تسعة منها فوارق إعرابية، منها أن "**أنه [اسم الفاعل] يصاغ من المتعدّي والقاصر كضارب وقائم ومستخرج ومستكبر، وهي [الصفة المشبهة] لا تصاغ إلاّ من القاصر كحسَن وجميل**" [28]، و "**أنه لا يخالف فعله في العمل، وهي تخالفه، فإنها تنصب مع قصور فعلها، تقول (زيد حسَن وجهَه) ويمتنع (زيد حسُن وجهَه)** " [29]...

وما يعنينا في هذه الفوارق أنها قرائن إعرابية تمثّل نموذجا لما في التراث من تصنيف أضرب من الكلم تصنيفا اشتقاقيا بصفة يظهر فيها الإعراب خادما للاشتقاق.

ب. حاجة الإعراب إلى الاشتقاق :

تبرز هذه الحاجة في عدّة مظاهر، يكفي أن نذكر منها حاجة تحديد بعض الوظائف النحوية إلى قرائن اشتقاقية، يتجلّى ذلك في مظهرين، أحدهما مظهر تفريقيّ يفرّق بين وظائف ملتبسة والثاني مظهر تعيينيّ يعيّن بعض هذه الوظائف.

فمن المظهر التفريقي الذي نصّ عليه التراث "اشتراطهم الجمود لعطف البيان والاشتقاق للنعت" [30]، وكذا الأمر بين الحال والتمييز، فـ "حقّ الحال

---

27) ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج 2، ص ص 458 – 460.

28) ن م، ج 2، ص 458.

29) ن م، } 2، ص 459.

30) ن م، ج 2، ص 570. وانظر الأمثلة في الصفحة نفسها
انظر في هذا كذلك : ابن يعيش، شرح المفصل، ج 3، ص 72.

الاشتقاق وحقّ التمييز الجمود" (31)، فقرينة الاشتقاق بما يقابله من جمود قرينة يستند إليها في رفع التباس إعرابي، وفي هذا دلالة على حضور الاشتقاق على مستوى نسقي حضورا تمييزيا مساهما في تسيير هذا المستوى نفسه.

أمّا المظهر التعييني فيبرز خصوصا في وظيفة المفعول المطلق، ويظهر ذلك في وجهين مترابطين :

- المفعول المطلق لا يكون في الأصل إلاّ مصدرا، فهو حسب هذا الأصل " ما يلاقي الفعل في اشتقاقه" (32)

- عمل الفعل في المصدر، ذلك أن "الفعل إنما ينصب ما كان فيه دلالة عليه، فالفعل يعمل في مصدره بلا خلاف نحو قمت قياما" (33)، وليس ما يعنينا في هذا أثر الفعل في المصدر من حيث العمل، بل مسوّغ هذا العمل، وهو أن في المصدر دلالة على الفعل ليس مأتاها إلاّ اشتقاقيا.

فهذان الوجهان المترابطان هما في الحقيقة قرينة اشتقاقية ضرورية لضبط المفعول المطلق، فتحديد هذه الوظيفة نموذج لما يستفيد به الإعراب من الاشتقاق في مستوى تحديد الوظائف النحوية.

وبالمقابل لهذا فإن بعض المشتقات الاسمية تعمل عمل فعلها، وذلك مثل المصدر واسم الفاعل واسم المفعول وغيرها، كلّ بما له من خصائص العمل التي نصّ عليها التراث النحوي (34)، وفي هذا نموذج لتحكّم بعض البنى الاشتقاقية في بعض المحلاّت الإعرابية للعلاقة الاشتقاقية بين هذه البنى والفعل الذي عوّضته نسقيّا.

ويمكن أن نقول استنادا إلى هذا إن تحديد ظاهرة نحوية من جنس معيّن بمساهمة قرائن ليست من جنسها دليل على حاجة ضرورية متبادلة بين المستويين الاشتقاقي والإعرابي بصفة تدلّ على أن علاقة الاشتقاق بالإعراب علاقة تأثر وتأثير تظهر عموما في مستوى نسقي نظري مرتبط بتعامل القواعد بعضها مع بعض أو مجسّد في جمل ما.

---

31) ن م، ج 2، ص 463. توجد أمثلة لهذا في الصفحة نفسها.

32) شرح المفصل، ج 1، ص 111.

33) ن م، ج 1، ص 111، وانظر كذلك ص 112.

34) الأمهات في هذا كثيرة، انظر مثلا : شرح الكافية، ج 4، ص ص 374- 387، 397- 403، 408- 410، 412-414، 450- 460.

2.2.2. علاقة الاشتقاق والإعراب في اللسانيات

تظهر هذه العلاقة في عدّة مظاهر تختلف حسب المدارس اللسانية وتياراتها، فقد اهتمّ البنيويون بقضية أقسام الكلمات Classes des mots وأصنافها Sous- classes والحاجة إلى ذلك في توزيع بعض المحلات الإعرابية سواء في المركبات أو الجمل.

فمثال المركب أن الصفة في الأنقليزية قسم كلمة (classe de mot) يعتبر معنى قسمها بمثابة خصيصة نوعية لشيء ما : ,big, red, this, some ولهذه الخصيصة دور في الترتيب الموقعي الإعرابي، فالعبارة النعتية Expression adjective تسبق العبارة الاسمية Expression nominale : poor John, fresh milk [35] ، وينعكس هذا الترتيب في اللغة العربية، إذ يسبق الموصوف الصفة (حليب طازج). فسمة الصفة الاشتقاقيةُ تضطلع بدور إعرابي مساهم في ترتيب ما للصفة والاسم الموصوف من موقعين إعرابيين.

ويتّضح هذا كذلك في بناء الجمل بناء صحيحا استنادا إلى أقسام الكلمات، مثال هذا ما ذكره هاريس Harris :

- N (N Nom) : تعني كلمات مثل : Water, Butter
- T : رمز ذو دلالات عدّة، منها الدلالة على صيغ مثل can
- V (Verbe) : تعبّر عن الأفعال : fondre

بناء على هذا فإن تركيب NTV يمثّل جملة صحيحة [36] : Butter can melt (الزبدة يمكن أن تسيل).

يظهر الاشتقاق من خلال هذه الأمثلة في تصنيفات الكلمة أقساما وأصنافا، فلهذه الأقسام والأصناف دور مساهم في المستوى الإعرابي في توزيع بعض المواقع الإعرابية إلى حدّ وضع توليفات شكلية قادرة على تمييز الجمل الصحيحة من الجمل الخاطئة.

ويمكن البحث كذلك في العلاقة بين الاشتقاق والإعراب بالبحث في علاقة الاشتقاق بالتصريف باعتبار علاقة التصريف بالإعراب.

---

35) Bloomfield , L. (1970) , p p 190 – 191.
36) Harris , Z.S. (1971) , p 32.

3. التداخل بين الاشتقاق والتصريف :

إن الفصل المفهومي بين الاشتقاق والتصريف لا ينفي ما بينهما من تداخل، يظهر ذلك في بعض الخصائص والمفاهيم.

1.3. التداخل في بعض الخصائص

يمكن دراسة علاقة الاشتقاق بالإعراب عن طريق دراسة علاقة الاشتقاق بالتصريف باعتبار أن التصريف في علاقة مباشرة بالإعراب، يشرّع لهذا أن الحدود بين الاشتقاق والتصريف ليست دائما حدودا واضحة، إذ يمكن أن تتداخل الخصائص بصفة تشير إلى هذه العلاقة.

إن العلاقة بين الاشتقاق والتصريف لا نجدها ضرورة في كلّ الألسن، فقد ذكر ملشوك Mel'cuk أن عددا من الألسن ليس فيها تصريف، وإذا وجدنا لسانا ما فيه تصريف فإن ذلك يعني أن فيه اشتقاقا، أمّا العكس فغير صحيح[37]، وهذه الملاحظة من شأنها أن تبرز أن التصريف ليس من الكليات اللسانية التي تمثّل محورا ثابتا مساهما في ضبط العلاقات بين المستويات اللسانية، ودلالة الملاحظة المذكورة عند كرلرو Kerleroux أن "التصريف"Morphologie flexionnelle ليس عنصرا أساسيا حاضرا في هندسة نحو الألسن [38].

والفصل بين الاشتقاق والتصريف فصل ليس ذا حدود واضحة دائما، فبعض الدراسات الحديثة تطرح مدى وجاهة الفصل بين الاشتقاق والتصريف وتتساءل عن وجود قاسم مشترك بينهما [39]، وفي هذا التساؤل إشارة إلى مدى الحاجة إلى الصرف باعتباره مجالا جامعا لفرعيه يمكن أن ينصهر ضمنه كلّ مظهر من مظاهر التداخل بين هذين الفرعين، وهذا التداخل يجانب أهمّ مقوّمات "الصرف المنقسم" Morphologie divisée.

فالصرف المنقسم حسب كرلرو فرضية لنمذجة Modélisation ممكنة للفوارق الملحوظة بين الاشتقاق والتصريف، فهو مجال يؤكّد على الفصل بين هذين المستويين، فالتفريق بينهما يدلّ على التفريق بين منظومات لسانية أساسية هي المعجم والإعراب[40]، وفي هذا ربط للاشتقاق بالمعجم والتصريف

---

37) Mel'cuk , (1993), t 1 , pp 301-302
انظر الفكرة نفسها في : Bybee (1985) , p 82

38) Kerleroux (2003) , p 24

39) idem , p 13

40) idem , pp 22-24
وانظر كذلك ص ص 23-25

بالإعراب، وهو تفريق رآه أرنوف Aronoff دقيقا جدّا ولا يمكن حصره أحيانا، لكن مع ذلك يبقى هذا التفريق حسب رأيه هامّا [41].

ونجد في البحث اللساني بعض القرائن المفرّقة بين الاشتقاق والتصريف، منها أن الاشتقاق يصنع كيانات معجمية، أمّا التصريف فليست له هذه الخصيصة باعتبار أنه لا يخرج هذه الكيانات من قسم كلمها أو صنفها، فاسم الفاعل (كاتب) مثلا مشتقّ من مادّة اشتقاقية مضبوطة (ك، ت، ب) وآلية اشتقاقية دقيقة، فإذا أدخلنا عليه زوائد تصريفية (الكاتب، الكاتبة، الكاتبون...) فإن هذا الإدخال لا يخرجه عن صنفه (اسم فاعل) أو قسم كلمه (اسم) [42]. وهذا التفريق المذكور لا يراه بايبي Bybee إلاّ نظرية داخليّة إذا تساءلنا عن تكوين حدود الكيان المعجميّ [43]، فالصرفم ly– الذي ينقل نعتا Adjective في موقع إعرابي، إلى ظرف Adverb يصبح من مستلزمات الإعراب :

Sara gave a thoughtful answer

Sara answered thoughtfully

ويرى بايبي، بناء على هذا، أن المبدأ الصرفي الذي يعتبر أن المكوّن المغيّر من القسم الإعرابي للكلمةSyntactic category هو مكوّن اشتقاقي مبدأ خاطئ، ويجب اعتبار–ly وأمثاله من الصرافم في لغات أخرى صرافم تصريفية [43].

فالتفريق بين الاشتقاق والتصريف لا يعني وضوح دور كليهما واطّراد آليته، من ذلك أنّ مقولة الجمع في اللغة العربية لا تحكمها دائما قرائن تصريفية، مثال هذا اسم الجمع (امرأة - نساء).

ويمكن الاستدلال على تداخل الاشتقاق والتصريف بالتداخل في بعض الدلالات الصرفية، نكتفي منها بذكر دلالتي المعينم الاشتقاقي Dérivatème والمعينم التصريفي [44] Flexionnème

---

41) Aronoff, Mark (1979), p 2

42) انظر هذه الفوارق بيت الاشتقاق والتصريف وغيرها في :

Bauer , Laurie (1988) , p 241 , p 245.

43) idem , p p 84-85

44) نقترح الترجمتين المذكورتين مع وعينا بمزيد التفكير فيهما.

2.3. التداخل بين المعينم التصريفي والمعينم الاشتقاقي

إن المعينم التصريفي [45] حسب ملشوك هو الدلالة التصريفية المنتمية إلى مقولة تصريفية [46]، أمّا المعينم الاشتقاقي فهو الدلالة الاشتقاقية [47]، فهما وحدتان تندرجتان ضمن الوحدات المدلولية لاقتران مفهوميهما بالمدلول.

يرى ملشوك أنه يمكن التفريق بين المعينمين الاشتقاقي والتصريفي [48] بمقياسين أساسيين، فالمعينم الاشتقاقي على خلاف المعينم التصريفي لا يمتلك ضرورة طريقة منتظمة في التعبير، مثال هذا أن "التصغير" في الفرنسية لا يعبّر عنه بطريقة منتظمة ولا يوجد في كثير من الأسماء : fenêtr+ette, * bouteill+ette *، إضافة إلى أن غياب واسِم التصغير لا يعني دلالة معاكسة، فـ maisonn+ette تعني منزلا صغيرا، لكنّ maison لا تعني منزلا كبيرا. [49].

لكنّ هذا التفريق بين المعينمين الاشتقاقي والتصريفي [50] لا يعني البتة الفصل الدقيق بينهما وانعدام وجود ظواهر نحوية لا تجد لها موقعا واضحا في أحدهما، بل إنّ من الظواهر ما يرتبط بهما معا، وفي هذا توجد دلالات حسب ملشوك لها خصائص المعينم التصريفي، منها دلالات يعبّر عنها بطريقة منتظمة لكنها غير ضرورية، والأحرى حسب رأيه اعتبارها معينمات اشتقاقية لولا ما فيها من انتظام [51].

ومن مظاهر العلاقة بين الاشتقاق والتصريف[52] أن المعينمين الاشتقاقي والتصريفي قد لا يحكمهما موقع صرفي منتظم، فالمعينم الاشتقاقي حسب ملشوك

---

45) يذكر ملشوك للدلالة التصريفية مصطلح "نحوم" Grammème كذلك (مأخوذ من Grammaire : نحو)، وقد خيّرنا مصطلح Flexionnème ، وهو من اقتراحه، لاشتقاقه من Flexion :
Mel'cuk (1993), p p 264-265

46) Mel'cuk (1993) , p 264
المقولة التصريفية حسب ملشوك هي صنف من المقولات بمثابة صنف الكلم Sous - classe : ص ص 262-263

47) idem , p 288

48) يذكر فرادان أن مصطلح منحم Grammème مستمدّ من اللسانيات البنيوية الأروبية، ويحيل في هذا على بوتييPottier (1974): Fradin (2003) , p 92 :
يعتبر بوتيي أن يوجد مدلولان (Catègorèmes) أو قسمان شكليان للصرافم Classes formelles de morphèmes)، الأوّل الوحدات المعجمية Lexèmes وهي عناصر مجموعة غير منتهية ومفتوحة والثاني المناحم Grammèmes وهي عناصر منتهية ومغلقة : Pottier (1974) , p 272

49) Mel'cuk (1993), pp 287-288

50) يذكر ملشوك في المرجع نفسه فوارق أخرى : idem, p p 293-298

51) idem , p 302

52) انظر تصوّرا لهذه العلاقة في : الشرط والإنشاء النحوي للكون، ج 1، ص 321.

يوجد في العادة أقرب إلى الجذع من المعينم التصريفي من هذا الجذع، مع هذا نجد بعض الاستثناءات في عدّة ألسن، إذ يقلب هذا الانتظام الموقعي، مثال هذا ما في الألمانية : Kind+er+chen (أطفال صغار) ودلالات مكوناتها ما يلي :

Kind : طفل صغير

-er : معينم تصريفي، سمة الجمع

-chen : معينم اشتقاقي، سمة التصغير [53].

وهذا التداخل بين الاشتقاق والتصريف قد يدلّ على ضرب من الاسترسال يبرز عدم انغلاق مستوى نحوي ما على نفسه، شاهد هذا وجود ظواهر لغوية يقترب فيها هذان الفرعان بعضهما من بعض إلى حدّ التداخل في بعض الخصائص بصفة قد يظهر بها الاشتقاق، عن طريق التصريف، في علاقة غير مباشرة بالإعراب.

وفي هذا الإطار يبدو لنا أن اللسان العربي يمكن أن يمثّل في بعض ظواهره نموذجا للعلاقة بين الاشتقاق والإعراب، إذ نجد فيه علاقات مباشرة بين عناصر حرفية أو حركية اشتقاقية مستمدّة من الجذع الاشتقاقي نفسه ودلالات إعرابية في إطار ما نقترح تسميته " الاشتقاق الرمزي " Dérivation symbolique.

4. الاشتقاق الرمزي :

إن البنية الاشتقاقية في اللسان العربي تمثّل تشكّلا ثابتا تقوم عليه الكلمة، فهي بنية وإن احتاجت ضرورة إلى عناصر تصريفية أو إعرابية، فإنها بنية محميّة لا تتداخل مع هذه العناصر، وإنما تعيش معها بصفة متلازمة منتظمة، مع هذا نجد في اللسان العربي، عدا ما أبرزناه سابقا من التراث اللغوي، بعض الظواهر التي تثبت علاقة الاشتقاق بالإعراب وتظهر هذه الظواهر أساسا في اقتراحنا ما سمّيناه "الاشتقاق الرمزي"، وفيما يلي إبراز لمفهومه وعلاقته بالإعراب وجذوره في التراث اللغوي العربي.

1.4. المفهوم :

نقصد بالاشتقاق الرمزي الاشتقاق المؤسّس على عنصر اشتقاقي واحد (الحرف أو الحركة) نفترض أنه العنصر الاشتقاقي الذي تتأسّس عليه الوحدة اللسانية التي يمثّل هذا العنصر أحد مكوناتها الاشتقاقية، فآلية هذا الاشتقاق تختلف عن آلية الاشتقاق المعهودة في الاشتقاق الأصغر (الصغير) والأكبر (الكبير).

---

53) Mel'cuk (2003), p 296

ونعني بآلية الاشتقاق الرمزي دور العنصر الاشتقاقي في التعبير عن المدلول الإعرابي الذي تعبّر عنه الوحدة اللسانية الحاملة لهذا العنصر نفسه، ومسوّغ هذه الرمزية الاشتقاقية ما لهذا العنصر الاشتقاقي من آلية اشتقاقية وقدرة اختزالية تختزل ما للوحدة اللسانية الحاملة للعنصر المذكور من دلالة إعرابية يمكن إبرازها بما يرتبط به من قرائن شكلية لفظية، ومن هذه القرائن جنس هذا العنصر وموقعه الاشتقاقي واطراده المنتظم، فتعامل هذه القرائن معا منبئ عن دلالة إعرابية تقترن بهذا العنصر نفسه.

ونفتــرض مبدئيا في مدوّنة هذا الاشتقاق الكلمات الفارغة Mots vides [54] ممثّلة فيما أجريناه من تطبيقات على الصرافم الحرفية (حروف المعاني) دون أن نقصي بقية أصناف هذه الكلمات.

مثال هذا أنّ صرافم الجرّ تعرف بحركة حرفها الأوّل (حركة الاعتماد) وهي الكسرة : (بِـ، لِـ، فِي، مِن، إلى)، فالكسرة هنا عنصر اشتقاقي تتوفّر فيه الخصائص التالية :

- إن كسرة الاعتماد عنصر اشتقاقي ثابت جنسا وموقعا اشتقاقيا في صرافم الجرّ (حروف الجرّ)، فهو عنصر بمثابة الجذر الذي تشتقّ منه عدّة كلمات، فالكسرة نفترض أنها مادّة اشتقاقية أولى لصرافم الجرّ المكسورة الاعتماد، وما خرج عن هذه الحركة في صرافم الجرّ مبرّر بعلل مضبوطـة[55].

- إن هذا العنصر يختزن البنية الاشتقاقية لصرافم الجرّ باعتباره أحد عناصرها الاشتقاقية الثابتة إضافة أنه رامز إلى عملها.

- إن هذه الكسرة حسب التراث النحوي لها دلالة إعرابية لمجانستها حركة معمولها بصفة يبرز فيها الاشتقاق مفيدا للإعراب [56].

فالرمزية فيما نقصد بالاشتقاق الرمزي ذات وجهين، الأوّل أن المادة الاشتقاقية مادة مختزلة في عنصر اشتقاقي واحد (الحرف أوالحركة) تماما مثلما رأينا في كسرة صرافم الجرّ، والثاني رمزية هذا العنصر على دلالة إعرابية منتظمة هي دلالة عمل الجرّ.

---

54) المقصد منها عموما الكلمات ذات المعاني النحوية (ما يمكن أن يناسب في العربية الصرافم الحرفية وأسماء الإشارة والضمائر...)، وذلك في مقابل الكلمات ذات المعاني المعجمية :

Gougenheim. G. (1959) , pp 1-2.

55) ما خرج من صرافم الجرّ عن هذه الكسرة مبرّر بعلل مضبوطة دقيقة : انظر في هذا : 3.1.2 : العلوي (2006 أ)

56) انظر : 2.2.1.2 : العلوي (2006 أ)

فالغاية الأساسية من الاشتقاق الرمزي هي الدلالة الإعرابية، فالعنصر الاشتقاقي عادة ما يرتبط وجوده في الكلمة بدلالة إعرابية ما تحملها هذه الكلمة نفسها ويظهر أثرها في المستوى الإعرابي، مثال هذا أن حرف اللام إذا كان في الموقع الاشتقاقي الأوّل في الصرافم الحرفية فهي صرافم عاملة، وإذا كان في الموقع الاشتقاقي الأخير فالصرافم غير عاملة:

- اللام في الموقع الاشتقاقي الأوّل : (لا، لم، لن، لعلّ، لكنّ، ليت) : صرافم عاملة.
- اللام في الموقع الأخير : (هل، بل، بلى، أجل، بجَل، جلل، كلا) : صرافم غير عاملة [57].

فالاشتقاق الرمزي مؤسّس على غاية دقيقة هي الدلالة الإعرابية، مثالها هنا العمل أو عدم العمل، فهو اشتقاق يمكن تسميته استنادا إلى هذه الغاية الاشتقاق الإعرابي [58] Dérivation syntaxique، الموصوفُ للفظ الاشتقاقي والصفة للغاية المذكورة.

والاشتقاق الرمزي مثيل في عنصره الاشتقاقي الرمزي للجذر في خصيصتين على الأقلّ، الأولى المماثلة في أصالة الحروف (مثال هذا المثالان المذكوران : كسرة الاعتماد في صرافم الجرّ، واللام في الصرافم الحرفية)، والخصيصة الثانية صفة التجريد، فالجذر مفهوم مجرّد، يوازيه في هذا العنصرُ الاشتقاقي الرمز باعتباره لا يمكن أن يفهم إلاّ بدرجة عليا من التجريد تدرس في إطارها علاقة الجزء بالكلّ [59].

والآلية المعهودة في الاشتقاق الأصغر قائمة عموما على توسّع لفظي كمّي تحتاج إليه الممارسة الاشتقاقية [60]، فالمشتقات على مختلف أنواعها هي ضرب من التجسيد للجذر والتوسّع الكمّي فيه بطرق صرفية مضبوطة منها الاستناد إلى البنية الحركية (ك، ت، ب : كَتَب) وإدخال حروف الزيادة (ك، ت، ب :

---

57) انظر هذا المثال في : العلوي : 2.2 : (2006 أ)

58) هذا المصطلح بمفهومه المذكور من اقتراحنا، ولا علاقة له بالتمثيل الإعرابي المشتق بمفهوم تشومسكي : Pollock (1997) , pp 70-72

59) شبيه بهذه العلاقة بين الاشتقاق والتجريد ما ذكره الشريف في اعتباره العنصر المجرّد (ء...ن) عنصرا مولّدا للزوجين (إنْ، أنْ)، (إنّ، أنّ) : الشريف (2002)، ج 2، ص 852

60) نجد للاشتقاق بمعناه اللساني العام طرقا قائمة على الاختزال مثل :

الاشتقاق العكسي : Dérivation inverse : – Chant Chanter

الاقتطاع : Troncation : Télévision – Télé

.Delbecque (2002), pp 92-93 , (+ p 99)

وليس ذكرنا لهذه الطرق إلا للإشارة إلى آلية الاختزال المسيّرة للمشتق والمشتق منه.

استكتب)، كذا الأمر مع الاشتقاق الرمزي وإن اختلفت آليته الاشتقاقية الممثّلة أساسا في المشترك الثابت جنسا وموقعا، مشتركٍ نفترض أن صرافم الجرّ المكسورة الاعتماد مشتقة منه :

مادة الاشتقاق الأولى المشتق

اللام حرفا أوّلَ ——— لا، لم، لن، لعلّ، لكنّ، ليت : صرافم حرفية عاملة.

الكسرة حركة أولى ——— بِ، لِ، مِن، فِي، إلِى : صرافم جرّ

واللافت للنظر في كسرة الاعتماد في صرافم الجرّ علّتها التي نصّ عليها التراث، فهذه الصرافم مكسورة حرف الاعتماد لأنّها محدِثة الجرّ في المعمول : (بِ، لِ، فِي، مِن، إلِى)، والفكرة الأساسية في هذا مستمدّة من التراث في تعليل كسرة الصرفم (بِ) [61]، فالكسرة في اعتبارنا عنصر اشتقاقي يحمل دلالة إعرابية محدّدة (الإنباء عن جرّ المعمول)، فهي حركة تمثّل العنصر الاشتقاقي الأساسي الذي بنيت عليه هذه الصرافم في إطار الاشتقاق الرمزي.

والعنصر الاشتقاقي المقصود ليس إلاّ الصوتم الرمز في مجال الصوتمية الرمزية [62] Phonologie symbolique حيث يضطلع الصوتم الرمز بدلالة إعرابية خاضعة لما سنذكره من آلية الاشتقاق الرمزي، لكنّ الفرق في زاوية النظر، فالصوتم الرمز يندرج ضمن رمزية الصواتم دون أن يكون مقيّدا بإنتاج اشتقاقي، أمّا الاشتقاق الرمزي فمؤسّس على ما يقوم عليه الاشتقاق من قدرة إنتاجية وطاقة توليدية وربط بين المستويين الاشتقاقي والإعرابي.

وقد يكون للجذر في اللسان العربي باعتباره لسانا اشتقاقيا دور أساسي في الاشتقاق الرمزي لإحالة الجذر إلى مكوّنات ذرّية هي الحروف الأصول، شبيه بهذا الاشتقاق الرمزي المؤسّس على مكوّن أصليّ حرفا كان أم حركة، وهذا ما قد لا يتوفّر في الألسن التي تعتمد الجذع مادة اشتقاقية أولى تضيع في إطارها رمزية العنصر الحرفي أو الحركي المذكور.

يدعم هذا ما نجده في التأليف اللساني من مفهوم للاشتقاق، فـ "الاشتقاق... يقرن وحدة معجمية (مثال : National) بصرفم غير مستقلّ (مثال : - isation, - iser, - iste, - ité)، وتسمّى الصرافم المقيَّدة التي تمكّن من بناء مشتقات صرافم اشتقاقية Morphèmes dérivationnels، ويعرف المجال الصرفي المهتمّ بهذا بـ "الاشتقاق [63]" «Morphologie dérivationnelle» [64]، ففي هذا

---

61) ذكرنا هذا بصفة مفصّلة في : العلوي (2.2.1.2 : 2006 أ)

62) وضّحنا مفهوم الصوتمية الرمزية في : (3.1 : العلوي 2006 أ).

63) راعينا في التعريب المستقرّ الاصطلاحي، لهذا اجتنبنا مصطلح "الصرف الاشتقاقي".

التحديد تركيز على علاقة المكوّن الثابت الممثّل في الجذع بالصرفم المقيّد الذي يمثّل الوحدة المتحوّلة التي تساهم في تغيير قسم الكلمة أو صنفها.

فالاشتقاق الرمزي لتأسيسه على عنصر اشتقاقي حرفي أو حركي لا ينسجم مع الاشتقاق المذكور القائم على الجذع، فهو يحتاج إلى تحليل ذرّيّ يضطلع فيه عنصر حرفي أو حركي بدور هامّ في تأسيس علاقة بين الاشتقاق والإعراب، مثال ذلك ما ذكرنا من أمثلة سابقة.

ويمكن أن نعتبر في إطار تصوّر افتراضي ودرجة عليا من التجريد أن الاشتقاق الرمزي خاضع لضرب من الانتظام الممثّل في الاقتران المطّرد للعنصر الرمزيّ بنفس الدلالة الإعرابية.

وهذا الانتظام قد لا يتوفّر دائما في الاشتقاق الأصغر، فليست كلّ ظواهره منتظمة، مثال ذلك اشتقاق المصادر من الجذر الثلاثي، إذ لا تتقيّد بصيغ واحدة : (ك - ت - ب : كتابة، ع - ل - م : عِلم، س - ء - ل : سؤال...)

2.4. الاشتقاق الرمزي والدلالة الإعرابية :

ولهذا الاشتقاق الرمزي في اعتقادنا بعض الجذور في التراث النحوي، يظهر ذلك خصوصا فيما في هذا التراث من نظرة يمكن اعتبارها اشتقاقية لما فيها من ثنائية الأصل والفرع وردّ بنية إلى أخرى في بعض الصرافم الحرفية المتشابهة لفظا، والأمثلة في هذا كثيرة، ما يعنينا منها ما بدا لنا خاضعا لآلية اشتقاقية منتظمة، من أسسها ردّ بنى صرافم حرفية متشابهة إلى حرف اشتقاقي واحد، والأمثلة في هذا عديدة نورد بعضها ذكرا لا حصرا.

فمن هذه الأمثلة أن " الفراء يذهب إلى أن الأصل في لن ولم لا، وإنما أبدل من ألف لا النون في لن والميم في لم " [65]، وهذه النظرة الصوتمية يجب ألا تخفي عنّا العنصر الاشتقاقي الرمزي (حرف اللام) الذي تردّ إليه هذه الصرافم الحرفية الثلاثة، فهو، فيما نفترض، بمثابة المادّة الاشتقاقية الأولى التي تشتقّ منها الصرافم المذكورة.

(64 Delbecque (2002), p 99 : " la dérivation ne combine pas deux lexèmes, mais associe un lexème (p. ex. National) à un morphème dépendant (P. ex. –isation , -iser, -iste, -ité). Les morphèmes liés qui servent à former des dérivés sont appelés morphèmes dérivationnelles. La branche qui s'en occupe est connue sous le nom de morphologie dérivationnelle. "

65) شرح المفصّل، ج 5، ص 16

والأمر نفسه كذلك في علاقة (أم) بـ (أو)، فالأصل في الأولى "أو أبدلت الميم من الواو لتحوّل إلى معنى" [66]، فالهمزة في هذين الصرفمين حرف اشتقاقي رمزي مثّل الأصل فيهما، وليس ما يعنينا في هذه الأمثلة إلاّ الاهتمام بردّ البنى الاشتقاقية المتشابهة لفظا إلى بعضها بعضا تمسّكا بثنائية الأصل والفرع التي يقوم عليها الاشتقاق.

شبيه بهذا أن الفعل الثلاثي المضموم العين تضطلع فيه هذه الضمة بدور دلاليّ إعرابي أساسي، فهي إضافة إلى دلالاتها المعجمية كالأوصاف المخلوقة مثل الحسن والقبح وغير ذلك [67] رامزة إلى معنى إعرابي هو لزوم الفعل بصفة يمكن أن نعتبر بها هذه الضمة "صرفم اللزوم" ، فهذا العنصر الاشتقاقي (الضمة) يبدو لوظيفته الرمزية المذكورة مولّدا للفعل اللازم الذي يحمله.

ونجد في بنى الصرافم الحرفية في اللغة العربية دليلا على ما نقصد بالاشتقاق الرمزي، فكلّ الصرافم الحرفية المحتوية على حرف النون في غير الموقع الاشتقاقي الأوّل صرافم عاملة (أنْ، إنْ، أنّ، إنّ، كأنّ، لكنّ، لن، مِن، عن، إذن)، وهذ ا في مقابل (نعَم) الصرفم الحرفي غير العامل باعتبار وجود حرف النون في الموقع الاشتقاقي الأوّل [68]، فالمشترك بين هذه الصرافم حرف النون مقترنا بالدلالة الإعرابية الرمزية نفسها بصفة تجعله العنصر الدلالي الرمزي، وهو عنصر نفترض أنه العنصر الاشتقاقي الذي بنيت عليه هذه الصرافم.

ومن خصائص الاشتقاق الرمزي ضرورة انطباقه على مدوّنة ما، فآليته نفترض فيها أن تسيّر قسم كلم أو صنفا منه، وذلك استنادا إلى عناصر رموز قليلة قادرة على التحكم في الدلالة الإعرابية للوحدات اللسانية التي تنتمي إلى المدوّنة المفترضة، فلا يكفي أن يضطلع عنصر ما بهذا الدور الرمزي في مثال ما لنعتبر ذلك من الاشتقاق الرمزي، فلا بدّ من آلية منسجمة عناصرها الاشتقاقية الرمزية كالتي بين الكسرة في صرافم الجرّ وحرفي اللام والنون في صرافم النصب والجزم، كلّ له دوره مع تكامل وظيفي بينهما [69].

ومن قرائن هذا الاشتقاق أن نتيجته لا تنقلب إلى سبب، فالعنصر الرمزي لا يمكن أن يكون مرموزا إليه، مثال هذا أن دلالة الكسرة على عمل الجرّ لا يمكن

---

66) ابن فارس أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 126
وانظر الرأي نفسه في : الزركشي بدرالدين، البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 180

67) شرح الشافية، ج 1، ص ص 74 – 75

68) العلوي (1.2.2.2 : 2006 أ)

69) انظر خاتمة الباب الثاني في العلوي (2006 أ).

أن تنعكس، ذلك أن المعمول المجرور لا يدلّ ضرورة على هذه الكسرة، إذ يمكن أن يحدث الجرّ بالإضافة [70].

فالاشتقاق الرمزي ذو دلالة إعرابية واحدة، لا مجال فيها للافتراض والتخمين، وفي هذا التعيين الأحادي صبغة شكلية دقيقة تساهم في ضبط مواضع إعرابية ضبطا دقيقا مباشرا يبرز به الاشتقاق مفيدا للإعراب إفادة تعيينية مباشرة.

ويمكن بناء على هذا أن يفهم الاشتقاق الرمزي بمفهومين مرتبطين، الأوّل الاشتقاق المفترض للوحدة اللسانية من عنصر اشتقاقي ما، والثاني "اشتقاق إعرابي" مرتبط بالدلالة الإعرابية المرموز إليها بالعنصر الرمز.

إن دلالة الاشتقاق الرمزي دلالة إعرابية مخالفة لطبيعة العنصر الاشتقاقي، فهو اشتقاق مؤثّر في مكوّن من غير جنسه تأثيرا مباشرا تقترن فيه هذه الدلالة بالعنصر الرمز الذي تحمله بنية اشتقاقية ما.

وتكمن قيمة الاشتقاق الرمزي في أنه مثبت لعلاقة مباشرة بين الاشتقاق والإعراب ليس لها صدى واضح في البحث اللساني، وهي علاقة من شأنها أن تثبت ما بين المستويات اللغوية من استرسال يظهر ما بينها من تعامل. فالحاجة إلى دراسة بعض الكلمات الفارغة دراسة اشتقاقية تستوجب آلية مخصوصة مستمدّة ممّا لبنى هذه الكلمات من خصائص لفظية شكلية لا تنسجم معها آلية الاشتقاق الأصغر، والتسليم بهذا دعوة صريحة إلى توسيع مفهوم الاشتقاق وإن اختلفت الآليات والأنواع ومناقشةِ ما في التراث من اعتبار بعض أصناف الكلم وحدات لسانية جامدة غير متصرّفة.

فالصرافم الحرفية حسب هذا التراث "يشتقّ منها ولا تشتقّ هي أبدا، وذلك أنها لمّا جمدت فلم تتصرّف شابهت بذلك أصول الكلام الأول التي لا تكون مشتقة (من شيء) (لأنه ليس قبلها ما تكون فرعا له ومشتقة منه) يؤكد ذلك قولهم : سألتك حاجة فلوليت لي أي قلت لي (لولا)..." [71]

وهذا الحكم الاشتقاقي المستمدّ من التراث النحوي حكم يتعذّر معه طرح مقاربات اشتقاقية يمكن بها دراسة أصناف من الكلم مثل الصرافم الحرفية، ويبدو لنا أن ما انعدم فيه الاشتقاق بمفهومه المستقرّ في التراث قد يكون خاضعا لآلية اشتقاقية مخصوصة اقترحنا تسميتها "الاشتقاق الرمزي".

---

70) يمكن أن يحدث الجرّ كذلك بصرافم الجرّ غير مكسورة الاعتماد، وقد بيّنا تعليل حركة هذه الصرافم في : العلوي (1.3.1.2 : 2006 أ).

71) الخصائص، ج 2، ص 37

انظر كذلك : العكبري أبا البقاء، مسائل خلافية في النحو، 1992، ص 80

3.4. جذور الاشتقاق الرمزي في التراث اللغوي العربي :

إن للاشتقاق الرمزي في اعتقادنا جذورا في التراث اللغوي، نرى له إطارا نظريا عاما ضمن اتجاهات الاشتقاق، فأبو حيّان يذكر للاشتقاق الأصغر ثلاثة اتّجاهات : "وهذا الاشتقاق أثبته الجمهور في أن بعض الكلم قد تشتقّ من بعض، وذهبت طائفة إلى أن لا يشتقّ شيء من شيء، بل كلّ أصل، وذهبت طائفة أخرى إلى أن كلّ كلمة مشتقة من الأخرى... " (72). وما يعنينا في كلّ هذا الإشارة إلى قيمة الاتجاه الأوّل فيما نبحث فيه، فهو " نظرية جزئية تقول بجزئية الاشتقاق وبعضيته " (73)، وهي بعضية تترك دراسة بعض أصناف الكلم (مثل الصرافم الحرفية) مجالا مفتوحا لمقاربات اشتقاقية تختصّ بآلية تختلف بداهة عن آلية الاشتقاق الأصغر لأنه لا يشمل كلّ الكلم.

ونجد في التراث رأيا لمفهوم الاشتقاق لا يجزم بالعلاقة الاشتقاقية بين المشتق والمشتق منه، فابن عصفور رغم ذكره أن أكثر النحويين يحدّون الاشتقاق الأصغر بأنّه "إنشاء فرع من أصل" يرى أنّ "هذا الحدّ ليس بعامّ للاشتقاق الأصغر، لأنه قد يقال" هذا اللفظ مشتق من هذا "من غير أن يكون أحدهما مُنشأ عن الآخر، وذلك إذا كان تركيب الكلمتين واحدا، ومعنياهما متقاربين، وذلك نحو ما ذهب إليه أبو علي في"أولق" في أحد الوجهين من أنه مأخوذ من ولق يلِق، إذا أسرع، وذلك لأن "الأولق" الجنون، وهي ممّا يوصف بالسرعة. فلمّا كانت حروف "أولق" إذا جعلته "أفعل"، و "ولق" واحدة، ومعنياهما متقاربين لأن الجنون ليست السرعة في الحقيقة، بل يقرب معناها من معنى السرعة جعل "الأولق" مشتقا من "ولق"، لا بمعنى أن "الأولق" مأخوذ من "ولق"، بل يريد أن "الأولق" حروفه الأصول الواو واللام والقاف، كما أن "ولق "كذلك" (74).

والهامّ في هذا الشاهد ما فيه من تصريح بأن القول بالاشتقاق لا يستلزم ضرورة "إنشاء اشتقاقيا"، فاشتراك كلمتين في جذر ما لا يعني ضرورة اشتراكا معنويا بينهما ولا يدلّ كذلك على ممارسة اشتقاقية منجزة صنعت الواحد من الآخر".

وهذا التصوّر النظري الافتراضي من شأنه أن يوسّع مفهوم الاشتقاق مع عدم ربطه ضرورة بممارسة اشتقاقية مُنشأة، وفي هذا يحتاج الاشتقاق الرمزي

---

72) الأندلسي أبو حيان، ارتشاف الضرب من لسان العرب، ج 1، ص ص 13 – 14.

انظر كذلك السيوطي، المزهر، ج 1، ص 348

وانظر تعليق عاشور (1999) على هذه الاتجاهات، ص ص 65-66

73) عاشور (1999)، ص 66.

74) ابن عصفور، الممتع في التصريف ج 1، ص ص 41-42.

إلى هذا التصوّر ليضفي على كيانه شرعية مستمدّة من التراث اللغوي، فالعنصر الاشتقاقي الرمزي ليس إلاّ جزءا من الكلمة التي نفترض اشتقاقها منه، لكنّه يحمل دلالة هذا المشتق نفسه، فهو اشتقاق لا يمكن إثباته بممارسة اشتقاقية سابقة له، مع هذا يمكن فيه القول بالاشتقاق دون أخذ الواحد من الآخر.

ويوضّح ابن عصفور نفسه هذا الفصل بين المشتق والمشتق منه بقوله "إن قيل : فكيف يجوز أن تقول "هذا اللفظ مشتقّ من هذا اللفظ"، وأحدهما ليس بمأخوذ من الآخر، وقولك "مشتق" يعطي أخذ أحدهما من صاحبه ؟ فالجواب أن هذا على طريق المجاز، كأنهما - لاتّحاد لفظيهما وتقارب معنييهما – قد أخذ أحدهما من الآخر، كما تقول في الشخصين المتشابهين : هذا أخو هذا، تشبيها لهما بالأخوين [75].

فالمقصود بهذا اشتقاق مجازي مؤسّس على اشتقاق غير قائم على أخذ كلمة من أخرى، وهذا المجاز ممّا يحتاجه الاشتقاق الرمزي تقوية لمقوّماته النظرية.

والاشتقاق الرمزي قائم على ضرب من الاختزال، يتأسّس على اختزان العنصر الاشتقاقي ما تحمله الوحدة اللسانية من معنى نحوي، شبيه بهذا ما يسمّى في التراث النحوي الاشتقاق الأكبر.ولا نقصد بالاشتقاق الأكبر ما يسمّيه ابن جني الاشتقاق الكبير الذي يسميه كذلك "الاشتقاق الأكبر"، و "هو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا... "[76]، ففي هذا النوع محافظة على الأصول الثلاثية مع تقليبات محدّدة، لكنّنا نعني بالاشتقاق الأكبر نوعا ثالثا ذكره السكاكي ونسبه إلى أستاذه الحاتمي : "وههنا نوع ثالث من الاشتقاق كان يسميه شيخنا الحاتمي رحمه الله الاشتقاق الأكبر، وهو أن يتجاوز إلى ما احتمله أخوات تلك الطائفة من الحروف نوعا ومخرجا...وأنه نوع لم أر أحدا من سحرة هذا الفن، وقليل ما هم، حام حوله على وجهه إلاّ هو" [77]، ويوضّح هذا الفنّ عبد الله العلايلي بذكر أمثلة تبينه :

"ومثاله بأن تنتقل بالحروف إلى ما يجانسها، في (قط) مثلا التي تتنوّع إلى (قطب) و(قطع) و(قطل)، وكلّها تتضمن معنى القطع، ويجانس (قط) (قص) ومنها (قصم) و (قصل) و (قصف) و (قصر) و (قصا)، وهي تفيد معنى القطع جميعها... " [78]، وتكمن الإضافة هنا في المشترك المعنوي بين المشتق منه

---

75) الممتع في التصريف، ج 1 ص 43

76) الخصائص، ج 2، ص 134

77) السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ص 15

78) العلايلي عبد الله، مقدمة لدرس لغة العرب، ص 309، وانظر أمثلة أخرى بالصفحة نفسها.

(الجذع الجزئي) والمشتق الذي يفوقه عددا (الجذع)، فالمدار على ما يشبه علاقة الجزء بالكلّ دون تغيّر ملحوظ في المعنى لما أشرنا من المشترك المذكور.

وما يعنينا في هذا أن المادة الاشتقاقية الأولى التي تعتبر بمثابة "الجذع الجزئي" (قط، قص) تفوقها المشتقات في عدد الأصول مع المحافظة على المعنى المعجمي [79]، وفي هذا منفذ للتأويل، تفطن إليه البعض حدسا [80]، ورأيناه ضربا من الرمزية الاشتقاقية، فالمادة الاشتقاقية الأولى رمز لدلالة معجمية مشتركة مع دلالة المشتقات.

ولا نقصد هنا ما ذكره ابن جنّي في "مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث... وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر عنها، فيعدّلونها بها ويحتذونها عليها... من ذلك قولهم : خضم وقضم، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ... والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها" [81]، فالجذع الجزئي في هذين الفعلَين (خض – قض) لا يرتبط في معناه المعجمي بفعلي (خضم وقضم)، فليس مقصد ابن جني هنا إحداث علاقة بين الجزء والكلّ مثلما بيّنا في مقاصد السكاكي.

والفائدة من الاشتقاق الأكبر، حسب ما ذكرناه من حدّ السكاكي له، إبراز أن الظاهرة التي نبحث فيها لها جذور في التراث المعجمي لا يوجد مثله في الصرافم الحرفية، إنما يوجد شبه به في الآلية المسيرة للاشتقاق الرمزي لاختلاف في الخصائص التركيبية والدلالية بين قسم هذه الصرافم وقسمي الاسم والفعل.

ويحتاج الاشتقاق الرمزي لتدعيم آلية مقوّماته النظرية إلى ضرب من "لطف الصنعة" الذي ذكره ابن جني في الاشتقاق الأكبر[82]، وليس هذا اللطف إلاّ ضربا من اجتهاد اللغوي في تتبّع علاقات بعض البنى الاشتقاقية استنادا إلى شبه لفظي واشتراك معنوي.

ويقتضي التسليم بالاشتقاق الرمزي التساؤل عن موقعه من مستويات النظام النحوي [83] ومن مستوى الاشتقاق نفسه، إذ أولى ضروراته أن ينسجم مع هذا المستوى ويتّخذ ضمنه موقعا يقارب نوعيا بقية أنواع الاشتقاق.

وللاشتقاق الرمزي أن يمثّل درجة رابطة بين المستويين الصوتمي والاشتقاقي، والارتباط بالمستوى الصوتمي لما للصوتم الرمز من وظيفة تمييزية

---

79) انظر مزيدا من الأمثلة في : Zanned Lazher (2003) , p p 49-51.

80) مقدمة لدرس لغة العرب، ص 309.

81) الخصائص، ج 2، ص 157

82) الخصائص، ج 2، ص 134

83) انظر تفريع المستويات النحوية وعلاقاتها في: الشريف (2002)، ص ص 297-299.

ذات وجهين، يتمثّل الأوّل في تمييز الوحدات اللسانية بعضها عن بعض، ويتجسّد الثاني في تمييز هذه الوحدات باعتبارها مجموعة منسجمة ذات خصائص لفظية ودلالية محدّدة.

ومردّ هذه الدرجة ما اقترحناه من تصوّر قائم على اعتبار العنصر الرمز (الصوتم الرمز) عنصرا اشتقاقيا بنيت عليه الوحدة اللسانية الحاملة لهذا العنصر نفسه، وهذا التصوّر يقتضي النظر إلى الحرف الرمز من زاوية اشتقاقية لا يعتبر بها هذا الصوتم مجرّد عنصر تمييزي بين الوحدات اللسانية، بل مادّة اشتقاقية، أهمّ خصائصها الاختزال والتجريد والتوظيف الدلالي.

خاتمـة

لقد أبرزنا في هذا المقال الإطار اللساني النظري الذي تندرج ضمنه علاقة الاشتقاق بالإعراب، فهي علاقة تندرج ضرورة ضمن مفهوم الاسترسال الرابط بين المستويات النحوية.

وقد بيّنّا التعامل بين الاشتقاق والإعراب في التراث النحوي وحاجة الواحد منهما إلى الآخر استنادا إلى بعض المظاهر النحوية التي استدللنا بها بصفة تدلّ على تصوّر النحاة لمفهوم النحو بمعناه الواسع الذي ظهر جليّا في مصنّفاتهم.

وقد أبرزنا كذلك بعض مظاهر الاتصال والانفصال بين الاشتقاق والإعراب في التأليف اللساني بصفة أشرنا بها إلى ما يوليه هذا التأليف من قيمة لهذه القضية وأوجه الاختلاف فيها، وقد احتجنا في هذا إلى عرض بعض المظاهر المناقشة للسائد اللساني، أظهرناها في صلة الاشتقاق بالإعراب وأوجه التداخل بين التصريف والاشتقاق.

وقد أشرنا إلى هذه القضايا اللسانية الهامّة لأنها تمثّل الإطار اللساني الذي يشرّع البحث في "الاشتقاق الرمزي" باعتباره مقاربة دقيقة يمكن أن تعتبر مظهرا من مظاهر تأكيد علاقة الاشتقاق بالإعراب لما بينهما من تعامل مؤسّس على تأثّر وتأثير يبرز في السلسلة النطقية ويظهر في التأليف اللساني قديمه وحديثه.

والخلفية النظرية للاشتقاق الرمزي مندرجة حسب اعتقادنا ضمن تصوّر مجرّد لبعض خصائص وضع اللغة، ملخّصه أن اللغة وضعت أساسا وضعا تمييزيا، وهو تمييزي خارجي مفرّق بداهة بين الألسن، وتمييز داخلي يتأسّس على وظيفة العنصر داخل الوحدة اللسانية ويحتاجه اللسان نفسه لتكوين مجموعات منسجمة تحكمها أنظمة داخلية قائمة على هذا التمييز ذاته.

ويمكن أن نعتبر أن الاشتقاق الرمزي وإن لم يثر المعجم باعتباره غير صانع لوحدات لسانية جديدة فإنه مثر لأنواع الاشتقاق في اللسان العربي، وقد يكون هذا الإثراء لصيقا أكثر بهذا اللسان باعتباره لسانا اشتقاقيا.

ويقتضي التسليم بالاشتقاق الرمزي التساؤل عن مدى محافظة العنصر الاشتقاقي الرمزيّ على كيانه اللساني بما له من دور في إطار هذا الاشتقاق وعدم التباسه بالصرفم باعتباره وحدة دنيا دالة.

ومن غاياتنا في هذا أن نشير إلى أن الاشتقاق يجب ألاّ يقتصر فقط على الناحية الإجرائية التقنية وكيفية اقتطاع الفرع من الأصل، بل يجب أن يتجاوزه إلى أبعاد فكرية مجرّدة مرتبطة بعلاقة العنصر الاشتقاقي (الحرف، الحركة) بالدلالات النحوية عموما.

ويفترض بناء على هذا التفكير في آلية اشتقاقية تنظّم ما أمكن علاقة الحرف والحركة الاشتقاقين بالدلالات النحوية وغيرها بصفة توسّع مفهوم الاشتقاق وتدعم قدرته الاشتقاقية وتزيد في تقريب العلاقة بين المستويين الاشتقاقي والإعرابي، وفي هذا تشكّل لعلاقات بين المستويات النحوية يحتاجها النظام النحوي نفسه، علاقاتٍ لا تقوم على مقابلات تقليدية بين الصرف والإعراب من جهة، والتصريف والاشتقاق من جهة أخرى.

فالاشتقاق الرمزي مجاوز للفصل بين المستويات النحوية، فعنصره الاشتقاقي الرمزي وآليته الاشتقاقية وغايته الإعرابية تستوجب بداهة هذا التجاوز، لكنّ هذا لا يعني إلغاء هذا الفصل المنهجي النظري المنظّم لهذه المستويات التي يحتاجها هذا الاشتقاق نفسه في ضبط مادّته الاشتقاقية وغايته الإعرابية.

ومن خصائص العنصر الاشتقاقي الرمز إحداثه لاسترسال بين الاشتقاق والإعراب، فهذا العنصر مكوّن اشتقاقي ذو دلالة إعرابية يمكن أن تلتصق به في هذا الإطار صفتا الاشتقاق والإعراب معا.

إن الاشتقاق الرمزي مظهر اشتقاقي يبحث في علاقة الاشتقاق بالإعراب، منطلقه عنصر اشتقاقي وغايته إعرابية، يستند في هذا إلى علاقة شبه لفظي ومشترك معنوي بين الجزء والكلّ، وهو في هذا يحتاج إلى تصوّر نظري وضرب من التجريد ودقّة ملاحظة، كلّ هذا يستوجب تتبّع بعض الظواهر اللغوية بلطف من النظر قائم على تصور لكيفية وضع اللغة، نقصد خصوصا الكلمات الفارغة.

فالاشتقاق الرمزي ينفتح على دراسة هذا الصنف من الكلمات الخالية بداهة من المعنى المعجمي، نخصّ بالذكر منها أصنافا من الاسم مثل المعوّضات

(الضمائر، أسماء الإشارة...)، وقد تثبت الدراسات التطبيقية على بعض أصناف الاسم أو الفعل توسّع مجال الاشتقاق الرمزي ليخرج من حدود الكلمات الفارغة إلى وحدات معجمية بصفة قد تفتح آفاقا ما في تعميق علاقة الاشتقاق بالإعراب.

توفيق العلوي
المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة
جامعة المنار - تونس

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 243 – 271

من مفاهيم النحو العربيِ المَنْسِيَّةِ :
"التَقْـرِيــــبُ"
موقعه في النظريّة النحويّة وبعض ما يطرحه من قضايا دلاليّة

بقلم : **توفيق قريرة**

المقدّمـة :

التقريب من المفاهيم النحويّة الكوفيّة التي لم تلق من النّحاة القدامى ولا من الباحثين في النحو من المعاصرين العناية الدنيا (بالترويج أو بالشرح) أو القصوى (بالتجريد والتجديد). عذر النّحاة القدامى قد يكمن في أنّ هذا المفهوم الكوفي لا يتلاءم ومناهجهم في التعليل وقد يكمن في سياسة إقصاء الآخر الفكري والتقليل من قيمة أبحاثه وهي سياسة مارسها النحاة في جملة من مارسها من الفرق العلميّة المتنافرة.

وعذر الدّارسين المعاصرين ممن اطلعوا على هذا المفهوم في مصادره وهم قلّة نادرة قد يكون في أنّه لا يضيف إلى الجهاز النظريّ شيئا جديدا وقد يكون العذر في أنّ المفهوم لم يلق رواجه الكافي في المصادر الكوفيّة واقتصر على النصوص الأولى (معاني القرآن للفرّاء ومجالس ثعلب) ولم يروّج له الكوفيّون أو يتناولوه بالشرح الكافي.

لن نناقش هذه الأعذار أو تلك وإنّما نشير إلى ملاحظات مبدئيّة وضروريّة تضيء لنا كثيرا من الأركان المحيطة بدراسة هذا المفهوم النحويّ الغفل.

- **أوّلا** : إنّ مفهوم التقريب لم يكن المفهوم الوحيد الذي نبت في التراث النحويّ أحسن منبت ولكنّ الأجيال المتعاقبة من النحاة جفّفت - بقصد أوبغير قصد

- الينابيع التي كان يرتوي منها. ولسنا نعني هنا كثيرا من المفاهيم الكوفيّة التي عرفت نتيجة الهيمنة البصريّة على تاريخ النحو العربي الإهمال والنسيان بل نحن نعني مفاهيم بصريّة لقيت من جيل النحاة عناء التأسيس ولم تلق من الجيل اللاحق غير الإهمال والتجاهل ونحن نكتفي ههنا بذكر عناوين المسائل ومنها باب **الإخبار**(1) في النحو وباب **مسائل التمرين**(2) في الصرف فضلا عن مفاهيم أخرى متفرقة غابت أسماؤها ومفاهيمها وقضاياها ومنها **الإنكار**(3) .

- **ثانيا** : إنّ مفهوم التقريب كان من المفاهيم القليلة التي يتقاطع فيها المشغل الإعرابي بالمشغل الإدراكي ولنقل بلغة المعاصرين بالمشغل العرفاني وهو يشبه من هذه الناحية "أفعال القلوب" وما طرحه النحاة في بابها من هذه المشاغل ذات البعدين العاملي/ الإدراكي.

- **ثالثا** : التقريب من المفاهيم النحويّة التي توحي بعد التمعن في كيفية بنائها بأنّ النظريّة النحويّة يمكن أن تتجدد أركانها بتجديد زوايا النظر إلى المسائل ومناهج طرقها ولكنّ الرغبة في رؤية الأشياء من منظار مألوف هي التي تعرقل ذلك التجديد.

وبناء على الملاحظات السّابقة قررنا العودة في هذا المقال إلى مفهوم التقريب بعد أن عرضنا في أطروحتنا بعض أسسه (انظر : قريرة، 2003، 68-69). ويهمّنا أن نعيد طرح هذا المفهوم بالتركيز على المحورين التاليين :

* - نوع العمل في التقريب وعلاقته بنظريّة العامل العربيّة.

* - التقريب عاملا نحويّا ذو صلة بإدراك المتكلّم لخارجه.

1- ما التقريب ؟

يرتبط متصوّر التقريب باسم الإشارة (هذا) وأخواته من الأسماء الدالة على مشار إليه قريب (هذه- هذان – هاتان -هؤلاء) وهذا الارتباط يجعل المتصوّر معروفا في نصوص النحاة ومألوفا ولقد قال سيبويه وهو يتحدّث عن (هذا) : "إن

---

1) قالَ ابن هشام : "ويسميه بعضهم باب السبك وهو باب وضعه النحويّون للتدريب في الأحكام النحويّة كما وضع التصريفيّون مسائل التمرين في القواعد التصريفيّة". ومثاله أنٍ يسأل الممتحن : كيف تخبر عن زيد من قولنا (زيدٌ منطلق) بالذي فيكون الجواب (الذي هو منطلقٌ زيدٌ) : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك :238/4 ؛ وانظر بدايات المفهوم في : الكتاب139/1.

2) قال ابن الحاجب : "مسائل التمرين معنى قولهم : كيف تبني من كذا مثل كذا ؟ أي إذا ركّبت منها زِنتها وعملت ما يقتضيه القياس فكيف تنطق به؟ " (الشافية، ضمن شرح الشافية، 294/3) مثاله أن يبنى من (دَعَا) على وزن (صَحَائف) فيقال بعد جملة من التغيّرات التعامليّة(دَعَـــايَا) .

3) مثاله إذا قال قائل : (هذا زيدٌ) قلت في الإنكار (أَزيْدٌ نِيَهْ ؟) .. انظر الكتاب2/419-422؛ شرح المفصّل 50/9 ..

المخبر أراد أن **يقرّب** به شيئا ويشير إليه لتعرفه بقلبك وبعينك دون سائر الأشياء" (الكتاب :7/2).

فالتقريب هو بهذا المعنى الذي رسمه الكتاب وروّج له النحاة اللاّحقون معنى من المعاني التي تفيدها طائفة من أسماء الإشارة بأن تدلّ في الاسم الذي تقترن به على أنّه قريب مرجعيّا من المركز الذي يُصدر منه فعل الإشارة (مقام /سياق) فإذا أضفنا إلى المثال التالي :

(1) زيدٌ قادمٌ.

اسم الإشارة (هذا) وقلنا :

(2) هَذَا زيدٌ قَادمٌ

فإنّ الاسم (هذا) قد أفاد في الجملة وبعد الدخول عليها معنى التقريب بأن جعل (زيدا) المخبر عنه بالقدوم قريبا مرجعيا من المشير والمخاطب بالإشارة.

وبما أنّ اسم الإشارة يفيد في الجملة هذا المعنى بعد دخولها، شبّه النحاة اسم الإشارة بالحرف وقالوا إنّ الإشارة معنى كان من المفروض أن توضع له الحروف لا الأسماء لأنّ وسم الكلمة أو الجملة أو الكلام بالمعاني من استفهام ونفي ونهي وغيرها من وظائف الحروف. قال رضيّ الدين الإستراباذي : "اعلم أنّ أسماء الإشارة بنيت عند الأكثرين لتضمنها معنى الحرف وهو الإشارة وهو معنى من المعاني كالاستفهام فكان حقّها أن يوضع لها الحرف يدلّ عليها وذلك أنّ عادتهم جارية في الأغلب في كلّ معنى يدخل الكلام أو الكلمة أن يوضع له حرف يدلّ عليه كالاستفهام ..والنفي .. والتمنّي والترجّي .." (شرح الكافية : (ش.ك)، 472/2).

ومعنى التقريب يمكن أن يستفاد كذلك من الإسناد الأصلي كما في الجملة (3) :

(3) - هَذَا زيْدٌ.

وهي إفادة مضمّنة في معنى الإشارة المضمّن بدوره في معنى الإخبار الأبرز في هذا المثال.

ومعنى التقريب يتقابل بهذا الشكل مع معنى التبعيد كما في المثالين (4) و(5) التاليين :

(4)- ذاكَ زيدٌ قَادمٌ.

(5) – ذاكَ زَيْدٌ.

فـ (4) يقابل نظاميّا (1) ويقابل (5) (3).

لكنّ التقريب الذي اهتمّ به الكوفيّون ليس هو الذي حللناه في هذه النماذج وإن كان ذا علاقة به فهو مفهوم يرتبط بالإشارة ويستثمر دلالة (هذا) وأخواته على معنى التقريب المذكور لكنّه يبني عليه كثيرا من المفاهيم الإعرابيّة والدلاليّة والإدراكيّة.

كان أبو زكرياء يحيى الفرّاء (ت 208هـ/821م) إمام نحاة الكوفة بعد الكسائي أقدم نحويّ عرض مفهوم التقريب في أثره "معاني القرآن" (من هنا فصاعدا : معاني) عند تعليل إمكان الرفع والنصب كليهما في عبارة (هُدًى) الواردة في قوله تعالى (البقرة، 2) : (**ذَلِكَ الكِتَابُ لا ريبَ فيه هُدًى للمتّقينَ**) وعند تعليل النصب قاس الفرّاء (هدًى للمتقينَ) على (هذا بعلي شيخًا) في قوله تعالى(هود،72) :(**أألِدُ وأنا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شيْخًا**) وفي هذه الآية قراءتان كالتالي :

(6)- هَذَا بَعْلِي شَيْخًا.

(7)- هَذَا بَعْلِي شَيْخٌ.

واختار الفرّاء القراءة الأولى التي في المثال(6) (معاني :12/1) ولكنّه مضى يبرّر الفرق بين النصب والرفع حتّى يصبح اختيار القراءة المذكورة معللا وفي التعليل عرض الفراء لمفهوم التقريب ويمكن أن نلخّص رأيه فيه في سياق الملاحظات التالية :

- **أوّلا** : أنّ **التقريب يرتبط باسم الإشارة إلى القريب** (هذا وأخواته) ولكنّه مفهوم تركيبي لا يطرح إلاّ إذا تعلق اسم الإشارة بمشار إليه معرّف بالألف واللاّم (وضمنيّا بشكل آخر من أشكال التعريف) (معاني : 12/1) وذاك يعني أنّ أمثلة من نوع (8) :

(8) - هذا الأسَدُ مُخيفًا.

داخلـــــــة في هذا الضرب من المفاهيم على النقيض من الأمثلة التي من نوع (9) :

(9) - هذا أسَدٌ مُخيفٌ.

فإنّها لا تجد مكانها في هذا المتصوّر.

- **ثانيا** : **يرتبط التقريب بنوع اللاّم الداخلة على المشار إليه** ويميّز بين اللاّم العهديّة الدّالة على واحد بعينه كما في (الرّجل / المرأة إذا دلاّ على الوحدة لا على الجنس) أو الجنسيّة الدالة على عموم الجنس وبعبارة الفرّاء ما كان "واحدا يؤدّي عن جميع جنسه" كما في عبارة (الأسد) في (8) أو قولك في مثال االفرّاء (10) :

(10)- مَا كانَ منَ السِّبَاعِ غَيْرَ مُخَوِّف، فـ**هَذَا الأَسَدُ مُخَوِّفا** (مَعانِي : 12/1).

والضرب الثالث من معاني اللام هي التي تدلّ على الواحد الذي "لا نظير له" (معاني :1 /12) من جنسه كما في (القمر) و(الشمس) إذا دلا على الكوكبين الحقيقيين أو في اسم آخر يقصد به عدم النظير كما في قولك (الكتاب) وأنت تقصد القرآن.

- ثالثا : الصلة بين نوع اللاّم وحركة الإعراب

توجد صلة بين نوع اللام وحركة الإعراب نوجزها كما يلي :

ء - إذا كانت اللاّم دالة على واحد بعينه كما في قولنا (هذا الرجُلُ مَاكرٌ) فإنّ الرفع لكلا الاسمين بعد الإشارة ولا يجوز نصب الثاني.

ب - إذا كانت اللام دالة على الجنسيّة كما في (10) فإنّ الاسم الأوّل يكون مرفوعا ويكون الثاني منصوبا.

ج - إذا كانت اللام دالة على واحد بعينه كما في قولنا في (11) أو (12) وهما من أمثلة الفرّاء :

(11) - هذا القمرُ نورًا

(12) - هذه الشمسُ ضيَاءً

فإنّ النصب على التقريب يدخل على ما كان في لأصل خبرا.

- **رابعا** : لا يخصّ التقريب من الحالات السّابقة إلاّ المكوّن المنصوب في الأمثلة (10) و(11) و(12) وعندئذ يصبح التقريب عاملا من العوامل النحويّة التي يفسّر بها الفرّاء نصب (مخوّفا) في (10) و(نورًا) في (11) و(ضياء) في (12).

يفسّر الفرّاء على عادة الجمهور الأغلب من الكوفيين العامل في المبتدأ والخبر بالترافع ففي قولنا (13)، (14) :

(13) الأسدُ مُخوِّفٌ

(14) القمرُ نورٌ

عمل المبتدأ (الأسد/القمر) الرفع في الخبر (مخوّف/نور) وعمل الخبر الرفع في المبتدأ وفق مبدأ الترافع. إلاّ أنّه حين دخل اسم الإشارة (هذا) على الجملتين كما في (10) و(11) تغيّرت شبكة الترافع فصار ما كان مبتدأ في (13) و(14) "مشغولا" بمرافعة (هذا) وظلّ ما كان خبرا في (13) و(14) خاليا من العمل فنصب "لخلوته" أو " للحاجة إليه (معاني :13/1).

ويقيس الفرّاء دخول (هذا) على (13) و(14) بدخول (كان) على الجملة (15) التالية :

(15) - واللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ

لتصبح الجملة كما في (16) :

(16) - وكان الله غفورا حكيما.

فعمل (هذا) في الجملة كعمل (كان) مع فارق بين الترافع في الأوّل والرفع بالناسخ الفعلي في الثاني. يقول الفراء : "ومثله (والله غفور رحيم) فإذا أدخلت عليه (كان) ارتفع بها والخبر منتظر يتمّ به الكلام فنصبته لخلوته" (معاني 13/1:).

وبناء على كلّ ذلك فإنّ التقريب يكون من العوامل المعنويّة التي يقتصر عملها على النصب شأنه شأن "الخلاف" سوى أنّ الخلاف نصب لبعض المفاعيل والتقريب نصب للخبر الذي يدخل عليه اسم الإشارة هذا شرط أن يكون المبتدأ فيه معرّفا باللاّم الدالة على الجنسيّة أو النوعيّة التي لا نظير لها من صنفها. لكن ما العلاقة بين نوع اللاّم وإجراء النصب على التقريب أو عدم إجرائه؟

خامسا : التقريب ومبدأ الاستغناء عن الإشارة :

يقرن الفرّاء بين إعمال النصب بالتقريب وشدّة الارتباط بين اسم الإشارة والمرفوع فكلّما كان اسم الإشارة يقبل الحذف كان النصب في الجملة أجدر وكلّما كان اسم الإشارة غير قابل للحذف والاستغناء كان الرفع آكد. فبالرجوع الى الأمثلة (17)، (10) و(11)

(17) - هذا الحمارُ فارةٌ.

(10) - مَا كانَ منَ السِّبَاعِ غَيْرَ مُخَوِّف، فهَذَا الأسَدُ مُخَوِّفا.

(11) - هذا القمرُ نُورا.

يرى الفراء أنّ العلاقة بين (هذا) و(الحمار) علاقة تلازم ولا يمكن أن يحذف اسم الإشارة دون أن يؤثّر في خصوصيّة المشار إليه لأنّ هذا تفيد واحدا بعينه من جنس المشار إليه. ومن جهة أخرى فإنّ العلاقة بين المشار والمشار إليه هي علاقة تطابق مرجعيّ فـ(هذا) هو (الحمار) والعكس صحيح وبعبارة الفراء فأنت "ترى الاسم الذي بعد (هذا) كما ترى (هذا)". فالعلاقة صارت بهذا التلازم علاقة جزئيّة يعبّر عنها الفراء بعلاقة نعت (الحمار) بمنعوته (هذا) فيقول : "جعلت الحمار نعتا لهذا إذا كانا حاضرين" (معاني :12/1) ولا يعني النعت ههنا إلاّ معناه المعجميّ المرتبط بالوصف أو التعيين الإشاريّين. لكنّ العلاقة بين

(حمار) و(فاره) هي علاقة تطابق دلالي يعبّر عنه القدامى بالقول إنّ المبتدأ في المعنى هو الخبر وفي المثال السابق فإنّ الحمار هو الفاره. ففي (17) علاقتا تطابق كالتالي :

* - تطابق مرجعي (إشاري) بين (هذا) و(الحمار)

* - تطابق دلالي تحققه العلاقة الإسنادية بين المبتدأ (الحمار) و(الخبر) لم تتغيّر بدخول اسم الإشارة على أصل الجملة كما في (17ء) :

(17ء) : الحِمَارُ فارةٌ

إنّ هذا التلازم واتّحاد الماهية بين اسم الإشارة والمشار إليه تلغي وجود علاقة إسناديّة جديدة فكأنّ (هذا) بدخوله على جملة (17ء) لم يغيّر من أصل العلاقة الإسناديّة شيئا بل ظلّ الترافع الذي كان بين المبتدأ والخبر على حاله ولم يحتج إلى عامل جديد فشغل (هذا) نفس المحلّ الذي شغله متعلقه كما يشغل التابع ومتبوعه المحلّ الإعرابي نفسه ويأتيهما الإعراب من الطريق ذاتها. فالتقريب بهذا المعنى هو معنى دلالي وليس عملا إعرابيّا. ويظلّ الترافع الذي بين المبتدأ والخبر في (17ء) على حاله.

في المثال (10) و(11) لا يفيد (هذا) تخصيصا لواحد بعينه فـ(الأسد)في (10) يعني الجنس بأكمله ويستغرقه ولذا فإنّ (هذا) لا يفيد ما أفاده في(17) من تعيين للواحد بعينه؛ أمّا القمر في (11) فإنّه لا يحيل مرجعيّا إلاّ على واحد سواء أاتّصل به اسم الإشارة أم لم يتّصل. وفي المثالين يمكن حذف (هذا) والاستغناء عنه بل يرى الفراء أنّ الكلام ربّما كان "بطرح هذا أجود، ألا ترى أنّك لو قلت : (ما لا يضرّ من السّباع فالأسد ضارّ) كان أبين" (معاني : 12/1).

يفسّر الفرّاء الظاهرة تفسيرا فيه كثير من الإيجاز وقلّة الربط بين الظّواهر(نوع اللام/ العمل الإعرابي؛ عدم الحاجة إلى اسم الإشارة / العمل الإعرابي) فيقول : "وأمّا معنى التقريب فهذا أوّل ما أخبركم عنه، فلم يجدوا بدّا من أنْ يرفعوا (هذا) بالأسد وخبره منتظر، فلمّا شغل الأسد بمرافعة (هذا) نصب فعله الذي كان يرافعه لخلوته." (معاني :12/1-13).

ما يفهم من كلام الفرّاء أنّ دخول (هذا) على الجملة الأصليّة وهي(الأسدُ مُخَوِّفٌ) في (10) و(القمر نورٌ) في (11) قد أحدث تحوّلا في العمل الإعرابي الأصليّ من ترافع بين المبتدأ والخير في الجملتين الأصليّتين إلى ترافع بين اسم الإشارة (هذا) والاسم المعرفة الذي يليه (الأسد/ القمر) وخرج ما كان خبرا (الفعل باصطلاح الفراء) من نطاق الترافع فنصب بعامل معنويّ هو التقريب جاء إلى

الجملة بعد دخول (هذا). وهكذا فإنّه من الممكن أن نربط بين حاجة المعرّف باللاّم إلى اسم الإشارة وعمل التقريب النصب في ما كان خبرا كالتالي :

* - إذا كان المعرّف باللام دالا على جنس ودخله اسم إشارة (هذا) وجعله يدلّ على الواحد من الجنس (أو العيّنة) فإنّ التقريب لا يعمل في هذه الجملة النصب.

* - إذا دخل (هذا) وأخواته على اسم معرّف باللاّم ولم يجعله يدلّ على الواحد من جنسه (بأن يتركه شائعا أو أن يدلّ في أصله على ذلك الواحد) فإنّ عمل التقريب يجد مجال عمله بأن ينصب ما كان أصله خبرا (فعلا بعبارة الفراء) قبل دخوله.

غير أنّ السّؤال المُهمّ يظلّ مَطْرُوحًا : ما العلاقة بين عدم افتقار الاسم المعرّف باللام إلى اسم الإشارة وعمل النصب ؟

2 – جدلٌ [كوفيٌّ - بصريٌّ] أصَمُّ حَوْلَ "التقريب" :

لا نجد في الآثار البصريّة المعروفة تعليقا على مفهوم التقريب الكوفي ولم نجد حديثا عنه ضمن المسائل الخلافيّة بين المذهبين. لم يطرحه سيبويه في الكتاب لانّه من المتصوّرات التي ولدت بعد عصر الكتاب كما يفهم من قول الفراء : "وأمّا معنى التقريب فهذا أوّل ما أخبركم عنه" (معاني :12/1) ومن قول ثعلب تلميذ الفراء معلّقا على تأويل صاحب الكتاب للجملة (18) التالية :

(18) - هذا زَيْدٌ مُنْطلقا

فقال : "وقال سيبويه (هذا زيدٌ منطلقا) فأراد أن يخبر عن (هذا) بالانطلاق ولا يخبر عن (زيد) ولكنه ذكر (زيدا) لِيُعْلَمَ لِمَن الفعلُ (...) وهذا لا يكون إلاّ تقريبا و**هو لا يعرف التقريب**". (مجالس :43/1).

من خلال قولي الفراء وثعلب يمكن أن نفهم أنّ مصطلح التقريب لم يكن موجودا في عصر الكتاب بالمعنى الذي عرضه الكوفيّون ولكنّ ذلك ليس إلاّ تأويلا واحدا من جماعة منها أنّ "أوّليّة " الإخبار عن التقريب في قول الفرّاء لا يعني به أنّ الآثار السابقة خالية منه بل قد تعني الأوّليّة ذلك الموضع بالنسبة إلى كتاب " المعاني" أو ذلك الإملاء بالنسبة إلى بقيّة أمالي الكتاب نفسه.

وفي هذا السياق من التأويل يمكن أن يقرأ قول "ثعلب" قراءة أخرى ليعني أنّ "سيبويه" يجهل المتصوّر وأنّه لو استخدمه في تأويل الجملة (18) لكان تخريجه أكثر قبولا.

بالرجوع إلى الكتاب نجد سيبويه يعتمد مقولة أخرى مختلفة عن التقريب هي مقولة "التنبيه" ولكنّه لا يعتمدها في العمل. يقول صاحب الكتاب في "باب ما ينتصب لأنّه خبر للمعروف المبنيّ على ما هو قبله من الأسماء المبهمة" (الكتاب : 77/2) معلّقا على المثالين (هَذَا عبْدُ الله مُنْطَلِقًا) و(هؤلاء قومُك مُنْطَلِقِينَ) : "قد عمل (هذا) فيما بعده كما يعمل الجارّ والفعل فيما بعده؛ والمعنى أنّك تريد أن **تنبّهه** له منطلقا لا تريد أن تعرّفه (عبد الله) لأنّك ظننت أنّه يجهله، فكأنّك قلتَ : انظر إليه منطلقا، فمنطلق حال قد صار فيها (عبد الله) وحالَ بين (منطلق) و(هذا) كما حالَ بين (راكب) والفعل حين قلت : (جَاءَ عبدُ الله راكبا) صار (جاء) لـ (عبد الله) وصار (الراكب) حالا فكذا (هذا). و(ذاك) بمنزلة (هذا) إلاّ أنّك إذا قلت (ذاك) فأنت **تنبّهه** لشيء مُتَرَاخٍ" (الكتاب78/2). التنبيه يبدو في كلام سيبويه المقصد الأساسي من الإشارة والمعنى الذي يدخل الجملة ؛ غير أنّ دخوله لا صلة له بالعمل الإعرابي. فالتنبيه هو بلغتنا المعاصرة عمل لغوي يستفاد من الجملة شأنه شأن النفي والاستفهام بعد أن يدخل عليها اسم الإشارة بقطع النظر عن كونه للقريب أو للبعيد.

ومن خلال أمثلة سيبويه يبدو التنبيه شاملا كلّ المعارف والحقّ أنّ التقريب عند الفراء والكوفيين يشمل المعارف كلّها على الرغم من أنّ الفرّاء قصر حديثه عن التقريب على المعرّف باللاّم وحدها؛ وللتذكير فهي ثلاثة أصناف الأوّل ما دلّ اللاّم فيه على العيّنة من الجنس (الرجل) والثاني ما دلت فيه اللاّم على عموم الجنس (السمك) والثالث ما دلّ على العيّنة الفريدة من جنسها(القمر). واسم الإشارة لا يفيد التخصيص إلاّ في النوع الأوّل في حين لا يفيده في الثاني لعموم التسمية ولا في الثالث للفرادة المرجعيّة (القمر واحد مرجعيّا فلا يحتاج تخصيصا).

غير أنّ التقريب لا يخصّ المعرّف باللاّم فهو يُطلق على جميع المعارف بدليلين :

- أحدهما : أنّ الفراء أثار مسألة التقريب عند التعليق على دخول اسم الإشارة على معرف بالإضافة (بَعْلِي) في (هَذَا بَعْلِي شَيْخًا)؛ وإنّما اقتصر كلامه على المعرّف باللاّم لأنّه يثير أكثر من غيره من المعارف قضايا تتعلق بالتعيين والتخصيص العالقيْن بمفهوم التقريب وإيجاب النصب أو عدم إيجابه.

- ثانيهما : أنّ التقريب بما هو عمل يحدث بدخوله القطع بين "مترافعين" فإنّه موجود في المعارف الأخرى كما توضّحه الأمثلة التالية :

(19) - هذا زيدٌ مريضًا.

(20) - هذا أنا صغيرًا.

(21) - هذه أختي عَروسًا.

ومن جهة أخرى نرى تقابلا بين التقريب الكوفيّ والتنبيه الذي تحدّث عنه سيبويه فإذا كان التقريب عاملا لغويّا وعاملا إعرابيّا معنويّا يرتبط بضرب الإشارة الدالة على القريب فإنّ التنبيه عمل لغوي يشمل كلّ أسماء الإشارة ولا صلة لهذا المعنى بالعمل.

وإذا كان التنبيه ليس من العوامل المعنويّة في رأي سيبويه فما الذي عمل النصب في ما كان أصله خبرا قبل دخول اسم الإشارة على الجملة (زيد منطلق) ؟

يصعب الظفر من كلام سيبويه عن عامل النصب في (منطلقا) برأي واحد ونحن نورد فيما يلي النصّ الكامل في تعليل النصب يقول صاحب الكتاب معلّقا على (هذا عبد الله منطلقا) : "المبتدأ يعمل فيما بعده كعمل الفعل فيما بعده ويكون فيه معنى التنبيه والتعريف ..فيصير الخبر حالا قد ثبت فيها وصار فيها كما كان الظرف موضعا قد صير فيه بالنيّة وذلك أنّك إذا قلت (فِيهَا زَيْدٌ) فكأنك قلت : (استقرّ فيها زيد) وإن لم تذكر فعلا وانتصب بالذي هو فيه كانتصاب الدرهم بالعشرين لأنّه ليس من صفته ولا محمولا على ما حمل عليه فأشبه عندهم (ضاربٌ زيدًا). وكذلك عمل هذا في ما بعده عمل الفعل وصار (منطلق) حالا فانتصب بهذا الكلام انتصاب راكب بقولك : (مرّ زيدٌ راكبًا). (الكتاب87/2).

في هذا الكلام أكثر من تأويل لعمل النصب ويمكن أن نوجز هذا في :

* (ء) - عمل اسم الإشارة كعمل الفعل : يرفع المبتدأ وينصب الحال. وفي هذا القول مذهبان ممكنان :

أوّلهما : أن يكون عمل الإشارة كعمل الأفعال فيصير عاملا لفظيّا وهو ما يفهم من قوله سابقا : "قد عمل (هذا) فيما بعده كما يعمل الجارّ والفعل فيما بعده" وفي هذه الحالة يصبح عمل (هذا) كعمل (كان) مع فارق يتمثّل في أنّ منصوب (هذا) ليس خبرا بل هوحال.

ثانيهما : أنّ اسم الإشارة لا يعمل عمل الفعل لفظا بل تقديرا كما تعمل الأفعال بها في الظروف كقولك (فيها زَيْدٌ) الذي يؤوّل على إضمار الفعل (استقرّ) وكذلك في قولك (هذا زيدٌ مُنْطلِقًا) ينوى الفعل (انتبه) ليصبح المقدّر قوله : (انتبه إلى زيد منطلقا).

* (ب) - انتصاب الخبر باسم الإشارة أو بالاسم المشار إليه : ويرى سيبويه أنّ (منطلقا) انتصب "بالذي هو فيه كانتصاب الدرهم بالعشرين" في قولك (لي عشرُون دِرْهَمًا) عمل الدرهم في عشرين" كما أنّ العلم إذا قلت : (أنتَ الرجل عِلمًا) عمل فيه ما قبله" (الكتاب :404/1) وهذا التأويل يعني أنّ اسم

الإشارة يعمل فيما بعده النصب بنفسه من غير نيّة فعل أو تأويله ويمكن أن يحمل قول سيبويه على أنّ الناصب هو المشار إليه (الرجل /زيد) (انظر ذهاب السيرافي إلى هذين المذهبين في : الكتاب87/2، هامش (3)) فالعامل ههنا لفظيّ ضعيف لأنّ الأسماء لا تعمل في الأصل بنفسها فإن عملت فلشبه بالأفعال أو بالحروف.

* (ج) - يعمل اسم الإشارة النصب فيما بعده كما تعمل الصفات فيما بعدها (كقولك : ضاربٌ زيدًا). فعمل اسم الفاعل (ضاربٌ) كان لشبهه بالفعل ويبدو أنّ سيبويه لا يحمل على الفعل مباشرة بل على المشتقات العاملة عملها، فاسم الإشارة يعمل لشبهه بشبيه الفعل.

إنّ تعدّد الوجوه في ردّ النصب إلى عامل بعينه معروف من شأنه أن يعكس حيرة وتردّدا في تفسير النصب في (منطلقًا)، وما ماثلها وبالفعل فإنّ كلّ تخريج للعامل يثير إشكالا أو أكثر إمّا في انسجام العامل المذكور مع نظريّة العمل الإعرابي التي يجمع عليها النّحاة أو البصريّون منهم وإمّا في تصنيف اسم الإشارة (هذا) في باب الأسماء.

ففي (ء) لا يخلو حمل الإشارة في العمل على الفعل من إشكال فإذا اعتبرنا (هذا) يعمل عمل الفعل خالفنا قاعدة في عمل الأسماء عمل الأفعال وهي العلاقة الاشتقاقيّة واسم الإشارة جامد غير مشتقّ، وليس فيه ما يقربه من الاشتقاق (الوصفيّة : شرح المفصّل : ش.م69/2). وإذا اعتبرنا (هذا) وأخواته يعمل بنيّة الفعل كما يفعل (استقرّ) في الظرف (في الدار زيد) كان هذا التخريج بعيدًا لأنّ الظرف يحتاج – من حيث هو واقع فيه العمل الظاهر أو المقدّر – إلى فعل ولا يحتاج اسم الإشارة إلى فعل يفيد التنبيه في الأصل.

وفي (ب) فإنّ قياس العمل كان على اسم العدد في التمييز المرتبط به وهذا الوجه من تخريج العمل ضعيف لأنّه يجعل الاسم عاملا في الاسم وهذا العمل نادر في اللغة كثير الشروط. فلئن قيل إنّ التمييز منصوب باسم العدد فلشروط (شبه التمييز بالمفعول موقعا : (ش.م71/2)؛ حملوا لفظ (عشرون) و(ثلاثون) على (ضاربون) "من حيث أنّه مجموع بالواو والنون" ولذلك عملت لادّعاء هذا الشبه ولكنّ هذا لا تتوفّر فيها عناصر الشبه فيبقى أن تحمل على الفرع في العمل.

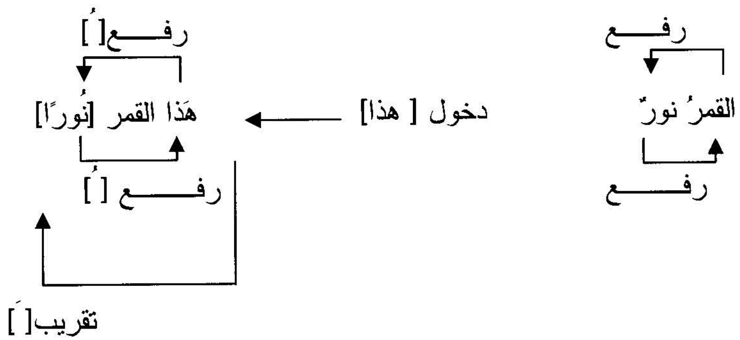
في (ج) : حمل سيبويه (هذا) على ضارب من غير وجه شبه وربّما هو حمل من درجة الحمل السابق : أنّ اسم العدد يحمل في بنيته على اسم الفاعل (ضاربون) ويحمل (هذا)على اسم العدد من غير علة مشابهة.

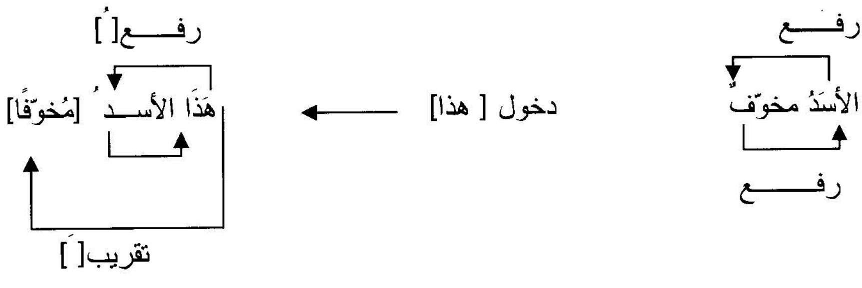
وسواء أكان العمل ما ذكر في (ء) أم في (ب) أو في (ج) فإنّ الشبه بالعوامل الأساسيّة ضعيف ومن درجة ثانية وغير معلل في غالب الأحيان لذلك يبقى البتّ فيه مشكليّا لا يتلاءم مع خصوصيّات العمل التي استقرّت بعد سيبويه.

3 - التقريب والإعراب :

1-3 التقريب ونظريّة العامل المعنويّ :

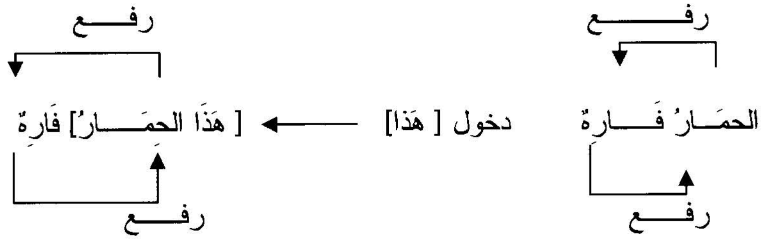
يثير التقريب فكرة يسعى النّحاة إلى تأكيد مقابلها وتتمثّل في أنّ الإعراب يسير نظاميّا بالتوازي مع الدلالة التي تستفاد في الجملة. وبهذا المبدأ يقولون إنّ الرفع يسند إلى العمد لشدّة الحاجة إليها في حين يسند النصب إلى المفاعيل وما أشبهها من المتمّمات. لكنّنا في التقريب نجد المبدأ مقلوبا : إذ كلّما كان اسم الإشارة زائدا استحقّ الرفع بدخوله في علاقة ترافع مع الاسم المعرّف وأحيل ما كان خبرا على النصب كما يوضّحه الشكل التالي :





ما حدث هو زحلقة في علاقة الترافع الأصليّة بين المبتدأ والخبر بأنْ صار الترافع حادثا بين عنصر قديم (الأسد) وآخر جديد (هذا) وبقي الخبر شاغرا من غير إعراب فعمل فيه النصبَ عاملٌ جديد معنويّ هو التقريب .

وهذا الضرب من التعامل الإعرابي يختلف عن ضرب آخر لا يحدث فيه دخول (هذا) أيّ تغيير في شبكة العمل القديمة قبل دخوله وهو التالي :



ولئن كانت الزحلقة تفسّر في الحالة السّابقة الإعراب، فإنّ الإتباع يفسّر هذه الحالة ؛ ذلك أنّ اسم الإشارة (هذا) يلحق بالمحلّ الذي يشغله (الحمار) وتصبح العلاقة بينهما علاقة إتباعيّة وهي علاقة مفتوحة إلى ما يسمح به التركيب الإتباعي من علاقات.

1-1-3 : التقريب/الخلاف

إنّ التقريب هو عامل معنويّ يشبه في عمله عاملا آخر قال به الكوفيّون هو الخلاف الذي فسّروا به النصب في المفعول معه في قولك (استوى الماءُ والخشبَةَ) ويبدو أنّ الكوفيين لا يسندون العامل المعنويّ إلاّ لبعض المنصوبات ولم يؤثر عنهم إسنادهم الرفع إلى عامل معنويّ كما فعل نظراؤهم البصريّون فمنهم طائفة قالت بأنّ رفع المبتدأ كان بالابتداء وهو عامل معنويّ وفسّروا رفع الفعل المضارع بعامل معنويّ آخر هو المضارعة.ويبدو رأي الكوفيين أكثر انسجاما مع ما تقتضيه نظريّة العامل من أسس كالمناسبة بين قوّة العامل ومركزيّة المعنى الذي يؤديه المعمول وهنا تكون العوامل المعنويّة غير مناسبة لعمل الرفع مناسبتها لعمل النصب أو الجرّ أو الجزم.

إنّ اسم التقريب مستمدّ من دلالة لفظ (هذا) وأخواته (هذه، هؤلاء) على التقريب كما استمدّ لفظ الخلاف من دلالة حرف الواو في المثال أعلاه على اختلاف بين دلالة ما قبلها ودلالة ما بعدها وهذا يدلّ على أنّها غير عاطفة. فإذا كان العطف يمثّل اتّصالا إعرابيّا ودلاليّا بين عناصر "متناسقة" فإنّ النصب يوحي بالقطع الدلالي / الإعرابي مع السّابق ومن هنا جاء الخلاف اسما مناسبا لهذا "القطع". وإذا قسنا تسمية التقريب على هذا الوجه من تخريج الاصطلاح قلنا إنّ النصب على التقريب يتقابل مع حالة إعرابيّة أخرى كنّا سنشهد فيها اتّصالا إعرابيّا/ دلاليّا توضّحه الأمثلة التالية :

(22) - هذا رجلٌ مريضٌ :

اتّصال إعرابي : (الرفع : العمدة+ الإتباع) اتّصال دلالي قائم على التّماهي : المبتدأ في المعنى هو الخبر ؛ المنعوت في المعنى هو النعت.

(23) - هذا الرجلُ مريضٌ :

اتّصال إعرابي (الرفع : الإتباع+ العمدة) اتّصال دلالي قائم على التّماهي : أنّ المبتدأ في المعنى هو الخبر وأنّ البدل هو المبدل منه.

(24) - هذا الرجلٌ المريضُ

(الاتّصال الإعرابي نفسه/الاتّصال الدلالي ذاته)

لكنّ قولنا :

(25) - هذا الرجلُ مريضًا

يحمل فيه النصب قطعا في الاتّصال الإعرابي / الدلالي الذي يحققه الرفع؛ هذا القطع استوجب علامة فارقة حتّى يتميّز المثال (25) عن (23)و(24) بالخصوص. وبذا يكون النصب في (25) دخل الخبر فقطعه عن رفعه كما دخل النصب على (الخشبة) فقطعها عن رفعها الممكن.وقال الكوفيّون إنّ (الخشبة) نصبت على الخلاف وهو معنى أدخله (الواو) على الجملة ومثله قالوا إنّ (مريضا) نصبت على التقريب وهو معنى أدخله (هذا) على الجملة.وإذا كان الخلاف معنى ثابتا في مثل الواو التي في المثال أعلاه فإنّ العمل بالنصب يلازم كلّ واو أفادت في الجملة ذلك المعنى. لكنّ هذا المبدأ ليس – على الأقلّ في الظاهر - ثابتا ولا مستمرّا في دخول (هذا) الجمل. وحتّى يكون مبدأ العمل بالتقريب منسجما علينا أن نفترض أحد شيئين أو نفترضهما معا :

- **أولا :** أن يكون التقريب معنى غير ثابت في (هذا) أي أنّ هناك جُمَلا يمكن أن يستفاد منها هذا المعنى وهناك جمل لا يستفاد منها.

- **ثانيا :** أن يعمل (هذا) النصب مرّة أو لا يعمل فيشبه بذلك بعض الأسماء المبنيّة التي قد تفيد الشرط فتعمل الجزم مرّة (كيف تَرَ النّاس يَرَوْكَ) وقد تفيده ولكنّها لا تعمل الجزم (كيف تراني أراك).

إذا نظرنا إلى المبدأ الأوّل قلنا إنّ النّحاة متّفقون على التمييز بين إشارة إلى القريب (تقريب) وإشارة إلى البعيد (تبعيد) و يذكرون (هذا) في قائمة النوع الأوّل. وبذا يمكن القول إنّ كل اسم إشارة يفيد معناه الإشاري المعلوم. (ولا ينقض هذا بالقول إنّ أحد الأسماء قد يفيد معنى الثاني) فالتقريب معنى ثابت في (هذا) وأخواته يستفاد من دخول الأسماء المذكورة على المركّبات والجمل لكنّ التقريب عملا ليس ثابتا في نفس الأسماء كما نبيّنه في التعليق على المبدأ الثاني.

واضح من كلام الفرّاء أنّ (هذا) لا يعمل النصب في جميع حالات دخوله على الجملة الاسميّة فهو قد قرن العمل بطبيعة التعريف المستفاد باللاّم ولذلك ينطبق عليه المبدأ الثاني ليلتحق ببعض الأسماء التي لا تعمل عملا معلوما إلاّ في حالات معلومة؛ ونحن نعني ههنا النصب دون غيره لأنّ (هذا) تعمل الرفع في تأويل من قال بالترافع في مثال (هذا زيدٌ) أو(هذا مريضٌ) وما شابههما.

إنّ التقريب هو عاملٌ مشترط بحدوث " انشغال" عامل قديم (كان في محلّ ابتداء) بالعمل في عنصر جديد (اسم الإشارة هذا) افتكّ له وظيفته القديمة وشغل معه نفس المحلّ المركزيّ في الجملة الاسميّة. وإزاء هذا الانشغال بالترافع ونتيجة امتلاء محلّيْ الرفع في الجملة الاسميّة ينصب ما كان خبرا على التقريب وهو معنى دخل مع (هذا).

وهكذا فإنّ التقريب هو معنى إعرابي غير المعنى المعجميّ الذي يفيده اسم الإشارة وإنْ كان مشروطا بحدوثه.

2-1-3 : التقريب/القطع

إنّ مفهوم القطع الذي اعتمدناه في تحليل متصوري الخلاف والتقريب استمددناه من تعليل الفراء النصب في مواضع شبيهة بالتقريب ومن أهمّ الأمثلة على ذلك قوله : معلّقا على (**ذلك الكتابُ لا ريْبَ فيه هُدًى ورحمَةً**) فرأى أنّ (هدًى) ترفع أو تنصب وفي نصبها وجهان "فأمّا النصب في أحد الوجهين فأن تجعل (الكتاب) خبرا لـ (ذلك) فتنصب (هُدًى) على القطع لأنّ (هدًى) نكرة اتصلت بمعرفة قد تمّ خبرها فنصبتها لأنّ النكرة لا تكون دليلا على معرفة . وإن شئت نصبت (هُدًى) على القطع من الهاء التي في (فيه) كأنّك قلت : (لاَ شَكَّ فيهِ هَادِيًا)" (معاني :12/1).

يعني القطع نقيض ما يعنيه الإتباع أو الاستئناف أو ما أسميناه أعلاه بالاتّصال الإعرابي وهو أن تفصل جزءا من الجملة عن حكم جزء آخر لعدم التجانس الدلالي/ الإعرابي وهذا ما نجده من تنافر بين المعرفة والنكرة (النكرة لا تكون دليلا على معرفة) وأنّ النكرة لم تتعامل وظيفيّا مع المعرفة لتكون خبرها(نكرة اتصلت بمعرفة تمّ خبرها).

وقد يستعمل الفراء القطع في سياق استعمال التقريب يقول في (50، ق؛ 32) : (**هَذَا مَا لَديَّ عتيدٌ**) "رفعت العتيد على أن جعلته خبرا صلته لـ(ما) وإن شئت جعلته مستّأنفا على مثل قوله (هذا بعلي شيخٌ) ولو كان نصبا كان صوابا لأنّ (هذا) و(ما) معرفتان فـ**يقطع** العتيد منهما". (معاني :82/3). واستعمال القطع في سياق استعمال التقريب لا يعني أنّهما مصطلحان مرادفان بل يعني أنّ التقريب

نوع من القطع فكما يُقطع الخبر في سياق الإشارة يُقطع غير الخبر في غيرها من السياقات وينصبُ. يقول الفرّاء معلّقا على نصب (إمَامًا) في قوله تعالى (11، هود؛ 17) : (**ويتلوهُ شاهدٌ مِنْهُ ومِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إمَامًا ورَحْمَةً**) "(إمَامًا) منصوب على القطع من (كتاب مُوسَى)" (معاني : 6/2). في التقريب ما في القطع من كسر للتبعيّة الدلالية والوظيفيّة لعنصر سابق كان من الممكن أن يدخل معه العنصر المنقطع في علاقة تماثل إعرابي وهذا الكسر للتبعيّة يوجب النصب.

وقد يتّضح القطع بالتفريق بينه وبين مفاهيم أخرى مقابلة له كالاستئناف والإتباع. الفرق بين الاستئناف والقطع أنّ الاستئناف علاقة داخل نصّ بينما القطع علاقة داخل جملة ؛ والاستئناف تأسيس جديد لعلاقات إعرابيّة داخل الجملة، تأسيس يبدأ بمحلّ الرفع وهو الأساس وقد يمتدّ إلى محلّ النصب ولكنّ القطع فيه كسر للصلة مع ذلك المحلّ وانصراف إلى محلّ النصب.فالقطع هو استئناف داخل الجملة لعلاقة إعرابية أساسها النصب والاستئناف هو قطع تركيبي مع عناصر جملة سابقة وإنشاء علاقة إعرابية جديدة في جملة جديدة داخل بنية النصّ. والفرق بين الإتباع والقطع أنّ الإتباع استنساخ علامة إعراب المتبوع فهو ضرب من الإلحاق الإعرابي لعنصر فرعيّ يتبع في إجرائه الإعرابيّ عنصرا أصليّا هو المتبوع. لكنّ القطع هو خروج عن الإلحاق الإعرابي واستقلال عن علاقة التبعيّة، وإذا كان الإتباع مفتوحا على كلّ العلامات والمحلات فإنّ القطع مقتصر على علامة النصب دون غيرها.

2-3 : التقريبُ إجْراءً وإبْطالاً

بما أنّ التقريب شكل من أشكال القطع فإنّه يتقابل مع شكل أخر لا قطع فيه هو ما يحافظ فيه الخبر على الرفع بعد دخول (هذا) وكان الفراء قد ذكر له مثال (هذا الحِمارُ فارهٌ) ومن قبل ذلك أشار إلى قراءة من قرأ (هذا بعلي شيخ). وكان سيبويه قد ذكر تَـرْك رفع الخبر بعد دخول (هذا) على اسم العلم كقولك (هذا عبد الله منطلق) وعدّ هذا الوجه جوازا في أصل هو النصب ؛ تحدّث عن الأمر في باب سمّاه : "باب ما يجوز فيه الرفع ممّا ينتصب في المعرفة" وذكر له مثال (هذا عبدُ الله منطلقٌ) وحمل عليها قراءة (هذا بعلي شيخٌ) ونقل عن الخليل وجهين في رفعهما فقال : "وجه أنّك حين قلت : (هذا عبد الله ..) أضمرت (هذا) أو (هو) كأنّك قلت : هذا منطلق أو هو منطلقٌ. والوجه الآخر : أن تجعلهما جميعا خبرا لهــذا كقولك : (هَذَا حُلْوٌ حَامِضٌ) (الكتاب83/2).ومثله في الشعر (الكتاب : 84/2) :

ومنْ يَكُ ذا بتٍّ فهذا بتّي مُقيِّظٌ مُصيِّفٌ مُشتّي

والحقّ أنّ مناقشة المسألة من جهة الجواز أو عدمه لم تشمل في كتب النحو كثيرا من الجوانب التي تربط بين إجراء الرفع والنصب من ناحية وتأدية الرفع /النصب للمعنى المقصود تبليغه.

فاللغة تتيح للمتكلم أن يختار رفع (منطلق) أو نصبه ليعبّر بأحدهما عن عمل وبالثاني عن آخر ونحن نقدّم فيما يلي أزواجا من النماذج في كل زوج اختلاف في الرفع والنصب لنرى الفرق :

(26) ء - هذا زيدٌ مَريضٌ.

(26) ب - هذا زيدٌ مَريضًا.

(27) ء - هذا بتّي مُصَيِّفٌ مُشْتَتٍ.

(27) ب - هذا بتّي مصيِّفًا مُشَتِّيًا.

(28) ء - هذا الأسَدُ هَزِيلٌ.

(28) ب - هذا الأسَدُ هَزِيلاً.

حالات الرفع تتفاوت درجة قبولها وبالتالي درجة ملاءمتها للمعنى الواجب تبليغه فـ (26ء) و(28ء)لا يبدو الرفع فيهما منسجما مع أيّ معنى من المعاني التي أوّله بها النحاة فيعسر في (26ء) أن نحمل (مريضٌ) على الإخبار عن (هذا) دون أن نفترض أنّ في الكلام اختصارا أصله : (هذا زيدٌ) (هو مريضٌ) وبذا يكون الكلام جملتين لا جملة واحدة فلا يحمل عندئذ إعرابيّا على الإتباع أو غيره من العلاقات التي تقتضيها العناصر المتماثلة إعرابيّا في جملة واحدة.

لكنّ تأويل (26ء) لا يمكن أن ينسجم مع (27ء) فقولنا إنّ الأصل(هذا بتيّ) (هو مصيّفٌ) فيه إخلال بالمعني المقصود تبليغه إذ يصبح الوصف في (مصيّف، مشتٍّ) منصرفا للبّاس (بتّي) والنيّة صرفه إلى اللابس وفي هذه الحالة فإنّ المناسب هو النصب على التقريب كما في (27ب).

وفي المثال (28ء) يبدو الرفع دالاّ على الإخبار عن ذات (مخصصة بالإشارة) بحالة قارّة؛ فيقابل بذلك الدلالة التي يفيدها النصب في (28ب) نعني الإخبار عن نفس الذات بحالة منتقلة.

إنّ نوع التعريف والاسم الذي يحتل في الأصل الخبر يتدخّلان في قبول الرفع أو ردّه.

فاسم العلم يبدو أقلّ قبولا للرفع من المعرف باللام لأنّ ما تفيده (هذا) مع (زيد) مثلا لا تفيده مع (الأسد).فالعلميّة لا تستفيد من التخصيص الذي في (هذا) لأنّ تخصيصها فيها، إذ كلّ عَلَمٍ يدلّ على ذات واحدة مخصصة بالعُرف فحين تدخل (هذا) تنصرف إلى إفادة معنى آخر كالإخبار عنه فأن تقول (هذا زيدٌ) فكأنّك

جعلت الإشارة تنوب عن الإحالة الذهنيّة على متحدّث عنه معروف بالاسم غير معروف بالصفة ولذلك كان أولى بـ (هذا) أن تدلّ على ركن من أركان الإخبار ولا تنصرف إلى التعيين ومن هنا كانت زيادة الخبر (مريض) كالحشو الذي لا يتناسب مع امتلاء الركن الإخباري في الجملة.أمّا إذا دخلت (هذا) على معرّف باللام فإنّ إفادتها الأساسيّة فيه تكون التخصيص إذ عبارة الرجل لا تكتسب بتعرّفها باللاّم خصوصيّتها التامّة لأنّها تطلق على أعيان كُثر وبدخول (هذا) تتخصص لتحيل على واحد مرجعيّ هو المشار إليه وهذا الامتلاء التّعييني لا يقلّل من درجة افتقارها في التركيب إلى الخبر.

ويتدخّل الخبر في درجة مقبوليّة الرّفع ففي(27ب) بيّنّا أنّ انطلاق الوصف على غير المشار إليه يضعف الرفع ويقوّي النصب. وتوجد حالات أخرى يتدخل فيها الخبر في درجة مقبوليّة الرفع أو النصب فكلّما كان الخبر سمة من سمات المشار إليه تطلّب النصب أكثر من تطلبه الرفع كأن تصف الإنسان بالعاقليّة فيُقبل (الإنسانُ عاقلٌ) ولا يُقبل(هذا الإنسان عاقلٌ)؛ في حين يقبل (هذا الإنسانُ عاقلا).ضعف قبول الرفع لأنّ العاقليّة خبرا تتناسب مع إطلاقيّة التعريف الذي في الإنسان وهي إطلاقيّة تضيق مع الإشارة؛ ويقبل النصب لأنّه يمكن من تعديد حالات أو سمات يكون عليها الإنسان (الإنسان عاقلا/ الإنسان فوضويّا/الإنسان فنّانا/ ..) . وما قبلنا به (عاقلا)في (الإنسان) نقبل به(نورًا) في مثال الفراء (هذا القمرُ نورًا) لأنّه يدخل في علاقات تقابل مع(القمرُ كوكبًا) ؛(القمرُ هِلالاً)؛ (القمرُ بدْرًا)..

3-3 التقريب/الحال :

بين التقريب وحال المفرد وجوه من التماثل (النصب/نكرة متعلق بمعرفة) ولذلك اعتبر البصريّون حالا ما عدّه الكوفيّون تقريبا وقالوا إنّ العامل فيه معنى الفعل الذي في اسم الإشارة يقول شارح المفصّل : "فإن قيل : فأنتم قد قررتم أنّ العامل في الحال يكون العامل في ذي الحال والحال ههنا في قولك(هذا زيدٌ مُنطلقا) من (زيد) والعامل فيه الابتداء من حيث هو خبر والابتداء لا يعمل نصبا فالجواب أنّ هذا الكلام محمول على معناه دون لفظه والتقدير أشير إليه أو انتبه له..فهو مفعول من جهة المعنى وصل الفعل إليه بحرف الجرّ فيكون من قبيل (مررتُ بزيْدٍ قائمًا)." (ش.م58/2). ونحن نعتقد أنّ للكوفيين أكثر من مانع في حمل المنصوب في (هذا زيدٌ منطلِقا) على الحاليّة؛ ليس لدينا نصوص صريحة (لا من البصرة ولا من الكوفة) تميّز بين الوظيفتين ولكننا نحاول بناء ما نعدّه فروقا اعتمدها الكوفيّون في تصنيف المثال أعلاه وما شابهه ضمن التقريب.

* - أوّلا أنّ الحالية وضعيّة لا يحدثها دخول اسم الإشارة (هذا) بل هي من متعلّقات صاحب الحال. ففي قولنا مثلا في حال المفرد (وهي الحال التي تطرح الشبه)

(29) - العَسَلُ صافيًا دَواءٌ

فإنّ دخول (هذا) على المثال لا يغيّر في نصب الحال شيئا حين تقول :

(30) - هذا العسلُ صافيًا دواءٌ

في حين أنّ التقريب لا يدخل إلاّ على جملة اسميّة بين خبرها ومبتدئها ترافع كقولنا :

(31) - العَسَلُ صَافٍ

لتصبح

(32)- هذا العَسلُ صَافيًا

* - ثانيا :أنّ النصب في التقريب لا يكون إلاّ بعد حدوث التّمام الإسنادي بين مبتدأ وخبر ويكون في الآن نفسه علامة على تمام الكلام فيمكن الوقوف عنده؛ لكنّ النصب في حال المفرد ليس علامة تمام، بل يحتاج إلى متمّم بعده يكمّله فإذا كان قولنا في (32) تامّا إذا ما عدّ تقريبا، فإنّه ناقص إذا ما حمل على الحاليّة وتمام الكلام ما ذُكر سابقا.

* - ثالثا : إذا أقام الكوفيّون انقلاب المرفوع إلى منصوب على دخول التقريب فليس للبصريّين ما يبرّر انقلاب الرفع نفسه إلى حال كالذي يحدث في الفارق بين (بعلي شيخٌ)أو (زيدٌ منطلق) و(هذا بعلي شيخا) و(هذا زيد منطلقا). إنّ المنطق "التوليدي" الذي يبرر تحويل الجملتين الأوليَيْن إلى النصب ليس مقنعا إذا ما أخذنا بالتعليل الذي ذكره شارح المفصّل سابقا.

* - رابعا : أنّ الحال في الأمثلة المذكورة تستغلّ في جدول من الأعمال اللغويّة التي لا يستغلّ فيها التقريب فحال المفرد يتلاءم فيها العمل اللغوي مع المقارنة أو التفضيل :(بعلي شيخا أعقلُ منه شابّا)؛ (العسل صافيًا دواءٌ والعسل ملوّثا داءٌ) ؛ وفي إطار هذا العمل اللغوي يبدو اسم الإشارة قليل الأهميّة فالعمل مستفاد بحضوره أو بغيابه.لكنّ العمل اللغوي المستفاد من التقريب هو التثبيت الإشاري إلى حالة عليها المسند؛ (انظر تفصيل هذا العمل اللغوي لا حقا) ولا غنى لهذا المعنى عن اسم الإشارة.

4- التقريب والدلالة

1-4 التقريب بين المَرجع والمُدْرَك :

قد يوحي كلامنا عن التقريب إلى هذا الحدّ بأنّه مفهوم إعرابيّ تركيبيّ خلفيّته الدلاليّة عالقة بباب الإشارة عموما وما تطرحه من قضايا دلاليّة معروفة في كتب النحاة؛ والحقّ أنّ دوره الإعرابيّ في تعامل مع ما يقتضيه معنى التقريب الخصوصي. فهذا المعنى الذي صاغ منه الكوفيّون التسمية لم يلق من النحاة العناية والتحليل بل كثيرا ما تعاملوا معه على أنّه مجرّد سمة دلاليّة تميّز ضربا من الإشارة من آخر في إطار من التقابل الثلاثي بين إشارة للقريب وأخرى للبعيد وثالثة للمتوسّط ؛ وقد يرفض بعض النحاة القسم الأخير ويكتفون بالتقابل الثنائي (قريب / بعيد) (انظر مثلا : ش.ك، 2/471-474).

إنّ تناول مفهوم التقريب بهذا الشكل الدلالي المبسّط لا ينسجم مع وجهة النظر الكوفيّة التي حاولت أن تربط بشكل منظّم بين الإعرابي والدلالي ولا ينسجم مع بعض الأفكار الطريفة التي نظرت إلى الدلالة التي يفيدها التقريب من منظار متسع وطريف. ونحن نجد لدى سيبويه أو الفرّاء ما يفتح متصوّر التقريب على مسائل دلاليّة ذات علاقة بفكرتي المرجع أو بالإدراك ويمكن أن يلحظ ذلك في مستويين :

- **أوّلهما** الربط بين التعيين الذي في الإشارة والآلات الإدراكية التي تحصل بها معرفة المشار إليه. يقول سيبويه متحدثا عن (هذا) : "إنّ المخبر أراد أن يقرّب به شيئا ويشير إليه **لتعرفه بقلبك وبعينك** دون سائر الأشياء" (الكتاب : 7/2) فجعل الإشارة طريقة من الطرق التي يدرك بها الخارج بالاعتماد على المرئيّ والمعقول.

- **ثانيهما** أنّ الفرّاء ربط النصب على التقريب بالكيفيّة التي "يرى" بها المتكلّم المشار إليه الوضعيّة التي يصفها. وليست الرؤية عنده إلاّ طريقة من طرق إدراك الخارج وهنا يكون النصب الذي في التقريب علامة تميّز تلك الطريقة من طريقة أخرى علامتها رفع ما اتصل بالمشار إليه.وبهذا التصوّر فإنّ التقريب لا يطلق على جميع ما دخله اسم الإشارة (هذا) وأخواته بل على ما نصب منه. وهذا يعني أنّ للتقريب دلالة أصغر من الدلالة العامّة التي ذكرها نصّ سيبويه أعلاه سوف نحاول في الكلام اللاحق إجلاءها في سياق الربط بين الدلالي والمرجعي والإدراكي.

إنّ دراسة الإشارة دلاليّا لم تنفكّ منذ أحقاب من الارتباط بالمرجعيّ وقلّة من البحوث ربطت المرجعيّ بالإدراكيّ .وفي هذا السياق يرى بعض اللسانيّين

العرفانيّين أنّ مسألة الإشارة ينبغي أن تكون خير مثال على أنّ عبارات اللغة لا تحيل مباشرة على الكون المرجعي بل ترتبط بالجانب الإدراكي الذي يبني لنا تصوّراتنا عن الخارج.

يذهب جاكندوف Jackendoff إلى أنّنا نعتقد عادة أنّ العبارات اللغويّة " تحيل على الأشياء في العالم" ولكنّ عبارات في اللغة كاسم الإشارة يمكن أن يكون مربوطا بالمُدْرَك Percept وهو في اصطلاحه "بنية [في] الذهن الوظيفيّ شيّدتها الأنظمة الإدراكيّة استجابة لمثير من العالم الخارجي". Jackendoff ;2001 (309:)(4) ويرى أنّ موضوع المرجع الذي تطرح مسألة المشيرات المقاميّة في إطاره ليس من رؤوس مشاغل النظرية اللسانية بل هو من مسائل النظريّة الإدراكيّة Perceptual theory التي تبحث في الإجابة على السؤال التالي :كيف تخلق لنا آليّات الإدراك التجربة التي لنا حول العالم الخارجي؟ (السابق :309)

ومن الاجراءات التي تساعدنا على فهم دلالة التقريب ربط اللغة بالنظام الإيمائيّ gesture بحكم أنّ الإشارة مجال تتعامل فيه حركات أعضاء الجسم (اليد، الرأس) مع اللغة.

فالمشير المقامي (هذا) هو مشير مزدوج : إيمائي ولفظي Verbal الإيمائيّ يعتمد على عمل حركة اليد عند تحديد الاتّجاه الذي يوجد فيه المشار إليه؛ واللفظي يعتمد على النطق باسم الإشارة ومتعلّقاته. وبناء على ذلك فإنّ إدراك المتلقي سيعتمد في تمثّل الرسالة على الإيماءة (باليد أو بالوجه أو بالعين أو بشيء نحمله في اليد) وعلى المنطوق ؛ والتعامل بين النطقي والإيمائي يتطلب من المتلقي إعادة تنظيم المعطيات اللغويّة والإشاريّة لإدراك فحوى الرسالة. فالإيماءات (أو الحركات) كما يقول "ماك نايل"Mc Neill"هي شكل من التعبير العرفاني الذي يحدث بصفة مشتركة وعفويّا مع الكلام ومن الممكن استعمالها معبرا إلى تمثيلات المتكلّم الذهنيّة "(5) (McNeill ;In ;Jan Nuyts & al ;1997 ;190)

وبناء على ذلك فإنّ قولنا في التقريب مثلا (هذا زيدٌ منطلقا) يختلف التمثيل الذهني فيه باختلاف الإيماءات المصاحبة لنطقنا بهذه الجملة.فليس فحوى الجملة بما هو وحدات لغويّة مستقلّة عن غيرها من العناصر الإشاريّة مفيدا لما يريد المتكلّم تبليغه .

(4 " A percept is an f- mental structure constructed by the perceptual systems in response to stimulation from the outside world.'

(5 -"Gestures are a form of cognitive expression that spontaneously co-occur with speech and can be used to access a speaker's mental representations."

2-4 : التقريب والنُّقطة المَرْجِعيّة :

إنّ تقسيم الدلالة في أسماء الإشارة إلى قريب وبعيد (ومتوسّط) ينبني على فكرتين متلازمتين هما المدى Dimension والنقطة المرجعيّةPoint de repère التي يقاس بالنسبة إليها البعد في فضاء معلوم.

إنّ النقطة المرجعيّة في الإشارة غير النصيّة (وفي جميع الإشارات المقاميّة) هي المتكلّم فبالنسبة إليه تتحدّد المسافات التي يحتلها المشار إليه في الفضاء. وبناء على ذلك فإنّ الإشارة إلى القريب هي مبدئيّا إشارة إلى شيء لا تفصله مسافة بعيدة عن المتكلّم سواء أكانت تلك المسافة في فضاء حقيقي أم في فضاء افتراضي.وقد يبني كثير من اللسانيين وعلماء النفس فكرة مركزيّة الذات[المتكلمة] على هذا التعيين النسبي للأشياء في الخارج. وهذه الفكرة التي يُبنى عليها كثيرٌ ممّا يسمّى لدى العرفانيّين بالاعتبار Perspective [6] ترى أنّ المتكلّم هو الذي يتدخّل في بناء الوضعيّات ولا توجد وضعيّات إلاّ باعتبار إدراكه لها وبناء على ذلك فإنّ القرب أو البعد في الإشارة شيء يُوصَل بزاوية نظر المتلقي إلى الموضوع الذي يشير إليه.ولا يعني ذلك أنّ المتكلّم جعل من نفسه النقطة المرجعيّة وبعد ذلك وزّع العناصر الأخرى قربا أو بعدا أو توسّطا بالنسبة إليه، بل إنّ العناصر المشار إليها لا تملك وجودا ثابتا يعيد المتكلّم موقعة نفسه بالنسبة إليها ليس في هذا محاكاة لحدوث الأشياء في الخارج. بل اللغة تمكّن المتكلّم بواسطة الإشارة من أن يقرّب أو يبعّد ولذا نفهم لماذا قيل "تقريب" ولم يقل "قرب" فصيغة تفعيل التي بني عليها المصطلح توحي بهذا التدخّل في موقعة الأشياء لا حسب موقع التكلّم فقط بل حسب إرادته : فأنت يمكن أن تشير إلى ذاتك وهي أقرب الموجودات إليك بأن تقرّبها فتقول (هذا أنا) أو أن تبعدها فتقول (ذاكَ أنا) أو تبعدها أكثر لتقول (ذلكَ أنا) أو (ذيَّاكَ أنا). إنّ القريب هو بهذا الاعتبار عمل لغويّ قد يتطابق موضع المشار إليه فيه مع المسافة الموضوعيّة الفاصلة بين المتكلّم (مركز الفعل الإشاري) والمشار إليه (موضوع الفعل الإشاري) وقد لا يتطابق. وهكذا فإنّ مركزيّة المتكلّم لا تفهم إلاّ في سياق عمل التقريب أو التبعيد للأشياء

---

6) الاعتبار هو من عبارات اللسانيات العرفانيّة وتعني وجهة النظر التي يرى بها المتكلّم الوضعيّات التي يصفها ؛ وهذه الوجهة من النظر هي التي تجعلنا ننتج جملا مختلفة لوصف وضعيّة واحدة كما هو الحال في الجملتين التاليتين : (اشترى زيدٌ ثورَ هندٍ) و(باعَتْ هندٌ ثورَها لزيد) وهما جملتان تحيلان على الحدث نفسه بيد أنّهما تتقابلان في وجهة النظر أو الاعتبار؛ فالجملة الأولى تبني الوضعيّة من وجهة نظر زيد (وما اتصل به من استفادة من الحدث أوخسران) . والجملة الثانية تبني الوضعيّة من وجهة نظر هند .. وكلّ وجهة من النظر تدلّ على طريقة في بناء الإدراك للخارج الموصوف. (انظر مثلا : LEE :2001;2)

المشار إليها[7] فالمتكلّم عند التقريب لا يرى قربها أو بعدها كما هو في الخارج المرجعيّ بل إنّ الإحالة على القرب والبعد تمرّ من ذهن المتكلّم وتكون بالنسبة إلى كيفيّة إدراكه للخارج. والأصل في تقريب الأشياء من العين إنّما غرضه إدراكها بوضوح ولذلك يكون التقريب ذا هدف مركزيّ في الأصل هو بناء الواقع بواسطة ما يسميه جاكندوف "الأنظمة التصوّريّة" Conceptual systems (Jackendoff; 2001 ; 308) فهذه الأنظمة هي التي تمنحنا – في رأيه - الإحساس والشعور والوجدان المتصل بكينونة الأشياء هناك في الخارج.

وما دامت الأنظمة التصوّريّة هي التي تبني لنا الوقائع وما دام بناء تلك الوقائع يمنحنا الإحساس بالخارج فإنّ التقريب بما هو شكل من أشكال بناء الخارج بواسطة النظام البصريّ (في الأصل) يهدف إلى حمل المتلقي على بناء "موقف" من مشهد مرئيّ وليس على بناء المشهد المرئيّ في ذاته وهنا يبرز موقع المتكلّم بالنسبة إلى الشيء المشار إليه (قربا/بعدا) مفيدا فالموقع الحقيقي بالنسبة إلى المشير لا يبدو مفيدا فلا شيء يمنع المتكلّم من أنْ يستعمل (هذا) أو (ذاك) لتعيين شيء واحد له بعد واحد بالنسبة إليه.

لنفترض أنّ شخصين صحراويّين وجدا نفسيهما في غابة استوائيّة أشجارها عظيمة غريبة ومتشابهة يقول أحدهما :

(33) - **انظر إلى هذه** [يشير بيده باتجاه شجرة غير التي يقفان حذوها] **وإلى تلك الأغصان المتشابكة فيها** [يشير برأسه] **وهذه الأشياء** [يشير إلى أعلى] **المتدلّية ما هي؟**

لم يتطابق التقريب أو التبعيد مع الواقع في قول المتكلّم ولم يستعمل موقعه الفيزيائيّ نقطة مرجعيّة تحدد الأبعاد بل تدخّلت عناصر إدراكيّة في جعل الأشياء بعيدة وقريبة وفي بعض الأحيان يكون الشيء بأكمله قريبا (الشجرة) وجزء منه بعيدا (الأغصان). وليس عسيرا أن نفهم النظام الإدراكي الذي تحكّم في توزيع العناصر المشار إليها قربا أو بعدا فما حدّد الشجرة هو وقعها النفسي لا موقعها وما جعل الأغصان بعيدة هو الشعور بالامتداد العمودي والشعور بالقرب في "الأشياء" المتدلية هو نفس المقياس وقد يكون الشعور بالخوف منها هو الذي يدنيها.

---

5) نحن نختار هنا وجهة من النظر تعتمد على النظريّة التصوريّة للمرجع Conceptualist Theory of reference التي ترى أنّ اللغة لا تحيل مباشرة على الواقع كما هو في التصور الواقعي Realist الشائع بل إنّ تلك الإحالة تمرّ عبر ذهن المتكلم (انظر لمزيد التفصيل : Jackendoff ;2002 :chap .10 ;294-332)

لكنّ ما ذكرناه هنا يخصّ التقريب (ومقابله التبعيد) في الاستعمال المعجمي فما علاقة التقريب الاصطلاحي بموقع المشير؟

لنعد إلى الصحراويَّيْن في الغابة الاستوائيّة ولنفترض أنّهما من عرب الحجاز القدامى في لغتهما النصب الذي في التقريب يقول أحدهما في مشهد الأشجار العظيمة :

(34) - هذه الشجرةُ طولاً وامتدادًا.

ويقول الثاني وقد ذاق شيئا من ثمار الغابة المتنوّع :

(35) - هذه الثمرةُ حُلوَةً حامضَةً

ثمّ يقول الأول وهو يحاول تسلق شجرة وصاحبه يثنيه ويذكّره بأنه شيخ :

(36) - ها أنَا ذا أتسَلَّقُ بِخِفَّتِي القديمَةِ..هَذَا أنَا شَابًّا.

إنّ القرب في هذه الأمثلة مستمدّ من موقع المتكلمين من المشار إليه ما في ذلك من شكّ ولكنّ التقريب المقصود لا يدلّ في الأمثلة الثلاثة على إدناء لشيء مشار إليه قصد التبئير عليه وإدراكه بل يفيد صورا تمثيليّة أخرى تتجاوز مجرّد تعيين مُدْرَكٍ بصريّ.ففي (34) يعني التقريب إدراك المتكلّم ما يمكن عدّه نمطا للشجرة الطويلة والممتدّة وهو غير مألوف لديه (النخلة)؛ فلقد كانت بعيدة عن إدراكه أو كان يعدّ نموذج الطويل ما كان أقلّ منها طولا وفي (35) يدلّ التقريب على المعنى نفسه ولكن في إدراك نمط الحلو والحامض. وفي (36) يبدو التقريب مسلّطا على إدراك الذات في مرحلة سابقة من عمرها قد لا يعرفها المتلقي فالتقريب يعني هنا رسم وضعيّة سابقة لفائدة الآخر ولكنّها في (34)، (35) وضعيّة لا يعرفها الطرفان فهو تقريب يشملهما.

إنّ النقطة المرجعيّة في مثال التقريب لم تعد المتكلّم بل المشار إليه بما هو عيّنة (الشجرة، الثمرة) ذات سمات أو خصوصيّات تتقابل مع تصوّر في الذهن لنفس المُدْرَك ولكنه يحمل سمات تختلف في درجتها عن السمة المدركة حديثا.وهذا ما نزيد تفصيله في الفقرة اللاحقة.

3-4 - التقريب وإدراك العيّنة :

حين يدخل اسم الإشارة على اسم فإنّه ينقله من الشياع الذي فيه إلى العيّنة ويخصصه وهذا شأن المشار إليه نكرة (هذا أسدٌ؛ هذه امرأة) أو معرفة (هذا الأسد، هذه المرأة). ففي الأوّل خصص اسم الإشارة الجنس بذكر عيّنة منه وفي الثاني خصص نوعا من الجنس بذكر واحد خصوصي.ويهمّنا أن نرى ما يحدثه الضرب الثاني من تخصيص لأنّه النوع الذي يستخدم في التقريب.

الفرق بين قولك الجملتين :

(37) - الشجرةُ مُثْمِرَةٌ

(38) - هذه الشجرة المثمِرةُ

أنّ في (37) حديثا عن فصيلة نباتيّة هي الشجرة وهي فصيلة لها من الناحية الإدراكيّة والتصوريّة سمات تجعلنا نميّزها عن بقيّة الموجودات أو المُدركات .

لكنّ دخول اسم الإشارة على العبارة نفسها أكسبها سمات أخرى خصوصيّة يدركها من يرى الشجرة في الخارج فيجعلها ذات نوع محدد (برتقالة، زيتونة، فلّين..) قد يعرفه المشير أو لا يعرفه (الأشجار الاستوائية أعلاه) وذات طول معلوم، وغيره من السمات. ومن جهة أخرى فإنّ الخبر في (37) هو غير الخبر في (38) فهو في الأولى أكثر عموما وفي الثانية أكثر تخصيصا لأنّ الإشارة لا تعمّ الشجرة فقط بل تشمل كذلك صفتها وبالتالي فإنّ التخصيص الذي يشملها يشمل ثمرتها فتتحدد سمات تلك الثمار مرجعيّا وإن لم تتحدّد لغويّا(يراها الحاضر في المقام ولا يعلمها السّامع). فسمات الشجرة منها ما يتحدد مرجعيّا ولا تخبرنا عنه اللغة ومنها ما تحدده اللغة كقولنا مثمرة.السمات التي تتحدد مرجعيّا هي في حالة الجملة (38) سمات إشاريّة لأنّ ما يحددها هو الإحالة عليها إشاريّا في المرجع والسمات اللغويّة هي التي تخبرنا عنها اللغة بالوصف كما في عبارة (مثمرة).على أنّه ينبغي القول بأنّ السمات الإشاريّة ليست كلّ سمة مرتبطة بالإشارة بل ما ارتبط منها بالإشارة التي تستمدّ إحالتها من المرجع الخارجي وليس من المرجع النصيّ. فاقتران الإشارة في الجملة التالية من "رسالة الغفران" (ص 140) :

(39) - وتجري في أصول ذلك الشجر أنهارٌ..

لا يؤدّي بالضرورة إلى الحديث عن سمات إشاريّة لعبارة (شجر) لأنّ الإشارة متعلقة بالسياق النصي وليس بالمرجع الخارجيّ وما دامت الإحالة نصيّة فإنّ سمات الشجر الخصوصيّة هي سمات لغويّة وليست إشاريّة.

إنّ السمات الإشاريّة صنفان منها ما يساهم في تصنيف الأشياء المدركة بأنْ تلحق بالصّور المخزّنة وبها يتمّ التعرف على المُدْرَك (بأنّه شَجرة مثلا) وهذه هي السمات الثابتة ؛ ومنها ما به تدرك وضعيّاته المخصوصة : فهيأة الشجرة تختلف باختلاف الفصول والأمكنة وغيرها. السمات الأولى تجعل المُدرك عيّنة من نوع والسمات الثانية تجعله فريدًا وعادة ما لا ينتبه في هذا الفريد إلاّ إلى الشّاذّ المفرط في التمييز فنحن نرى في غابة الزيتون زياتين متعدّدة وكأنّ كل زيتونة

تماثل أختها وربّما كان للزيتونة من السمات ما يميّزها عن الباقي ولكننا لا ننتبه إليه إلاّ إذا كان مفرطا في الاختلاف؛ فوضوح الفارق وقوّته هو ما يجعل الانتباه منشدّا؛ لذلك تشدّ انتباهنا شجرةُ الزيتون في واحة نخيل وشجرة النخيل في غابة زيتون.

لنفترض أننا اثنان نقطع غابة زيتون وفجأة يقول مرافقي : (انظر إلى هذه) ويشير إلى زيتونة، بعد هذا القول يكون انتباهي مركّزا على السبب الذي يجعل مرافقي يشير إلى هذه الشجرة دون غيرها من مثيلاتها. والاطمئنان إلى أنّ هذه الشجرة عيّنة من الشجر الذي يحيط بنا لا يفيد؛ على العكس من ذلك عليّ كي أفهم الإشارة أنْ أركّز انتباهي على الخلافيّ أعني السمات الإشاريّة غير النمطيّة. فالإشارة بهذا المقياس قادح للبحث في السمات الخصوصيّة للمشار إليه.

لنفترض أنّي نظرت إلى الشجرة المشار إليها فوجدتها مقعّرة في أسفلها وقلت لمرافقي :(نعم. إنّها مقعّرة) فيردّ مشيرا إلى أعلاها : (لا؛ ولكنّها مركّبة) فوقعت عينه على شيء لم أنتبه إليه وهو أنّ الشجرة المشار إليها هي في الأصل شجرة "وحشيّة" لكنّ أصحابها قد ركبوا إليها جزءا من الزيتون الأصيل حتّى تثمر.

ولو أعدنا صياغة الجملتين باستعمال التّقريب لكان قولي كما في (40) وقوله كما في (41) :

(40) - هذه الشّـجرةُ مقـعّرَةً(؟)

(41) - هذه الشجرةُ مركّبةً

كلتا الجملتين استجابت لشرط بناء التقريب المذكورة سابقا ورغم ذلك تبدو الجملة (40) أقلّ مقبوليّة من (40) إنْ لم أقل إنّها غير مقبولة وإنّ الأنسب لها الرفع دون النصب.وتعود قلّة المقبوليّة (لا النحويّة) إلى أنّ المنصوب على التقريب ليس من السمات التي تتميّز بها الشّجرة عموما والزيتونة خصوصا. وعلى النقيض من ذلك فإنّ التركيب بما أنّه من متعلّقات غراسة الشجرة فإنّه يبدو سمة ممكنة من سماتها. وبذا نصل إلى نتيجة تتمثّل في أنّ من شروط التقريب المناسبة بين المنصوب والخبر (المشار إليه) وتقتضي المناسبة أن يكون المنصوب من سمات المشار إليه أو من متعلّقاته. ولو أنّا حملنا الصفة في (40) على الحاليّة وقلنا (42) أو (43) لكانت المقبولية أكثر :

(42) - الشجرةُ مقعَّرَةً فاسدةُ الثمْـرِ

(43) - لا تقلع الشجرةَ مُقـعَّرةً

وإذا عدنا في ضوء هذه الملاحظات إلى الأمثلة التي قدّمها الفرّاء لوجدنا شرط التناسب بين المنصوب ومتعلّقة حاضرا حضورا مضمرا في كلّ الأمثلة.

ففي قوله تعالى :

(6) - هذا بعْلي شيْخاً.

فإنّ المناسبة بين البعل (الرجُل) وسمته موجودة ومرتكزة على أساس زمني. وفي قوله

(10) - مَا كَانَ مِنَ السبَاعِ غيْرَ مُخَوِّفٍ فهَذَا الأسَدُ مُخوِّفًا.

توجد مناسبة بين الأسد والتخويف إذ كلّ أسد لا بدّ أن يكون مخيفا. وفي قوله في (12) و(11) التاليَين المناسبة نفسها :

(12) - هذه الشمْسُ ضياءً.

(11) - هذا القمَرُ نُورًا.

إذا كانت الإشارة تقود إلى إدراك العيّنة من كلّ شيء في حالاتها المختلفة، فإنّ التقريب يخصص حالة من أحوالها ويركّز عليها ويجعلها السمة الفارقة. فإذا عدنا إلى المثال (10) وجدنا فيه تدرّجا من النوع الأرقى (السباع) إلى النوع الذي يترتّب تحته (الأسد) فإلى سمة من السمات الممكن توفّرها في النوع حتّى يصنّف في النوع الأرقى منه. فالأسد يمثّل العيّنة ويمثّل التخويف السمة التي تربط بين النوع والعيّنة.

ومن جهة أخرى فإنّ التعالق بين العيّنة وسمتها بالشكل الذي يحققه التقريب يوحي بإدراك منمّط للكائنات والأشياء. فلو عدنا إلى مثال سابق وهو (هذه الشجرة طولا وامتدادا) فإنّ تنميط الشجرة وفق هذه السمة يؤدي إلى اعتبار الشجرة المشار إليها في ذهن المشير النمط في الطول والامتداد. كذا الشأن بالنسبة إلى (القمر نورا) و(الشمس ضياءً)، و(الأسد تخويفا) في نوع السباع.ليس التنميط المقصود علميّا كالذي تعتمده نظريّة الطراز المعروفة بقدر ما هو تنميط حدسي يدلّ على إدراك منمّط للموجودات وفق سنة يعتبرها مستعمل التقريب مثالا"مقرّبا" لصفة من الصفات وعيّنة مثاليّة لصفة من الصفات أو لحالة من الأحوال.

الخاتمــة :

التقريب مفهوم نحويّ من مفاهيم الكوفة التي خمل ذكرها في كتب النحو القديمة؛ ولم تلق لا في مدرستهم ولا في مدرسة نظرائهم من البصريّين ما تستحقّه من الشرح والتحليل على الرغم من أنّ هذا المفهوم حاول أن يربط بين معنى

بسيط من معاني الإشارة (هو التقريب) والإعراب ربطا متينا ومنسجما . ولئن تعوّد البصريّون وفئة كثيرة من النّحاة على أن يتعاملوا مع هذا الضرب من الكلم على أساس أنّه ناقص في العمل إذ هو من الأسماء التي حقّها أن تكون معمولة لا عاملة، فإنّ كبار الكوفيين من أمثال الفراء وثعلب عاملوه معاملة مزدوجة فهو في الآن نفسه عامل لفظي يرفع الخبر ويؤثّر (ما دلّ منه على التقريب) تأثيرا إعرابيّا ليكون عاملا معنويّا. وهذا الإجراء من شأنه أن يجعله ضربا فريدا في العوامل النحويّة : فاللفظ يعمل وأثره المعنويّ يعمل أيضا.

ولكم كان يسيرا أن يحمل الكوفيّون إعراب التقريب على الحاليّة كما فعل نظراؤهم البصريّون أو أن يحملوه على الناسخ الفعليّ كما فعل عن جهل بعض المعاصرين (معجم الخليل :154-155) ؛ ولكنّ الكوفيّين حاولوا أن ينظروا إلى ما يفرّق بين الظواهر الإعرابية المذكورة أكثر من نظرهم إلى ما يوحّدها فأوصلهم تمييزهم إلى أنّ التقريب عمل لغويّ يحدث بتعامل طريف بين مقولات ثلاث : إعرابية هي النصب على القطع وصرفيّة هي مراعاة اللاّم التي تقترن بها الإشارة ودلاليّة هي قدرة التقريب على الإحالة على خارج إشاريّ فيه تخصيص لحالة من حالات المشار إليه أو لسمة فارقة من سماته أو غيرها من المعاني التي يدركها العقل بواسطة التعامل بين القول (اللغوي) والإشارة إلى خارج (إشاري).

وكان التقريب مناسبة أبان فيها النحاة ولو بإيجاز وبكثير من الألمعيّة أنّ الإشارة يتضافر فيها التناول المرجعيّ والإدراكي للدلالة وصاغوا بطريقتهم حقيقة يدافع عنها العرفانيّون اليوم حين يخوضون في موضوع المشيرات المقاميّة : أنّه لا وجود لخارج تحيل عليه الإشارات اللفظية وتتحدد به بل إنّ هذا الخارج لا وجود له خارج النظام الإدراكي للإنسان.

توفيق قريرة

كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة،

بالقيروان

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 273 – 291

التأسيس المعجمي في تونس (•)

الحبيب النصراوي

1 – تمهيد :

لا شكّ أنّ قضايا المعجم عامة والمعجم العربي خاصة كانت حتى أواسط القرن الماضي عسيرة معقدة. إنّها المجال الأضعف في الدرس اللغوي، وفي واقعه العملي تطبيقا وتنظيرا. فأما من حيث التطبيق فلدينا أكبر المعاجم حجما وأشدّها فصاحة، وأما من حيث التنظير فلم نستشعر الحاجة بعد لإعادة النظر في موروث ثقافيّ كنّا نراه ناجزا منتهيا. قد يبدو هذا الحكم مبالغا فيه. ولكن من منّا لا يجد صعوبة اليوم في التعامل اللغوي المعجمي مع الحداثة أيّا كان اختصاصه ؟ الجواب واضح، فإنّ السبب هو دورنا النفعيّ لا الفعليّ في صنع الحداثة، ومبالغتنا في تشدّد لغوي لم يعد ما يبرّره اليوم في ظلّ ظهور منهجيات في التوليد اللغوي لاستيعاب مظاهر التطور في اللغة دون تفريط في خصائصها. وفي حين وضعت في الغرب لذلك التطور مبادئ وقواعد أصبحت اليوم مباحث لسانية مهمة، مازال منّا من ينظر إلى ذلك على أنّه لحن.

فإنّ دارسي المعجم في العربية لم يوفقوا تماما إلى التخلّص من الصفوية "الماضوية" لوضع أسس نظرية ومنهجية توفر للمعجم العربي أسباب الانتساب إلى اللسانيات الحديثة وإلى مقارباتها ونظرياتها. فإن كانت دراسة النحو التقليدي قد تطورت حتى أصبحت جزءا من اللسانيات، فإنّ المعجم ما انفكّ مجرّد حرفة ومهارة لا تنتسب إلا قليلا إلى اللسانيات على ما في مادة المعجم من جدل لغوي ومقاربات لسانية.

•) هذا المقال هو في الأصل مداخلة ضمن أعمال ندوة **الأدب والنقد واللسانيات في المغرب العربي "أبعاد حضارية"** التي نظمتها جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس بالاشتراك مع المعهد العالي للغات بتونس بتاريخ 8-9-2004/12/10.

لهذه الأسباب ظهرت حركة لسانية معجمية في تونس من أبرز أهدافها تطوير المعجم حتى يواكب الحداثة. ثم سرعان ما تحولت هذه الحركة مع توجّه اللسانيات الغربية إلى المعجمية تنظيرا وتطبيقا إلى حركة تحديثية أخضعت المعجم للدرس الجامعي ليصبح مبحثا مهمّا من المباحث اللسانية.. وربّما تأكدت هذه العناية بتأسيس جمعية علمية متخصصة في تونس تعنى بالقضايا اللسانية المعجمية، وهي "جمعية المعجمية العربية بتونس" تصدر باسمها "مجلة المعجمية"، وتسعى إلى التعبير عن اهتمام أهل الاختصاص من المعجميين بوضع أسس مقاربة معجمية لسانية تطبق على العربية وتنطلق من مسائل جوهرية منها مسألة المصطلحات، ومنهجية وضع المعجم، وأصناف المعاجم ووظائفها.. كما تسعى إلى تخليص المعجم العربي من عزلته نظرا لطرافة نظرياته التي قام عليها في الماضي، وتنزيلا له منزلته من علم اللسان الحديث حتى يمكن درسه درسا لسانيا محايدا..[1].

قد نجد إلى اليوم، من يختزل عناصر النهضة في الدعوة إلى إحياء التراث. فأغلب أوجه الإصلاح الفكري والثقافي وحتى السياسي بدأت بالرجوع إلى الذات لاستنطاق كوامن القوة فيها، اعتقادا بأنّ ما حقّقته في الماضي من عزّة خير دليل على أنّ الحلّ يكمن فيها. لكنّ نشأة الحركة المعجمية في تونس لم تتّخذ التأصيل وحده منطلقا للتأسيس، بل نفضت الغبار عمّا في التراث من إضاءات لتخلع عليها لبوس الحداثة اللسانية في رحاب الجامعة التونسية الفتية. كان ذلك عن طريق أساتذتها الذين تبنّوا أهمّ المقولات اللسانية، منذ مطلع الستينات خاصة مع الأساتذة : صالح القرمادي وعبد القادر المهيري ومحمد رشاد الحمزاوي، بما أحدثوه من تغييرات جوهرية في مفاهيم لغوية كثيرة، ومنها : إعادة النظر في مفهوم المعجم ووظيفته وعلاقته باللغة وبالمتكلم في ضوء تقدّم المباحث اللسانية الحديثة.

ولا يصحّ في نظري الحديث عن الحركة المعجمية في تونس دون الوقوف عند مرحلتين شديدتي الأهمية : الأولى تميّزت بوضع الأسس الضرورية لتطوير علم المعجم في تونس والبلاد العربية؛ والثانية قامت على تعميق نظريات هذا العلم ومصالحته مع اللسانيات الحديثة.

والمرحلتان عبارة عن تيارين معجميين تعاقبا على الجامعة التونسية وجمعية المعجمية تعاقبا دالا على تكامل رسالة العلم المفتوحة أمام الأجيال أخذا فعطاء، لا تقديسا فتكرارا. فيحفظ للأول فضل الريادة، وللثاني فضل الإضافة. ورغم تكامل التيارين لانتسابهما إلى مدرسة واحدة، وانتمائهما إلى نفس المؤسّس، فإنّ مجـالات اختصاصهما ضمن المباحث المعجمية آخذة في التباين

---

1) الحمزاوي : المعجم العربي، ص285.

منذ أواخر الثمانينات. ففي حين اهتمّ الأول بقضايا "المعجمية الصناعية" (la lexicographie) تنظيرا وتطبيقا قصد التأسيس لظهور معجم عربي منشود وفق النظرية المعجمية العربية ذاتها كما صاغها عباقرة المعجميين العرب قديما، وطورتها اللسانيات حديثا[2]؛ نجد التيار الثاني يبتعد تدريجيا عن قضايا "المعجمية التطبيقية"، لينكبّ في المقابل على معالجة قضايا "المعجمية النظرية" (la lexicologie) وما تثيره من مقاربات وآراء في اللسانيات الحديثة حول أحقية المعجم بأن يعدّ علما له نظريته ومكوناته التي لا غنى عنها في وصف اللغة في حركتها وسكونها.

2 ـ المعجمية العربية بين التراث واللسانيات

لا شكّ أنّ نشأة الدراسات اللسانية واللغوية الحديثة في الجامعة التونسية قد اقترنت ببواكير المدارس اللسانية في أوروبا، فنهلت ممّا أقرته من مناهج ونظريات كان لها أثرها الحاسم في تطوير البحث اللغوي، ومن ضمنها المعجم. وقد اقترن هذا المبحث لدى أجيال من خريجي الجامعة التونسية بالأستاذ محمد رشاد الحمزاوي باحثا ومدرّسا. فقد كان حريصا منذ عودته من أوروبا وانتسابه إلى الجامعة التونسية سنة 1968، على استنطاق التراث لاستخلاص ما به تحفظ خصائص العربية من ناحية، وساعيا لتيسير انصهارها في حركة التطور اللساني الحديث، وفق ما بنته من أسس ومبادئ.

فكان له الدور الأهمّ في تأسيس الدرس المعجمي الحديث في الجامعة التونسية. وقد ظهر ميله إلى مقاربة المعجمية العربية بفرعيها النظري والتطبيقي وفق المفاهيم اللسانية في مسائل : وصف المعجم العربي القديم والحديث، وتحديد مفهومه وأسسه ومناهج تأليفه، وسبل تطويره... فعدّ بحق مؤسّسا لتصور معجمي عربي معاصر. وهو ما حفزه على تبنّي فكرة مشروع معجمي نهضوي يخرج بالبحث المعجمي من رحاب الدرس الجامعي إلى آفاق البحث العلمي الأرحب. فاشترك مع عدد من زملائه وطلبته في تأسيس جمعية المعجمية العربية بتونس،

---

2) ينظر للأستاذ الحمزاوي مثلا كتبه: "من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، 1986"؛ "المعجم العربي إشكالات ومقاربات، 1991"؛ "النظريات المعجمية العربية وسبيلها إلى استيعاب الخطاب العربي، 2000".. على أنّ الحمزاوي لم يعالج المعجم العربي القديم من منطلق إحيائيّ تراثيّ فقط، بل من خلال تصوّر نظريّ يعتبر البحث في تأليف المعاجم علما له خصوصياته واستقلاله وأسسه النظرية التي كثيرا ما يصرّح بها أصحاب المعاجم في المقدمات ومن المفروض أن يطبقوها في المتون. فكان لأعماله أثر في الكشف عن المدى النظري لعلم صناعة المعاجم عند العرب مقارنة بما يطرح من نظريات لسانية حديثة. وهو مطمح لم يخف الكاتب تمسكه به في جميع مباحثة رغبة منه في تصحيح مفهوم المعجمية من الحرفية إلى العلمية.

وكان أول رئيس لها من سنة 1983 إلى سنة 1993. كما كان صاحب مشروع المعجم العربي التاريخي من سنة 1990- إلى سنة 1991.

وأول مظاهر تأثره اللساني رسوخ الاعتقاد لديه بوجوب تغيير واقع المعجم العربي الذي ظلّ إلى العصر الحديث واقعا شاذًا عاجزا عن مجاراة التحولات اللسانية المتلاحقة. ولعلّ هذا الضعف الذي رافق دراسة المعجم فتحكّم في مفهومه وبنيته ومن ثمّ في وظيفته خاصة في اللغة العربية هو ما حدا بالأستاذ الحمزاوي إلى تسخير جهوده لمباحث "المعجمية التطبيقية" قصد بناء أسس لسانية معجمية جديدة كفيلة بتغيير واقع المعجم العربي. فكان له دور تأسيسي -سواء في الجامعة أو في جمعية المعجمية أو في ما نشر من أعمال أو ما أشرف عليه من رسائل- في إعادة درس بنية المعجم عامة ومقدرته اللغوية في مستوى الإبداع والارتباط بالواقع الذهني للمتكلمين :

وقد جاء في مقدمة كتابه "المعجم العربي إشكالات ومقاربات" : "والمعجم حرفة وصناعة قبل كلّ شيء، تتعلق بجمع اللغة ووضعها. وهو على علاته التي يشترك فيها مع معاجم اللغات الأخرى، قد سعى إلى وضع أسس تتّصل باللغة وبالخصوص بمفرداتها التي ترتبط ربطا متينا بعلوم لسانية شتى منها علم الدلالة والنحو والصرف وضروب من الأدب من نثر وشعر"[3].

ولهذا اعتبر ماضي المعجم وحاضره عنصرين أساسيين متكاملين: فالعنصر الأول يتعلق بالمعجم منهجا وتاريخا، والبحث فيه هو أساسا لاستجلاء ما ظلّ غامضا في مناهجه وتأويلها تأويلا علميا بعيدا عن الدراسات التقليدية العاطفية. مع إشارة إلى دوره في تنمية الثقافة العربية. وقد نزّل الأستاذ الحمزاوي كلّ ذلك في سياق نقديّ تعلّق ببعض الأوهام السائدة التي ترى في الاكتفاء بما هو موجود أو موروث من المعاجم فوزا بالتقدم؛ والعنصر الثاني يستند إلى المواقف المنهجية المدعومة بالمعطيات اللسانية الحديثة، لقراءة المعجم العربي القديم والحديث واستقراء محاولاته الجريئة تنظيرا وتطبيقا، كمقاربة الخليل مثلا، لإخراج المعجم العربي من مجرّد الاجتهاد في الشكل إلى الإبداع في صناعة المعجم باعتباره علما يشمل جميع علوم اللسانيات ويحويها. فغايته إذن هي أن تتكيّف صناعة المعجم وتتغذّى بالمقاربات والمفاهيم اللسانية لحلّ قضاياه المستعصية[4]..

ولذلك أسهب الأستاذ الحمزاوي في أكثر مؤلفاته في تحليل النظريات والمبادئ التي قامت عليها المعجمية العربية وبيان أهميتها ومكانتها في اللغة، وما

---

3) الحمزاوي : المعجم العربي، ص13.

4) انظر : نفس المرجع، ص14-15.

اقتضته من رؤى ومناهج وتطبيقات، لأنّها لم تدرس دراسة لسانية – على حدّ قوله - ولم ينظر إلى المعجم على أنّه تأليف نظريّ وإلى مؤلّفه على أنّه مختصّ بل نُظر في الغالب إلى المعجم على أنّه مجرّد تطبيقات[5].

يرجع ذلك إلى أنّ هذه الأبعاد الجوهرية في النظرية المعجمية العربية لم تدرس وأنّ المعجمية العربية قد نظر إليها من زاوية كونها قواميس ظهرت تباعا على امتداد تاريخ العربية. وأغلب الدراسات توجّهت إلى بنائها الشكلي وقضاياها في الترتيب والتعريف فصنّفت بحسب ذلك إلى مدارس، وأهمل الجمع وقضايا المدونة وعلاقاتها بالمتكلم وبالنظام اللغوي. واقتصرت رسالة المعجم على الحمائية في مقابل إهمال الاستعمالية.

3 - استلهام التراث :

لقد عمد الأستاذ الحمزاوي إلى معالجة معاجم عربية حديثة وقديمة باعتبارها وثائق هامة يمكن الاستناد إليها في الكشف عن تصوّر نظريّ لأبعاد المعجمية التطبيقية من مظانّها، مستفيدا في ذلك ممّا نظّرت له القاموسية الحديثة كقضايا : الجمع والوضع والنصّ المعجمي والقارئ والممكن والمنجز والاستيعاب والتطوّر اللغوي إلخ...

ومع أنّ الانطلاق كان من المقدّمات النظرية لعدد من المعاجم، فإنّ ما انتهى إليه عمله هو استخلاص أهمّ الإشكالات المنهجية والتطبيقية التي قامت عليها النّظرية القاموسية العربية :

أ) الإحاطة بالخطاب اللغوي: أي كيفية توفق المعجمية إلى استيعاب الفكر الإنساني انطلاقا من أمثلة عربية قوامها اللغة العربية ومعجمها الأمثل. من هنا كانت العناية بما توصلت إليه هذه النظريات العربية وتطبيقاتها في المعجم. وهي عنده من الأهمية بحيث لا يخفي قابليتها للتخريج تخريجا حديثا على غرار تخريج اللسانيين للتراث اليوناني واللاتيني [6].

ب) مسألة النصّ المعجمي: المعجم نصّ أكبر قائم على نصوص صغرى عددها هو عدد المداخل التي يقوم عليها المعجم. والنص المعجمي قسمان: المدخل، ومحتواه. وهو من أعسر القضايا المعجمية لأنّ بناءه يستوجب التوفيق بين عناصر تبدو متناقضة كالأصل والفرع والقياس والإحاطة والإيجاز والتقريب.. فعسر النص المعجمي يتأتى من جمعه بين المتناقضات وما يفرضه من حدود دون أن تغفر للمعجميّ قصوره عن بلوغ النصّ المعجمي النموذجي.

---

5) انظر : نفس المرجع، ص10.

6) ابن مراد : مسائل في المعجم، ص 18.

ويرى الأستاذ الحمزاوي أنّ أقرب ما يمثل النص المثال من المحاولات النظرية المكتملة آراء ابن فارس في المقاييس وإشارات ابن سيده في مقدمة المحكم. لكنّ ذلك "لا يتأتى إدراكه إلا من خلال التطبيقات الواردة في متون المعاجم التي تتكيّف نصوصها بحسب نظرة كلّ مدرسة معجمية: فهناك النصّ الموسوعي الشامل، والنصّ المخفّض الانتقائي، والنصّ الملخّص.. من هنا ندرك أنّ النص المعجمي مشروع مفتوح، ممّا يدعونا إلى أن نؤكّد أنّ تاريخ المعجم هو تاريخ نصّه وخصائصه وفنّياته"[7].

ج) قيام المعجم العربي على نظريات معجمية عربية[8]، يمكن تصنيف أهمّها كما يلي :

1) نظرية المعجم المثالي: هي نظرية الخليل (ت175هـ) في معجم "العين"، فقد أراد لمعجمه أن يكون "مدار كلام العرب فلا يخرج عنه شيء" ويستوعب بذلك ما تستعمله "العرب في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها فلا يشذّ عنه شيء من ذلك"[9]. فلم ينظر إلى كلام العرب على أنّه قائمة مفتوحة تستعصي عن الحصر والاستيعاب، بل باعتباره نظاما محكم البناء قوامه المفردات التي يمكن للّغوي معرفتها واستقصاؤها وإحصاؤها وحصر المستعمل منها على ألسنة المتكلمين. والمطلوب إذن منهج نظريّ يوصل إلى هذه الغاية دون الوقوع في متاهات الاختيار وما ينتج عنه من إهمال وتقصير بسبب سيطرة المعيارية وفرضها لمستوى معيّن دون غيره. وللتوفيق بين الاستقصاء التّامّ والمنهج الصحيح استنبط نظريته في التقليب[10].

وبذلك استطاع الخليل أن يميّز بين طاقة اللغة المنتجة وما يتحقق في مستوى الاستعمال، بحسب حاجات المتكلمين الاجتماعية والثقافية والحضارية. وهو نفس التقسيم الذي أقامته اللسانيات الحديثة بين مفهوم اللغة ومفهوم الكلام أو مفهوم المقدرة ومفهوم الإنجاز. ومن إيجابيات هذا التمييز أنّه يفصل في مسألة فرض استعمال مرحلة ما على غيرها من المراحل. وجعل ذلك الاستعمال أو المنجز بالفعل أي الكلام متحكّما في الحقيقة اللغوية نفسها. وهو ما لا يصحّ مع الخاصية النظرية للغة التي لا يمثّل الاستعمال منها إلاّ مظهرا محدّدا زمانا ومكانا. فكيف يتحكّم حينئذ في ما يتلوه من استعمالات لا شكّ أنّ أصحابها لا يعيشون نفس

---

7) الحمزاوي : المعجم العربي، ص 20.

8) ينظر : الخليل : معجم العين، 47/1؛ الحمزاوي : النظريات المعجمية العربية؛ كما ينظر أيضا تقديمنا لهذا الكتاب في مجلة المعجمية، العدد : /1999/15.

9) الخليل : العين، 47/1.

10) ويعتبر الأزهري (370هـ) في "تهذيب اللغة"، وابن عباد (385هـ) في "المحيط في اللغة"، وابن سيدة (485هـ) في "المحكم والمحيط الأعظم" من أتباع هذه النظرية.

الظروف أي لا يستخدمون بالضرورة نفس الكلام. فهل كان لهذه النظرية أثر في ما انبنى عليه تصوّر المعجميين العرب اللاحقين لمفهوم المعجم ووظيفته، وتحديد مسألة "الجمع" فيه ؟

2) نظرية المعجم التجريبي ومعجم المعنى : عند ابن دريد (ت 321هـ) في "الجمهرة"؛ وابن فارس (ت 395هـ) في "المقاييس" : وهي نظرية قائمة على تطوير المعجم من حيث الوضع، فقد أسّس ابن دريد لمفهومين جديدين في الدرس المعجمي هما : مفهوم الوظيفة المتغيرة بحسب طبيعة المعجم، ومفهوم المستفيد أي القارئ، فخالف بذلك مفهوم المتكلم المثالي عند الخليل واستخدم مفهوم القارئ المستفيد؛ أما ابن فارس فقد طبّق نظرية المعنى الأصلي، بقطع النظر عن بنية الكلمة. فأسّس لمبدإ التأصيل، وهو ما يُستفاد من مصطلح "المقاييس" بمعنى الأصل.

3) نظرية المعجم بين الصحة والموسوعية : وهي نظرية الجوهري (ت395هـ) في "تاج اللغة وصحاح العربية". وتقوم عنده على ثلاثة مفاهيم هي : مفهوم الصحة، ويتعلق بمسألة الجمع أي مدونة المعجم ومصادرها، والترتيب وهو لغاية تركيز الصحة، والمعرفة المثالية للعربية. إنّ هذه المفاهيم تثبت أنّ الهدف من المعجم هو بناء استعمالية مثالية في عهد تنازعته النظريات ممّا حتّم الدعوة إلى معيارية نواة للمحافظة على رصيد مشترك يقاس عليه.[11]

4) نظرية المعجم الأسلوبي والتربوي : وهي نظرية الزمخشري (538هـ) في "أساس البلاغة" [12]. تقوم هذه النظرية على اكتشاف مفهوم التطور اللغوي في نطاق الفصحى، باعتبار الفصحى تتفاعل مع محيطها. فلم ينتبه أحد قبله إلى أن حماية اللغة ليس في تحنيطها بل في الدفاع عن حيويتها. نظريته لا تعتمد على اللغة باعتبارها رصيدا جامدا بل تنطلق من مفاهيم أساسية : كالاستعمال، والفصل بين الدراسة الآنية والزمانية للغة.

5) نظرية المعجم النموذج: من خلال رؤية الشدياق (ت 1304هـ) في: "سرّ الليال في القلب والإبدال"، قام على ابتداع ترتيب يوفّق بين مختلف

---

11) وممن طور هذه النظرية: ابن منظور(711هـ)، والفيروزابادي (829هـ)، والزبيدي (1205هـ). فإنّ لابن منظور في لسان العرب مقاربة شهيرة في دعم هذه النظرية قائمة على خمسة عناصر هي: المفاضلة اللغوية الداعية إلى تقديس العربية، ومنهجية الجمع والوضع، واعتماد مفهوم المدونة، ومفهوم المعجم اللغوي الموسوعي، ومفهوم الاتّفاق أو ما يعرف باعتباطية اللغة ومن ثم استحالة استيعاب مآثرها.

12) ومن المنتمين لمدرسته : بطرس البستاني في "محيط المحيط"، والشرتوني في "أقرب الموارد"، ولويس معلوف في "المنجد"، ومجمع القاهرة في "الوسيط، والجيلاني بالحاج يحيى وآخرون في "القاموس الجديد"، وخليل الجرّ وآخرون في "لاروس"، والألكسو في "المعجم العربي الأساسي".

المدارس، إلى جانب البحث عن قانون للقلب والإبدال، مستعينا بالخلفية الأوروبية فيما يتعلق بمفهوم الدلالة المركزية.

6) نظرية المعجم التاريخي : من خلال رؤية فيشر، وهي قائمة على استيعاب جميع الكلمات العربية ومعالجتها حسب وجهات النظر: التاريخية، والاشتقاقية، والتعبيرية، والنحوية، والبيانية، والأسلوبية.. وهو ما مثّل مشروعا واضح الملامح.

7) نظرية المعجم العام: انطلاقا من رؤية مجمع القاهرة في المعجم الكبير. وهو مشروع يهدف إلى وضع معجم جماعي متخصص تطوري يربط بين القديم والجديد، وهو موسوعي قائم على فصاحة مفتوحة، إذ يسعى إلى استكمال المواد اللغوية التي لم ترد في كتب اللغة.

انبنت هذه النظريات إذن على رؤى ومبادئ لغوية ولسانية نظّرت لها المعجمية الحديثة، منها نظريات: الجمع والوضع، والنص المعجمي، والقارئ، والممكن والمنجز، والاستيعاب والتطور اللغوي والاستقرار.. وقد ربط الأستاذ الحمزاوي جميع هذه النظريات بخلفياتها اللغوية والفكرية والحضارية ممّا أضفى عليها بعدا تأصيليًّا، فهي نتيجة لتكوّن البيئة والفكر العربيين ومدى انعكاس ذلك على واقع المعاجم وتطورها عامة. لكن المعاجم العربية بقيت متأرجحة بين التنظير (في المقدمات) والتطبيق (في المتون)، فلم يجاوز الاجتهاد في الغالب النّواحي الشكلية، فبقيت المناهج غير خاضعة لذهنية معجمية متحركة منفتحة على التطور وما يستدعيه من تجاوز الرصيد اللغوي المحنّط إلى الرصيد اللاحق والمتنوع وهو ما يتطلب حيوية في بنية النص المعجمي ووضوحا في وظيفته المعجمية من حيث الرؤية والمنهج والاستيعاب.

4 - سبل الإصلاح :

4 -1. مفهوم المعجم في الدرس اللغوي العربي القديم :

إنّ المثال الأعلى الذي قام على أساسه "التدوين" في العربية هو الفصاحة. والفصاحة تصوّر معياريّ (normatif) ينكر ما يدخل اللغة من استعمالات جديدة (كالمولّد والمقترض والعاميّ)؛ ويكرّس معيارا ثقافيّا معيّنا تُفرض بموجبه على لغة الاستعمال قواعدُ مثاليّة معياريّة مستمدّة من النّموذج اللّغوي المحّدد بعصور الاحتجاج[13]. وقد ظلّ

13) انظر حول الفصاحة : الحمزاوي: الفصاحة فصاحات، ص11.

المعجم العربيّ خاضعا في متنه لذلك المثال الثقافي. وظلّت المعاجم العربية متماثلة في الغالب، يكرّر بعضها بعضا[14]

ويمكن فهم عوامل هذا التقليد ومعالجتها بالبحث في الركنين اللذين يقوم عليهما المعجم وهما: الجمع والوضع. فأما الوضع - ويقصد به: الترتيب والتعريف- فتكمن أهميته في منهج تأليف المعجم، من حيث الوضوح واليسر والدقة العلمية وتجنب التكرار والخلط والإطالة، وغيرها من شروط شكلية ومنهجية لا غنى عنها لتسهيل التعامل مع المعجم وتعميم الاستفادة منه؛ وأما الجمع فيعنى بمصادر المادة المعجمية ومستوياتها اللغوية، وهو لذلك يعدّ الركن الأساسي في بنية المعجم لأنّه جوهره ومادته التي عليها يقوم، وبها تتحدّد رسالته سواء أكانت حمائية أم وصفية.

2-4- مفهوم المعجم في الدرس اللساني الحديث :

يقوم مفهوم المعجم في الدرس اللساني الحديث على مبدإ التحوّل لمواكبة تطوّر الحياة نفسها. فإنّ الاتّجاه في الدراسات اللغوية الحديثة يفترض أن يكون المعجم امتدادا للبنية الفكرية السّائدة في عصره وتعبيرا عن مذاهبها، لأنّه قائم في جوهره على جدليّة التطوّر والثّبات. كما يفترض ألاّ تتّجه وظيفته أساسا إلى حماية اللغة فحسب بل جعلها معبّرة عن العصر وافية بمطالب العلوم والفنون الحديثة.

لكنّ هذا الافتراض وإن أصبح عند اللسانيين الغربيين منهجا لدراسة واقع المعجم وآفاقه، فهو لا يجاوز عند اللغويين العرب في أواسط القرن العشرين، مجرَّد الوعي بضرورة تغيير نظرتهم إلى المعجم. فإنّ النّاظر في آرائهم لا يكتشف إلا نظريّا، وعيهم بضرورة تسهيل الاتّصال اللغوي عن طريق سدّ الثّغرات في معلومات القرّاء، وذلك بالمساعدة على تقييم المسالك اللغوية والتّحكم في وسائل التعبير الحديثة. وهذا هو دور المعاجم اللغوية الحديثة. فهي مطالبة بأن

---

14) فابن دريد(تـ321هـ) صاحب معجم "الجمهرة" يعترف بالتبعيّة للخليل(تـ175هـ)؛ ويصرّح ابن فارس(تـ 395هـ) صاحب معجميْ "المقاييس" و"المجمل" بالأخذ عن "العين" للخليل و"إصلاح المنطق" لابن السّكيت(تـ244هـ) و"الجمهرة" لابن دريد و"غريب الحديث" و"غريب المصنّف" لأبي عبيد(تـ224هـ)؛ أمّا الجوهريّ(تـ400هـ) صاحب معجم "الصّحاح" فيستقي من "العين" و"الجمهرة" (عن أبي الفرج محمد أحمد: المعاجم العربية، صص27-28)؛ ويصرّح ابن منظور(تـ711 هـ) صاحب "لسان العرب" أنّه نقل معجمه عن سابقيه نقلا تاما. فبعد أن يذكر "التهذيب" للأزهري(تـ370هـ) و"المحكم" لابن سيده (تـ458هـ) و"الحواشي على الصحاح" لابن برّي و"النهاية في غريب الحديث" لابن الأثير الجزري، يقول في مقدمة معجمه: "وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمتّ بها، ولا وسيلة أتمسّك بسببها سوى أنّي جمعت فيه ما تفرّق في تلك الكتب من العلوم" (مقدمة لسان العرب، 8/1)؛ أمّا الفيروزابادي(تـ817 هـ) صاحب "القاموس المحيط" فيذكر في مقدمته : أنّ معجمه "صريح ألفي مصنّف من الكتب الفاخرة وسنيح ألفي قلمّس من العيالم الزاخرة" (انظر : مقدمة القاموس المحيط).

تنشغل بخصائص اللغة، وأن تبحث في نوع من التّوفيق بين الجدوى والاستيعاب، إذ لا يمكن للمعجميّ أن يكتفي بوصف بعض الكلمات المنتقاة [15]، فإنّ وظيفة المعجم باعتباره أداة تعليميّة وتطبيقيّة، تصنع لتباع، كأيّ بضاعة تجارية أخرى تدفعه إلى التخلّي عن فكرة الدفاع عن معجم مثاليّ يوفّق بين جميع المتكلّمين في الماضي والحاضر. إنّه يؤكّد على العكس من ذلك، على تنوّع حاجات المستهلكين، واختلاف المستويات اللغوية مطابقة مع الواقع اللغوي المتنوّع ثقافيا واجتماعيا.

والمعجم يصبح هو نفسه القادر على تمكين القارئ من معرفة استعمال جديد أو نادر وحديث إلى جانب الاستعمالات القديمة. هذه الوظيفة لا تجعل حجم المعجم وعدد مفرداته التي تراوح بين القديم والجديد معيارا للاقتراب من المعجم المثالي. وإنّما اعتبر المعجميون المعاصرون أنّ قيمة المعجم تكمن في مدى خضوعه لعاملي العرض والطلب، ومراعاته لخصوصية المستهلك وطبيعة احتياجاته المعاصرة. فضبطت من أجل ذلك وظيفة المعجم بمقاييس لسانيّة تجنّبها الاعتباطية ما أمكن مثل: تحديد نوع المتلقي؛ وضبط المستويات اللغوية التي تفرضها حدود المعجم أي الفضاء المخصّص للمعلومات التي يشرحها المعجم[16]؛ واعتماد مدوّنة محدّدة لتعذّر استيعاب جميع الملفوظات لمجموعة لسانيّة ما في زمن محدّد[17]. فيتكيّف بمقتضى ذلك محتوى المعجم وحجمه وهدفه.

وقد نتج عن هذه النظرة تطوّر كبير في مفهوم المعجم في اللّسانيات. فقد صارت المعلومات التي يقدّمها المعجميّ خطابا حول مدوّنة معيّنة، وليست أوامر يعطيها المعجميّ مباشرة باعتباره صاحب الملفوظ، فإنّ ما يقدّمه من إجابات هي من وحي المجموعة اللغويّة كلها، باعتبار المعجم وسيطا لهذا المتكلّم بالملفوظ الجماعي الذي تمثّله المدوّنة. لذلك يعسر أن يتخلّى المعجميّ عن مبدإ التضييق في الاستعمال والتطابق مع المعيار الثقافي واللغوي مهما التزم مبدأ التحرّريّة اللغوية لأنّ رسالته تختلط أصلا بخصائص الخطاب البيداغوجي الذي يُحوّل خطاب المعجم من معلومة إلى أمر[18].

وإذا كانت "المعجمية التطبيقية" بفرعيها النّظريّ والتّطبيقيّ المجال الذي يهدف إلى وضع تقنيات صناعة المعجم، والعلم الذي يدرس المناهج التي تفرضها هذه الصناعة، فقد كشف الأستاذ الحمزاوي من خلال دراساته دورها كذلك في

---

15) Salminen : La lexicologie; p. 94.

16) إنّ مسألة المستويات اللغوية رغم تناقضها مع مواقف المعجميين التي تأخذ الفصحى قضية مسلما بها، فإنّها اليوم في منظور الدرس اللساني شرط أساسيّ من شروط النّشاط اللغوي، تعكس صورتها وضع اللغة الحيّة في استعمالاتها اليومية التي ترتبط بالثقافة وتتدرّج تدرّجها.

17) Mounin : Dictionnaire de la linguistique, p. 89.

18) Picoche J. Précis de lexicologie française, p. 5.

معرفة الأبعاد الفكرية والمواقف المذهبية من قضية اللغة والاستعمال ومدى تكيّفهما مع روح العصر أو خضوعهما للتقليد. فمسألة التّطوّر في المعجم العربي الحديث مثلا خاضعة في الغالب لعوامل غير لغوية كالأذواق والضغوط الاجتماعية والمذهبية..»[19]، وقلما ارتكزت على مبادئ منهجية تُبيح مسألة التّطوّر في اللغة وتُخرجها من مرتبة اللحن إلى مرتبة الاستعمال المشروع.

ولهذا نلاحظ أنّ المعجم الحديث بما في ذلك بعض المحاولات العربية الرائدة لم يعد في الحقيقة قائما على هدف وحيد هو تحديد اللغة وتقنين الاستعمال النّموذجيّ، بل إنّه يقرّر ولو جزئيّا هذه الحقيقة اللغويّة فيحاول أن يغطّي عددا من الاستعمالات اللغوية قديمها وحديثها. على أنّ هذه النّزعة في التوسّع في بعض الاستعمالات والدّلالات المستحدثة هي في الغالب وليدة التيّار الحديث في تطوير وظيفة المعجم ونجدها أساسا في "المنجد"، وفي "المعجم الوسيط" ثم في ما تلاهما من معاجم حديثة. إذ لا بدّ من الإشارة إلى أهميّة هذه الاستعمالات ووجوب دراستها سواء باعتبارها مظهرا من مظاهر التطوّر اللغوي، أو لأنّها تطلعنا على خصائص التّطوّر اللغوي وقواعده في العربية خلال فترات معيّنة من تاريخها. وربّما تكشف لنا كذلك عن الأسباب الخارجية لهذا التطوّر وهو ما يسمح بمعرفة العوامل المؤثّرة في النّموّ اللّغويّ عامة.

لكنّ المشكل الذي يقع فيه أغلب مؤلفي هذه القواميس هو صعوبة الالتزام بمبدإ الاستعمال. فإنّ محاولة وصف اللغة وصفا حديثا يمرّ عندهم - رغم وعيهم بهذا التّناقض- بالقواميس السّابقة حتى وإن كانت قريبة العهد. بينما لا نجد لديهم صدى لاعتماد مدوّنة واستقراء نصوص من المرحلة التي يدرسونها.

4 - 3 - المفاهيم المعرقلة لنهضة المعجم العربي

ونتيجة لذلك، فقد حدّد الأستاذ الحمزاوي جملة من المفاهيم المعجمية مازالت تعرقل نهضة المعجم العربي وتضفي مسحة من الغموض على أهدافه، من هذه المفاهيم نذكر:

1) الخطاب المعجمي[20] :

ظلّ خطاب المعجم العربي في الغالب خطابا تعليميّا قائما على غلق النصّ. فلا مجال للانفتاح على الواقع اللغوي المتجدّد. فهو قائم على وظيفة تلقينيّة

---

19) الحمزاوي: من قضايا المعجم، ص154.

20) نفسه، ص155.

تدعو المتلقي إلى التزام استعمال لغويّ معياريّ، وانطلاقا من هذه المعيارية التي يمثّلها المعجم ويعلّمها لا يمكن أن يتضمّن خطابه لا ثغرة ولا عدولا [21].

2) القارئ المثالي[22] :

إنّ مؤلفي المعاجم العربية غالبا ما يتصوّرون قرّاءهم من الدّارسين والمثقفين والأدباء والطلاّب فحسب. وهذا معناه أنّ هذه المعاجم تصنع "إنسانا معجميّا"[23] وتستهدفه بخطاب تربوي يكاد يخلو من ألفاظ الحياة العامة والتعابير الرائجة في الأسواق، وفي الحقول والمصانع.. فهو مستهلك مفترض ذو لغة نموذجيّة، مستمدّة من المثال الأدبي القارّ. بينما لا يقرّ واقع العربية هذا النّوع من المتكلّمين، ليظلّ اعتماد المعجم العربي على هذا الضرب من القرّاء دليلا على خضوعه لعوامل خارجيّة كالنّزعات الفكرية والمذهبية، ممّا يحوّله إلى خطاب غير محايد يكرّس المعيار الثقافي السّائد، وفيه يقع تغليب المعيار على الاستعمال[24].

3) المعجم بين الحمائيّة والوصفيّة[25] :

تواجه المعاجم الحديثة هذا التّفاوت بين المعيار والاستعمال بمناهج مختلفة. فمنها ما عمل على تثبيت اللغة في استعمالاتها الفصيحة القديمة، ومنها ما خفّف من تشدّده فوسّع رصيده إلى بعض الاستعمالات المحدثة مع التنصيص على ذلك بذكر عبارات (عامي، مولّد، محدث..)، وهي إشارات قد تبدو في الظاهر منطقيّة، لكنّها في الحقيقة تضمر ضربا من "العقوبة" لأنّها تحكم على الكلمة من وجهة نظر فصاحيّة. وهي تعكس عدم رضا المعجميّ عنها باعتبارها غير فصيحة، فهي فاقدة للشّرعية الكاملة. والفارق بين الضّربين من الخطاب أنّ الأوّل هو "المعجم الوصفي" الذي يفرض حالة وهميّة من اللّغة؛ والثاني هو "معجم الاستعمال" الذي يسجّل حالة لغة، وفي الحالتين يتطابق المعجميّ مع معيار. لكنّه ليس نفس المعيار دائما. فالأوّل هو معيار اللغة الأدبيّة المثلى؛ والثاني هو معيار اللغة اليوميّة المتداولة.

---

21) Dubois j. et c.: Introduction à la lexicographie, p. 49.

22) الحمزاوي: المعجم العربي، ص171.

23) نفسه، ص171.

24) نفسه، ص173.

25) نفسه، ص172.

4) المعجم بين اللغة والكلام[26] :

إنّ المعجم العربي لا يزال يعرّف اللغة على أنّها شيء مغلق[27]، وأنّ المعجم هو اللغة حتى لا شيء في نظره خارجه. فهو ممثّل لكلّ اللغة فيه ترتّب جميع مفرداتها. أمّا المفردات غير الموجودة فيه فليست في نظره نحويّة أي ليست عربية. لذلك فهو يُدينها ويقصيها من الاستعمال. فلا يمكن الحديث عن نصّ منفتح على الواقع الجديد وما يجدّ فيه من مولّدات حديثة. ذلك أنّ هدف القدامى من وضع معاجمهم كان حاضرا في أذهان المحدثين أيضا، وهو حماية لغة القرآن وحفظها من الشّوائب وإبعادا لما خالطها من العجمة وما استُحدث بسبب التطوّر الفكري والاجتماعي والحضاري فيها من ألفاظ ومصطلحات جديدة بعد أن تضاعف عدد النّاطقين بها مرّات عديدة.

5) المعجم بين الزمانية والآنية [28] :

إنّ عدم تمييز المعاجم بين الزمانية والآنية، راجع في الحقيقة إلى طبيعة تصوّرها للمعجم الباحث عن التّوفيق بين ماضي اللغة وحاضرها، وذلك بمجرّد ربط دلالات من عصور مختلفة وأحيانا اشتقاقات واقتراضات.. دون إشارة إلى علاقات هذه المفردات بعضها ببعض. وهذا لا يكفي في نظر الأستاذ الحمزاوي لحلّ أزمة المعجم. فالقضية إذن قضية منهج وتصوّر لصناعة المعجم العربي وتجاوز عقبات في طريقه.

6) المعجم بين التقليد والتجديد [29] :

لقد ظلّت المعاجم العربية الحديثة متردّدة بين الانغلاق الدّال على الاعتقاد في مقولة الاستقرار اللغوي التي تستغني عن المستحدث في اللغة وتسعى إلى الدفاع عن الموروث؛ والانفتاح الدّالّ على الحاجة إلى تطوير اللغة من خلال تطعيم رصيدها بما يستجدّ من مولّدات. وإذا كنّا نستطيع تصنيف قواميسنا القديمة وفق مبدأيْ المحافظة والتجديد، فإنّ قواميسنا الحديثة لا تخضع لهذا التصنيف، بما

---

26) نفسه، ص156.

27) من سلبيات انغلاق المعجم أيضا تداخل مفهوم المعيار القائم عليه "الجمع" فعلا مع مفهوم "الكلية" (la totalité) الذي لا يزال هدف المعجم المنشود، لأنّ المعيار يُفهم على أنّه الصّورة المثلى، ولا يصبح مطلقا إلا إذا قُصد به معجم اللغة كلّها. من هنا فإنّ مفهوم الشّمول في المعجم (l' éxhaustivité) مفهوم نسبيّ بما أنّ "الكلية" (la totalié) متحوّلة وغير ثابتة لكنّها منصهرة في كلّ مقولة بيداغوجية أي: لا يوجد سؤال بلا جواب في عين المعجميّ الذي يكوّن لنفسه صورة يريد بلوغها. (Dubois j. et c.: Introduction à la lexicographie, p. 50.).

28) الحمزاوي: المعجم العربي، ص174.

29) نفسه، صص171-173.

أنّها تمزج بين المبدأين وإن بدرجات متفاوتة، لتبقى دائما مسألة "الجمع" متأخّرة عن الأحوال اللغوية المتطوّرة.

والمتتبّع لمادة المعجم العربي الحديث يراها تقدّم قدرتين مختلفتين للقارئ العربيّ: القدرة الأولى باعتبار الكمّ والقدرة الثانية باعتبار الكيف[30]. وهذا راجع إلى أنّه حاول تنمية العربية دون تفريط في ماضيها فنتج عن ذلك هذا التّداخل بين القديم والحديث، ليظلّ "الجمع" فيه، من حيث المحافظة والحداثة قضية اعتباطية.

7) المعجم بين اللحن والتطور[31] :

إنّ المعاجم العربية الحديثة تدّعي جميعا التّجديد والعمل على وصف العربية الحديثة قصد تيسير استخدام المعجم وجعله فعلا أداة مطواعة للمتعلّم والباحث والمستفيد عامة. لكنّ المتن يخضع في أغلبه للأسلوب القديم القائم على استنساخ المعاجم السّابقة. ولا يعدو التّجديد عندها إثراء للقديم بما يراه المؤلفون صالحا من إضافات تُنتقى ممّا غلب استخدامه. إنّ مسألة التّطوّر في المعجم خاضعة لعوامل غير لغوية كالأذواق والضغوط الاجتماعية..، ولا ترتكز في الغالب على مبادئ منهجية تُبيح مسألة التّطوّر في اللغة وتُخرجها من مرتبة اللحن إلى مرتبة الاستعمال المشروع. فليس المهمّ عدد المفردات الجديدة في معجم حديث بل المهمّ تأسيس رؤية معجمية قائمة على قواعد معيّنة في التّوليد اللغوي تنأى به عن الأهواء والأذواق لتُحلّه من البحث اللغوي منزلته التي يستحقّ.

8) المعجم والمدونة [32] :

عند النّظر في القواميس العربية الحديثة نلاحظ أنّ النّزعة الشّمولية لا تزال مسيطرة على صناعتها، رغم ظهور الوعي بوجوب التّمييز بين النّظرة التاريخية للّغة والنّظرة الآنيّة، والمعجم الموسوعيّ والمعجم اللغويّ العامّ والمعجم المختصّ. ولا تزال هذه المعاجم المعاصرة تسعى إلى أن تكون قوائم تشتمل على أكثر ما يمكن من ألفاظ اللغة على مدى تاريخ العربية الطويل مع تغليب القديم وتفضيله على الجديد؛ وبسبب عدم اعتمادها في الغالب على مدوّنة، تراوح هذه المعاجم بين اللغة والثقافة وتسعى إلى الإجابة في مؤلف واحد عن جميع الاستفهامات الممكنة حول اللغة والثقافة. فهي أقرب إلى المعاجم التاريخية لأنّها تحاول الجمع بين القديم والحديث. وإذا كان المعجم يستخدم في جميع الحالات للتحكّم في وسائل التعبير أو لتكملة معلومة حول الثقافة. فإنّ طبيعته وحجمه يتحدّدان بحسب طبيعة

30) نفسه، ص289.

31) نفسه، صص170-171.

32) نفسه، ص275.

الأسئلة التي يعدّه المؤلفون للإجابة عنها. فوظيفته إذن مهمّة في إنتاج الملفوظات لكنّ ميله إلى استيعاب أكبر عدد ممكن من المجالات تدلّ على رغبة لديه في اشتراط نوع من الشّمولية هي في الحقيقة واحدة من خصائص الملفوظ التعليمي الذي ينتمي إليه المعجم [33].

9) المعجم بين التنّظير والتّطبيق [34] :

طرح الأستاذ الحمزاوي في مختلف أعماله الأخيرة الإشكال الرئيسي الذي يعترض عمل المعجمي وهو اتّفاق المدارس اللسانية على اعتبار جميع فروع اللغة قائمة على مفهوم "البنية" ماعدا المعجم. ورغم الاعتقاد بأنّ المعجم مجمع علوم اللغة وآدابها، فإنّ من اللسانيين من لا يزال يعتبره قضية ثانوية، لتعذّر إخضاع بنيته للنظام. فموضوع المعجم وصف قوائم من الكلمات دون وضع حلّ منهجيّ قياسيّ لاعتباطية دلالاتها، أي دون إخضاع المعجم ذاته لمنهج مشكلن يضبط تعريفاته للوحدات المعجمية حسب بنية أو نظام يطبق على جميع المعاجم. وذلك راجع إلى أنّ الدلالة التي يرتكز عليها المعجم لم تبلغ درجة من التنظيم المنهجي القياسي الذي يسمح للمعجم بوضع بنية مثل البنية الصوتية أو الصرفية ممّا دعا أغلب أقطابها إلى عدم الاهتمام بالمعجم.

ولعلّ من أبرز العوامل في ذلك حسب الأستاذ الحمزاوي هو انفتاح المعجم على الواقع وارتباطه بمراجع من خارج اللغة، بخلاف بقية أنظمة اللغة المتّسمة بالانغلاق وصعوبة التغيّر.. وهو ما عمّق الخلافات حول المعجم وجعله من أعوص القضايا اللسانية المطروحة. ويستشهد الأستاذ الحمزاوي برأي لأولمان (Ulmann) صاحب كتاب "السيمية" يقول فيه : "إنّه يستحيل وضع بنية معجمية لاستحالة ذلك في السيمية". كما يذكر قول الفرنسي (قيرو) (Guiraud) : "إنّ الحقل المعجمي لا يكون بنية مثلها مثل النظام الفونولوجي حيث تؤدي كلّ لفظة وظيفة مشتركة ضرورية بالنسبة إلى المجموعة" لأنّ الألفاظ غير المبرّرة فيه أو الاعتباطية، تفوق بكثير الألفاظ المبرّرة[35].

بيد أنّ من البنيويين من يعتبر أنّ استحالة الإحاطة بقضية المدلول لا يستحيل معها أن نلاحظ في نطاق البنيوية نفسها، أنّ كلّ تحوّل في المدلول يوافقه في الغالب تبدّل في الشكل والبنية. ولهذا يستحيل أن نلغي كلّ ما له صلة بالمدلول خاصة في مستوى المعجم. فهناك حينئذ تناقض وجب رفعه. فمن جهة نلاحظ الافتراض المبدئي الذي يقرّ للمعجم بنية ضمنية، يعتمد عليها، لأنّه يستحيل على

---

33) Picoche: Précis de lexicologie française, p. 12.

34) الحمزاوي: المعجم العربي،، ص286.

35) نفسه، صص315-316.

الكلمات أن تتواجد عشوائيا في أذهاننا، وبالتالي في المعجم وهو ليس مجرّد مجموعة من الكلمات المتراكمة. ولذلك سعى المعجميون إلى البحث عن بناء معجمي لتصنيف المدلولات تصنيفا دلاليا معجميا. وهذا الخلاف قائم في العربية المعاصرة أيضا، إذ نجد له صدى عند تمام حسان الذي اعتبر المعجم لا يتوفر على مقومات النظام، وأنّه مجرّد "قائمة تشتمل على جميع ما يستعمله المجتمع اللغوي من مفردات"[36]، وعبد القادر الفاسي الفهري الذي يقرّ ولكن في نطاق النظرية التوليدية التحويلية بأنّ المعجم مطواع للبنية والنظام[37]...

لكنّ الأستاذ الحمزاوي بقدر تنبّهه لمخاطر هذا التوجّه اللساني على المعجم، واعتباره مجالا فوضويا يشذّ عن التنظيم ومن ثمّ عن البنينة فلا يُعدّ فرعا من فروع اللسانيات الحديثة، لم يعمل على مواجهة هذا الفكر، بل اكتفى بالتساؤل عن غرابة هذا الموقف من المعجم مشكّكا في صحته وداعيا إلى أن ينظر إلى المعجم على أنّه بنية ونظام. وردّد صدى بعض المحاولات التوفيقية للتوليديين أنفسهم، التي سعت إلى حلّ المعضلة بجعل الدرس المعجمي ممكنا بإلحاقه بالنحو وعدّه ذيلا له، فلا استقلالية له عن النحو، كما لا استقلالية للمفردة عن الجملة[38].

غير أنّ تصحيح هذه المفاهيم لم يكن من اليسير ترجمته إلى الواقع لبقاء المعجم رهن التّقليد والنّظرة الكلاسيكيّة الفصاحيّة للّغة. فكان لا بدّ من ربط حاضر المعجم العربي بالتيارات اللسانية الحديثة، بعد أن كان قد وضعه في إطاره من الدرس العربي القديم بما ميّزه من نظريات فذّة عدّها عالمية. فدعا إلى أن تندرج صناعة المعاجم العربية في التيار العالمي الذي يطلق على هذه الصناعة مصطلح "القاموسية" (dictionnairique).

في هذا السياق نريد أن نشير إلى امتداد هذه الرّؤى التي أسّسها الأستاذ الحمزاوي في الجيل اللاحق له ممّن يمكن أن نطلق عليهم إجمالا تلامذته. فإنّ منهم من شاركه تدريس المعجم حينا ليستقلّ بعد ذلك بهذه المهمّة في مختلف المؤسّسات الجامعيّة.

وكان البحث اللغوي في الجامعة التونسية قد انبنى على أسس معرفية حديثة جعلت المعجمية فرعا من فروع الدرس اللساني فيها، فتعزّز وجودها في الجامعة. وسرعان ما تجاوز البحث قضايا تطوير المعجم وتيسيره وإصلاحه إلى

---

36) حسان تمام : اللغة العربية معناها ومبناها، صص39-40 و314.

37) ينظر : عبد القادر الفاسي الفهري: المعجم العربي. وكان قدّم لهذا الكتاب في مجلة المعجمية بتونس في العدد1988/4 .

38) ينظر خاصة مقاله: "متى يصبح المعجم بنية ونظاما؟" ضمن كتاب: "المعجم العربي"، صص309-335.

التنظير بما تحقق من معرفة واسعة بالنظريات اللسانية المعجمية الحديثة. وهو ما مكن من الانتباه مبكّرا إلى ضرورة تصنيف المعجم - على غرار التصنيف اللساني النظريّ والتطبيقيّ- لحلّ مشكلة انتمائه إلى النظام من عدمه. فوقع التمييز بين المعجم الصناعيّ، والمعجم الذهنيّ. وقيمة هذا التصنيف تكمن في أنّه يخلّص المعجم ممّا أرادته له بعض المدارس من شذوذ وعدم قدرة على الانتظام والبنينة باعتباره قائمة صامتة. وهذا وإن كان ممكنا في المعجم الصناعيّ أو التطبيقيّ، فإنّ المعجم الذهنيّ أو الطبيعيّ قائم على نفس المبادئ والقيم التي تستمدّ منها اللسانيات مفاهيمها الأساسية كالبنية والنّظام والشكل، والكفاءة والإنجاز، والممكن والمستعمل.. (39)

وهكذا أثمر مجهود الأستاذ الحمزاوي بفضل من تتلمذ على يديه تدريسا وإشرافا، فأثرى البحث المعجمي النظري بمقاربات سعى فيها وفق مفاهيم لسانية تتفق فيها جميع اللغات، إلى إثبات مشروعية قضايا لطالما نفاها البعض عن المعجم. فكان ذلك منطلقا للأعمال المتميّزة التي ستنقل البحث المعجميّ في تونس نقلة نوعية. فقد صارت الآراء تدور حول قضايا لا تتّجه أصلا إلى مسألة بناء مقدرة معجمية لحلّ معضلة التواصل، بل تسعى في نطاق ما يعرف بـ"المعجمية النظرية" (la lexicologie) إلى بناء الأسس التي تثبت اعتبار المعجم جزءا من بنية اللغة ونظامها يقبل التصنيف والنظمنة والوصف. فكرّست في سبيل الدفاع عن ذلك أغلب الأبحاث التي ظهرت تباعا منذ بداية التسعينات بالخصوص، في مجلة المعحمية(40)، وفي أطروحات جامعية سعت من خلال مستويات الدرس المعجمي : الصرفية والصوتية والدلالية إلى إبراز نظمنة المعجم. فمثّل كلّ ذلك منعرجا هاما في البحث النظري في المعجم.

5 – الخاتمة :

هل وُفّق المعجم العربي الحديث فعلا إلى تكييف خطابه المعاصر مع طبيعة المستهلك الحديث ؟ وهل من صدى لبعض هذه الأسس النظرية التي انبنى عليها تصوّر المحدثين للمعجم الحديث؟ أي إلى أي مدى وُظّفت المعجمية النظرية في خدمة المعجمية التطبيقية وتحديدا صناعة المعاجم ؟

إنّ ما يلاحظ في أدبيات المعجم العربي الحديث، القناعة بأنّ رسالة المعجم هي التعبير عن مجموع المفردات المستعملة في اللغة العربية، ولكن في مستوى

39) الشريف: "المعجم بين النظرية اللغوية والتطبيق الصناعي"، مجلة المعجمية، 1986/2 .

40) انظر لابن مراد: في مجلة المعجمية مقالات: "المصطلحية وعلم المعجم"، "مقدمة لنظرية المعجم"، "المعجم والمعرفة"، "الصيغمية المعجمية"، "المقولة الدلالية".

التطبيق يصعب تخليه في الغالب، عن اللغة الأدبية المفترضة. وكثيرا ما يؤول ذلك إلى التباس منهجي خطير بين وظيفته الوصفية، ووظيفة التلقينيّة التعليمية. بل إنّه يتحوّل إلى حامٍ لاستعمال لغويّ مثاليّ، من خلال تطابقه التام معه، فيتبنّاه ويقدّمه في شكل قوائم منتهية، ويدعو إلى الالتزام به.

ولعلّ السبب في غلبة المنوال على الاستعمال، حتى في المعاجم الحديثة، يكمن في صعوبة تخلّص المعجم من هاجس الصحة والصواب أو الفصاحة واللحن، وسبل حماية الفصحى لغة القرآن، بينما تتّجه وظيفة المعجم المعاصر، وخاصة بعد ظهور المعجم الإلكتروني إلى وظيفة عملية نفعية تتمثّل في عدم حرمان القارئ من جميع النصوص الممكنة في لغته.

فإنّ المهمّ الآن في المعجم الحديث ليس ما يوجد فيه من طريف وفصيح وجميل، بل ما يساعد القارئ على وصف جميع ما يوجد في الكون، ومواكبة ما يجدّ فيه من تطور واختراع. ولذلك تبدو "المعجمية التطبيقية" القائمة على الوصف التجريبي للمعجم اليوم أكثر حرصا على الاستعانة بـ"المعجمية النظرية" الساعية إلى استنباط قوانين عامة للمعجم واقتراح نظمنة له، بما أنّ وظيفة المبحث التطبيقي هي في النهاية معالجة هذه النظمنة وتدقيقها بغية الوصول إلى المعجم الأمثل فعلا.

الحبيب النصراوي

معهد للغات

جامعة 7 نوفمبر قرطاج - تونس

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 293 - 306

المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة
مصطلحاتها ومفاهيمها
أ. محمد رشاد الحمزاوي

تقديم : زكيّة السّائح الدحماني

ظهر الكتاب في طبعته الأولى سنة 2004 عن مركز النشر الجامعي، في 457 صفحة واشتمل على قسمين : أولهما نظري وثانيهما تطبيقي تجريبيّ. مثل القسم الأول مقاربة نظرية وجاء القسم الثاني تطبيقا متخصّصا ومتضمنا لرصيد معجمي هام، انضاف إلى ما ورد من مصطلحات في كتاب سابق للمؤلف بعنوان : المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية [1] فساهم العملان في إثراء المصطلحية المعجمية وأخذا بيد الباحث لولوج عالم اللغة عموما والمعجم خصوصا، لما احتويا عليه من زاد مصطلحي ومفهومي ثمين.

يجمع هذا المؤلف بين قضايا معجمية تراثية وأخرى حداثية، ويمثل مشروعا فكريا طويل النَفَس، شرع الأستاذ الحمزاوي في بنائه منذ الستينات بين رفوف المكتبات أثناء مرحلة البحث الأولى، وواصله عند التدريس بكلية الآداب بتونس وبمعاهد الجامعات العربية وكلّياتها وخلال الجلسات والمؤتمرات بالمجامع العربية التي ينتسب إلى عضويتها وفي الندوات الدولية التي نظمتها جمعية المعجمية العربية بتونس[2] وعلى صفحات مجلة

1) محمد رشاد الحمزاوي : المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية. معجم عربي أعجمي وأعجمي عربي. الدار التونسية للنشر تونس/المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1987.

2) أسس ثلة من المهتمين بالمعجم جمعية المعجمية العربية بتونس سنة 1983. وكان الأستاذ محمد رشاد الحمزاوي أول رئيس لها وأول مدير لمجلتها.

المعجمية [3]. وقد كان الهدف الرئيسي لهذه المسيرة المعجمية، ولا يزال، "إرساء ذهنية معجمية دولية عربية"[4] وإعادة قراءة التراث والانطلاق منه لفهم الفكر المعجمي المعاصر، وهو منهج في البحث تتميز به المدرسة اللغوية التونسية بمختلف اختصاصاتها وفروعها عن نظيراتها في الوطن العربي.

يهتم الكتاب بقضايا المعجمية المتصلة بالمعجمية النّظريّة lexicologie والمعجمية التطبيقية المتعلقة بالصناعة القاموسية lexicographie وبما يتمخض عنهما من معجم مدوّن خاضع لقوانين الجمع والوضع وهو القاموس، أو كما يسميه الكاتب "المعجم" dictionnaire، أساسه الوحدة المعجمية – لفظا أو مصطلحا - التي تتوالف طرق توليدها صوتا وصرفا ودلالة، وتتباين أوجه بنائها بساطة وتركيبا وتعقيدا، وتتنوع سبل تطويرها بالترادف والاشتراك اللفظي والأضداد والتجانس.

كما ركز الكاتب على مفهوم النص المعجمي الذي قابله حينا بمصطلح microcontexte وعكسه macrocontexte، وأحيانا بـ contexte lexical وهو ترجمة في النصوص اللسانية المعاصرة لمصطلح microstructure[5]، فعرفه ودرس مكوناته التي لا يقوم نص معجمي بدون توفرها وهي الترتيب والتعريف والتدعيم بالشاهد. وتكمن أهميته في اشتماله على وثائق أدبية وحضارية وجمالية وعلمية، فهو شاهد على عصور وثقافات ومجتمعات سالفة وحاضرة. والنص المعجمي نصان : نص أكبر ونص أصغر والنص الأكبر macrostructure أو dictionnaire تنضوي تحته آلاف النصوص المعجمية الصغرى الأساسية microstructures.

حاول المؤلف في كلّ أبحاثه وأساسا في هذا الكتاب ربط العمل المعجمي العربي بمناهج وآليات تقنية متطورة كالإعلامية والمعجمية الإحصائية واللسانيات الجغرافية والاستبيانات الاجتماعية والنفسية شأنه في ذلك شأن التأليف القاموسي في الغرب.

---

3) أسست هيئة جمعية المعجمية بتونس مجلة المعجمية يوم 6 مارس 1985، صدر العدد الأول سنة 1985 وظهر العدد العشرون الخاص بوقائع ندوة "تكوّن المصطلحات العلمية والفنية في المصادر العربية القديمة". سنة 2004.

4) محمد رشاد الحمزاوي : المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة/مصطلحاتها ومفاهيمها. ص1، مركز النشر الجامعي. تونس 2004.

5) انظر في هذا السياق مفهوم الباحثة الفرنسية جوزيت ري دوبوف J. Rey Debove للمصطلحين في كتابها :

Etude linguistique et sémiotique des dictionnaires français contemporains. Chapitre 6 : la définition : la microstructure du dictionnaire de la langue. pp180-252. éd. Mouton. Paris 1971.

القسم الأول : (ص ص 7 - 129) :

احتوى القسم الأول وعنوانه المعجمية : مقاربة نظرية ومطبقة" على بابين. مثل الباب الأول : "في إشكاليات التنظير" مدخلا نظريا حول المقاربة النظرية والمطبقة، أكد فيه المؤلف على وجوب استقراء القديم والحديث وإبراز مميزات كل منهج والمقاربة بينهما تجنبا للقطيعة بين النظامين. وميّز بين النظرية التي تعني اكتشاف الشيء لأول مرة والتنظير الذي يفيد العمل انطلاقا من نظرية قائمة في لغة مصدر ذات مجموعة من المقاربات الأساسية حصرها الباحث في أربعة أسس هي :

1 – استقراء مميزات النظرية وخصائصها

2 – المقاربة بين النظريات الموازية

3 – تبين أوجه الاختلاف بين النظريات

4 – تنسيق الخطاب المعجمي العربي.

وتطبق نظرية اللغة المصدر على اللغة المورد langue cible باعتبارها اللغة الآخذة.

يقرّ الحمزاوي، بأن مسيرته المصطلحية والمفهومية تشهد له بالتنظير "فلا يكفي أن تنقل المصطلحات [...] في النصوص المحيطة بها وأن تترجم بترجمات فيها نظر، وتدرج تحت عناوين صلتها بها مشلولة، لتقر بالسبق لها في الموضوع المطروح والتجديد فيه والتميز به"(6) لأن التنظير من وجهة نظر المؤلف ينبذ التراكم والتكديس ويستوجب التواصل بين المعارف اللغوية، وهو بهذا التصريح يلمّح إلى من يعتبرهم غير مختصين وغرباء عن العلم.

أما الباب الثاني من القسم الأول وعنوانه : "المقاربة النظرية والمطبقة". فقد احتوى على أربعة فصول : عالج في الفصلين الأولين قضايا نظرية بحتة، وتعرض في الفصل الثالث بالتقديم والنقد للكتابات العربية الحديثة في المعجمية، بينما تناول في الفصل الرابع بالتحليل والتعليق، مقاربتين معجميتين، متخذا المعجم الوسيط نموذجا.

2-1 – المعجمية ومسائلها (ص ص 15- 69)

هو فصل تأطيري هام، يطرح القضية التي تمثل الجزء الأكبر من موضوع الكتاب وما يتصل به من مفاهيم ومسائل نظرية، فعرف بفروع المعجمية تعريفا واضحا مبسطا. وبيّن أن التأسيس لوضع معجم نموذج يجب أن

---

6) محمد رشاد الحمزاوي : المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة/مصطلحاتها ومفاهيمها. ص7.

يحيط بالخطاب اللساني دون إسقاط أو إهمال. وفصل القول في فروع علم المعجم المختلفة : مُعجمية (بميم مضمومة) ومَعجمية (بميم مفتوحة) ورصيد لغوي lexique ومعجم dictionnaire، وكلمة أو وحدة معجمية التي هي موضوع المعجمية النظرية والمعجمية التطبيقية مع اختلاف في طريقة معالجتهما لها. ولأنها تجمع بينهما، فهي تجعل منهما علمين مترابطين ومتكاملين، لا ينجز الثاني بدون القاعدة النظرية ولا يتحقق الأول خارج إطار التطبيق.

هذا التمييز بين علمي المعجم يبدو لنا الآن بديهيا في تونس بفضل ما بذله الأستاذ محمد رشاد الحمزاوي وكل من اهتم معه في الحقل اللساني بالدراسات المعجمية [7] من قراءة متأنية للنصوص التراثية ومن حسن استقراء واستنباط للنظريات اللسانية الحديثة وربطها بالنظريات المعجمية العربية كتقليبات الخليل ومقاييس ابن فارس... فقد ترسخت في الدرس الجامعي وعند الباحثين عديد المفاهيم واتضحت عندهم الحدود الدقيقة الفاصلة بين فروع العلم الواحد. وهذا المجهود يجنب من مغبة الخلط بين المصطلحات وبين وظائفها. وهو خلط لم يسلم منه مجمع اللغة العربية بالقاهرة [8] وموسوعة اللسانيات البريطانية الحديثة [9].

خص صاحب الكتاب المُعجمية بجانب كبير من التحليل والدرس (ص ص 17-69) فأشار إلى علاقتها بالمَعجمية، فكلاهما منتسب إلى الرصيد اللغوي المكون للمعجم الذهني لمجموعة لغوية ما، والمتكون حسب الخليل من مستعمل اللغة وهو الموجود بالفعل، ومهملها وهو الموجود بالقوة. والرصيد اللغوي الخام لا متناه ولا يمكن الإلمام به وتخزينه كاملا في معجم مدون، لأنه ملك للمجموعة، وهو متحول وليس ثابتا مستقرا استقرار قواعد النحو.

وقف الحمزاوي طويلا عند الكلمة باعتبارها محور الدراسة المُعجمية بفرعيها. ففي مستوى الدال تطرّق بإسهاب إلى قواعد توليد المفردة والى بنيتها وأنواعها، وبيّن صعوبة تحديد مصطلح كلمة قديما وحديثا، واقترح بديلا لها مصطلح مُعجمة le lexème، وهي وحدة معجمية بسيطة تنتمي إلى مقولات الاسم والفعل والصفة وتلحق بها زوائد تصريفية لا تغير معناها وزوائد اشتقاقية تكسبها معنى جديدا لأنها ذات وظيفة دلالية معجمية. وتمثل المعجمة علامة لغوية متكونة

7) لا شك أن تأسيس جمعية للمعجمية ومجلة مختصة بها دليل على مدى اهتمام اللغويين بهذا الفرع من علم اللغة. وقد لمعت أسماء عديدة في تونس في هذا الميدان، نذكر منها دون تفاضل، محمد رشاد الحمزاوي وعبد القادر المهيري وإبراهيم بن مراد والطيب البكوش وعبد السلام المسدي وصلاح الدين الشريف وأحمد العايد والمرحوم محمد العروسي المطوي وعبد اللطيف عبيد ومحمد صالح بن عمر والجيلاني بلحاج يحي...

8) محمد رشاد الحمزاوي : المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة. ص24

9) نفسه ص24.

من دال ومدلول. أما المُعيجمة le lexie، بالتصغير، فهي أيضا تعوض مصطلح كلمة ذات المفهوم العام والغامض، وتكوّن مدخلا معجميا بسيطا أو مركبا أو معقدا. فتكثر الوحدات المعجمية البسيطة أساسا والمركبة بدرجة اقل في معاجم اللغة العامة، بينما تختص المعاجم العلمية بالوحدات المركبة المتكونة من عنصرين معجميين، والوحدات المعقدة المتكونة من ثلاث وحدات فما فوق. وهذه الأخيرة، هي حسب المؤلف قوالب جاهزة ووحدات هامشية ولدتها المعتقدات الدينية والحالات النفسية والأوضاع الاجتماعية. ولأنها خاصة بمجتمع دون آخر فلا يمكن ترجمتها حرفيا [(10)]. وإلى جانب المعيجمة المولدة توليدا داخليا بالاشتقاق والنحت والمجاز تقترض المعيجمات من لغات مصادر، وتمر غالبا في اللغة الهدف بثلاث مراحل هي : مرحلة الاقتراض ومرحلة التشتت ومرحلة المؤالفة والاستقرار.

أما في مستوى المدلول، فقد حلل الكاتب الظواهر المعجمية التي تسهم في تطور معنى الوحدات وتنقل دلالتها، كالأضداد l'ambivalence، والترادف la synonymie سواء أكان ذلك من باب التكافؤ المفتوح الخاص بالمفردات أو التكافؤ المقيد الخاص بالمصطلحات[(11)]، والاشتراك اللفظي la polysémie وهو تعدد دلالي أدرج تحته عديد الأصناف :

- التجانس اللفظي : l'homonymie وهو اشتراك في الدال واختلاف في المداليل.
- التجانس النسبي : paronymie وهو اشتراك في صوامت الدال الواحد واختلاف في الصوائت، ينتج عنه اختلاف في المعنى مثل حسَب وحسُب وحسِب.

---

10) اكتفى المؤلف بتعميم القول في الوحدات المعقدة التي هي أصناف كثيرة منها : التعابير التحليلية les locutions analytiques والتعابير الاصطلاحية les expressions idiomatiques

وأما الوحدات المركبة فأصنافها كثيرة منها المتلازمات اللفظية les collocations والتراكيب المفصولة Asyndés والتراكيب المنحوتة Acronymes.

لمزيد من التوضيح انظر :

- سيبويه : الكتاب. ج1 ص227. ج2 ص267. ج3 ص ص 298-307. عالم الكتب بيروت. 5 أجزاء (بدون تاريخ).
- إبراهيم بن مراد : مقدمة لنظرية المعجم، ص ص22-23 دار الغرب الإسلامي 1997.
- ندوة المتلازمات اللفظية. مجلة الدراسات المعجمية المغربية عدد2006/5

-E. Benveniste : Problèmes de linguistique générale. T2. (les formes nouvelles de la composition nominale). Ed Gallimard 1983.

-Martinet (A) : Eléments de linguistique générale. (Chap 4 : la composition et la dérivation). Ed Armand Colin 1967.

11) الحمزاوي : المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة، ص46.

- التجانس الخطي l'homographie وهو اشتراك في الدال واختلاف في المداليل مثل روى بمعنى سقى وروى بمعنى نقل الخبر.

ومهما كان الصنف الذي تنضوي تحته المعيجمة، فإنها تتكون من مجموعة من الخصائص والسمات المعجمية الايجابية والسلبية تكسبها ذاتيتها كفرد معجمي داخل السياق. فالتوليد الدلالي بالمجاز ينتج عن علاقات المشابهة والمجاورة في المعنى ويؤدي إلى تغير المرجع بتوسيع المعنى أو تضييقه. فهو اقتراض داخلي تطوع فيه الدوال للتعبير عن مداليل جديدة لم توضع لها اصطلاحا، والتوليد بالاشتقاق - وهو أساس النظام الصرفي العربي- تتوسع شبكته باطّراد كلّما احتاجت اللغة إلى مفردات جديدة تفرضها متطلبات العصر. فيعمل بالأنماط الصّيغية، وهي أشكال تحمل معان ومداليل مرتبطة بها.

إن توليد المصطلحات ضروري، لما له من أهمية في حياة المجتمعات وتقدمها وتفتحها على المحيط الخارجي فهو يمكّن اللغة من مواكبة العصر والعلم ويثري الرصيد العلمي الذي أصبح عملة صعبة تخزن بمقابل باهض في البنوك الغربية على غرار مصطلحات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب المغربي المحفوظة في البنوك الايطالية بعيدا عن أيدي الباحثين[12].

2-2 – المعجمية والمعجم (ص ص 71-83)

بعد دراسة الوحدة المعجمية بنية ومضمونا، يهتم المؤلف بمرحلة تعد من أكثر مراحل التأليف المعجمي دقة وتعقيدا، وهي تعريف المدخل المعجمي. فقد تنوعت طرق الشرح ولم تتوحد المناهج، فجاءت الشروح خالية من المعلومات الصوتية والصوتمية، واقتصر بعضها على التعريف بالتضاد أو بالترادف، وأهملت أحيانا السياقات والشواهد، مما حدا بالمؤلف إلى اقتراح مشروع نموذجي للتعريف قائم على ثماني نقاط "غايتها تقديم اكبر ما يمكن من المعلومات عن المدخل" [13] وهي :

1 – التعريف الصوتي

2 – التعريف الصرفي

3 – التعريف النحوي

4 – التعريف الدلالي

5 – التعريف المجازي

---

12) نفسه ص55.

13) نفسه ص380.

6 – التعريف الأسلوبي بالشاهد
7 – التعريف بالصورة

وقد عرض منهجيتين لسانيتين - ضمن مناهج أخرى - تحللان المدخل وتعرّفانه، هما التحليل التوزيعي l'analyse distributionnelle والتحليل السيمي l'analyse componentielle. وتعمل المنهجية الثانية بمكونات الحقل الدلالي الواحد وما يجمع بينها من سمات الإيجاب والسلب وحتى المحايدة. وهي سمات تمييزية وظيفية تتسم بها كل وحدة معجمية. هذا المنهج في التعريف استعارته الدراسات الدّلالية الحديثة من الصوتيات والصوتمية، فعوضت مصطلحاتها بما يناسبها من مصطلحات لها علاقة بالدلالة والمعجم كالسمة أو المعينم sème والسميم أو المعنم sémème والسميم الأكبر أو المعنم الرئيس l'arechisémème.

ومن المسائل الهامة في التأليف المعجمي قضية جمع الرصيد اللغوي، والبحث عن منهج يتحقق به المعجم النموذج الذي يوظف كل المستويات اللغوية دون إقصاء أو معيارية، ويعتمد مدونة آنية، مستعملة وشاملة تراجع - باقتراح من المؤلف - كل ربع قرن، فتثرى بما جدّ من الألفاظ والمصطلحات وتخلص من الوحدات المعجمية (المهملة والمماتة). إن هذا المنحى في تطوير اللغة وتجديد مدونة القاموس ليس غريبا عن التأليف المعجمي العربي، فقد سعى إليه ابن فارس في المقاييس وابن منظور في اللسان.

إن الكاتب بممارسته الطويلة للقواميس قديمها وحديثها قد أصبحت له رؤية شاملة عن قواعد الجمع وشروط الوضع الجيدة. فهو يحث على أن يميز اللغويون وأرباب الصناعة في التأليف المعجمي، بين المنهج الآني التزامني Synchronique الذي يجمع المدونة من رصيد حي مستعمل، والمنهج التطوري التاريخي diachronique الذي يصف التطور الزمني للرصيد ويضبط التغييرات اللغوية الطارئة عليه عبر العصور، ولعل أهمها التغيير الدلالي للمفردات لما له من صلة مباشرة بالمعجم. فالجمع بين المنهجين ينتج عنه تداخل في المستويات اللغوية، ويحول تكديس المهمل والمستعمل من الألفاظ في نفس القاموس دون مبدإ التطور والنمو اللغويين، ولا يساعد على بناء معجم تاريخي يمثل هوية العرب وحضارتهم، ويربط الماضي بالحاضر.

أشار الأستاذ الحمزاوي في أكثر من موضع إلى النص المعجمي(14) الذي تختلف نوعيته باختلاف أصناف المعاجم، فيرد طويلا وموسوعيا كما في لسان العرب لابن منظور وفي دائرات المعارف، أو مختصرا ضاربا في الاقتضاب والتلخيص كما في القواميس الموجهة إلى الأطفال، أو مجرد مقابلات كما في المعاجم متعددة اللغات وفي معاجم المصطلحات العلمية. وقد يجمع القاموس الواحد أصنافا عديدة من النصوص إما بسبب غياب منهج واضح في التعريف، أو حسب طبيعة الوحدة التي يتناولها المعجم بالشرح.

وللنص المعجمي شروط لا يستقيم بناؤه بدونها، وهي توفير معلومات صوتية وصرفية ودلالية ونحوية وبلاغية وأسلوبية حول اللفظ، ولكن بسبب الفوضى في التعريف وانعدام النظام الموحد في التأليف اختلت بعض الأركان في قواميسنا العربية وخاصة منها الصوتي النطقي.

إن المعجم في مفهوم الكاتب ليس هو الرصيد اللغوي lexique كما تذهب إلى ذلك عديد الدراسات المعجمية الحديثة(15) وهو ليس قائمة مفردات glossaire ولا مخصص ألفاظ vocabulaire، إنه المعجم الصناعي أو المعجم المدون. وينقسم حسب طبيعته إلى معجم اللغة العامة ومعجم مختص، ومعجم ورقي أو

---

14) شغل النص المعجمي المؤلف فأولاه اهتماما كبيرا لما له من تأثير في بناء القاموس النموذج، فعالج الموضوع في بحوث كثيرة منها :

أ- النص المعجمي في المولدات والأعجميات. مجلة المعجمية عدد11/1995. وقد عاد الأستاذ الحمزاوي إلى هذا النص فأدرجه في الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه. كما نبّه الكاتب إلى أن القسم الأول من كتابه يعود تأليفه إلى سنة 1994. وان القسم الثاني جديد. (2001)

ب- النظريات المعجمية العربية وسبلها إلى استيعاب الخطاب العربي. مؤسسات ابن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس 1999.

ج- النص المعجمي وتعريفاته. محاضرة قدمها في أعمال اللقاء العلمي الدولي الرابع للقاموسية حول التعريف وقضاياه. تونس من 22 إلى 24 جوان 2006 – تحت الطبع -

د- المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة/مصطلحاتها ومفاهيمها. عاد فيه إلى المسألة بالدرس والتمحيص في المواضع التالية : ص ص 74-77، 96-97، 106-109، 376-385.

15) لا يتفق عديد المعجميين مع صاحب الكتاب في الاصطلاح على المعجم المدون "بالمعجم". يقول عبد القادر الفاسي الفهري في كتابه : المعجم العربي نماذج تحليلية. دار توبقال للنشر ط1/1982. ص14 "المقصود بالمعجم هنا هو المعجم الذهني mental lexicon الذي نفترض انه يدخل ضمن تحديد قدرة المتكلم اللغوية أو ملكته، **لا الصناعة القاموسية أو المؤلف** الذي يضعه الواصف لرصد هذه القدرة الباطنية، أو على الأصح جزء من هذه القدرة". – التسطير من وضعنا -

كما أقرّ المعجم الوسيط استعمال مصطلحي القاموس والمعجم للدلالة على المعجم المدوّن. وخصّ لفظ قاموس برمز (مج) أي مصطلح متفق عليه مجمعيا. المعجم الوسيط. جزءان. المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، اسطنبول تركيا.

وانظر : محمد غاليم : التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم. دار توبقال للنشر ط1. 1987

- إبراهيم بن مراد : مقدمة لنظرية المعجم. دار الغرب الإسلامي. ط1. 1987.

إلكتروني ومعجم أحادي أو متعدد اللغات. ويرتب النوع الأول ترتيبا خارجيا ألفبائيا أو صوتيا... وترتيبا داخليا يعتمد الظواهر المعجمية من اشتراك وترادف وتجانس وأضداد.

3-2 – الدراسات العربية الحديثة والمعجمية (ص ص 85 – 101)

تمّ في هذا الفصل عرض لأهم الأبحاث في ميدان المعجمية العامة والمختصة بفرعيها النظري والتطبيقيّ عند الدارسين المشارقة والمغاربة. فهو عمل توثيقي هام، فيه قراءة وتعليق ونقد، ذكر المؤلف أعمالا اتصفت بالتنظير واهتمت بقضايا المُعجمية والمَعجمية مثل سر الليال في القلب والإبدال لأحمد فارس الشدياق ومناهج البحث في اللغة لتمّام حسّان... وقدم أبحاثا أخرى أكثر تخصصا ودقة، اهتمت بالكلمة باعتبارها موضوع علم المعجم بفرعيه، من ذلك "دور الكلمة في اللغة" لكمال بشر، وهو ترجمة لكتاب ستيفن أولمان[16] و"الكلمة لحلمي خليل، و"في الكلمة" للطيب البكوش وصالح الماجري. أما كتابات عبد القادر الفاسي الفهري "في المعجم العربي : نماذج تحليلية جديدة" ومحمد غاليم "التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم" فهي ذات منحى توليدي تحويلي.

وفي دراسات المعجم المختص أشاد المؤلف بعمل إبراهيم بن مراد في كتابه "المصطلح الاعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية[17] واعتبره إلى جانب أعمال الفاسي الفهري ورشاد الحمزاوي وتمام حسان، من "الدراسات الدولية الرائدة" في هذا المجال[18].

ولجمعية المعجمية العربية بتونس مساهمة كبيرة في تأسيس الفكر المعجمي العربي وترسيخ الدراسات المعجمية. فهي رافد من روافد البحث اللساني عموما والمعجمي على وجه الخصوص إقليميا وعربيا وحتى دوليا. فقد اهتمت بقضايا المعجم قديما وحديثا بما تصدره في مجلتها من بحوث يعتد بقيمتها العلمية وبما تنظمه من ندوات دولية منتظمة. وقد ذكر المؤلف بعض الأعمال الهامة

---

16) كمال بشر : دور الكلمة في اللغة. القاهرة 1962 وهو ترجمة لكتاب Stephan Ulmann. Words and their use.

17) إبراهيم بن مراد : المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية. بيروت 1985.
وللمؤلف عديد البحوث في المصطلح نذكر منها :
- المعرب الصوتي عند العلماء المغاربة، الدار العربية للكتاب. تونس 1987
- المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري. دار الغرب الإسلامي 1993.
- الكلم الأعجمي في عربية نفزاوة. مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية. تونس 1999.

18) محمد رشاد الحمزاوي : المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة/مصطلحاتها ومفاهيمها. ص94 و117.

الصادرة في هذه المجلة كبحث محمد صلاح الدين الشريف[19] وفرحات الدريسي[20]. وعبد اللطيف عبيد[21]، وغيرهم كثر.

4-2 – مقاربتان للتطبيق (ص ص 103 – 129)

لخص صاحب الكتاب، في نهاية الفصل الثالث أهم قضايا الفصول الثلاثة الأولى بمشجرين قدم في المشجر الأول مسائل الجمع في قسمين : (أ) : المدخل، وهو عنوان النص المعجمي ويكون حسب بنيته بسيطا أو مركبا أو معقدا. (ب) أنواع التعريف، وقد ضبطها الحمزاوي في ثمانية أقسام[22]. وخصص المشجر الثاني لأركان الوضع، فقسمه إلى (أ) و(ب) حسب أنواع المداخل (معيجمة عامة أو مختصة وعربية أو أعجمية) وحسب أصناف الترتيب (ترتيب داخلي أو خارجي). وقد بدا لنا انه يحسن إعادة توزيع المشجرين على العنوانين : الجمع والوضع، فيلحق (ب) من المشجر الأول بالمشجر الثاني الخاص بالوضع لأنه يقدم أقسام التعريف الثمانية، ويقع تبادله بـ (أ) من المشجر الثاني الذي يعرض المستويات اللغوية للمدخل (قديم – محدث – معرب – دخيل – عام – خاص) وهو من باب الجمع.

طبق المؤلف هذين المشجرين النظريين على نصين معجميين من "المعجم الوسيط"، فركز على مفهوم النص المعجمي القائم على ركنين أساسيين هما العنوان – ويعني به المدخل، وهو شرح المفردة شرحا لغويا أو منطقيا. واختار نموذجا من المولد وآخر من الدخيل لما يوجد بينهما من ائتلاف واختلاف في التعريف. واقتنى المقاربتين من المعجم الوسيط دون سواه لأنه يعتبر معجم المثقفين، ونتاج سلطة علمية لغوية هي مجمع اللغة العربية بالقاهرة التي كان هدفها من وضع هذا القاموس تحقيق المعجم الأمثل والمحافظة على سلامة اللغة والوفاء لروح العصر ومتطلباته. وقد جدد المعجم في بعض الجوانب كتحديد الرموز وإثراء الرصيد بمداخل جديدة، ولكنه اخفق في جوانب أخرى منها عدم الدقة أحيانا في تعريف بعض المفاهيم[23]، وافتقاره كغيره من القواميس العربية، إلى التعريف الصوتي والصرفي خاصة إذا كان المدخل أعجميا محافظا على عجمته، ومعالجة الوحدات المعجمية بتعريفات تختلف من مدخل إلى آخر مما

19) محمد صلاح الدين الشريف : المعجم بين النظرية اللغوية والتطبيق الصناعي. مجلة المعجمية عدد1986/2. ص ص 15-30.

20) فرحات الدريسي : في بنية النص المعجمي، مجلة المعجمية عدد1991/7. ص ص43-55.

21) عبد اللطيف عبيد : المصطلح الفلاحي : تاريخه وقضاياه. مجلة المعجمية عدد1992/8.

22) محمد رشاد الحمزاوي : المعجمية : مقدمة نظرية ومطبقة. أنظر الصفحات 107-109، 285-288، 380-383.

23) نفسه ص 122 أنظر تعريف المعجم الوسيط لمفهوم "المولد".

"يوحي بغياب نظرة منهجية موحدة أو نظرية لغوية حديثة معينة" [24]، وهو ما حدا بالمؤلف إلى خوض غمار التأليف المصطلحي، بدأه باحتشام في مجلة "حوليات الجامعة التّونسيّة" ثمّ في مجلة المعجمية [25] وطوره في قاموس المصطلحات اللغوية الحديثة [26]، وأرسى دعائمه في الجزء الثاني من هذا العمل تحت عنوان : المعجمية : المصطلحات والمفاهيم. فرد الاعتبار لعديد المفاهيم المعجمية القديمة مثل المهمل والمستعمل والمقاييس والأصول والفروع والحقيقة والمجاز والجمع والوضع...، واهتم بحقول المُعجمية والمَعجمية والمعجم وبالمصطلحات اللسانية التي لها علاقة بعلم المعجم.

القسم الثاني (ص ص 135 – 444) :

استهل الحمزاوي القسم الثاني المخصص للمصطلحات المعجمية ومفاهيمها بمدخل نظري هام قدم فيه مشروعه المعجمي ذا البعدين التراثي والحداثي وشرح منهجه في التعريف والترجمة، تعرّض بالنقد لبعض المحاولات التي وضع أصحابها معاجم لسانية ومصطلحية وفشلت في نظره لأنها غير متشبعة بتجارب هذا الاختصاص.

تضمن القاموس 366 مصطلح معجمي، مرتب ترتيبا ألفبائيا ومعرف تعريفا منطقيا موسوعيا. فوظف الترادف والشرح والمقاربات التراثية والنظريات اللسانية المعاصرة. وأحال من حين إلى آخر على الحاشية ليضيف إلى التعريف معلومات ثانوية لا تقل أهمية عن محتوى المتن. وقد وردت نصوص المداخل ثرية وموثقة تجاوزت كمّا وكيفا ما تعوّد عليه القارئ في المعاجم اللسانية العربية من تعريف موجز جدا يكاد يكون تلغرافيا أو قائمات من المصطلحات، تقابلها مصطلحات من لغات أجنبية، فهذا الصنف الأخير من المعاجم لا يطبّق قوانين التأليف القاموسيّ ولا يستجيب لحاجيات مستعملي المعجم المعاصر.

ودعم المؤلف النص المعجمي بجداول توضيحية (ص ص63-188-318-319...) وأشكال هندسية (ص ص 25-46-190...) ورسوم (51...) ومشجرات (100-101-215) ومعادلات رياضية (47-48-216) ورموز مختصرة وأرقام وعلامات وأعلام، كثيرا ما يعود بعضها في مواضع متعددة وسياقات مختلفة. وإن

24) نفسه ص126.

25) حوليات الجامعة التونسية عدد14/1977. صدر البحث نفسه فيما بعد في كتاب المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية تونس/الجزائر 1987. مجلة المعجمية عدد2/1986 – عدد3/1987 – عدد4/1988.

26) الدار التونسيّة للنشر/المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1987..

النصوص المعجمية تطول أحيانا مع بعض المداخل فتخرج عن المعتاد في التأليف المعجمي اللساني الذي يستوجب الاختصار والإفادة، فيُصبح شبه موسوعيّ أو جزءا من بحث أكاديمي، إذ جاء مدخل "النص المعجمي" ممثلا لأطول النصوص (ص ص376-386)، عاد فيه إلى كل ما قيل في الفصول السابقة من الكتاب حول الموضوع [27]. وعلى عكس ذلك تقصر مداخل أخرى ولكن دون أن يصبح قصرها مخلا بالتعريف، من ذلك مدخل "غموض تحويلي" (ص300 : اقل من خمسة أسطر) ومدخل. "بُويب" (ص167 : ثلاثة اسطر). ورغم أن التعريف منطقيّ فقد أثرى الكاتب النصوص بأمثلة مصنوعة (ص ص160-161) وآيات قرآنية أحيانا (ص308) ومقتطفات من اللهجات (ص368) وأبيات من الشعر الفصيح والملحون (ص243) وأمثلة باللغة الفرنسية أو الانكليزية (ص ص 255، 282، 283).

ويختم القسم الثاني من الكتاب بمسرد عربي للمصطلحات التي احتوى عليها المعجم ومسرد ثلاثي اللغة، دون أن يحيل على الصفحات التي وردت فيها هذه المفاهيم.

المُعجمية والمَعجمية والمعجم ثلاثية قام عليها هذا البحث. وهي أساس كل عمل معجمي. تمثل المعجمية نظام اللغة وقوانين تطور الرصيد، وتقدم قواعد بنائها. وتمثل القاموسية أو المعاجمية أو المعجماتية[28] كما يسميها الباحثون في المغرب الأقصى، جانبا نظريا يشرح قواعد الجمع والوضع وجانبا تطبيقيا يتمثل في الصناعة القاموسية. أما القاموس، فيعد ثمرة العلمين معا، إلا أنه يبقى مهما اتسع وتضخّم، محدودا ودون المعجم الذهني شمولا، لأنه من وضع الأفراد لا المجموعات. ونظرا إلى أهمية علم المعجم وحاجة الدراسات اللغوية العربية إلى أبحاث في الميدان تواكب ما يصدر من أعمال في الغرب، فإن هذا الكتاب يضيف إضافة علمية قيمة ويعتبر لبنة جديدة تثري المكتبة اللغوية العربية. فقد طور المؤلف المفاهيم بأن أصبح لكل فرع من هذين الفرعين مبحث نظري وآخر

---

27) اتسمت جل النصوص بنَفَس طويل، دل على الإلمام بهذه المسائل المطروقة من ذلك مدخل التقليس (ص ص316-320) واللسانيات الوظيفية (ص ص349 ...353)...

28) يميل المعجميون إلى استعمال مصطلح معجماتية lexicographie انظر :

عبد الغني أبو العزم : تطور المصطلحات المعجمية والمعجماتية وإشكالية الوضع والترجمة. مجلة الدراسات المعجمية ص ص7-55. العدد2002/1. تصدر عن الجمعية المغربية للدراسات المعجمية.

- محمد الحساوي : المعجم كلام جاهز. مجلة الدراسات المعجمية المغربية عدد1 2002 ص142

تطبيقي : تهتم المعجمية بتكوين المفردات أو المصطلحات وتطبقها على المعجم فتفصل المنجز عن الممكن، وتضع القاموسية قواعد التأليف، وتصنع القواميس بتطبيق نظرية الجمع والوضع. وقد أثرى الجهاز المصطلحي المعجمي، فوضع المصطلح المعجمي العربي في إطاره من المصطلحية المعجمية العامة، وقارن بين المناهج التراثية والمناهج اللسانية المعاصرة (تقليبات الخليل وتحويلات تشومسكي) وأضاف عديد المصطلحات التي كانت غائبة في معجم المصطلحات اللغوية الحديثة(29) وأطال القول في مصطلحات كان قد اختزل في تعريفها إلى درجة الإخلال(30)، وغير تسمية مصطلحات مفاتيح، كانت قبل هذا العمل غير واضحة الحدود إذ جمع في كتابه الأول(31) مصطلحيْ مُعجمية ومَعجمية تحت اسم واحد وهو "معجميات" ولم يميز بينهما إلا بالمقابل الفرنسي (lexicographie / lexicologie) ، وعرفهما بنفس التعريف. وهذا المنهج لا يسهّل مهمّة الطالب والباحث (32). كما تمثل تطوير المصطلح وتنميطه في عمله الأخير في تقسيم علم المعجم إلى أقسامه الثلاثة الكبرى والفصل بين المعجمية النظرية lexicologie والمعجمية التطبيقية la lexicographie بميم تكون مرة مضمومة "المُعجمية" ومرة مفتوحة "المَعجمية" (33)، وهو تطور في المصطلحية ليس يسيرا، لأن رسم الحركات يعد واحدا من أعوص مشاكل الخط العربي قديما وحديثا، فيكفي أن يغفل الحاسوب عن رسم، الفتحة والضمّة حتى يقع القارئ في الخطأ، ويحمل هذا المصطلح محمل ذاك. ثم إن الدراسات المعجمية العربيّة تكاد تتّفق على مصطلح قاموسيّة(34) للتعبير عن العلم الخاص بصناعة القواميس، وتكاد تجمع على

---

29) من المصطلحات الجديدة التي لم تدرج في كتابه المصطلحات اللغوية الحديثة : بنية عميقة – بنية سطحية – بنيوية – معجم – قاموس.

30) اكتفى المؤلف في المصطلحات اللغوية الحديثة بسطرين فقط لتعريف مدخل "أبجدية" في صفحة، بينما عرفه في كتابه هذا بصفحة كاملة، بها معلومات صوتية وصوتمية وتاريخية. وكذلك مصطلح "تاريخية" (سطران مقابل 3 صفحات).

31) محمد رشاد الحمزاوي : المصطلحات اللغوية الحديثة. ص126.

32) نفسه ص126. وانظر تعليق المؤلف على الخلط الذي وقع فيه مجمع القاهرة في الاصطلاح على المعجمية والقاموسية (نفسه ص24).

33) لم يعترضنا مصطلح مَعجمية بميم مفتوحة إلا عند عبد القادر الفاسي الفهري في : المَعجمة والتوسيط : نظرات جديدة في قضايا اللغة العربية. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء/بيروت 1997.

34) تعقد منذ أربع سنوات لقاءات علمية مشتركة بين جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس والجمعيّة المغربية للدراسات المعجمية حول المعجمية التطبيقية الصناعيّة اتفق على تسميتها "اللقاءات القاموسية" les rencontres lexicographiques. تدرس قضايا الجمع والوضع وسبل تأليف القواميس. وانظر في نفس السياق :

Igor A. Mel'cuk, André Clas, Alain Polguère : Introduction à la lexicologie explicative et combinatoire. Duculot Louvain –la- Neuve, 1995. pp26-27

مصطلح قاموس[35] لتسمية المعجم المدوّن، وهي تتفق أيضا على توظيف مصطلح معجم للدلالة على الرصيد اللغوي lexique. هذا التعدّد في المصطلحات، نحن في غنى عنه إذا عملنا بمبدإ توحيدها، وقبلنا بالرأي المخالف. وهي مهمة تجعلنا نتواصل علميا بكل يسر. فيا حبّذا لو أننا نحقق المعجم المختص المثالي أحادي المصطلح. إنه مطمح صعب، ولكنه ليس مستحيلا على أمة تتخاطب رسميا بنفس اللغة.

زكيّة السائح دحماني

كلّية الآداب والفنون والإنسانيات

جامعة منوبة - تونس

35) أنظر الإحالة رقم 15.

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 307 – 329

المعرفة الخلفيّة
ودورها في فهم الخطاب وتحقيق انسجامه

بقلم : ريم الهمّامي

1 – مقدمـــة :

مـن الأسئلـة الهامة التـي واجهت اللسانين وعلماء التّفس المهتمين بقضايا تحليـل الخطـاب مسألــة انتظام مكوناتـه وكيفيـات الرّبط بينـها، وما إذا كـان الترتيب الذي توجد عليه تعابير الخطـاب يعكس الترتيب الذي تظهر عليه مكوناته أثناء العملية الذهنية ؟ وهل أن نقطة الانطلاق الذهنية ونقطة الانطلاق التخاطبية واحدة (Lyons,1980,134) ؟

ولحلّ جانب من هذه القضية، سعى العديد من الدارسين من خلال توظيفهـم لاستعـارة مسرحيـة تعـرف بنظريـة المـدارج (Staging) (Brown&Yule,1983 , 125. Yule, 1996,33.Renkema, 2004,33) إلى التمييز بين معلومات أمامية (Foreground information) تجعل في الصفوف الأمامية للخطاب أو القول، ومعلومات خلفيّة (Background information) تكون في الخلف.

وبقطع النظر عـن مدى وجاهة هذا الطرح، فإن العلاقة بين المعلومات الأمامية ومقابلها الخلفـي تبدو فـي اعتقادنا أكثر تعقيدا لاتخاذها وجوها عديدة بحسب منطلقات الباحثين وأهدافهم.

وحسبنا هنا الاهتمام بالوجه الإخباري الذي اخترنا في هذا المبحث معالجته من وجهة نظر ذهنية عرفانية. وذلك بعد استعراض وجيز، في فقرة أولى، لخصائص هذه البنية الإخبارية ومكوناتها والعلاقة التي يمكن أن تكون لها مع بعض الأبنية الأخرى القريبة منها من منظور لساني تداولي.

وسننتقل بعد ذلك إلى ما يمكن اعتباره جوهر بحثنا، وهو النظر في البنية الإخبارية في ضوء الدراسات العرفانية، إذ سنحاول في مرحلة أولى تبني نظرية الطراز في مرحلتها الموسّعة كما تبلورت مع لايكوف أساسا (Lakoff, 1987) معتبرين البنية الإخبارية منوالا عرفانيا مؤمثلا، مهتمين أساسا بما سمي في هذا المنوال بالمعرفة الخلفية في مقابل المعرفة الأمامية.

وسنوسع إطار اهتمامنا إلى النصّ ليكون مجالا تطبيقيا بحثا عن الدور الذي تلعبه هذه المعلومات الخلفية في إنتاجه وتأويله وتحقيق انسجامه.

2 – البنية الإخبارية وثنائية معطى / جديد

2-1- يمكن القول أن بدايات الحديث عن البنية الإخبارية يعود إلى أعمال مدرسة براغ (Prague) 1964,269 (Fribas), ومن نحا نحوها (Halliday&Hassan, 1976.Brown&Yule, 1983 .Renkema ,2004)، فقد لوحظ أن التنظيم الداخلي للبنية الإخبارية مرتبط بتوزيع المعلومة المعطاة (الحاصل/ Given) أو القديمة (Old) أو المعروف (Know) أو المشترك (Common) مقابل المعلومة الجديدة (New) بين المتخاطبين. فقولنا :

(1) زيد جاء

يجعل من "زيد" المعلومة المعطاة أو المعروفة أو المشتركة بين المتكلم ومخاطبه، في حين مثّل حدث "مجيء زيد "المعلومة الجديدة. وقد استند هذا التقسيم إلى ما يوجد، أو ما يفترض أنه موجود، في أذهان المتخاطبين وما يوفّره السياق المقالي والمقامي من معلومة معطاة، يبني عليها المتكلم كلامه ليبلّغ غرضه ويحمل المخاطب على إدراكه.

وبناء على ذلك، اعتبر هالداي وحسن (1976، 326- 327) أن ما يعالجه المتكلم على أنه"معلوم" هو ما توفّر لدى السامع واكتسبه من المقام أو الخطاب السابق، أما المعلومة الجديدة فهي كل ما يقدمه المتكلم على أنه معلومة لا يكتسبها السامع من مصادر أخرى غير خطاب مكلمه.

2-2- ولعل الأمر الهام عند هالداي وحسن (1976، 325) ربطهما، عند الحديث عنّ "النسيج الجملي والنصيّ" بين البنية الإخبارية والبنية المحورية

(Thematic structure)، حيث تقوم البنية المحورية على التمييز بين "المتحدث عنه" (Theme) وهو موضوع الحديث والمتحدث به (Rheme) وهو ما يقوله المتكلم في شأن موضوع الحديث. ولتوضيح هذه الثنائية نعيد النظر في مثالنا الأول :

(1) زيد جاء

فانطلاقا من افتراض هاليداي وحسن (نفسه، ص325) القائل بأن المحل الأول هو للمتحدث عنه والمحل الثاني هو محل المتحدث به، فإن البنية المحوريّة [1] لـ(1) تكون على النحو التالي:

('1) البنية المحوريّة لـ (1) = متحدث عنه + متحدث به

(زيد) (جاء)

ولكننا إذا افترضنا أنك عند التلفظ بـ (1) (زيد جاء) تقصد زيدا واحدا بعينه، فإن هذا المتحدث عنه باعتباره موضوع الحديث سيكون معطى مشتركا بينك وبين مخاطبك، في حين سيمثل المتحدث به "جاء" المعلومة التي أضفتها إلى المخاطب الجاهل بها في الواقع، وبالتالي فان "حدث مجئ زيد " يمثل المعلومة الجديدة التي أخبرته بها.

وإذا صحّ ذلك، فإن العلاقة بين المعطى والمتحدث عنه من ناحية وبين الجديد والمتحدث به من ناحية أخرى تبدو علاقة تطابق. إلا أننا في حاجة إلى بيان الفرق بين هاتين البنيتين، إذ من البيّن أن البنية المحورية مرتبطة بالصورة التي يقدم فيها الكلام والهيئة التي يعرض فيها، في حين تكون طريقة توزيع مكونات البنية الإخبارية مرتبطة بالتحقق الصوتي وتحديدا التنغيم (هالداي & حسن، 1976، 325- 327)، وحسب هذا المبدأ يجب أن تكون العبارة المنبّرة أو المنغّمة معلومة جديدة على خلاف المعطاة التي لا تحظى بأي عناية.

2-3- وحين نتأمل هذا التمييز، فإننا نستحضر تمييزا آخر يقوم على ثنائية البؤرة (Focus) والاقتضاء (Presupposition) (Chomsky, 1971, 199 .) (Jackendoff, 1972,245-246)، إذ اتفقت هذه الدراسات على اعتبار المقتضى

---

1) من الثنائيات التي درست من خلال توزيع المحلات نذكر ثنائية التصدير(Topics) والتعليق (Comment).
فالتصدير هو أول عنصر يذكر في الجملة ثم يكون التعليق ببقية الكلام، فهل نفهم من ذلك أن التصدير هو المتحدث عنه وأن كل تعليق هو متحدث به ؟ وإذا أردنا التوسيع من دائرة الإشكال فهل من علاقة بين المعطى والمتحدث عنه والتصدير من ناحية، وبين الجديد والمتحدث به والتعليق من ناحية أخرى ؟ (أنظر لاينس، 1980، 132 وما بعدها).

ذلك المعطى الدلالي الضمني المشترك بين المتخاطبين، أما البؤرة، فإنها تمثل معطى غير مشترك، ولكنها تكون محل عناية من قبل المتكلم بالتركيز عليها نبريا. وقد استثمر كل من سبربر وَولسُن (Sperber&Wilson,1989,31322) هذا التمييز بين البؤرة والاقتضاء وأعادا صياغته على نحو مكّنهما من التمييز بين : استلزمات أمامية (Foreground implicatures) هي البؤرة التي يسعى المتكلم إلى إبرازها في مقابل الاستلزامات الخلفية (Background implicatures) وهي المقتضيات التي تمثل خلفية الكلام.

4-2 - ومن الثابت أن توزيع هذه المكونات يحظى بوظيفة تخاطبية. إذ أن مفهوم الاتساق(Cohesion) أو الانسجام (Coherence) التخاطبي يأخذ بالحسبان العلاقات الموجودة بين مكونات الخطاب ومجمل إمكانيات الوصل بينها.

ولا جدال في أن من مصادر تحقيق اتساق الخطاب وانسجام مكوناته المحافظة على مقتضياته، ومردّ ذلك إلى اعتبار الاقتضاء علاقة دلالية تستدعي تأويل عنصر من عناصر الخطاب على أنه متعلق بعنصر آخر موجود قبله محققا انسجامه (هالداي & حسن، 1976، 4-10 . يول، 1996، 84).

2-5- وقد يبدو غريبا تعالق هذه الثنائيات وترابطها المتين مع البنية الإخبارية إلا أن ما نتقيّد به في هذا العمل ونعتبره من الاختيارات المنهجية هو :

(أ)- محافظتنا على تصنيف المحتوى الإخباري إلى معطى وجديد وسنعتبر هذا التصنيف خاضعا إلى ما يوجد بين المتخاطبين من عهد ذهني ينصّ على وجود معرفة خلفية مشتركة بينهما قي مقابل المعلومة الجديدة التي يحملها الخطاب محادثة أو نصا.

(ب)- ويدعونا هذا إلى اعتبار أن المعلومات ليست متزامنة الحضور أو متساوية الترتيب في ذهن المتخاطبين، بل إن التصريح بالجديد الذي تعلنه عناصر النظام النحوي مباشرة يفترض وجود معلومات سابقة مخزنة في ذهن المتخاطبين.

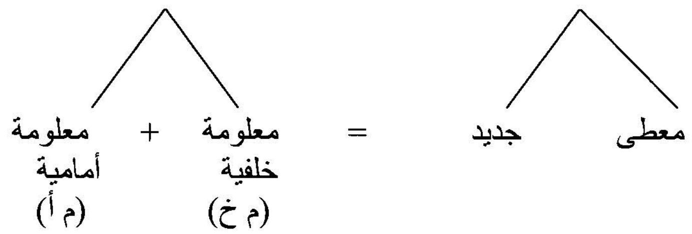
(ج)- ولا يخفى بهذا ما بين المعطى وانسجام الخطاب من صلة وطيدة إذ الخطاب بناء مترابط يستوجب حدا أدنى من المعارف الخلفية المشتركة.

3- البنية الإخبارية منوال عرفاني مؤمثل (م ع م)

3- 1- لقد انتبهنا فيما اطلعنا عليه من أبحاث اعتبار لا يكوف أن المنوال العرفاني المُؤَمْثَل (م ع م)(ICM) (Idealized Cognitive Models) بنية كلية مجرّدة تقوم على التمييز بين شروط أمامية وأخرى خلفية، وأن الاقتضاء يمثل الافتراضات الخلفية للم.ع.م (لايكوف، 1987، 132، 134). فيصبح من الممكن، والحال هذه، أن نعتبر هذا المقترح منطلقا نظريا لما سيأتي من البحث.

وبنـاء على هذا، نقتـرح فرضية العمل التالية : تُعتبر البنية الإخبارية منـوالا عرفانـيا مؤمثـلا تمثل فيـه المعلومـة الخلفية المعطـى، في المقابل، توافق المعلومة الأماميةُ الجديدَ وتمثيل ذلك :

(2) البنية الإخبارية =

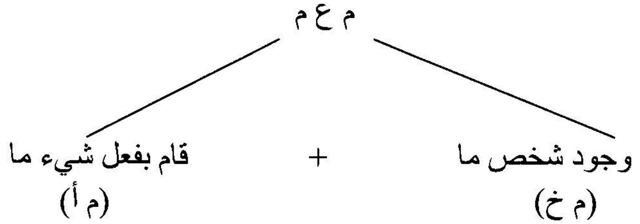


ولتثبت من هذه الفرضية نسوق هذا المثال :

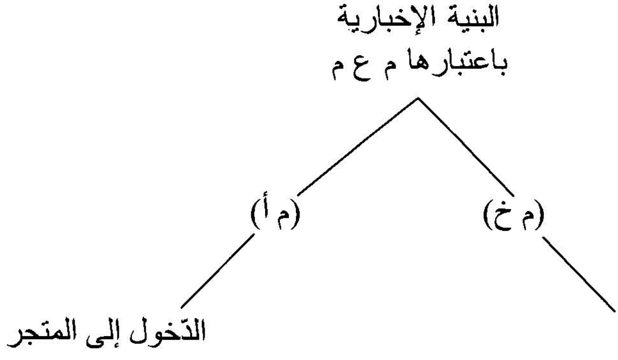
(3) دخلتُ متجركَ.

فاستنادا إلى البنية النظرية (2) تكون بنية الجملة (3) على النحو التالي:

(3') (دخلتُ متجركَ)



إن الناظر فـي المثال (3) يلاحظ أن البنية الإخباريـة (3') تبئّر حدث الدخول إلى المتجر وتقتضي وجود شخص قام بهذا الحـدث. إلا أن الاكتفاء بهذا التحليل وحده لا يوافق حدوسنا بخصوص ما تحملـه الجملة (3) (دخلتُ متجركَ) من معلومات خلفية. لذلك سنفترض قيامها على المجموعة التالية من الخلفيات :



(أ) وجود شخص يقوم بحدث الحكي، هو الذي قام - بحدث الدخول إلى المتجر وهو المتكلم.

(ب) وجود شخص يوجّه له المتكلم الخطاب هو المخاطب.

(ج) هذا المخاطب جاهل بما أخبره به المتكلم.

(د) وجود محل يمثل الغاية المكانية للمتكلم هو المتجر.

(هـ) هذا المتجر على ملك المخاطب.

(و) المتكلم عارف ان المتجر على ملك المخاطب.

(ي) وجود سبب دفع المتكلم إلى دخول متجر المخاطب.

ومهما يكن عدد المعلومات الخلفية الذي نجد في مستوى بنية المثال (3) ما يبرره (أساسا المعطيات التركيبية والمعجمية)، فإن المهمّ عندنا هذا التلازم الطردي بين ما تبئّره الجملة (3) وهي (م أ) وما تقتضيه (م خ).

3-2- وإذا دفعنا الأمور إلى أبعد من ذلك في فهم طبيعة المعرفة الخلفية، فإن مثل هذا يبدو واضحا في تصور لونقاكر(Langacker, 1991) حيث يكون معنى عبارة ما هو النتيجة المباشرة لما يُتَصور في ذهن مستعمل اللغة.

لتوضيح ذلك نركز على بعدين من أبعاد التصوير عنده هما : المعروض (Profil) والأساس (Base). فالأساس "هو المحمول اللغوي (Predication) للمجالات المتصلة به"، أما المعروض فهو" بنية فرعية للأساس" إلا أنه البعد الذي" يحظى ببروز وعناية شديدين". لذلك مثل المعروض" بؤرة التركيز" (Focus of attention) (لونقاكر، 1991، 280-281).

وبناء على ذلك، نختبر هذين البعدين على كلمة "الوتر" (مثال لونقاكر)، فما هو الوتر(Hypothenuse) ؟ وبالتالي كيف نتصوره ؟

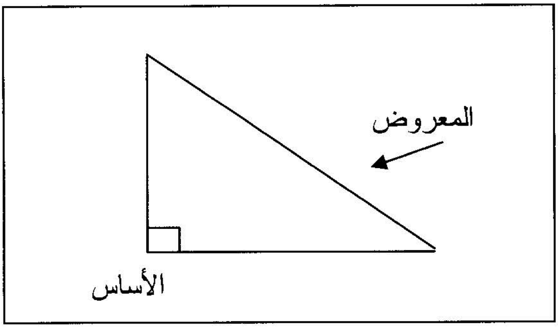
نوضّح بدءا أن التعريف الذي قدمه لونقاكر جعل من الوتر الضلع المستقيم للمثلث القائم الزاوية وهو الضلع المقابل للزاوية القائمة. وبموجب ذلك نكون أمام معطيين :

(أ) مثلث قائم الزاوية.

(ب) الضلع المستقيم للمثلث القائم الزاوية هو الوتر.

وإذا عدنا إلى أبعاد لونقاكر، فإن الخط المستقيم هو ما يعرضه اللفظ في حين يمثّل المثلث القائم الزاوية أساس "الوتر" وتمثيل ذلك :

(4)



مــن المؤكد أن الشخص الـذي لا يعرف المثـلث القـائـم الزاويـة ولا تختـزن ذاكرتـه صورة عـن هـذا الشكل الـهندسي لن يكون بإمكانه التعرّف على الوتر وإدراكه. فتحديد معنى الوتر يقتضي معرفـة خلفية بمفهوم المثلث القائم الزاوية.

وبناء علـى ذلك، فـإن تصور [الوتـر] (رمزنا للتصور بالمعقفين) لا يسـاوى تصور [المعـروض] وحـده أوتصور [الأساس] بـل همـا فـي تعالـق (لونقاكر، 1991، 281) (رمزنـا لـهذا التعالق بالإطـار فـي (4))، بل لعلهما وجهان لنفس التصور : وجه أمامي هو المعروض ووجه خلفي هو الأساس. وبمقتضى ذلك يكون حاصل تصور "الوتر" على النحو التالي :

(5) [الوتر] = [[الأساس] + [المعروض]]

وبديهي، والحال هذه، أن يصبح الوتر بنية كلّية وأن يكون الأساس هو المعلومة الخلفية وأن يصبح المعروض المعلومة الأمامية.

ولمزيد توضيح هذه العلاقة نقدم المثال التالي (Taylor, 2002 , 195) وهو : تصور [الأب/ [2] Father]. فهذه الكلمة تعرض [إنسان، ذكر، كهل]، أما الأساس فهو العلاقة التي من الممكن أن تجمعه بفرد من أفراد ذرّيتـه أو نسلـه. فـي المقابـل، إذا انعدم وجود هـذا النسل، فإنـه لا يمكننـا أن نصطلح علـى هــذا الشخــص بـ"الأب" إذ العلاقـة بيـن الابـن والأب تمثـل المحتـوى التصوري لـلأساس.

وهكذا، يمكن القول أن كل التعابير اللغوية بالنسبة إلى النحو العرفاني تعـرض شيئا وأن المعروض يتخذ مكانـه في مقابـل الخلفيـة المتصـورة. وعلـى

2) لا نقصد بذلك الاستعمال الكنسي الذي يحيل على القسّ الكاثوليكي.

هذا الأساس لا يمكننا الحديث عن قيمة دلالية لعبارة ما دون الوصل بين المعروض والأساس باعتباره خلفية (Taylor, 2002 , 198)

وبنـاء علـى ذلك، يصحّ عندنا أن ما تبئّره الجملة (3) أعلاه (دخلتُ متجركَ) يصبـح معروضا وأن ما تقتضيه يكون أساسا. وبالتالي يكون حاصل تصور بنيتها الإخبارية على النحو التالي :

(3") [البنية الإخبارية لـ (3)] = [[(أساس (م خ)] + [معروض (م أ)]]

↓ وجود شخص ما ↓ قام بفعل شيء ما

وبهـذا يمكـن أن تفضـي دراسة البنية الإخبارية على أنها بنية تصورية إلى تطور في رسم العلاقة بين تمثيلات مخزنة ذهنيا وتمثيلات معلنة لغويا.

3-3- إلا أننـا نذكّر أن قيـام البنيـة الإخباريـة علـى معلومـات أماميـة جديـدة وأخرى خلفية معطاة يمثل طراز البنية الإخبارية (Prototypical)، هـذا إن جـاز لنـا التوظيـف، إذ لابد لكـل خبر مـن تقديـم جديـد للمخاطـب البنيـة الإخباريـة يمثل " فائدة الخبر".

ورغم هـذا الأصل تطالعنـا أخبـار لا تخضـع إلـى هذه الطرازيـة، إذ مـن الممكـن ان نتلقـى أخبـارا لا تحمـل جديدا (Gazdar,1979 ,106) وبالتالـي لا فائـدة ترجـى منـها علـى غرار:

(5) تعلم أني دخلتُ متجركَ.

إلا أن مثـل هـذا الـقول لا يخلـو مـن مشاكـل، فـمـن المؤكد أن (5) تقتضـي أن المتكلم والمخاطب يعلمان بحدث الدخول إلا أنـها تبئّر في اعتقادنا تظاهر المخاطب بأن الدخول معلومة جديدة بالنسبة إليه.

ولمزيـد توضيح هـذا الفهم، نحتاج هنـا إلــى العـودة إلـى المثال (3) لنقارن بينـه وبين (5) الـــذي نعتبره بنية إخبارية غير طرارزية(Not prototypical) وفق الجدول التالي :

(6)

البنية الإخبارية المجردة (م ع م)	البنية الإخبارية الطرازية لـ (3) دخلتُ متجركَ		البنية الإخبارية غير الطرازية لـ (5): تعلم أني دخلتُ متجركَ.
(2)	('3)		('5)
م خ	(ا)	وجود شخص يقوم بحدث الحكي هو الذي قام بحدث الدخول إلى المتجر هو المتكلم	+
	(ب)	وجود شخص يوجّه له الكلام هو المخاطب	+
	(ج)	هذا المخاطب جاهل بما اخبره به المتكلم	-
	(د)	وجود محل يمثل الغاية المكانية للمتكلم هو متجر المخاطب	+
	(هـ)	هذا المتجر على ملك المخاطب	+
	(و)	المتكلم عارف أن المتجر على ملك المخاطب	+
	(ي)	وجود سبب دفع المتكلم إلى دخول متجر المخاطب	+
م أ		الدخول إلى المتجر	+

يترتب على قراءة هذا الجدول المقارني أن البنيـة('5) (أنظر الجدول أعلاه) تبرز المخاطب على دراية بكون مكلمه قام بحدث الدخول إلى المتجر ولكن المتكلم أراد أن يخبره أنه يعرف انه يعلم. فهو لا يفيده معلومة جديدة يجهلها مثلما هو الحال في ('3ج) (هـذا المخاطب جاهل بما أخبره به المتكلم)، وإنما يفيده "لازم الفائدة"أي فائـدة الخبـر (السكـاكـي، مفتـاح العلـوم، 166) لأن المتكلم كلـما أفـاد الحكـم المشتمل عليـه الخبر المسمى" بفائـدة الخبر"أفاد أيضا أنه عالم بهذا الحكم المسمى بلازم الفائـدة.

وإذا استقام لنا هذا التحليل فإننا سنعتبر المحافظة على المعلومات الخلفية: (أ)، (ب)، (د)، (هـ)، (و)، (ي) من قبل (5') شرطًا ضروريا لتحقق لازم الفائدة.

3 -4- بقي أن ننظر في الدور الذي تلعبه هذه الخلفيات في ترابط أجزاء الخطاب. فإذا عدنا إلى المثال (3) :

(3) دخلتُ متجركَ.

واعتبرناه في علاقة مع جمل من قبيل (7) و(8) :

(7) ابتعت هدية.

(8) دفعت الثمن.

فإننا نفترض، لتفسير هذه العلاقة المحتملة، أن الجمل (3) و(7) و(8) أعلاه تمثل أفرادا في مقولة واحدة خاصة أن "أفراد المقولة[3] يمكن أن يقع الربط بينهم دون أن تكون هناك سمة مشتركة جامعة تحدد المقولات" (لايكوف، 1987، 11)، لذلك سنجمع بين هذه الجمل - الأفراد في مقولة واحدة تمثلها البنية التالية :

(9) دخلتُ متجركَ، ابتعت هدية، دفعت الثمن.

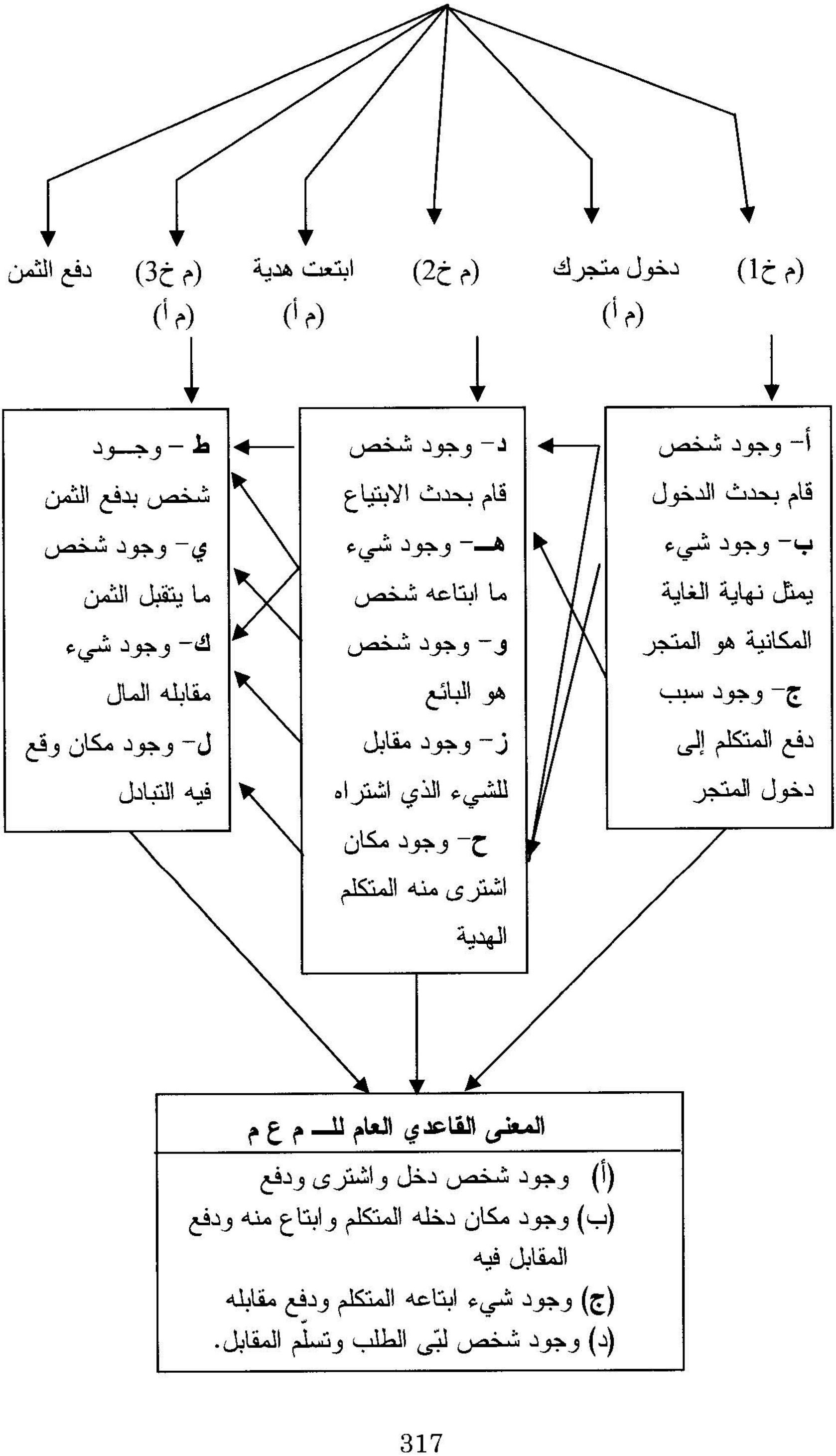
إلا أننا في تحليلنا لهذا المثال سنقتصر على الخلفيات التي تولّدها الوحدات المعجمية [4] التي هي{ (دخل)، (ابتاع)، (دفع)} بناء على مقترح (فيلمور، 1971، 381 وفيلمور، 1982، 135 ولايكوف، 1982،65-66) في دراسة مقتضيات بعض الأفعال التي تمثل عندنا معارف خلفية وسنفترض أنه رغم تنوع هذه الخلفيات واختلافاتها يمكننا إرجاعها إلى م ع م واحد يختزله الرسم (10) :

---

3) نتبنى هنا مفهوم المقْولة (categorie) كما جاءت به النظرية الموسّعة مع لايكوف(1987) لا تصور المقْولة في مرحلتها الأصلية (théorie standard) مع روش (1978, Rosch). فان حاولت روش تجاوز الفهم الأرسطي للمَقْولَة الذي يقوم على اعتبار المقولة تتم على أساس ما يوجد من خصائص مشتركة بين عناصر أفراد تنتمي إلى نفس المقولة بموجب جملة من الشروط الضرورية والكافية(necessary and sufficient conditions) لتقر روش بضرورة توفر فرد طراز يكون أفضل ممثل للمقولة، في حين يكون انتماء بقية الأفراد بحسب مالها من تشابه أسري بذلك الفرد الطراز ويكون تنظيم المقولة بالتدرج من العنصر الأكثر تمثيلية للمقولة إلى الأضعف (روش، 1978، 28-30) ، فان النظرية الموسّعة لا تقوم على فرد يكون أكثر تمثيلية، وإنما يكفي أن يشارك كل فرد من أفراد المقولة فردا آخر منها في خصيصة واحدة على الأقل دون اشتراط وجود سمة مشتركة مع الطراز (لايكوف، 1987. راجع أيضا صولة، 2002، 2003،و1990, Kleiber).

4) من الممكن أن نعتبر الوحدات اللغوية مقولات لغوية وأن نقرّ، استنادا إلى لايكوف (1987، 57) بكون"المقولات اللغوية، تمثل أصنافا من المقولات العرفانية" وأن "الوحدات المعجمية مقولات طبيعية للمعنى" (لايكوف،1987،417)، وبهذا الاعتبار يمكننا القول إنَّ الوحدة المعجمية مقولة لغوية تقوم على عدد من المعاني تمثل عندنا أفراد المقولة ، وأن ندافع عن فكرة أن تنظيم مختلف معاني وحدة ما يمكن إخضاعها إلى م ع م يكون الناظم المثالي لذلك الاختلاف.

(10) البنية الإخبارية باعتبارها م.ع.م للمثال (9)
" دخلت متجرك، ابتعت هدية، دفعت الثمن"



وإذا استقام تحديدنا لهذه الخلفيات، فإن ما نلاحظه هو تركّب كل فعل من هذه الأفعال بمجموعة من المكونات، وأن كل مكوّن من هذه المكونات يطلب تخصيصه بأحداث ووضعيات قد تكون محملة بدلالات على الجنس والسن والهوية والزمان والمكان والحركة... وبموجب هذه المكونات تدخل تلك الأفعال في علاقة مع أفعال أخرى تشاركها في نفس هذه المُكَوِّنات أو في بعضها.

وتشكل هذه المكونات ما اصطلح عليه فيلمور بالمعنى القاعدي (Basic sens) (فيلمور، 1971، 372 -373) ومن المؤكد أن لايكوف (1987) قد حافظ على هذا الفهم، ليصبح المعنى القاعدي مبدأ من مبادئ مَقْوَلَةِ المشترك الدلالي داخل النظرية الموسعة (صولة، 2003،21).

ولتفسير انتظام البنية الإخبارية الخاصة بالجملة (9) نتبنى مفهوم" التأثيرات الطرازية" ((Prototype effects) (لايكوف، 1987، 68-69) باعتبارها السمة الجامعة بين أفراد المقولة الإخبارية (9) (3)و(7) و(8)) جمعا مباشرا وغير مباشر.

فالخلفية (أ) – وجود شخص قام بحدث الدخول - تنتشر تأثيراتها الطرازية في كل من (د) - وجود شخص قام بحدث الابتياع هو الشاري - و(ط) - وجود شخص قام بدفع الثمن-.

ومن المؤكد أن انتظام هذه المكونات يخضع لانتشار هذه المعاني القاعدية وفق علاقة سببية: فدفع المال سببه شراء شيء من الأشياء، وهذا العمل لا يكون إلا في مكان أو محل معين يدخله الشاري.

على انه يمكن ان نقدّم معنى قاعديا عاما يتحكم في البنية الإخبارية للجملة (9) (انظر الرسم(10)أعلاه، الجدول الرابع: المعنى القاعدي العام للـ م ع م) :

(9) دخلت متجرك، ابتعت هدية، دفعت الثمن :

أ- وجود شخص دخل واشترى ودفع.
ب - وجود مكان دخله وابتاع منه ودفع فيه.
ج - وجود شئ ابتاعه ودفع مقابله.
د - وجود شخص لبّى طلبه وتسلّم المقابل.

لكننا سنعتبر هذه المكوّنات المشكلة للمعنى القاعدي منوالا عرفانيا مؤمثلا، وسنفترض أن كل ما وجد في (م خ1) و(م خ2) و(م خ3) عائد إلى معنى قاعدي واحد يكون رابطا بينها في شكل تأثيرات طرازية يتراوح ظهورها بين القوة والضعف حسب درجة محافظتها على هذا المعنى قاعدي الذي يمثل عندنا المعلومة الخلفية الضامنة لانسجام الجملة(9) وترابط مكوناتها.

وسنجازف ونعتبر هذه التأثيرات الطرازية " تأثيرات خلفية " مصدرها ما اصطلح عليه لايكوف بـ م ع م . يعني هذا أن العلاقة بين الجمل :

(3) دخلتُ متجركَ.

و(7) ابتعت هدية.

و(8) دفعت الثمن.

والتأليف بينها" ليست اعتباطية ولا متكهنا بها"، بل ان الربط بينها يقوم على مبدأ "التبرير"((Motivation) (لايكوف، 1982، 186 ولايكوف، 1987، 379) الذي تأسس له علاقة السببية في مثالنا (9).

ومهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن هذا الدور الهام الذي تلعبه المعلومات الخلفية يخرج عن حدود الأبنية الإخبارية البسيطة إلى الأبنية الكبرى (Macrostructures)) التي تبدو "فوضى" لا نظام لها وهذا ما سنسعى إلى تبيّنه في الفقرة الموالية.

4- علاقة المعلومات الخلفية بالخطاب

4-1 تنشأ الحاجة في نفس القارئ عند مباشرته نصا من النصوص إلى ضرورة فهم النص. وهي حاجة تلزمه القيام بعدد من الأنشطة والأعمال المختلفة فهو يقوم بضم العلامات (الأصوات وسماتها) داخل الألفاظ والجمل، ثم يقوم بتحليل بنية الجمل والأقوال، ويقوم بإسناد المعاني إلى الألفاظ لاستخلاص الغرض منها بعد إقامة تشكيل ذهني يعكس درجة فهمه للخطاب.

ولكن لسائل أن يسأل ماذا يحدث في أذهاننا عند قراءة نص من النصوص وبالتالي في تحليل خطاب من الخطابات ؟.

هو في الحقيقة تخمين وحدس. ولكن علينا أن نميّز بين حدوس وتخمينات منطقية معقولة وأخرى ليست كذلك.

إن هذا التخمين يفترض عدم استقلالية مكونات النصّ عن بعضها بعضا بل هو " يقتضي توفر شئ ما في الخطاب يتفاعل مع ما في أذهاننا " وهي المعارف الخلفية أو القبلية (رينكيما ،2004، 236). فالكاتب/ المتكلم الذي ينتج نصّا/خطابا، تتوفر لديه افتراضات مختلفة بخصوص الحالة المعرفية لقارئه/ لسامعه وهي ما يصطلح عليه بالمقتضيات التي تمثل الدخل (Input)´ لإنتاج الجديد.

وتدعّم هذا الموقف العديد من الأبحاث التي اهتمت بالبحث في هذه المعارف الخلفية المخزنة في الذاكرة وطرق تمثيلها ومحاولة استثمارها في

تحليل النصوص وفهمها[5]، وذلك اعتمادا على مفاهيم جماعة تحليل الخطاب (1996، 72-63 Brown&Yule. ،1983 250-236

Renkema. ،2004 ، 338-331. Lee ،2001 ، 179-170 Coirier. .(Yule : ،1996 89-85

- الخطاطة (Schema)
- الإطار(Frame)
- المدونة (Script)[6]
- السيناريو(Senario)

وسنعمل على اختبار ما اقترحوه من تمثيلات ذهنية للمعرفة الخلفية على نص قصير لـ"عبد الحميد بن هدوقة" من"نهاية الأمس" ص ص139.

صانعة الفخار

كان الموقد حفرة صغيرة في الأرض بزاوية البيت وإلي جانبه أثافي ثلاث ما تزال نظيفة لم يسودها الدخان. وكانت عناية العجوز بالموقد فائقة الحد. لم تنفك تحرك هذا العود وتنفض عن الآخر رماده، وتقرب هذا من ذلك حتى احمّر جوفه بالجمر وصفت ناره من الدخان، وابتسمت ألسنتها بالدفء والحرارة أزالت عن العجوز فتورها وخمولها، وأشاعت في البيت جوا من الانطلاق، فإذا بالصمت الذي كان سائدا منذ قليل تحلّ محله دقات خفيفة متتالية ناغمة تنطلق من كل جهة وجانب، ودقات أحدثها الموقد الصغير. وإذا الثلج المتراكم فوق السقف تسري في قلبه الحرارة فيصير دموعا تجري بها سواقي القرميد وتنزل على الأرض فيحدث ذلك أنغاما عذبة تصل إلى سمع العجوز فتملأ نفسها غبطة وأملا . قالت العجوز في نفسها: النار، النار... لولاها لما استطعت صنع آنية واحدة.

4 -2 – المعلومات الخلفية باعتبارها خطاطة :

إن الخطاطة (Schema) تمثيل ذهني لجملة من المعارف المشتركة بين مستعملي اللغة الواحدة والمنتمين إلى نفس الثقافة، يقع استدعاؤها لفهم حالة من

5) انظر على سبيل المثال محاولة محمد مفتاح في دراسته الاستعارة (مجهول البيان، 1995).
6) خيرنا هنا المحافظة على الترجمة التي قدمها محمد مفتاح (1995) للفظ "Script " بالمدونة، رغم التباسه بمفهوم (corpus).

الحالات أو وضعية من وضعيات الأشياء في الكون. إلا أن استدعاء الخطاطة يكون بطريقتين مختلفتين (كوارييه، 1996، 63) فهي التي :

- تسمح بتأويل وإدماج عناصر وضعية جديدة
- تعيد تأويل التعبير السابق وتكوينه.

وتقتضي كل خطاطة أن نميز داخلها بين:

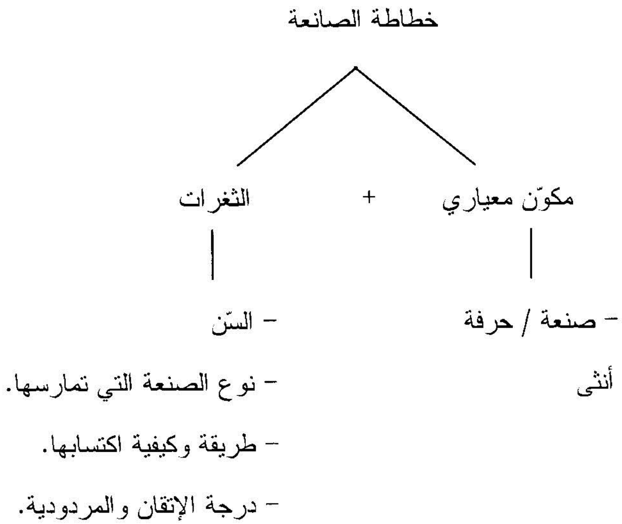
(ا) مكونات معيارية (Standard)

(ب) مجموعة من الثغرات(Slots)

إلا أن ما نؤكده ونلفت النظر إليه هنا هو إمكانية تطبيق هذا المقترح لإبراز كيفية عمل الخطاطة في فهم النصّ وصنع انسجامه. ويمكننا أن نشرع في تطبيق هذا النموذج التمثيلي منذ العنوان "صانعة الفخّار"[7]. فالـعنوان يجعلنا أمام خطاطتين : (أ) "خطاطة الصانعة" و(ب) " خطاطة الفخّار".

ونمثل لهاتين الخطاطتين بالتمثيلين التاليين :

(11) أ-



7) هذا العنوان من وضع القائمين على كتاب النصوص للسنة الثامنة من التعليم الأساسي (ص285). وسبب محافظتنا على ذلك يعود إلى موقف فيلمور الضمني (Fillmore, 1985,223-224) من أن مثل هذه التمثيلات الذهنية تزودنا ببرنامج لتعليم الألفاظ(vocabualary)في أقسام تدريس اللغات الأجنبية.

ب –

خطاطة الفخّار

مكوّن معياري
- الطين

الثغرات
- نوع الطين.
- مكان الجلب.
- كيفية التحضير.
- الأواني التي يحوّل لها الطين

ومن البين أن نصّ "بن هدّوقة " يفتقر إلى هذه المعلومات (أن لم نقل أغلبها). فهي غائبة أو مهملة (Default) ، إلا أننا نفترض حضورها ونفترض في الآن نفسه توفرها لدى القارئ.

فمن الواضح أن المعلومة الأمامية التي يفيدها العنوان تنصّ على اختصاص هذه المرأة في صناعة محددة هي الأواني الفخارية، إلا أنه لا يخبرنا بشيء عن بقية المعطيات الأخرى التي تخصّ الصانعة ذاتها أو مجال اختصاصها.

ولكن القارئ المتسلح بخطاطتي العنوان يمكنه أن يستدل على هذه المعلومات المفقودة في النصّ من ذلك الرصيد المعرفي المحفوظ في الذاكرة، ويتمّ استدعاؤه عند قراءة النصّ ومباشرته، إذ تلعب الخطاطة دورا هاما في عملية فهم النصّ فهي التي (Renkema، 2004، 232-233):

(أ) - تمدّنا بمنوال تفسيري [...].
(ب) - توجه عملية تأويلنا له [...]
(ج) - تحدد المعطيات الهامة في الخطاب [...].
(د)- تقوم بالاستدلالات الممكنة [...].

3-4 – المعلومات الخلفية باعتبارها أطرا:

من المؤكد أن استدعاء نظرية الأطر(frames) يعود إلى تصور فيلمور(1982، 122، و1985،232) في تحليل النصوص القائل بأن عملية فهم النص وتأويله تفترض وجود أطر عرفانية. إلا أنه ميّز بين :

(أ) اطر تستدعيها (Evoke) هذه المعطيات المعجمية والإعرابية الموجودة باعتبارها علامة على الأطر.

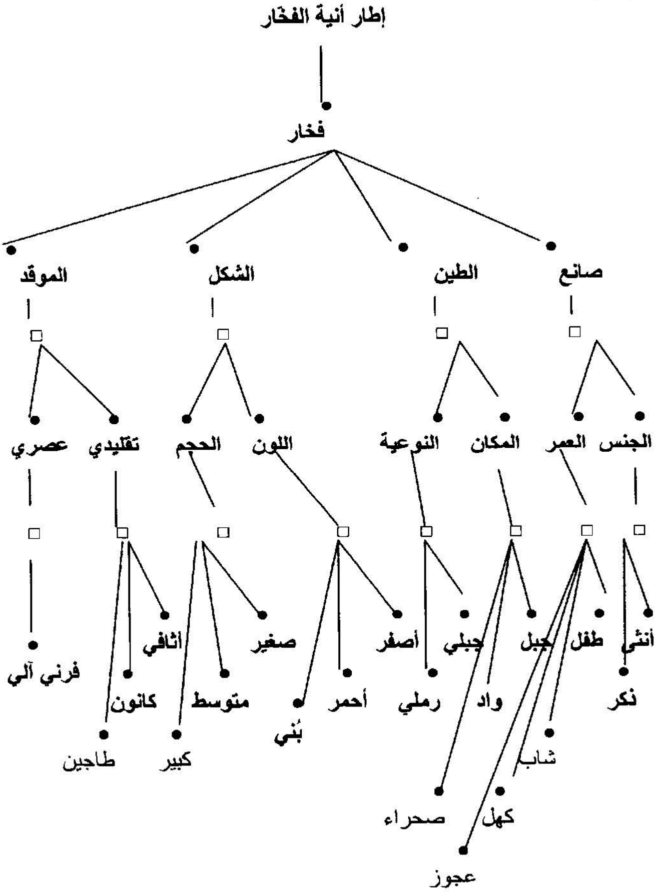
(ب)أطر تستوجب من المؤول إحداث (Invoking) إطار تأويلي مخصوص يحقق انسجام النص.

علـى أن الاختلاف الأساسـي بين الأطر المستدعاة من قبل المادة النحوية والأطر المحدثة مـن قبل المؤول يتمثل في كون الأطر الثانية هي من خارج النص ولكنها ليست مجال شك أو ريبة، لأن استحضارها يعود إلـى المعارف التي تكون لنا عن الحالة أو الوضعية التي تمثل موضوع النصّ.

ولكن ما أكّدهُ رينكيما (2004، 237) هو أن الإطار يخضع إلى بنية تراتبية تقوم على شبكات (Networks) و(Relations) . وتتكون كل شبكة من جانب ثابت (رُمز له بـ •) وجانب متغيّر (رمز له بـ □).

ومن الأكيد أننا إذا عدنا إلى نصنا وأجرينا عليه هذا الفهم، أمكننا أن نعيد بناءه، واخترنا من المعلومات ما أهمله النص ولم يذكره لنجعل منها نقطة ارتكاز لفهم المُعْلَن من النص على النحو التالي :

(12)



وبناء على اعتبار أن كل شبكة من شبكات الإطار تتكون من جانب ثابت وجانب متغير، فإن كل آنية تقتضي وجود صانع (ثابت) هو أنثى (متغيّر)عجوز (متغيّر) تستعمل الطين (ثابت) قد يكون جبليا (متغيّر) لصنع آنية وفق شكل أو صورة (متغيّر)، وفي أحجام مختلفة (متغيّر) ويقع إنضاجها باستعمال موقد (ثابت) تقليدي (متغيّر)....إلا أن استحضار هذه المعلومات كان بالاعتماد على كلمة"آنية " المستعملة في آخر النصّ.

معنى ذلك، أنّ استعمال مفهوم الإطار في النص يُثبتُ وجود علاقة بين الدلالة المعجمية للفظ ودلالة النصّ لا لأن الوحدة المعجمية يمكن أن ينظر إليها على أنها "نصّ قصير" ولكن لأن معنى الوحدة المعجمية المفردة يلعب دورا هاما في بناء دلالة نصّ.

4-4- المعلومات الخلفية باعتبارها مدونة :

تتعلق المدونة (Script) **بالمعارف التي تكون لنا بخصوص أدوار الفرد والأعمال التي يقوم بها في وضعية معينة** (رينكيما، 2004، 237. كواربيه، 1996، 65-66)، في المقابل، يلاحظ قارئ نصنا المختبر أننا أمام المرحلة الأخيرة من مراحل إعداد آنية الفخّار وهي مرحلة الإنضاج باستعمال النار.وإذا اقتصرنا على هذه المرحلة بالذات التي تمثل عندنا المعلومة الأمامية، فإن المدونة الخاصة بها تكون على النحو التالي :

(14)

(أ)- جلب الحطب

(ب)- البحث عن حجارة مناسبة لاستعمالها كأثافي.

(ج)- اختيار مكان بعيدا عن مجرى الهواء.

(د)- توفير عود / أعواد ثقاب.

(هـ)- إشعال النار.

(و)- الاعتناء بها للوصول إلى الدرجة الحرارية المناسبة.

(ز)- جلب الآنية بعد تجفيفها.

(ح)- إدخالها إلى الموقد.

(ط)- إخراجها بعد التأكد من نضجها.

فمن الثابت إذن أن هذه المدونة تجمل الأعمال التي قامت بها صانعة الفخّار لإشعال النار للحصول على آنية جاهزة، ولا شك أن القارئ قد لاحظ غيابها، ولكنه افترض حضورها حتى تكتمل الصورة لديه عن البنية الكلية للنصّ.

4-5- المعلومات الخلفية باعتبارها سيناريو :

يحيل السيناريو (Scenario) **على معرفتنا الخاصة بترتيب الأعمال التي يقوم بها** البطل في النصّ. وقد اعتبر لايكوف (1987، 400) السيناريو مجموعة من المشاهد يتفرع كل مشهد منها إلى مراحل.

وحين نتأمل هذا التعريف، فلا شيء يمنعنا من اعتبار أن المعارف التي عبّر عنها من خلال الخطاطات والأطر والمدونة، يمكن أن تكون جميعها مضمّنة في أعمال مرتبة وفق سيناريو محدد يختزل جميع الأعمال المرتبة التي تقوم بها الصانعة للحصول على آنية جاهزة.

وإذا صحّ ما ندعيه، فان نصّنا يخضع للسيناريو التالي :

(13)

(أ) مشهد مرحلة إعداد الطين.

- جلب الطين من الأماكن الخاصة به.
- بسّط الطين على الأرض لتجفيفه.
- تفتيت قطع الطين الصلب وسحقها.
- رفسّ الطين للحصول على عجينة متماسكة.

(ب) مشهد مرحلة تشكيل الآنية :

- اختيار الشكل المرغوب تجسيده طينيا.
- صنع الآنية.
- ترك الآنية تجف.

(ج) مشهد مرحلة إنضاج الآنية :

- جلب الحطب.
- البحث عن حجارة مناسبة لاستعمالها كأثافي.
- اختيار مكان مناسب بعيدا عن مجرى الهواء.
- توفير عود / أعواد ثقاب.
- إشغال النار.
- الاعتناء بها للوصول إلى الدرجة الحرارية المناسبة.
- جلب الآنية بعد تجفيفها.
- إدخالها إلى الموقد.

- إخراجها بعد التأكد من نضجها.

(د) مشهد مرحلة تزيين الآنية (مرحلة اختيارية):

- اختيار الرّسوم والأشكال المرغوب وضعها على الوجه الخارجي للآنية.

- اختيار الألوان المناسبة.

- الرّسم والتزيين.

- ترك الآنية تجف.

تفسّر لنـــا هذه المعرفة لماذا يُطلب في هـــذا السيناريو أن يكون تحضير العجينة مثلا مسبوقا بتفتيت الطين وسحقه، وأن إنضاج الآنية يقتضي إعداد الموقد وتجهيزه، وبالتالي فإن خرق ترتيب هذه الأعمال يجعلنا نخرج عن "السيناريو الطرازي" للنص.

ونتيجة لذلك، نتبيّن أن أنظمـة تمثيل هـذه المعارف الخلفية جدْ مركبة، فمن الواضح أن الكاتب لا يوفر فـي نصّه إلا المعلومـات الأماميـة باصطلاحنا السّابق والتـي تمثـل غرضـه الأساسي منه. ولكن الأكيد عندنا، أن الوصـول إلـى هـذا الغرض ومحاولـة إدراكـه استوجب منا التسلح بمعطيات خلفية مخزّنة فـي أذهاننـا عـن هـذه الوضعيـة التـي يصفها الكاتـب. فـالذاكرة الإنسانية، كما ذهب إلـى ذلك محمد مفتــاح (مجهول البيان،68) تحتوي علــى أنواع مــن المعارف المنظمة في شكـل بنيات، وحينـما يواجه الإنسان سلوكا أو حدثا يريد أن يقوم به أو يفعله، فانه يستمد من مخزون ذاكرته احد أجزاء البنية لتأويل ما وقع أو لإنجاز ما يريد.

إلا أننا نزعم، أن ما يفترضـه القـارئ لا يمكن أن يكون إعادة بناء حرفية لنصّ الكاتب بـــل هي عملية تأليف بيـــن المعلومات الجديدة التي دلّ عليها النصّ والمعلومات الخلفية المخزنة في الذهن.

لـذلك يمكن القـول إنّ العلاقــة بيـن النصّ ممثلا علـى الورقـة والنص ممثلا ذهنيـا هـي علاقة اقتضـاء وليست علاقة تطابق.

5 - الخــاتمــة

حاولنا في هذا البحثّ أن نعرض خطاطة عمل عامة تعكس تحسسنا للمسألة مُشدّدين على الحاجة إلى مزيد الاختبار.

إلا أننا عمليا أكدنا وجود ضربين من المعلومات الإخبارية :

- معلومة خلفية (قد تكون معطى، مقتضى، أساسا، معنى قاعديّا...)

- معلومة أمامية (قد تكون جديدا، بؤرة، معروضا...)

وقد سلّمنا بأن المعلومة الخلفية لها حضور ذهني يسبق الصورة التي يخرج بها الكلام تلفظا أو كتابة.

وفسّرنا ذلك بالاعتماد علـى نظرية المناويل العرفانية المؤمثلة التي اعتبرت المقتضيات افتراضات خلفية للـ م ع م (لايكوف،1987).

وقـد أفضى بنا نظرنا فـي هـذا المقترح إلـى إبراز وجود صلة وطيدة بين الأبنية المجرّدة التصورية والأبنية اللغوية المتحققة شفويا أو كتابيا.

ومردّ هذه الصّلة إلـى الدور الهام الـذي تلعبه المعرفـة الخلفية فـي انتظـام الأبنيـة الإخبارية التي تبدو فوضى باعتبارها معنى قاعديا يسترسل فـي شكل "تأثيرات خلفية" تخرج من حدود الأبنية البسيطة إلـى حدود النصّ.

ومثلنا على ذلك بنصّ تعمدنا من خلال اختيارنا له أن يكـون مجالا اختباريا للمفاهيم التمثيلية للمعلومة الخلفية. فحاولنا إبراز الارتباط الوثيق بين التمثيل الذهني والتشكّل اللغوي للنصّ.

ونعتقد أن نجاعة مثل هذه الآليات والمقدمات النظرية لا تتضح إلا بتعميق محاولات التفسير والتمثيل لتجاوز فوضى الخطاب عند تأويله.

ريم الهمّامي
كلية الآداب والفنون والإنسانيّات
جامعة منوبة - تونس

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 331 – 391

أَوَقَدْ سَأَلْتُمُونِيها

بحث في مظاهر من العرفان الجماعيّ المختزن في البرنامج النحوي

بقلم : **محمّد صلاح الدين الشريف**

تمهيد

من المعروف أنّ النحاة العرب قد ابتدعوا، في ما ابتدعوا من الحيل التعليميّة، العبارة 'سألتمونيها' تسهيلا للمتعلّمين حتّى يحفظوا الحروف الزوائد. والثابت أنّهم، وهم يركّبون هذه الحروف بعضها إلى بعض، أجهدوا أنفسهم، لتسهيل حفظها؛ فتجنّبوا تقديمها في صورة قائمة جدوليّة؛ وسبكوها على نسق لفظيّ يخضع لقواعد الإعراب، ويحمل معاني نحويّة مخالفة لمعانيها في الاشتقاق والتصريف. فليس الغرض من هذا السبك الإعرابيّ حفظَ المعاني الصرفيّة، بل حفظُ الألفاظ الدالّة حتّى تكون للمتعلّم كالعناوين الهادية إلى هذه المعاني.

وليس الغرض ممّا ذكرنا دراسةَ المناهج التعليميّة القديمة. إنّما المفيد أن نرى هذه الزوائد وقد حُوّلت إلى مكوّنات أخرى. فهي في الأصل صواتم وحروف صوامت جعلها الوضع صرافم لمعان شتّى، فأخرجها الدارسون، وصنّفوها قوائم، ثمّ سكبوها قولا فحالت معالم لمعان أخرى.

والمهمّ في ما حالت إليه أمور منها :

- أنّ العبارة في ذاتها صادرة عن حدس المتكلّمين بها؛
- فهي سليمة البنية؛
- وهي معبّرة عن معان نحويّة ممكنة؛

- وصالحة للإنجاز في مقامات خطابيّة ممكنة، تخوّل تأويلها تأويلا دلاليّا مخصوصا؛

- وأنّ هذه الحروف تختلف قيمتها، وتتغيّر وظائفها ودلالاتها بحسب مواضيعها البنيويّة؛ فهي في ذاتها لا تدلّ على شيء.

1 . البرنامج النحوي بين تجريد الإحالة وتشفيرها

1.1 . التجريد الطقسيّ

ليس من شأننا، على خلاف المناطقة وفلاسفة اللغة ومن سعى على دربهم من التداوليين، ولأسباب نظريّة نحويّة، أن نقبل في اللغة، وجود أقوال نمطيّة مجرّدة غيْر مقولة في مقامات مخصوصة، فإنّنا نتمسّك بأنّ هذه الجملة خطاب أدنى أنجزه قائل مخصوص في مقام علميّ مخصوص، قبل أن يحفظه زملاؤه، ويُصبِح نقله عرفا مخصوصا لهذا المقام، على وجه اجتماعيّ ندرجه تداوليّا في صنف الأقوال العرفيّة التي منها أقوال الطقوس.

خلاصة رأينا في مثل هذه الجملة القوليّة أنّها، من حيث هي مثال نحويّ مصنوع في مقام وصف للجهاز المنتج له، إنّما هي من الأقوال الحقيقيّة المخصوصةِ المقام ككلّ الأقوال الحقيقيّة، وأنّها من حيث هي ترديد جماعيّ ينجز في مقام مؤسّسيّ، هو التعليم، قول حقيقيّ من صنف الطقوس التي بترديدها تفقد صفة الإبداع الفرديّ للقول، فتفقد نسبيّا بعض خصوصيّة المقام الأوّل لإنتاجها، لتكتسب من الطقس مقاما فيه تفقد الإحالات بعض أبعادها. فأهمّيّة مثل هذه الجمل بالنسبة إلينا أنّها كالأمثال والحكم والتعابير الجاهزة يُتناسى قائلوها الأول، وتُتبنّى جماعيّا، فتتجرّد من بعض خصوصيّاتها.

2.1 . مَقْولَة الجنس البشريّ للكون بتجريد الأقوال

في رأينا أنّ مثل هذه الخطابات تكشف أبسط خصائص الجهاز النحويّ المولّد لها وأعمقَها في الآن نفسه، وأنّ 'مَجمَعَتها ومأسَستها' عمليّة أساسيّة يقوم بها المتكلّم الواضع، ونعني به المجتمع في التاريخ. وتتمثّل العمليّة في تجريد الأقوال وتكليس بعض الخصائص وتأهيلها حتّى تصبح في أمد قريب يمتدّ على أجيال عناصر محافظة على الجهاز النحويّ المنتج لها، وتصبح في أمد متوسّط يمتدّ على قرون عناصر تجدّد في وسم مقولاته، وتصبح في أمد بعيد يمتدّ آلاف السنين إثراء لمقولات العقل البشري وترسيخا لتصوّره العام للعلاقات.

تتضمّن هذه الرؤية، من غير شكّ، أنّ التطوّر البيولوجي يحوّل محصول التجربة الخطابيّة إلى صنف المعلومات الموروثة، وأنّ الحالة البيولوجيّة الراهنة

المؤسّسة لتجهيزنا اللغوي في مستوى الجنس، والحالة الثقافيّة الراهنة المؤسّسة لتجهيزنا اللساني في مستوى التنميط الإثني، حالتان ناتجتان عن مثل هذه الحركة التجريديّة التي يقوم بها الواضع.

إذا صحّت هذه الفرضيّة التطوّريّة المدرجة للغة ضمن الغرائز الناتجة عن تجربة الجنس (ن اللغة باعتبارها غريزة في :Pinker، 1994)، وإذا صحّ افتراضنا أنّ هذا يستدعي جدليّة تطوّريّة محورها صدور التواصل على صور خصوصيّة فرديّة عن برنامج مجرّد عامّ تطوّره تجربة التواصل بتجريدات جماعيّة، وذلك على شكل دائري خفيّ طويل الأمد، فإنّنا ننتظر أن تكون قوّة الخطاب الإحاليّة متأتّية من قوّة الجهاز المَقْوليّة، بحيث بقدر ما تكون مكوّنات الجهاز لا تعني شيئا بعينه يكون بناؤها أقدر على الدلالة.

هذا ما يبرّر اهتمامنا بمثل هذه الجملة، ويغرينا بتحليل بعض خصائصها، لبيان كونها قائمة على قيم صرفميّة تنكر كنهها الصوتيّ بقدر ما تُعمله وسما لمقولات أزليّة، أثمرها العقل الجمع المجسّد طبعا وخلقا في اللغة بفضل خبره الحوادثَ المخصّصةَ بالأشياء.

ولبّ البيان أنّ الأفعال والأشياء وما عناها من الألفاظ أشباح وأطياف في رسم المقولات بأدنى ما يكون من اللفظ. وأدناه زوال اللفظ إزاء اللفظ وجعل الحروف والحركات معـربة عن المعنى بالنظم والاختلاف.

إنّ اختيارنا النظريّ هذا إقرار واقعيّ بأنّ مثل هذه الأقوال المتردّدة كالطقوس مرحلة في تجريد الرموز، فيه الخطاب ينعكس إثراء للبرنامج النحويّ المولّد له.

3.1 . المفردة في البرنامج النحوي والذهن الجماعيّ

يستوجب هذا النظر إلى تجريد الأقوال في اتّجاه الترميز المثري للبرنامج النحويّ :

ـ أن يكون الكون المتحدّث عنه في هذه الجملة وبها هو قطعة من البرنامج النحويّ المسيّر للسان العربيّ، وأنّ هذا البرنامج مسجّل اجتماعيّا في الأذهان الفرديّة على صورة تجاوز الأفراد، وأنّ القائل المبدع لهذه الجملة يمتلك في ذهنه نسخة من هذا البرنامج، وأنّه يستعمل هذه النسخة من البرنامج لوصف هذه القطعة من البرنامج نفسه؛

- أنّ هذا البرنامج يختزن، إضافة إلى المبادئ اللغويّة العامّة والقواعد اللسانيّة الخصوصيّة، تشفيرا مّا يخزن على صورة مّا قطعا قوليّة لفظيّة تردّدت منذ أجيال في خطابات سابقة، واطـّردت في المقامات المتشابهة. ثمّ تنوسِي مقامها الأوّل، وفقدت خصوصيّاتها؛ فانقطعت، وتفرّدت، فتجرّدت كالحسناء التي انتصبت في تنشّـؤ الأساطير مثالا للجمال، فتشكّلت في التصوّر الجماعيّ رسْما رمزيّا غائما سمّاه رهط من النحاة بالوحدة المعجميّة، وتصوّروه علميّا قطعا لسانيّة محدودة المعالم والإحالة؛

- وهي في الأصل كالجمل مركـّبة من جزئيّات صغرى تسم مقولات كبرى جامعة للمتصوّرات المشتركة بين الأجيال؛ بحيث تقع المُعبـِّرات عن المقولات موقع الوحدات المعجميّة من هذه القطع.

4.1 . البرنامج النحويّ و التشفير الإحالي

1.4.1. الالتغاء الإحالي

يتبيّن من دراسة هذا الضرب من الخطابات أنّ تجريد الأقوال من مقاماتها يقتضي انغلاقها على نفسها بإحالة بعضها على بعض.

إنّ القائل، وهو يجهد نفسه لتوليد خطاب فيه اللغة لا تحيل على غير ذاتها، لا يختلف وضعه، رغم الصعوبات التي يلاقيها، عن وضع قائل يولـّد خطابا يحيل على شيء آخر. فمثله كمثل الناظر في المرآة، يرى عينيه كما يرى الأشياء، لا فرق بين عينيه والأشياء، سوى أنّ الأشياء قد تـُرى بدون مرآة.

فاللغة كبقيّة الموجودات المتصوّرة في الذهن. إلا ّ أنّ خطاب اللغة عن اللغة في حاجة إلى ما يعكس بما يشبه عكس العينين في المرآة. فمن الأكيد أنـّه من خصائص الحاسوب الذهنيّ أنّ المنظومات السابرة لمختزناته المعلوميّة الذاكريّة، والقادرة على نقل ما فيها إلى المنظومة التي تترجم شفرتها إلى شفرة مسيّرة بالبرنامج النحوي، قادرة مباشرة أو عن طريق الذاكرة على الدخول في منظومة البرنامج النحوي لقراءتها جزئيّا ونقل نسخ من المسبور منها إلى نفس المنظومة التي تترجم بقيّة المعلومات الذهنيّة إلى الشفرة المسيّرة بنفس البرنامج النحوي.

نسمّي هذه القدرة، في مستوى اللغة البشريّة بالالتغاء؛ ونسمّي تطبيق الالتغاء في مستوى اللسان بالالتسان؛ وهذا حتـّى نستغني عن الأبعاد الفلسفيّة التي تثـقل عبارات من مثل 'ماوراءاللغة'، وهي عبارات قد توهم، رغم جاكبسون، أنّ

وصف اللغة لذاتها عمليّة طارئة، والحال أنّها أساس الدورة النحويّة الخطابيّة المحقّقة لحركيّة البرنامج.

2.4.1. البرنامج ومنظومة التشفير

يقتضي هذا التصوّر أنّ الجهاز النحوي يحتوي داخليّا على منظومتين نحويّتين مختلفتين ومترابطتين :

- منظومة البرنامج النحوي الأساسي؛ وتشتمل على الوحدات والقواعد والمبادئ المسيّرة للأبنية، والمخوّلة للبرنامج قدرته التكهّنيّة الحسابيّة غير المحدودة. ويتحدّد هذا البرنامج على أساس من ملكتنا اللغويّة الراجعة، كما يرى شمسكي، إلى تجهيزنا البيولوجيّ. وهو تجهيز ناتج عن تجربة الجنس البشريّ في تاريخه الطبيعي. ولهذا البرنامج نسخة تحصل للفرد من تجربته تعلّما واكتسابا لنحو لسانيّ مخصوص كوّنته تجربة المجموعة القوميّة في تاريخها الثقافيّ.

- ومنظومة التشفير النحوي، وهو برنامج تطبيقي مكلّف بتحويل المعلومات إلى أشكال نحويّة. فهي التي تختار العناصر المعجميّة المطابقة لمكوّنات التصوّرات غير اللغويّة لسبكها حسب علاقات نحويّة مطابقة للعلاقات الرابطة بين المتصوّرات من جهة وبينها وبين ذات المتكلّم من جهة أخرى. وذلك لبناء مكوّنات الخطاب في مستوى الذهن، قبل تحقيق تشفيرها اللفظي. وفي هذا المستوى، حسب رأينا، تتكوّن الجملة الخطابيّة التي تصفها مختلف المناويل التوليديّة. فعمليّة المزج بين وحدتين معجمتين لتكوين مركّب، حسب المنوال الأدنوي (ن. Merge في Chomsky 1995)، وحسب بعض المناويل التقليديّة القديمة (مثلا الجرجاني، الدلائل، ن. مفهوم الضمّ باعتباره مظهرا من النظم ص 90 مثلا)، عمليّة تقتضي اختيارا من المتكلّم لإمكانيّة من الإمكانيّات المتكهّن بها في المنظومة الأساسيّة. وهو اختيار يقتضي بدوره أن تكون منظومة التشفير منفتحة على صورة مّا على منظومات ذهنيّة أخرى (ن. مفهوم منظوميّة الذهن modularity مثلا في1997 / Pinker 2000).

أمّا المنظومة السابرة للمعلومات الذاكريّة، فهي منظومة مستقلّة تماما عن الجهاز الحاسوبيّ النحويّ؛ وتتعامل، في رأينا وحسب ما نفترضه، مع مخزون الذاكرة ومخزون البرنامج النحوي بنفس الطريقة.

يعتمد تصوّرنا هذا في عمومه على الاتّجاهات العرفانيّة التي تعتبر الذهن حاسوبا طبيعيّا ذا برامج وظيفتها معالجة المعلومات، يكتسبها بفضل برامج تعلّميّة تعتمد بدورها على برامج فطريّة. ويقتضي هذا التصوّر وجود عضو

مركزيّ مشرف على كلّ الجهاز الذاكريّ، يتّصل بمخازن المعلومات التصوّريّة الإدراكيّة ويستند إلى ذاكرة عمليّة، وذاكرة دائمة للقدرات الأساسيّة، وذاكرة طويلة الأمد تختزن التجارب والمعارف. (ن. في P.N. Johnson-Laird 1993/trad. 1994)

قد يكون تصوّرنا هذا للمنظومات الذهنيّة ذات العلاقة بوصف اللغة لذاتها غير موافق لاختيارات بعض الدارسين، (ن. ملخّصا لتصوّر التوليديّين للمنظومات في Smith.N، 2005)). لكنّنا نفترض أنّ هذا هو ما يفسّر قدرة المتكلّم بـ"سألتمونيها" من الانتقال بسهولة من خطاب محيل على اللغة إلى خطاب يوهم بالإحالة على خارج لغويّ.

2 . بنية الضمير المقوليّة

1.2 . بنية الضمير [ني] ووهم الإحالة على الخارج

لنلاحظ بادئ ذي بدء أنّ الجملة "سألتمونيها" كافية شكليّا لتكوين خطاب تامّ، حتّى وإن كانت بعض عناصرها في حاجة إلى معلومات إضافيّة.

إنّ قائلها النحويّ، في المقام الذي ذكرناه، لم يكن ليكترث بتحديد ذاته، ولا بتفسير العلامات الضميريّة الثلاث الواقعة تباعا فاعلا فمفعولا أوّل فثانيا. فنحن لا نعرف شيئا يذكر عن المتكلّم الإنشائيّ الناظم، سوى أنّه اختار، لتسهيل حفظ الحروف الزوائد، صوغَها في خطاب مُوهِم بالإحالة. فصيّر نفسه بذلك متكلّما مّا، منخزلَ الدلالة في سمات قريبة جدّا من سمات المتكلّم الواضع، وإن كان أكثر تعيّنا منه وأقلّ تجريدا بمقتضى التشفير الخطابيّ. وفي العموم، إذا أخذنا بمبدإ كون الإحالة معمولا متمّما للإنشاء وقيدا مخصّصا له يخرجه من مطلق العموم، فإنّه، كما يتبيّن بعد حين، كلّما ضعفت إحاليّة مكوّنات الجملة ازدادت عموميّة الناظم.

وبالفعل، فإنّ الضمير الإحاليّ "ني" في جملتنا مشير مقاميّ، لا يشير إلى مقام، ولم يخرج من إبهامه، لعدم ربطه بمعلومات مقاميّة ذهنيّة ذاكريّة أخرى خارج منظومة البرنامج النحويّ. فهو لا يرتبط مرجعيّا بعنصر مُحيل، ولكنّه يتجزّأ اشتقاقيّا إلى صرافم تربطه ربطا مباشرا بمقولات لسانيّة خالصة مجاوزة لآنيّة الخطاب وفردانيّة الناظم.

يتبيّن من المقابلات الاستبداليّة التوزيعيّة التالية بين ضميري المتكلّم من جهة وما تبدأ به ضمائر المخاطبة والغيبة من جهة أخرى :

(1)

نـ	ـِي
نـ	ـَا
نـ	ـَا
كـ	...
هـ	...

أنّ صرفم الحضور التكلّمي [ن] يقع في مقابل صرفم المخاطبة [كـ] وصرفم الغيبة [هـ] في مثل "سألوكها/ سألتموهه"، وأنّ صرفم الإفراد [ـِي] يقابل معنى صرفم الجمع [ـَا] المتضمّن لما يعرف تقليديّا بالمثنّى، كما في قولك " نحن الاثنين"، وكذلك الجمع، كما في قولك " نحن الثلاثة". فالضمير [ني] مركّب من صرفمين يعبّران عن مقولتين مختلفتين، إحداهما تحدّد الدور الخطابي، أي دور المعنيّ بالأمر في التعامل اللغويّ، والثانية تخصّص عدد القائمين بهذا الدور. ومثل هذا البناء قرينة تؤكّد أنّ التعامل بين الشركاء اللغويين في التخاطب ظاهرة مقوليّة مبرمجة نحويّا وليست في كنهها مبنيّة على الإحالة المباشرة. فالواقع التداوليّ، هنا على الأقلّ، تطبيق لبرنامج مسبق موسوم باللفظ.

وبناء عليه، فإنّ هذين الصرفمين يمنعان التشفير الإحالي الفرديّ من مجاوزة أساسه الدلاليّ النحويّ إلى دلالة متصوّريّة ذهنيّة أخرى خارج المنظومة التصوّريّة اللغويّة واللسانيّة المسجّلة جماعيّا في البرنامج النحوي.

يتمثّل هذا الأساس الدلاليّ والتصوّريّ النحويّ في الوسم اللفظيّ المجزّئ، كما يتبيّن في (1) وما يليه، للسمات التكوينيّة للضمير تجزئةً لا تقبل لفظيّا مزيدا من التقسيم، لانتهاء الصرفم إلى مساواة الصوتم لفظا. فصرفما الحضور والعدد صوتمان بسيطان يحقّقان مقولتين بسيطتين لا تحتاجان إلى تعيين خارج عن اللغة. فانقسام الضمير لفظيّا يدعو إلى مجاوزة مفهوم السمات الدلاليّة التكوينيّة المتضمّنة في الكلمة ، وتعويضه بمفهوم تركّب الألفاظ من مقولات ذات قيم لسانيّة داخليّة غير مرجعيّة.

وممّا يدعم هذا الإبهام الإحاليّ في الضمير خلوّه من كلّ تخصيص مقاميّ لسمة الجنس. فمن الثابت عندنا أنّ ضمير المتكلّم المفرد على خلاف المخاطب موسوم بما نسمّيه بـ'الوسم الإمكاني' للجنس، أي [± مؤنّث]. وليس المقصود عندنا بالوسم الإمكاني، أنّ الضمير يتعيّن للتذكير أو التأنيث بفضل استعماله في مقام مخصوص. فهذا، وإن جاز، فإنّ اقتصار النظام عليه علامة عجز فيه، ودليل على عدم اكتفائه الذاتيّ. بل المقصود أنّك إذا أخذت بنية قوليّة، مشجّرة البناء ككلّ

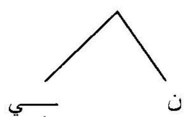
الأبنية النحويّة، وجعلت هذا الضمير من مكوّناتها، فإنّ هذا الضمير في حاجة داخل هذه البنية إلى مطابقة نحويّة تزيل لبس دلالته على الجنس، كما هي الحال في المثال (أنا الممضيةَ / أنا الممضيَ). فالوسم الإمكانيّ هو الذي يسمح للناظم، بعد اختيار الضمير مكوّنا من مكوّنات التشفير الخطابي، بإجراء المطابقة الصرفيّة على أحد هذين الوجهين. وهو ما لا يكون مع الضمائر المعيّنة الجنس. فاختيارها يوجب مطابقة بعينها. فالوسم الإمكاني للمتكلّم يقع في مقابل الوسم الوجوبي للمخاطب والغائب بـ[± مؤنّث] (مثلا : {أنتِ...هي}/ {أنتَ...هو}). وهو الوسم الذي يوجب، بعد اختيار الضمير، وجها واحدا في ما يسمّى ببنية المطابقة.

ولمّا لم تكن "سألتمونيها" محتوية على مطابقة وصفيّة، بقي المفعول الأوّل "ني" صرفا وإعرابا على وسمه الإمكاني جنسا، إضافة إلى إبهامه الإحاليّ. فلا شيء في هذه الجملة الخطابيّة يعين، بفضل مطابقة ما، على تخصيص المتكلّم في المقام. ورغم هذا، فالجملة خطاب أنتجه التشفير النحوي حسب برنامج مسبق. فهي في مقامها الذي ذكرناه لا تحتاج إلى مزيد بيان.

لكنّ المتكلّم، وإن لم يكن مخصّصا في مجمله، فلقد رأينا أنّ [ني] مركّب صرفيّ، ولاحظنا أنّ الصرفم [ن] هو الدالّ على مقولة الحضور الخطابيّة. ولمّا كانت هذه المقولة مركزيّة، فإنّه يكون من الواضح أنّ صرفم العدد [ـِيَ↔ـِي] لا يضيف معلومة جوهريّة، بل يخصّص المعلومة السابقة. وهذا في رأينا كاف لاعتبار العلاقة التواجديّة بين الصرفمين لا تختلف في جوهرها عن العلاقة الإعرابيّة [نواة × مخصص]. ننبّه أنّ عبارة مخصّص مستعملة هنا في معنى مخالف لاستعمالها عند التوليديّين. فالتخصيص في المنوال [إن ك] (الشريف 1993/ 2002) مستعمل في المعنى القديم؛ وهو تسوير الرأس بإخراجه من التعميم إلى ما دونه تعميما؛ فالمفعول في هذا المعنى تخصيص ثان موال للتخصيص بالفاعل. إذا كان هذا، فالنون المعبّرة عن الحضور مقولة رأس ضميري مخصّص بمقولة المتكلّم الفرد في مقابل الجمع. وهذا ما يستدعي تمثيل بنيتها الصرفيّة تمثيلا إعرابيّا على أحد الوجهين التاليين :

(2)

أ .



بـــ.   ن   ـِـــي

[+ حضور] [+مفرد،±مؤنـــّث]

فالصرفم [ـِي] إذن صرفم ممتزج يعبّر عن العدد تعبيرا موجبا وعن الجنس تعبيرا إمكانيّا.

وكذلك يتبيّن بتحليل الفاعل "تـُمـُو" والمفعول الثاني "ها" أنـّهما أيضا مركّبان بوحدات نحويّة صغرى غير محيلة.

2.2 . بنية ضمير المخاطب [تمو]

وقع هذا الضمير في تشكـّله الصوتيّ / تـُمـُو/ موافقا لأصل اشتقاقه. فالصيغـة / تـُمْ / في رأينا راجعة إلى بتر الكلمة عند الوقف. وكذلك الأمر في / هُمْ /.

يسم الضمير [تمو]، هو أيضا لفظيّا وعلى صورة تجزيئيّة، مجموعةً من المعلومات المقوليّة المستمدّة من البرمجة التصوّريّة غير المحيلة على خارج إحاليّ ذهنيّ مرجعيّ معيّن.

فالتاء من [تـُ] صرفم دال على المخاطبة مثل الكاف، لكنـّه واقع في حالة رفع على الفاعليّة. فـ[تـُ] ممتزج الدلالة. والفاعليّة فيه كالمخاطبة دالـّة على مقولة نحويّة خالصة بلا نظير في الموجودات. وتقع التاء أيضا في مقابل هاء الغيبة من [هـُ] في بقيّة الجدول الضميريّ، أو في مقابل غياب الهاء في حالة الرفع كما يتبيّن في (3) أسفله.

أمّا الميم من [مـُو]، فصرفم يسم السمة العدديّة [+جمع] ممتزجة (amalgamé)، في غالب رأينا، بالسمة الإمكانيّة [± مؤنـّث]. وذلك أنّ هذه الميم مشتركة بين [تمو] و[تما]. و[تما] تقع لمخاطبة المذكّر والمؤنـّث على حدّ سواء. ولذلك فهي تبقى دالـّةً إمكانيّةً على الجنس في [تما]، لا تـُوجـَب على إحدى القيمتين، إلاّ إذا وقعت مكوّنا من مكوّنات بنية إعرابيّة تصريفيّة تطابقيّة مثل "سألتمانيها ضاحكتين/ سألتمانيها ضاحكين"، فتعيّن الضمير للتأنيث أو التذكير لا يقع إلا بفضل المطابقة لا غير، وهي مطابقة تقع في مستوى بنية إعرابيّة مّا من مثل ما استشهدنا به الآن. أمّا في [تـُمـُو] فهي تنخزل إلى القيمة [- مؤنـّث] نتيجة تقابلها في بقيّة الجدول الضميري مع نون النسوة، حسب ما تسمح به القاعدة الشحنيّة الوجوديّة [ك: ± ← -]، حيث [ك] مجرّد ترقيم آخر للمقولة الوجوديّة

[Э] الواردة في أعمال لنا سابقة. ومفاد هذه القاعدة الشحنيّة أنّ التعبير عن إمكان وجود شرط يلزمه سلب وجود.

أمّا [ـُو] من [مـُو]، فتسم الجمع غير المثنى في مقابل وسم [ـَا] المثنى في [تـُمـَا] وهو وسم تكراريّ حسب ما يبدو من التقابلات الاستبداليّة التوزيعيّة التالية :

(3)

كـ	ـُ	مـ	ـُو
كـ	ـُ	م	ø
كـ	ـُ	مـ	ـَا
هـ	ـُ	مـ	ـُو
هـ	ـُ	م	ø
ø	ø	ø	ـُو
هـ	ـُ	مـ	ـَا
ø	ø	ø.	ـَا
تـ	ـُ	مـ	ـُو
تـ	ـُ	مـ	ـَا
تـ	ـُ	م	ø
تـ	ـُ	نـ	ـنَ
تـ	ـَ	ø	ø
تـ	ـِ	ø	ø

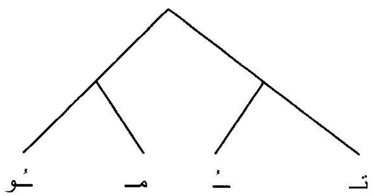
فمن الواضح حسب هذه التقابلات الجدوليّة النسقيّة أنّ حذف [ـُو] من مثل "أنتم فعلتم" لا يضرّ بالمقابلة بين الجمع الثنائي والجمع فوق الثنائي، كما أنّ حذف [هم] في "هم فعلـ ø ـُو" و "هما فعلـ ø ـَا" لا يضرّ بالمقابلة بين هذين الجمعين، ولا يؤدّي إلى اختلاط الجمع بالمفردين المذكّر والمؤنّث، نظرا إلى عدم وقوع الصرفم العدميّ [ø] في نفس التقاطع الاستبداليّ التوزيعيّ. فالوسم التقابليّ يحافظ تمام المحافظة على التشفير الوسمي وفق المقابلة الدلاليّة [ع1/[ع=2/.ع>2]] المنظّمة لمقولة العدد.

يؤكّد هذا العرض السريع للتقابلات الضميريّة أنّ خلوّ "تمو" في "سألتمونيها" من قرينة إحاليّة تربطها بمتصوّر ذاكريّ خارج البرنامج النحوي لم يمنع هذه الجملة الخطابيّة من الحدوث، للدلالة على معنى لا وجود له خارج هذه التقابلات، بفضل عمليّة اختيار اقتضت مسبقا قبل تشفير الجملة استعراض ما يوفّره البرنامج من إمكانيّات. وهي إمكانيّات لا تجعل [تمو] وحدة بسيطة في مقابل وحدات بسيطة، بل تجعله مركّبا صرفميّا يتركّب من وحدات صرفميّة أبسط تسم تصوّرات مقوليّة لسانيّة محضة.

يبدو لنا أنّ هذه الوحدات الدالّة على المقولات الصرفيّة، رغم شدّة الامتزاج بينها ورغم التكراريّة الظاهريّة فيها، أبنية متراتبة العناصر. لكنّها بحكم مبدإ الاقتصاد، كما تستعمل نفس الصواتم لوسم الصرافم المختلفة، تلتجئ إلى الواسم العدميّ [ø]، كلّما كانت التقابلات الوسميّة كافية للتمييز. وهذا ما يُحصّل في إدراكنا الشعور بأنّ الناظم يجمّع وسم السمات المقوليّة المختلفة في صرفم موحّد، كما هي الحال في [ـُو] الواقعة 'فاعلا مرفوعا. جمعا. مذكّرا. غائبا' في مثل التصريفة "سألـ[øøøـُو]نيها" المتضمّنة في التقابلات المذكورة أعلاه، والخازلة للتصريفة المفترضة "[*سألـ[هُمـُو]نيها]". فمن الطبيعيّ أن يضعنا هذا الاقتصاد الوسميّ في وضعيّات شبيهة بـ[øøø حمدا وøøø شكرا] في أبنية الإعراب، حيث المنصوب وقع مفعولا مؤكّدا للفعل المضمر مع فاعله ومفعوله. فكثيرا ما ضُمّنت هذه المسبوكات معاني جملها الأصليّة، والحال أنّها تدلّ عليها باقتضاءات بنيويّة.

إذا صحّ هذا التحليل فإنّ [تمو] قد تكون مركّبة على النحو التالي:

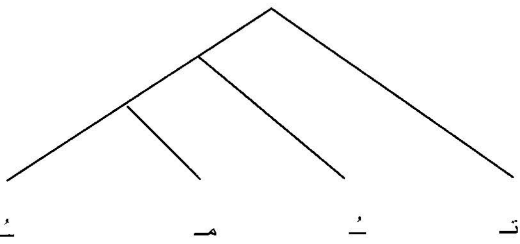
(4) أ .



حيث التاء [تـ] هي النواة، لدلالتها على أهمّ المقولات وهي المخاطبة، و[ـُ] مخصّص لها، قد تكون وظيفته تمييزا صوتميّا أو معدّلا مقطعيّا. فهو في حدود تحليلنا الحالي لا يضيف إلى المركّب دلالة مقوليّة واضحة.

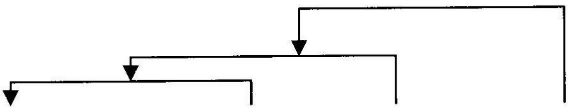
إلا أنّ توزيعه، كما يتبيّن من التقابلات الجدوليّة النسقيّة، أعلاه يجعله مقابلا للزوجين المتقابلين [ـَ / ـِ] المميّزين بين مخاطبة المفرد المؤنّث ومخاطبة المفرد المذكّر [(أنـ)[تـ[ـَ]] / (أنـ)[تـ[ـِ]]]. وهذا يدعو إلى اعتباره صرفما تمييزيّا يدخل في مقابلة سلبيّة على الصورة [ـُ / [ـَ/ ـِ]]. إذا كان هذا، فوظيفته التمييزيّة الصرفميّة لا تجاوز السمة [- مفرد]. وهي سمة كأنّها حشو، إذ ما بعدها كما بيّنّا مستغن عنها، ما دام متمحّضا لتفصيل الجنس والعدد. لكنّنا، إذا واصلنا معالجة البنية الصرفيّة على أنّها نظم معرب عن المقولات، فلهذا الحشو نظير في المفاعيل المؤكّدة. فتخصيصها للمقولة التخاطبيّة إذن ينبغي أن يكون ضمن المركّب المخصّص لجنس المخاطب وعدده. وهذا ما يدعو إلى تحوير (4أ) كما يلي:

(4) بـ.



إذا أخذنا بهذه البنية التراتبيّة، فالعمل الإعرابي داخل هذا المركّب التصريفي منظّم على الصورة التالية :

(4) ج.



[+حاضر، + مخاطب] [ـ مفرد] [+ جمع ≤2، ± مؤنّث] [+جمع>2، ـ مؤنّث]

هذا في ما يتعلّق بالفاعل [تمو].

3.2 . بنية ضمير الغائب [ها]

وشبيه به ما يتعلّق بالمفعول الثاني [ها]، فهو يدخل في نفس التقابلات التجزيئيّة حسب ما يتبيّن من اللوحة الجدوليّة النسقيّة التالية :

(5)

هـ	ـِ	ـي	ـَ
هـ	ـَا		
هـ	ـُ		
هـ	ـُ	ـو	ـَ

فصرفم الهاء في ذاته يعبّر عن الغيبة في مقابل ما رأيناه من صرافم الحضور. أمّا الصرفم [ـَا] من المركّب الصرفمي [ها] فبديل الصرفم [ـيَ] (allomorphe) من المركّب [هِيَ]. وهو يدلّ بوسم امتزاجيّ على المقولتين [+مؤنّث، ـ مفرد].

وبين هذين البديلين الصرفميين علاقة صوتيّة غير لازمة عادة في التقابلات الصرفيّة. لكنّنا نلاحظها دون البتّ في شأنها. وهي أنّه في أوضاع تاريخيّة تعاقبيّة كثيرا ما تحوّلت القطعة [ـِ ي ـَ] إلى فتحة. ومنها [بْ ق ـَ] [bqa] من [بَقِيَ] في الدارجة التونسيّة.

ولمّا كانت الهاء للغيبة مشتركة بين الضميرين [هو/هي] فليست فعليّا جزءا من العلاقة التقابليّة الجدوليّة الاستبداليّة بينهما. فالفتحة [ـَ(ـا)] من [ها] صرفم يقع مقابل الصرفم [ـُ] من المركّب [هُ]، ومقابل بديله الصرفميّ [ـِ] في مثل "سألتمونيهِ". و[ـُ] هو أيضا البديل من الصرفم [ـُوَ] المكوّن للمركّب الصرفميّ [هُوَ]. والجدير بالتنبيه هنا أيضا أنّ القطعة الصوتيّة [ـُ وـَ] [uwa] مؤهّلة هي أيضا لتغيّر صوتيّ تعاقبيّ يُنتج الفتحة أو الضمّة حسب ما يختاره التطوّر من المسارين التاليين:

(6) أ. حذف حرف اللين ثمّ مماثلة الضمّة للفتحة لتكوين حركة وحيدة :

uwa → ua → aa → a

ب. مماثلة حرف اللين للحركة، وتغليب الحركة الطويلة:

uwa → uua → u:a → u :

فالزوجان التقابليان [ه/ها،هو/هي] في رأينا يمثّلان الصورة الظاهرة من التقابل الصرفميّ [uwa↔u: .\.iya↔:a] الواسم للزوج المقولي (جنس،عدد) المتضمّن للتقابلات المولّدة للتصريفة "سألتمونيها".

وإذا كان هذان الصرفمان يدخلان في المقابلة الدلاليّة المقوليّة المذكورة، فصرفم الهاء، كما رأينا، يدخل في علاقة خطابيّة قائمة على المقابلة بين الغيبة

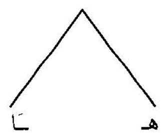
والحضور، لا باعتبارهما واقعا معيشا، بل باعتبارهما واقعا تداوليّا مبرمجا نحويّا لإنتاج خطاب قابل للإنجاز إمكانا لا ضرورة.

إنّ التمييز الجوهريّ مقاميّا بين الغيبة والحضور وبين المذكّر والمؤنّث في تعاملنا التخاطبي اليومي يؤكّد أنّ البرنامج النحوي يفكّك الضمير [ها] تفكيكه لبقيّة الضمائر، ولا يأخذ الضمير كتلة دلاليّة واحدة، كما توهمنا التصوّرات الفردانيّة الإحاليّة المرجعيّة المقاميّة. فإذا كان استعمالنا لـ"ها" مصحوبا بتصوّرنا لشخص واحد يتّصف بكونه أنثى غائبة، ولـ"ـه" بتصوّرنا لشخص آخر مغاير، فإنّ تقابل هذين المركّبين الصرفميين مع [كَ/كِ] يبرز أنّ المَقُولة النحويّة تستغني عن الشخص من حيث هو شخص، فتختزل كونه شخصا في كونه غائبا، وتجعل خاصيته الجنسيّة كينونة أخرى تخصّص الأولى، كما يخصّص المضافُ إليه مغايرَه المضاف، لا كما يُخصّص المنعوت بالصفة التي تنتمي إليه.

إنّ التصوّرات الجماعيّة الذهنيّة الموروثة عن التجربة الوجوديّة تصوّرات مختزنة في البرنامج النحويّ في صورة مقولات مفكّكة موسومة بألفاظ تبنيها في وحدات موحّدة تشفّر استقلاليّتها وتغلّب بعض العلاقات الممكنة بينها.

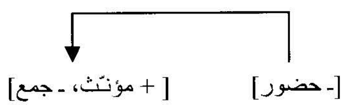
إنّ [ها] إذن، كسائر ما رأينا، مركّب نحويّ قابل للتمثيل على الصورة التالية :

(7) أ .



ولمّا كانت المقولة التخاطبيّة نواة هذا التشفير الخطابيّ، فالبنية العامليّة لهذا المركّب الصرفميّ قائمة كالبنيتين الماضيتين على رأس مقوليّ غير محيل، أي على رأس وظيفيّ حسب ما يقال في التعبير اللسانيّ الشائع اليوم في الكتابات التوليديّة. وهو ما يمكن تمثيله حسب المنوال [إن ك] على الشكل التالي :

(7) بـ.



4.2 . انتظام بنية الضمير المقوليّة بناء على الصوّة الإنشائيّة

إنّ هذه المقابلات المقوليّة المسجّلة في البرنامج النحوي والمتحكّمة في تشفير الخطاب من داخل البرنامج لا من خارجه تحتاج إلى صُوّة مرجعيّة داخليّة تغني عن المقام العينيّ للخطاب.

في رأينا أنّ انتظام هذه المقولات مرتبط بمفهوم الإنشاء كما حدّد في (الشريف، 2002/1993). فالصوّة المقوليّة هي وجود الحدث الإنشائي للخطاب بفعل المنشئ الواضع. وهو حدث مسجّل في البنية النحويّة في ما سمّيناه بالمحلّ الإنشائي. هذا المحلّ موافق تقريبا لمفهوم الموصول (أو المصدري) (Complimentizer) في النظريّة التوليديّة، خاصة في البرنامج الأدنوي والأعمال الموالية لـ(شمسكي،1995). فهذا الوجود هو الذي يحدّد نقطة الوجود الزمانيّ المعروف بالحضور (ن.الشريف، 2007)، ويجعل البنية الإنشائيّة المرتبطة به كائنة في حيّزه البنيويّ والزمانيّ الحضوريّ على حدّ سواء، كما يجعل كلّ إحالة واقعة في حيّز عمله، أي في حيّز تحكّمه البنيويّ، بنية محدّدة زمانيّا بمقتضاه.

فمن ذلك كان المتكلّم الناظم لـ"سألتمونيها" موسوما بـ[+حضور]. ولمّا كانت [ني] قرينه الإحاليّ داخل البنية النحويّة نفسها، فقد تشرّبت منه دلالة الحضور، رغم كونها من مكوّنات الحيّز الإحاليّ من البنية النحويّة، وكون المكوّن الإحالي مهيّأ للغيبة.

ولولا هذا الفرق النحويّ بين المتكلّم وضميره، لما جاز لمتكلّم في بنية نحويّة صحيحة أن يخاطب نفسه بالنداء، وأن يميّز ضميريه بجعل أحدهما فاعلا والآخر مفعولا في مثل "ظننتني". ومن قال أنّنا لا نقبل "سألتُني إياي"، لو قالها المتنبّي فأبرز الفاصل بين المتكلّم وقرينه الإحالي على غرار قوله:

(8) "حببتك قلبي قبل حبّك من نأى وقد كان غدّارا فكن أنت وافيا"

فمثل هذه الأبنية دالّة على أنّ مقولة المتكلّم الإنشائي غير مقولة المتكلّم الإحاليّ. فـ[أنا] الإحاليّة من جنس [أنت] و[هو] رغم تقابلها على الصـــورة [[أنا / أنت] / هو]. فهي بالنسبة إلى المتكلّم الإنشائي من حيّز واحد، على خلاف ما يراه بعض الدارسين (ن. مثلا Tesnière 1974؛ وCharaudeau 1992). وهو ما يسمح له بالحديث عنها، واستبدالها في المواضع الإعرابيّة، وتنويب بعضها عن بعض في الأدوار الخطابيّة تنويبا منها تغييب المخاطب، ومنها مخاطبة الغائب، وأقصاها تغييب المتكلّم نفسه بالتسمية.

أمّا المتكلّم الإنشائيّ، فلا يكون إلا متكلّما. وهو ما يجعل حضوره صوّة لتوزيع الأدوار الخطابيّة في نحو الضمائر، حتّى أنّنا لو أخذنا أيّ اسم وقرنّاه به لصار ضمير متكلّم تنتظم عليه التقابلات الضميريّة على الصورة المقوليّة البنيويّة المذكورة.

بناء على هذا، إن كانت [ني] تتحدّد بتقارنها الإحالي الداخلي مع منشئ الخطاب المشفّر له والمكوّن لمقولة الحضور، فإنّ [(ك، ت)] تتحدّد بتقابلها المباشر مع [ني]، و[ه] تتحدّد بمقابلتها لهذا الزوج التقابلي.

5.2 . أهمّيّة الضمير في مَقْوَلَة الموجودات حسب صلتها بالحدث

إنّ جملة الخطاب "سألتمونيها"، إلى هذا الحدّ من التحليل، تكوّن دلالتها بمكوّنات جزئيّة دنيا تحيل على مقولات صرفيّة يُمَعْنِي بعضها بعضا بفضل دخولها في علاقات تواجديّة جمعيّة وصليّة نسقيّة أو جدوليّة موجبة، محدثة لتقابلات تواجديّة فصليّة سالبة. وذلك، وهو المفيد، دون الحاجة إلى وحدات معجميّة محيلة على خارج. بل ينبني على التفكيك الذي أجريناه على الضمائر، وعلى تمثيلها تمثيلا إعرابيّا، أنّ هذا الخطاب، على الأقلّ، مؤسّس على الصرافم المحيلة على التصوّرات الأزليّة المُمَقْـوِلة للكون، وأنّ الأساس النحويّ للخطاب، هذا الخطاب على الأقلّ، أساس مقوليّ مترسّخ في النظام، لا معجميّ محيل على خارج ثابت.

إذا كانت هذه الضمائر مركّبات ذات أساس مقوليّ بسيط، فمن أين لنا هذا الشعور بأنّـها وحدات تامّة السبك جاهزة للاستعمال؟

لا شكّ أنّ هذا يعود إلى اشتغالها مفردة في مستوى الإعراب، للقيام بوظائف يبدو في الظاهر أنّـها من صنف مخالف لما تقوم به الصرافم. فالفاعليّة والمفعوليّة والإضافة حالات إعرابيّة يفترض التوليديّون في شأن الأبنية الواقعة عليها أنّـها تقع موسومة بما يدلّ عليها. وذلك في جميع الألسن وعلى صور مختلفة. وكثيرا ما تكون العلامات الدالّـة عليها صرافم لصيقة بالأبنية القائمة بها ودالّـة على تمامها.

ما يدعو إلى الاهتمام في هذا الشأن أنّ هذا الوسم الصرفيّ للحالات الإعرابيّة طال ما استعمل في الدراسات اللسانيّة التقليديّة السابقة لتطوّرات النظريّة التوليديّة لتصنيف الألسن إلى معربة وغير معربة، حتّى تبيّن للدارسين أنّ الضمائر من أكثر المفردات محافظة على هذا الوسم الصرفمي في ألسن كانت مدرجة في صنف الألسن غير المعربة كالفرنسيّة والأنكليزيّة من العائلة الهنديّة الأوربيّة. (ن أمثلة من حالات الرفع والنصب والجر في الأنكليزيّة في (Radford A., 2006))

قد تكون هذه المعطيات الإعرابيّة مؤكّدة أنّ وظيفة النظام الصرفي لا تجاوز بناء الوحدات التي يشتغل بها الإعراب.

إن كان هذا فتحليلنا السابق يدعم هذه الأطروحة ويضعفها في الآن نفسه، ما دامت بنية الضمير، كما بيّنـّا، مجرّد إسقاط للمقولة الخطابيّة. فليست صرافم الجنس والعدد المصاحبة لصرفم الخطاب سوى مخصّصات له، أو، بتعبير آخر، ما هي إلا قيود تحدّ من عموم دلالته.

إذا كان الضمير بنية مقوليّة ذات شكل مشجّريّ نواته، أو رأسه، مقولة الحضور الخطابي، وكانت هيأته معبّرة عن وظيفته الإعرابيّة في بناء الفعل، وكان شكله هذا من أرسخ الأشكال اللغويّة رسوخا في تاريخ التجربة العرفانيّة الجماعيّة، أفلا يدلّ كلّ هذا أنـّه محور أساسيّ في مَقْوَلة الإنسان للموجودات بناء على علاقاتها بالأحداث، وأنـّه في التجريد الذهنيّ الجماعيّ أهمّ من التسمية ؟

6.2 . الاسم باعتباره تخصيصا مقوليّا للضمير

من الأفكار السائدة عن الضمائر أنـّها تعوّض الأسماء. بل تعتبر في بعض النظريّات، كالنظريّة العربيّة القديمة، نوعا منها. ومن الممكن أن يكون هذا صحيحا. ما يهمّنا في هذا الصدد أنّ الضمائر إذا عوّضت الأسماء، إن كانت تعوّضها حقـّا، لم تكن إلا ضمائر غيبة.

قد لا يكون من الممكن أن نستنتج من هذا شيئا يذكر. لكنـّه يدفعنا إلى التساؤل في منزلة السمة التقابليّة [±حضور] من الاسم. فلعلّ الاسم مركـّب صرفميّ رأسه مقولة خطابيّة على غرار الضمير، أو أن يكون هذا الرأس المقولي من مكوّناته الأساسيّة، إذ بدون هذا الافتراض تستحيل المطابقة بين الضمير ومفسّره. فلحصول الربط مثلا بين الضمير [ها] من مثالنا، واسم سابق ممكن، ينبغي على الأقلّ أن تتوفـّر في الاسم السمات التالية :

(9) [م ا [(...)- حضور ، {[±عاقل،+مؤنـّث،- جمع]/[- عاقل، ±مؤنـّث،+جمع]}]

ما يدلّ على أنّ السمة [±حضور] ضروريّة ورئيسيّة ما نلاحظه من المقارنة التالية بين نداء التنبيه ونداء النكرة الموصوفة.

ففي نداء النكرة الموصوفة يمكن أن يكون المنادى حاضرا، إليه يوجّه المتكـلـّم خطابه، كما يكون غائبا مستحضرا في خطاب غير موجّه إليه. لذا فالجملتان (10) و(11) التاليتان جائزتان نحويّا :

(10) يا أمّة ضحكت من جهلها الأمم

(11) يا أمّة ضحكت من جهلك الأمم

ففي (10)، يتبيّن من عودة الضمير [ها] على الاسم "أمّة" أنّ منصوب حرف النداء، وإن كان منادى مخاطبا، فقد جاز قرانه بالضمير الغائب الرابط بينه وبين نعته. وهذا يدلّ أنّ المتكلّم ينزّل رأس المركّب النعتيّ منزلة الغائب، وإن كان حرف النداء يقتضي أن يكون كلّ المركّب مخاطبا. فالمنادى إذن غائب مستحضر بالنداء.

أمّا في (11) فالمنادى منزّل منزلة المخاطب، كما هو الأصل في النداء، فجاز قرانه بكاف المخاطبة، على ما يجري به النداء، فجاءت الجملة الواصفة له بعده وكأنّـها منقطعة عنه.

أمّا في نداء التنبيه، فالغرض المخاطبة والاتّصال. لذلك تبدو الجملة (12) الموالية لاحنة :

(12) *يا أمّتي ضحكت من جهلها الأمم

وذلك لقران المنادى المعدود مخاطبا بضمير غائب. ولا يمكن لهذه الجملة أن تقبل إلا إذا توفّر في السياق ما يبطل هذا القران ويجعل الهاء لاسم آخر من جملة سابقة.

أمّا الجملة (13) التالية :

(13) يا أمّتي ضحكت من جهلك الأمم

فهي جارية على الاستعمال. ففيها المنادى والضمير من جملتين منقطعتين ويتقارنان في سمة الحضور والمخاطبة.

يؤكّد هذا التحليل أنّ السمة [±حضور] لا تسم الاسم فقط، بل ترأس بنيته، أو ترأس على الأقلّ النواة الصلبة من بنيته. ونحن نميل إلى الافتراض الثاني لأسباب لا نعرضها هنا وتتعلّق بافتراضنا لبنية إعرابيّة وحيدة ومشتركة بين كلّ الأبنية النحويّة (ن الشريف 1993 / 2002).

إذا أخذنا بالافتراض الثاني فبنية الضمير الصرفميّة هي بنية النواة الصلبة من الاسم. ولا يعني هذا سوى أنّ الاسم، في منطق البناء النحوي، إنّما هو ضمير معقّد التركيب. فانطلاقا من النواة المقوليّة المتركّبة من سمات الحضور والجنس والعدد، يتشكّل الاسم بسمات متأتّية من مقولات أخرى.

إنّ الاسم، من هذا المنظور ليس بنية مقوليّة بسيطة تمثّل لفظيّا مقولة الذات تمثيلا مباشرا، بل هو تجمّع مقولات حول نواة ضميريّة هي في ذاتها تخصيص لحدث.

7.2 . مبرّرات لاعتبار الاسم بنية ذات نواة مقوليّة وظيفيّة

لن نهتمّ في هذا المقال بالاستدلال على هذا الافتراض. لكنّنا نشير إلى معطيات تبرّر طرحه أو تعين على عدم رفضه.

أوّلها أنّ الاسم في العربيّة مركّب صرفميّ يزداد تعقّدا بقدر ما يزداد تصرّفه، ويزداد تصرّفه بقدر ما تقوى الدلالة الحدثيّة فيه. لكنّ السمات الدلاليّة الأساسيّة التي تكوّنه ليست بالضرورة موسومة صرفميّا وسما مباشرا. فسمة انتسابه إلى مقولة الدور الخطابي [±حضور] غير ممثّلة صرفميّا. وكذلك سمة الجنس في أغلب الأحيان. أمّا العدد فالعادة وسمه لفظا بصرافم خصوصيّة.

الثاني أنّ مَقْولة المتصوّرات خاصية أساسيّة من خصائص الذهن. ومن ذلك، فالوحدات اللغويّة تعكس التجريدات المَقْوَليّة الجماعيّة المنجزة عبر التاريخ. ومن مظاهر هذا الانعكاس أنّ الألفاظ الأكثر إبهاما تعكس تجريدات مَقْوليّة أرفع وأقدم في التاريخ. وذلك أنّ من خصائص التجريد تصنيفَ الأشياء بإهمال صفاتها الخصوصيّة المميِّزة وجمعِها بحسب المشترك منها. فإذا جمع ذهن الواضع مشترَك المشترَكات في مقولة عليا، كانت هذه المقولة بسيطة.

وقد تبقى هذه المقولة على بساطتها وقوّة جمعها للمختلفات مجرّدة من كلّ لفظ يدلّ عليها. وهذه حال مقولة [العاقليّة] الواسمة لدلالات جملتنا. فالـ[العاقليّة]، وإن سُمِّي المتّصف بها بـ[مَن]، فهي في ذاتها مقولة تجمع كثيرا من الألفاظ، كـ{رجل،امرأة، إنسان،...}، فتترك فيها ميسمها المسمّى في الأدبيّات اللسانيّة بالسمة، فتدخل هذه السمة الدلاليّة مكوّنا من مكوّناتها، دون أن تكون في ذاتها موسومة بلفظ يجعلها مدلولا صرفميّا. ولقد رأينا في صرافم الحضور المكوّنة للضمائر المحلّلة أعلاه، أنّها لا تعلّم [العاقليّة]، وإن كانت المقتضى الضروري للإنشاء النحويّ.

تبدو [من] و[ما] في هذا الوضع حالة فريدة. فهما من حيث البنية ضرب من الأسماء المبهمة قريبة ممّا يمكن تعيينه بالصفات الضميريّة، وأغلب ظنّنا أنّ تقابلها مع [مـا] في السمة [± عاقليّة]، إذا طرحنا منه اشتراكها معها في [مـ] التي هي ميم الاسميّة المتوفـرة في الكثير من المشتقّات العربيّة، والواسمة لمطلق الذات المرموز لها عندنا بـ[حا] بقيت لنا النون [ن] وسما لفظيّا للـ[+عاقليّة] المرموز إليها عندنا بـ[∃ حـ] أو [ك حـ]. ولكنّ هذه النون لا نجدها بمثل هذه القيمة في موضع آخر. إلا إذا افترضنا أنّ نون الحضور في الضمائر ممتزجة

الوسم، فيها العاقليّة والحضور زوج تصوّريّ من صنف ما يرمز إليه صوريّا بـ (أ، ب). إن كان هذا، فينبغي أن يكون الرأس الخطابيّ للأبنية على الصورة التالية :

(14) [(±عاقليّة،±حضور)]

والمفيد في سياقنا أنّه بتحقّق المقولة العليا البسيطة في تكوين اللفظ سمةً دلاليّة موسومة باللفظ يتحقّق هذا المكوّن المسمّى صرفما. ولكنّ كثيرا من التجريدات المقوليّة تبقى غير موسومة بلفظ خاصّ، كما أشرنا أعلاه.

وذلك، وهو الثالث، أنّ الوسم الصرفميّ للمقولات عرضيّ. فالأصل، كما رأينا في الفقرات السابقة، أنّ الصرافم لا تسم السمات المقوليّة، بقدر ما تسم التقابلات النسقيّة الجدوليّة الوصليّة الفصليّة المسمّاة عندنا بالتواجدات الشرطيّة. فالوسم الرئيسيّ للتجريدات المقوليّة علاقيّ، لا عينيّ.

والخلاصة أنّ التحليل الصرفميّ للاسم، وغيره من الوحدات، جزء من التحليل السيميّ الشكليّ العام والقائم على المقارنات البنيويّة الكلاسيكيّة اللازمة لكلّ وصف لسانيّ تقنيّ. وهو تحليل يدلّ في نهاية الأمر، وكما سيتأكّد، أنّ الوحدات النحويّة في مختلف المستويات والطبقات التراتبيّة إنّما هي تجميعات مقوليّة متراتبة فيها بعض المقولات تشتغل نوى وبعضها الآخر مخصّصات لها. فالرؤوس النحويّة لا يمكن أن تكون إلا مقوليّة وظيفيّة. ونظنّ أنّ هذا هو الخطّ الثابت في تاريخ النظريّة النحويّة، لا ما سمّي في الكثير من النظريّات المعاصرة بالأساس المعجميّ.

ولا يعني هذا أنّ الإعراب لا يقوم على نظم الوحدات المعجميّة بقدر ما يعني أنّ رؤوس الوحدات المعجميّة مقولات غير معجميّة.

لدعم هذا نمرّ إلى تحليل الفعل.

3 . بنية الفعل

1.3 . السؤال مشهد تصوّريّ لغويّ خالص

لنسلّم في بداية التحليل أنّ بنية الفعل معطى مباشرٌ بالإمكان حصره على صورة بنيويّة مثلى قابلة للتمثيل على الشكل [ف #(...)#]. وليكن في حدود هذا التسليم شيئا من صنف ما تعوّدنا عرفيّا عنونته بـ{سأل}.

إذا تمّ هذا، جزمنا في حدود هذا التسليم أنّنا بإزاء وحدة معجميّة تنتسب إلى قسم من أقسام الكلام هذه المعروفة في الأدبيّات اللسانيّة الحديثة بالمقولات المعجميّة. هذا أمر لا نناقشه الآن ما دمنا قد سلّمنا به وقتيّا. إنّما الغاية من هذا

التسليم أن نبتّ في أمر الإحالة. فنحن فعليّا لا نستطيع أن نحدّد الإحالة إلا بمشهد نتصوّر فيه شخصا يوجّه خطابا إلى شخص آخر طالبا منه شيئا مّا. لا شكّ أنّ هذا المشهد يخالف مشهد شخص يضرب أو يفكّر. فالأوّل حركة جسميّة ظاهرة، والثاني حركة نفسيّة ذات قرائن ظاهريّة ممكنة. لكنّ الخطاب، إن كان مدركا بحركات ظاهرة تدلّ عليه، فإنّ نفس الحركات لا تدلّ على خطاب لو صدرت عن قرد، أو حتّى عن فكاهيّ مقلّد صامت. أمّا الطلب، مضمون السؤال وموضوع الخطاب، فعلينا أن نجتهد كثيرا في تصوّر ما يدلّ عليه. وذلك أنّ هذا الفعل [سأل] فعل يقتضي القول في جميع أحواله؛ سواء أكان محور السؤال وموضوعه شيئا أم كان معلومة. فهو في حقيقته لا إحالة له خارج المؤسّسة اللغويّة، إذا أخذنا بأنّه فعل مسجّل في البرنامج النحويّ قابل للإدراج في جملة تصف إنجازا لهذا البرنامج.

إذا افترضنا أنّ إنجاز البرنامج شيء مستقلّ خارج عن البرنامج، كانت الجملة الواصفة لجملة السؤال الموصوف جملة محيلة على خارج بالنسبة إليها. لكنّنا لا نستطيع أن نتصوّر البتّة أنّ حدثا ما وجد في الكون قبل أن تأتي اللغة لتسميته بـ[سأل] أو [طلب] أو [قال]، كما وجدت شجرة بقيت دهورا تنتظر أن يسمّيها هذا الإنسان الحكيم بآلاف الأسماء. وهذا لا يعني سوى أنّه لا يمكن الفصل بين البرنامج النحويّ وإنجازه. فإذا لم نفصل بينهما، فلا فاصل بين أن ننتج السؤال، وأن نصدر قولا يخبر أو يسأل عن السؤال، وأن نصدر قولا يبحث في البرنامج المسيّر لكلّ هذا.

الخلاصة أنّنا إذا افترضنا أنّ "سألتمونيها " تحيل على حدث خارج عنها مكوّناته هي مضمونها، فإنّ هذه الإحالة في ذاتها مقولة أبدعتها اللغة، ما دام فعل السؤال في ذاته فعلا وضعه الواضع لصنف من الأبنية المعبّرة عن ضرب من التعامل اللغويّ، ليست هذه الجملة إلا تصريفة من تصريفاته، وليست الضمائر المتّصلة به، كما رأينا، سوى البعض من الأبطال الواقفين على الركح لمشهد من مشاهده التصوّريّة. وهي مشاهد تتركّب أساسا من ثلاثة أصناف من الأبطال موسومين بميسم الحضور والغياب كما رأينا. فمنهم من يلعب لعبة الحضور على الركح، ومنهم من يلعب لعبة الغياب على الركح ذاته. ومن البرنامج أنّ في الكواليس مشاهد أخرى تلعب هي أيضا لعبة الحضور والغياب. لكنّها لا ترى على ركح الخطاب، لأنّها مجرّد برنامج لتمثيل ممكن. وليس الممثلون أشخاصا من لحم ودم بالضرورة. بل الأصل أنّها أشباح ضمائر قد ترسم ملامحها أحيانا في صور من الأسماء.

موضوع هذا المشهد المسرحيّ التصوّريّ البسيط المختزنةِ نسخٌ منه في أذهان المتكلّمين حدث مفاده "أحد يسأل أحدا شيئا". ولكي يبقى هذا المشهد

الحدثي عامّا صالحا لكلّ زمان ومكان ومستعمل، كان من اللازم مَقْوَلته على صور مختلفة تفكّكه لتحسن خزنه واستعماله.

2.3 . اختزان المعجم للمشهد التصوّري ومفهوم البنية الحمليّة

إنّ الفعل مسجّل معجميّا في أذهان المتكلّمين على أنّه من صنف الأفعال الطالبة لأطراف ثلاثة، تسمّى في اصطلاح المختصّين حدودا، أو مواضيع. وتنعت كلّ البنية بالـ'حمليّة' عند الكثير من اللسانيين. والمصطلح في الأصل منطقيّ، قائم في اصطلاح المناطقة على عدم اعتبار الدلالات الموجودة في الذهن دلالات لغويّة. وما زال المصطلح في استعماله اللسانيّ لصيقا بالدلالة المعجميّة، ومرتبطا بتحقّق هذه الدلالة في الأبنية الإعرابيّة (ن مثلا المتوكل، 1987). فإذا قلنا عن [سأل] أنّه بنية حمليّة معجميّة ثلاثيّة الأطراف، فالمقصود أنّ له بنية مجرّدة على شكل قريب ممّا يمكن الرمز له بـ[ظ(س، ص، ع)]، حيث [ظ] رمز للوظيفة الحمليّة. إلا أنّ المفاد من كونها معجميّة أنّ المحمول لفظ، وأنّه في مستوى المعجم وحدة ذات دلالة عرفيّة؛ أي، بتعبير القدماء، هي وضعيّة وعقليّة على حدّ سواء.

إذا أخذنا بمفهوم البنية الحمليّة، فإنّ الفعل [سأل] لفظ له البنية [سأل(س،ص،ع)] حيث الأطراف الثلاثة دلالات مختزنة فيه لا ألفاظ حقيقيّة. ومعناه أنّ هذا الفعل المكوّن لجملة خطابنا كان، قبل تحقّقه قولا، مستكنّا قابعا في المعجم في صورة محمول فعليّ يختزن مجموعة من المعلومات عن نفسه وعن متعلّقاته الممكنة. فهو يوزّع على أطرافه دلالات متأتّية منه، يسمّيها المختصّون بالأدوار المحوريّة، تمييزا لمعانيها في المعجم عمّا يطرأ عليها ممّا يسمّيه القدماء بمعاني النحو، أي وظائفه، من فاعليّة ومفعوليّة وإضافة. ففعل السؤال يجعل السائل 'مُحدثا' له، والمسؤول 'متقبّلا'، والمسؤول عنه 'محورا'.

نلخّص هذا في (15) التالية :

(15)

المعجم الذهني

بنية حمليّة

محمول فعليّ	طرف 1 س	طرف 2 ص	طرف 3 ع
	دور 1	دور 2	دور 3
<سأل>	<محدث>	<متقبّل>	<محور>

ينتج عن هذه البنية المعجميّة اللفظيّة الدلاليّة أنـه بمجرّد اختيار هذا الفعل من المعجم وضمّ عناصر لفظيّة أخرى إليه موافقة لمتطلّباته على نحو مخصوص، فإنّ هذه العناصر تكتسب إضافة إلى دلالاتها وما تكتسبه من المحلات الإعرابيّة معاني هذه الأدوار المحوريّة.

3.3 . البنية الحمليّة وأدوار الأطياف الضميريّة

إن كانت أبصارنا في واقع الأحداث تدرك الأفعال بفضل الفاعلين، فإنّ إدراكنا الجماعي، لكثرة تكرار الحدث وتعاور الحادثين تلتقط الحدث مجرّدا من خصائص فاعليه. ففي المشهد التصوّريّ الذي تختزنه الذاكرة الجماعيّة، كما تختزن الرموز والأساطير، تمّحى ملامح الشخوص والأشياء، ويبقى الحدث كالذكرى نواة ذات أطراف خافتة الملامح والحدود.

وحين تتولّد من المعجم، حسب أصول البرنامج النحويّ، نطفة الخطاب، فحركة الحدث هي الأولى التي تنبت على الركح كقطعة من ضباب غير مرسوم. ثمّ تنمو بأطراف منها أطياف من الضمائر قد تتشكّل أسماء.

ينبني على هذا أنّ الشبح الضميريّ [تمو] يصعد الركح الذهنيّ فينضمّ إلى حدث السؤال ليقوم بدور المحدث له وليس له من ملامح سوى أنـه مُنار بشعاع الحضور الآتيه من توجّهه بالسؤال إلى شبح ضميريّ ثان يسطع منه نور من الحضور يأتيه من خيط يربطه بالمخرج المتكلّم المختفي وراء الركح. لكنّ هذا الشعاع المسلّط على الشبح الضميريّ السائل كاف للتفطّن أنّ الشبح الملتفّ في ردائه الأبيض أكثر من شخصين من الذكور. أمّا الشبح الذي يسطع منه النور فواحد لا شكّ فيه لكنّ ملامحه لا تنبئ بجنسه، يتقبّل السؤال في صمت ويمسك بشيء يمتلكه، لا نعرف عنه إلا أنّه المطلوب، فهو لا يظهر بوضوح لأنـه مغيّب في الجزء المظلم من الركح، كأنّه واحدة وليس بأنثى وقد يكون مجموعة من الأشياء ملفوفة في رداء أنثويّ.

هذا ما يظهر على الركح الذهني كما تظهر أشباح المعرفة في كهف إفلاطون. لا يحتاج إلى إحالة على صور خارج الركح تبرز الخفيّ من حقيقة الشخوص.

في رأينا أنّ تصوّر الدارسين للأبنية على أنّها تقوم على نماذج مثلى أصليّة واضحة بيّنة الحدود، إنّما هو تصوّر منطقيّ لا يعكس بالضرورة حقيقة الأبنية.

يعني هذا أنّنا نرجّح أنّ الخصائص العامّة التي رأيناها إلى حدّ الآن في الجملة القوليّة "سألتمونيها"، والتي لخّصناها أخيرا في مشهد الأطياف والأشباح

الضميريّة هي الأقرب إلى الخصائص الدنيا للأبنية من خصائص جملة مثل "سأل الناس عمرا شيئا". فإذا كانت هذه الجملة محقّقة للإفادة الخطابيّة أكثر من "سألتمونيها"، فمن غير المرجّح، حسب زاوية نظرنا البنيويّة، أن يكون فعل السؤال مختزنا في البرنامج على هذا الوجه المفرط الوضوح. وليس من المتوقّع أيضا عندنا أن يكون هذا الفعل مسجّلا على هذه الصورة المنطقيّة الصناعيّة المفرطة الإبهام [سأل (س،ص،ع)]. فالأغلب في نظرنا أنّ هذا الفعل متشكّل في المعجم تشكّلا إعرابيّا موافقا لأشكال اللسان المنتسب إليه المعجمُ، أي اللسان العربيّ في مثل حالتنا. والأغلب أنّ أطرافه الثلاثة ليست سمات انتقائيّة كائنة في صلبه، بل هي متعلّقات إعرابيّة حقيقيّة. وهي، وإن كانت أطيافا ضميريّة، فكلّ منها متجسّدٌ في صورة بنية مقوليّة ذات رأس حضوريّ مشحون بالقيمة الإمكانيّة [±حضور] ومخصّص بالقيمتين الوسميّتين [±مؤنّث] [±جمع]، مصحوبتين بالسمة المعيّنة محوريّا لدور هذا الطيف الضميريّ على الركح المشهديّ.

ما يحرج هذا التصوّر حقيقة هو اعتبار فعل السؤال معطى مباشرا واضح المعالم والحدود قابلا للتمثيل على الصورة [ف # سأل #].

4.3 . تقابل جدولي المعلوم والمجهول في أسّ التصريف

إنّ تمثيل الفعل هكذا [ف # س ـَ ء ـَ لْ #]، في صورة سلسلة من الصواتم المنفصلة، متضمّن في تحليلنا السابق للضمائر؛ إذ بمجرّد أن نقطع من قولتنا العنصر [تمو]، ينفصل هذا الشكل الفعليّ واضح الحدود. لكنّ هذه القطعة الفعليّة، وإن كانت قريبة من العنوان المدرسي لفعل السؤال، أي [سَأَلَ]، فهي لا توافق حقيقة الفعل.

لا يحتاج عدم التوافق بين العنوان المدرسيّ وحقيقة الفعل إلى مزيد استدلال. فلا شيء يبرّر اعتبار الإسناد إلى الغائب المفرد المذكّر أصلا بنيويّا في نظام نحويّ يقوم على إنشاء المتكلّم، ويعتبر ضمير المتكلّم نفسه عنصرا إحاليّا يستمدّ قيمة حضوره من 'صُوّة الوجود الإنشائي'، لا من الخارج.

أمّا الشكل الذي مثّلنا به الفعل أعلاه، فهو أسّ الجدول التصريفيّ لصيغة الحدث الواجب المنقضي. وهي الصيغة المبنيّة للفاعل المعلوم والمعروفة عرفيّا بالماضي، رغم كونها لا تدلّ واقعيّا بالضرورة على التوقيت الزمانيّ الذي سمّيت به . وهو أسّ يختلف عن أسّ الجدول التصريفيّ لصيغة الحدث الواجب المنقضي المجهولة الفاعل والمبنيّة للمفعول، كما يتبيّن من التقابل التوزيعيّ التالي :

(16)

س	ـَ	ع	ـَ	لـ	{تُ،نا،تَ،...،تنّ،ـَ،...،نَ}
س	ـُ	ع	ـِ	لـ	{تُ،نا،تَ،...،تنّ،ـَ،...،نَ}

فالمقارنة بين السطر الأوّل والسطر الثاني من اللوحة تثبت أنّ صيغتيّ المعلوم والمجهول أسّان تصريفيّان مختلفان، لا يشتركان إلا في الجذر.

إذا جمعنا هذين الأسّين في سطر واحد، تحصّلنا على شكل مجرّد احتماليّ التكوين غير قابل للنطق :

(17)

س	ـَـُـ	ع	ـَـِـ	لـ	[±واجب]،[±منقض]، [± حضور]،[±مؤنث]،[± جمع]

فالثابت في (17) هو المكوّنات الحرفيّة الجذريّة، وأنّ هذه المكوّنات مفصولة بمواضع حركيّة.

يتّفق الدارسون على أنّ هذا الشكل العام للبنية، هو الدال على مظهر الانقضاء. ولعلّ هذا الشكل هو نفسه الدال على جهة الوجوب. أمّا التقابل الزوجي بين الحركات [(ـَ/ـُ،ـَ/ـِ)]، فهو المعبّر في هذا المثال عن البناء.

تبيّن هذه التقابلات إذن أنّه لا وجود لوحدة قارّة العناصر يمكن اعتبارها وحدة معجميّة ثابتة ممثّلة للفعل الواجب المنقضي. فالأسّ الوحيد المشترك بين البناءين، المعلوم والمجهول، هو الشكل المجرّد غير القابل للقراءة والممثّل له بـ[س ـَـُ ع ـَـِ لْ]. وهو شكل، كما ذكرنا، يعيّن الصواتم الثلاثة المسمّاة في اصطلاح القدماء بالحروف الأصول. ويعني هذا أنّ الوحدة الثابتة هي هذا الصرفم المعجميّ الوحيد المعروف بالجذر.

أمّا الموقعـــان المخصّصـــان للحركـة، والمرمـــوز إليهما بـ [...ـَـُ...ـَـِ...]، فيتحدّدان بقاعدتين مترابطتين. فالموقع الحركيّ الأوّل محدّد بقاعدة قياسيّة تميّز بين الفتحةِ القارّة في المعلوم والضمّةِ القارّة في المجهول. والموقع الحركيّ الثاني محدّد بقاعدة معجميّة سماعيّة بالنسبة إلى المعلوم على أساسها يكون الفعل من أحد الأبواب {فعَل، فعُل، فعِل}، ومحدّد بقاعدة تصريفيّة بالنسبة إلى المجهول تجعل الكسرة في علاقة تكامليّة مع الضمّة في صيغ المجرّد.

إذا قدّمنا أنّ ما يحدّد العنصر المعجميّ إنّما هو الاشتقاق، فلا مخرج حسب رأينا من هذا الإشكال إلاّ بأحد حلّين:

- أن نعتبر أسّيّ المعلوم والمجهول وحدتين معجمتين مختلفتين. وهو حلّ مكلّف لذاكرة الخزن، ولا يوافق شعورنا العام بأنّ الفعل واحد؛ وهو شعور ينبغي احتسابه في معالجة المعطيات العرفانيّة؛

- أو أن نعتبر أنّ أسّ الفعل الواجب المنقضي أسّ مجرّد احتماليّ؛ فيكون شكله وهو الشكل [س ـَـُ ء ـَـِ ل] شكلا ضعيف الوسم صوتيّا، غير محدّد لفظيّا. وإذا كان هذا، فالأنسب أن تكون القواعد الماضية قواعد تصريفيّة.

لا يرجع هذا الضعف الوسميّ إلى ثنائيّة البناء (معلوم/مجهول) فقط. فلو كان الفعل الذي ندرسه هو الفعل اللازم {ذهب}، لما كان أسّه [ذ ـَ هـ ـَ بْ] أوضح. فهذا الأسّ شبيه بأغلب الأسس الأنكليزيّة التي لا تتحدّد أفعالا أو أسماء إلا بسياق صرفيّ أو إعرابيّ. فالبنية [ذَهَبْ] لا تكون اسما أو فعلا إلا بفضل سابق كـ[الـ] أو [قد]، أو بفضل لاحق كـ[ـُن] أو [تُ].

5.3 . الفعل المجرّد جداول تصريفيّة مشتقّة مباشرة من الجذر

يزداد الأمر تعقّدا إذا أضفنا إلى (16) ما يسمّى تقليديّا بالأمر والمضارع، أي، بتعبير مفهوميّ أدقّ، صيغة الواجب غير المنقضي [{يفعلُ}]، وصيغتي غير الواجب المنقضي [{اِفعلْ}/{يفعلْ}] وصيغة غير الواجب غير المنقضي [{يفعلَ}].

وهو ما نلاحظه في اللوحة (18) الموالية، حيث جمعنا في السطر الأوّل منها جداول المضارع الثلاثة مبنيّة ً للفاعل، وجمعنا في السطر الثاني جداوله االثلاثة مبنيّة للمفعول وفي الثالث الأمر :

(18)

{أ،نـ،تـ،يـ}	ـَ	س	ø	ء	ـَ	ل	{ø،ـُ،ـَ،ـِيـ(ن)،ـَا(ن)، ـُو(ن)،ـنَ}
{أ،نـ،تـ،يـ}	ـُ	س	ø	ء	ـَ	ل	{ø،ـُ،ـَ،ـِيـ(ن)،ـَا(ن)، ـُو(ن)،ـنَ}
{ـِ / ø}	ø	س	ø	ء	ـَ	ل	{ø،ـِي،ـَا،ـُو،ـنَ}

إذا جمعنا هذه الأسس الجدوليّة في سطر واحد، تحصّلنا على :

(19)

[±حضور] [±واجب]، [±منقض] [±مؤنّث] [±جمع]	ـُ	س	ø	ء	ـَ	ل	[يـِ(ن)=+حضور] [±واجب]، [±منقض]، [±مؤنّث]، [±جمع]

يبدو ظاهريّا من (19) أنّ جداول ما يعرف تقليديّا بالأمر والمضارع تشترك في قطعة لفظيّة قد تكون الأسّ المشترك لتصريفها في مقابل تصريف الواجب المنقضي؛ فالشكل [س ء ـَ ل] يبدو في مقابل [س ـَـُء ـِ ل] شكلا مضبوطا محدود العناصر. لكنّ هذا لا يفيد النظريّة التي توهمنا بوحدانيّة الجذع المعجميّ المؤسّس لوحدة الفعل، ما دامت هذه القطعة الممثّلة للمضارعات والأمر تختلف عن القطعة الاحتماليّة التي توصّلنا إليها بتحليل جدول الماضي. بل يتأكّد عندنا ما استخلصناه من ضعف في وسم الأسّ التصريفيّ لفعل السؤال، وللفعل عموما. ويزداد الأمر تأكّدا بملاحظة النقاط التالية.

إنّ اشتراك جداول المضارع في القطعة [س ء ـَ ل] محض صدفة. فعين الفعل في هذه الجداول معيّنة بقاعدة صرفيّة معجميّة صوتيّة. فكان من الممكن أن تكون كسرة في البناء للفاعل لا توافق فتحة البناء للمفعول كـ{يئِد، يُوأَد}، أو {يبذِل،يُبذَل}، {يحـرِس،يُحرَس}، {يغبِـط،يُغبَط}.

الأمر الثاني أنّ ما يقابل الأسّ [س ـَـُ ء ـِ لْ] في الدلالة على البناءين إنّما هي القطعة [ـُ س ء ـَ لْ]؛ لوقوع التقابل الصرفمي [ـَ /ـُ] بين البناءين قبل الحرف الأوّل من الجذر، على خلاف الماضي.

كلّ هذا يدلّ على أنّه لا وجود لأسّ معجميّ مشترك بين هذه الجداول التصريفيّة، ومحدّد صوتميّا تحديدا مقطعيّا. فكلّ جدول من هذه الجداول التسعة (من الماضي والمضارعات مبنيّة للمعلوم والمجهول مع الأمر) يختصّ بأسّ يميّزه عن سائر إخوته. ولا يمكننا البتّة، كما يتبيّن من اللوحات السابقة، أن نجمع هذه الأسس في أقلّ من خمسة، إثنان منها فقط يتحدّدان بقواعد معجميّة سماعيّة، وهما صيغتا المعلوم، وثلاثة بقواعد صرفيّة قياسيّة، وهما صيغتا المجهول والأمر.

لا شيء يمنعنا من اعتبار الفعل في العربيّة صنفا من الوحدات المعجميّة المزدوجة الأسّ؛ فيكون أسّا المعلوم ([س ـَءَلْ]، [ـُ سْءَلْ]) زوجا جذعيّا

اشتقاقيّا منه ينطلق التصريف والبناء للمجهول، على غرار المختار في النحو المدرسيّ؛ ولا سيّما أنّ ظاهرة الوحدات المعجميّة المتنوّعة الأسس ظاهرة شائعة في مختلف الألسن، كما هي الحال في الأفعال المساعدة الدالة على المظهر والجهة، في الأنكليزيّة مثلا.

إن كان هذا، فينبغي أن يأخذ كلّ فعل من العربيّة شكل زوج من الأزواج الستّة التي حدّد بها النحاة العرب عين الفعل، لكن على صورة أسّيّة كـ(فَعُلْ، َفعُلْ).

إنّ هذا الحلّ، وإن كان المتّبع نسبيّا في القواميس منذ قرون، لا يوافق كثيرا شعور المتكلّمين بوحدة الفعل. وهو شعور قارّ عند دارسيّ العربيّة الذين ما فتئوا منذ القديم يبحثون عن قاعدة قياسيّة لعين المضارع من {فعَل} خاصّة.

أضف إلى هذا أنّ التقابل الصرفمي بين الحركات الدالّة على التقابل المقولي [معلوم/ مجهول] يشجّع على اعتبار الحركات الواقعة في علاقة توزيعيّة سياقيّة مباشرة مع ما يسمّى بفاء الفعل وعينه صرافم من صنف العلامات الدالّة على المقولات التصريفيّة الطارئة على الوحدة المعجميّة بمقتضى سياقها الإعرابيّ، لا صرافم من صنف المصنّـفات الاشتقاقيّة الخالصة. يعني هذا أنّ عين الفعل من صيغة الماضي المبنيّ للفاعل المعلوم، وإن دلّت نسبيّا على نوع الحدث {صفة، حالة، عمل}، فإنّها تبدو لنا نتيجة مقابلتها للمجهول لا تقوم بوظيفة اشتقاقيّة خالصة إلا في {فعُل}.

كلّ هذا يبيّن أنّ أسس الجداول التصريفيّة المكوّنة للفعل ليست أبنية اشتقاقيّة خالصة. فكأنّ اشتقاق الفعل من الجذر اشتقاق مباشر لجداول تصريفيّة، لا اشتقاق لجذوع.

يؤدّي بنا التحليل إلى أنّ شعور المتكلّمين بوحدة الفعل لا ترجع إلى تجسّده في قطعة لفظيّة واضحة العناصر بيّنة الحدود. فالتقابلات الجدوليّة النسقيّة وما تقتضيه من استبدالات وتوزيعات، وإن كنّا قدّمناها في ملامحها العامّة، تبيّن أنّ العنصر المعجميّ الوحيد القارّ في بنية الفعل هو الجذر، بالنسبة للمجرّد. فالفعل المجرّد لا يقوم على أسّ ولا على جذع موحّد قارّ يجمع بين كلّ جداوله التصريفيّة. وكلّ الأسس الجدوليّة التي رأيناها ليست مركّبات صرفميّة اشتقاقيّة، بل تصريفيّة. وهو أمر لا يظهر بوضوح إذا ركّزنا تحليلنا على أفعال لازمة لا تقوم جداولها على المقابلة بين المعلوم والمجهول، ولا تُبرز التقابلات الصرفميّة المعبّرة عن البناء.

6.3 . بنية الجذر المقوليّة: الهباءة الجذريّة

ولا يختلف أمر المزيد كثيرا كما يتبيّن من (20) التالية حيث خصّصنا السطرين الأوّلين للمعلوم والمجهول من الماضي، والسطرين المواليين للمجهول والمعلوم من المضارع، وتركنا الأخير لتجميع الصرافم الحركيّة المكوّنة للأبنية الأربع :

(20)

ـِ/ø	سـ	تـ	ـَ	فـ	هـ	ـَ	م	....
ـُ/ø	سـ	تـ	ـُ	فـ	هـ	ـِ	م	....
{ي}|ـَ	سـ	تـ	ـَ	فـ	هـ	ـِ	م	
{ي}|ـُ	سـ	تـ	ـَ	فـ	هـ	ـَ	م	
ـَـُ	سـ	تـ	ـَـُ	ف	هـ	ـَـِ	م	

فهاهنا أيضا لا نجد قطعة لفظيّة ثابتة الصواتم والمقاطع صالحة لتمثيل الفعل. فالبنية اللفظيّة القارّة الثابتة الوحيدة هي [سْتْ × ف هـ م]، كما يتبيّن من السطر التأليفيّ الأخير من اللوحة (20). وهي، بلا شكّ عندنا، وحدة معجميّة واضحة العناصر والحدود. لكنّها مركّب صرفمي خالّ من الحركات، غير قابل للتلفّظ، ولا يدلّ على شيء واضح معيّن، ما دام مشتركا بين 'لفظات قوليّة ' عدّة.

وما نقوله فيها جار على بقيّة الأفعال وجداولها كـ{استسلم}و{تساءل} و{استيقظ} و{ساءل} و{تضارب}. فجميع هذه الأفعال، إذا صرّفناها لم نجد بين تصريفاتها مشتركا، إلا مركّبا صرفميّا من زائدة وجذر غير قابل للنطق، ولا نجد له في الدلالة إحالة على شيْء بعينه.

ولا يرجع هذا الإبهام الإحاليّ إلى أنّ {استفهم} كـ{سأل} كلاهما يدلّ على عمل لغويّ لا وجود لإحالة له خارج اللغة، فـ{فهم} في ذاتها تدلّ على حركة ذهنيّة ممكنة الوقوع خارج المنظومة اللغويّة من الذهن، فنحن نفهم حركات الأشياء وسكناتها، كما نفهم أنّ بعض الحيوان يفهم بعض الأشياء. بل يرجع هذا الإبهام الإحاليّ إلى أنّ الجذر لا يختلف عن الزوائد في كونه صرفما، وأنّ الصرافم في اللغة موضوعة للدلالة على ما ينتهي إليه العقل الجماعي في مَقْوَلة الأحداث في التاريخ. والمقولات الجماعيّة دلالات مفرغة من كلّ تعيين. وهي، وإن كانت من العرفان الجماعيّ الراسخ في الأذهان، فليست ممّا تدركه بالضرورة معرفة الأفراد. فهي كغيرها من الظواهر اللغويّة الأساسيّة في مأمن من مباشرة الوعي.

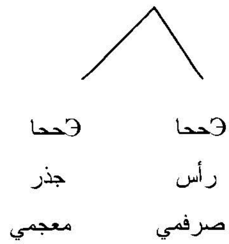
إلا أنّ مَقْوَلة الأحداث بالجذور أدنى تجريدا، في رأينا، من مَقولتها بالزوائد. فـ[سْتْ] الدالـّة على الطلب أعلى من [سءل] أو [ف هـ م] في درجة تجريدها. وهي بالنظر إلى مرادفتها [سءل] أثرى من حيث دلالتها الممكنة وأفقر من حيث دلالتها الحاصلة. هذا وإن كانت جميعا تخضع لبنية حدثيّة واحدة رمزنا لها بـ[϶ ححا]. وهي بنية مخزول فيها الحادث، أي العليق الأوّل المهيّأ إعرابيّا للفاعليّة، إلى أدنى ما يكون من الدلالة، وهو وجوده الإيجابيّ، مع دور محوريّ ممكن، لكنـّه ضامر.

وفي رأينا أنّ الحدث الكامن في مقولة الصرفم المعتبر زائدة هو الرأس في مثل هذه المركّبات الصرفميّة. فالـ<طلب> في [ست×ف هـ م]، أوالـ<جعل> في [أ×خ ر ج]، هو العامل في الجذر، وليس الزائدَ، على خلاف المشهور. ولولا ذلك، لما كانت هذه الرؤوس المقوليّة في الأقوال الشارحة وعند الترجمة تعوّض بأفعال عمد تشتغل في الإعراب رؤوسا عاملة كـ"جعله يخرج" و"طلب منه الفهم" أو "faire sortir" و "demander une réponse".

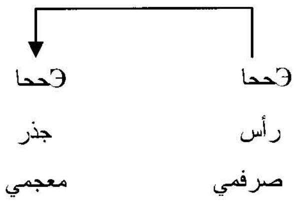
وبناء عليه، وللتعميم نعتبر الجذور جميعا خاضعة لبنية معياريّة من الشكل التالي المبيّن في (21) :

(21)

أ.



ب.



وهو تمثيل لا يوافق الصيغ المعروفة بالمزيدة فقط، بل يفسّر أيضا الصيغ المجرّدة الدالـّة على الجعل والصيرورة وغيرها كـ{قتل} و{كبُر}. فلـ{قتل}

معنى < **نقل س من الحالة أ إلى الحالة ب**>، والنقل جعل لأنـه إبدال إيجاب بسلب مفاده [**جعل([+حيّ]←[- حيّ])**]، أمّا الصيرورة فانتقال من حالة إلى أخـــرى بدون جعـــل جاعل، أي هو بالنسبة إلى {كبر} انقلاب في قيمة السمة [**[- كبير]←[+كبير]**].

نسمّي هذا المركّب الصرفميّ الحدثيّ المقولي بالهباءة الجذريّة.

7.3 . الحدث الضامر في نواة الفعل المزدوج التعدّي {سأل}

بناء على هذا التحليل، يمكننا اعتمادا على الشكل (21) أن نميّز بين الجذر المولّد للمجرّد والجذر المولّد للمزيد، اعتمادا على الرأس الحدثيّ المتحكّم في هذا الجذر. فإذا كان الفعل {تساءل} مشتقّا من المركّب الصرفمي الممتزج العناصر [تـ...ا×سءل]، (حيث الألف علامة مدّ)، فينبغي أن يتميّز عنه الفعل {سءل} بمركّب له الشكل [**∃ححا×سءل**]، حيث الرأس صرفم عدميّ ذو قيمة دلاليّة مؤثّرة في سلوك الفعل إعرابيّا.

يدعم هذا الاتـّجاه في التحليل أنّ جدول الفعل {سأل} مزدوج التعدّي؛ فهو لا يختلف عن {وهب} الذي هو من باب [أ×ع ط و] المدرجة ضمن ذوات المفعولين، كما لا يختلف عن {ظنّ} وأخواتها. فجميعها أفعال جعليّة، وإن لم تكن كلّها مركّبة بهمزة التعدية.

إذا انطلقنا من {أعطى}، باعتباره فعلا شبيها بـ{أخرج} في صيغته الاشتقاقيّة، فإنّنا نلاحظ أنّ همزة التعدية لا تحقّق الجعليّة بنفس الطريقة في الفعلين. فإن كانت {أخرج} تعني "جعله يخرج"، فإنّ {أعطى} تعني "جعله يعطو" أي "يأخذ" أخذا بمعنى الامتلاك الحاصل نتيجة الجعل. فإذا كان الإخراج يحدث حدثا في نفس اتـّجاه فعل الخروج المجرّد، فالـ"إعطاء" يحدث حدثا في اتـّجاه معاكس، كردّ الصدى أو الضوء.

وهذا المعنى مخالف لمعنى {استعطى}. ففي هذا "طلب العطاء" [ست×ع.ط.و]، فحركة الاتـّجاه متأتـّية أصلا من الفاعل. وكذلك فعل {أخذ} نفسه. أمّا [أ×ع.ط.و] فالجعل من الفاعل، والأخذ امتلاك من المفعول ناتج عن الجعل لا إرادة فيه. وكما أنّ زيدا إذا أخرج عمرا فقد يقف عمرو بالباب لا يخرج، فكذلك إذا أعطاه شيئا يصبح بحوزته، فلا يأخذه فعلا.

وكذلك المعنى في {وهب}. فهو جعل بلا همزة تعدية، يحصل منه وقوع الموهوب في حوزة الموهوب إليه، فيمتلكه دون إرادة ولا طلب منه امتلاكا لا يعني البتـّة القبول. فلنا في هذا الفعل ما نجمله في (22) الموالية :

(22) **(1) جعل و(2) نقل لـ (3) شيء (4) من منبع (5) عبر مسار (6) في اتجاه (7) مورد.**

ومثله فعل الظنّ، نذكره بلا تفصيل.

غاية هذا التحليل أنّ النواة الدنيا من فعل السؤال تتشكّل نحويّا ودلاليّا حسب الرسمين (21) و(22). فالصرفم المقولي [س.ء.ل] يسم حدثا لغويّا خالصا لا إحالة له خارج البرنامج النحوي ومبادئ تشفيره الخطابيّ. هذا الحدث يرادف الحدث الموسوم بـ[سْتْ]، وليس إيّاه لفارق القدم في التجريد. فخروج المتصوّر المُمَقْول من مجموعة العناصر المعجميّة إلى مجموعة الصرافم الاشتقاقيّة ترشّح تجريديّ قاطع. فإن كان الطلب والسؤال مترادفين، فليسا شيئا واحدا، كما أنّ الـ[ها] من "سألتمونيها" لو أبدلنا بها [تمو] لصارت الجملة "سألتنيها"، ولكانت بديلتها [ـتْ] في "سألتْنيها" وسما لشيء غير ما وسمته [ها]. وذلك لمبدإ في النحو مفاده كون الشيء 'س' في محلّ نحويّ ما غير 'س' في محلّ آخر.

فإذا كانت [س.ء.ل] غير [ست] رغم الترادف، جاز أن يكون معنى {سأل} في معنى {استسأل}، كما وقع {استبان} و{بان} على معنى واحد. إلا أنّه لو صحّ مثل هذا المعنى، لفسّر تعدّي {سأل} مفعوله إلى مفعول ثان، ولم يفسّر لماذا وقعت أفعال الطلب مزدوجة التعدّي وقوع أفعال الظنّ والعطاء والتحويل. وهذا على خلاف أن تجمع كلّ هذه الأفعال في معنى الجعل.

لذا، فالرأي أن تكون البنية المولّدة لجداول التصريف {سأل} هي المركّب الصرفمي المجرّد [[ø=ج.ع.ل]×س.ء.ل] في مقابلة المركّب الصرفميّ المزيد [تـ...ا×س.ء.ل] المولّدة لـ{تساءل}. ونؤجّل لبحث آخر قضيّة تمثيل الجذر المشترك بين مختلف المشتقّات الاسميّة والفعليّة.

إنّ هذه المقابلة مفيدة في دعم أنّ الجدول {سأل} من الأفعال الجعليّة. فبناءً على (22)، يكون فعل السؤال مركّبا من عنصر مقوليّ [س.ء.ل] يمكّن الفعل من التعدّي إلى مفعول أوّل يعبّر عن المحور، وعنصر مقوليّ آخر يقوّي طاقته العامليّة، فيمكّنه من الوصول إلى مفعول ثان يعبّر عن المنبع. فيكون المعنى العامّ لفعل السؤال موافقا لـ(22أ):

(22أ)

< جعل لنقل محور السؤال من منبع المتكلّم عبر مسار الخطاب في اتّجاه المخاطب باعتباره موردا يستقرّ به المحور >

وينتج عن استقرار المحور في المورد إمكان الردّ المعاكس، وهو المفترض هدفا للسؤال. وهو تماما كالأخذ المفترض في العطاء، لا يستلزم الاستجابة بالضرورة.

ويكون معنى المشاركة في التساؤل تكرارا لهذه الشمة الخطاطيّة في الاتّجاه المعاكس. فإذا جعلنا [المنبع = المورد] أحدثنا ضربا من التشارك، وهو تساؤل النفس، فبقي الجعل بدليل ورود المعنى في الأخبار القديمة على القول الشارح للتساؤل والبديل منه " (فـ) جعل يسأل نفسه (أو يسائلها)" في معنى ظاهره الشروع وباطنه الاستئناف بعد كلّ انتهاء. فإذا كانت هذه التسوية بين منبع نقل المحور ومورده تقلّص عمل الجعل. والأصل كما بيّنّا عود على بدء في إجراء الحدث. أمّا محور السؤال، فيبقى لكونه مفعول[س.ء.ل].

يتبيّن ممّا مضى أنّ المكوّن النووي للجملة "سألتمونيها" يخضع للبنية (21) أعلاه، وأنّ إخضاعه لها ليس مجرّد تعميم شكليّ تقتضيه النظريّة، بل استجابة لمقتضيات اختباريّة في تفسير التعدّي المزدوج، لا يتعارض مع الاتّجاه العامّ المتّبع في مقاربات نظريّة أخرى.(ن ملخّصا بيداغوجيّا للتعدّي المزدوج في (Adger D., 2003))

إلاّ أنّنا نعتبر التعدّي المزدوج ناتجا عن ضمور حدث غير فعليّ في نواة الفعل يتحكّم مقوليّا في جذر اشتقاقه ويكسبه قوّة التعدّي. ويعني هذا أنّه عنصر اشتقاقيّ صرفيّ ذو أثر عامليّ إعرابيّ. (ن أيضا رأي التوليديين لصلة التعدّي المزدوج بالفعل الضامر في (Hornstein and al., 2006))

8.3 . طبيعة المركّب المقوليّ الحدثيّ المكوّن لنواة الفعل

مفاد التحليل أنّ الأسّ المعجميّ المشترك الوحيد الواضح لفظيّا للصيغ الفعليّة هو الجذر، وأنّ هذا الجزء اللفظيّ لا يفسّر وحده الخصائص النحويّة الاشتقاقيّة والتصريفيّة والإعرابيّة للجداول المشتقّة منه. فالجذر نفسه، كما بيّنّا، يقع معمولا لمقولة اشتقاقيّة أعلى تفسّر جوانب مهمّة من سلوكه الإعرابيّ.

فليس للفعل، باعتباره وحدة مقوليّة نحويّة، أسّ ولا جذع مشترك يجمع بين مختلف صيغه التصريفيّة. فليس للفعل إذن أساس معجميّ متحقّق، كما توهمنا القواميس، في وحدة معجميّة محدودة المعالم، تميّزه عن بقيّة أقسام الكلام. فالمقولة الفعليّة لا تتحقّق إلا باشتقاق جداولها التصريفيّة.

إنّ الغرض من التأكيد والإلحاح على هذه النقطة التنبيه إلى أنّ الجملة لا تقوم على أساس معجميّ واضح على الصورة التي تتصوّرها بعض المقاربات التوليديّة، أو المعجميّة الأخرى. فليس الجذر في ذاته بنية فعليّة، وإن كان كما بيّنّا بنية حدثيّة معجميّة غير قابلة للتلفّظ. وذلك أنّه بنية حدثيّة نحويّة سابقة لاشتقاق الأفعال والأسماء وتصريفها، عليها تنبني الصيغ الاسميّة والفعلية وتستقيم مقولاتٍ نحويّةً. فإذا اعتبرنا الجذر مقولة معجميّة سابقة لأقسام الكلام، فعلينا أن نعتبرها

مقولة اشتقاقيّة من درجة تجريديّة ثانية، لا تصوّر أحداث الكون ولا أشياءه، بل تُمَقْول خلاصة حدثيّة متعالية عن أشياء الكون وأحداثه.

ثمّ إنّ الجذر في ذاته ليس في تجزئة الأبنية الدالّة وحدة نهائيّة. بل هو مقولة حدثيّة تقع تحت التحكّم العاملي لمقولة اشتقاقيّة أساسيّة جدّا في مختلف الأنظمة النحويّة. وهي الـ'جعل' بالنسبة إلى [سءل]. فجملتنا المحلّلة قائمة إذن على رأس مقوليّ اشتقاقيّ غير ملفوظ. وهو هذه الهباءة الجذريّة : [Эححا×جذر]، حيث الرأس المقولي الحدثي [Эححا] يمكن أن ينخزل إلى قيمة إيجابيّة [+] خالصة، بدون محتوى؛ وذلك إذا كان الجذر حدثا بدائيّا، مثل الجذر [ج،ع.ل] أو [ك.و.ن].(ن. الأفعال البدائيّة في (Dixon, 2005)).

هذا المركّب المقولي الحدثي، وإن كان نواة الفعل، فإنّه في ذاته ليس فعلا. إنّه بنية سابقة لما يعرف عادة بالمقولات المعجميّة. لكنّ هذا لا يعني البتّة أنّها غير معجميّة.

9.3 . تمام المفردة الفعليّة بأطياف مكوّناتها الضميرية

هل يعني هذا أنّه لا توجد مقولات معجميّة من صنف ما يسمّى بالأفعال ؟

إن كان المقصود وجودَ مقولة معجميّة تسمّى الفعل تتحقّق في وحدات عينيّة تسمّى الأفعال، تتمتّع كلّ منها بدلالة مفردة تؤدّيها لفظة مفردة قابلة للتصريف، كما توهمنا القواميس والمقاربات النحويّة والمعجميّة المصدّقة لها، فالجواب بالنفي.

وذلك أنّه، في المستوى الاشتقاقي من النظام الصرفي، وانطلاقا من الهباءة الجذريّة، أي البنية الإعرابيّة المقوليّة [Эححا×جذر] السابقة لتميّز الأفعال والأسماء، تتكوّن الأسس المتقابلة للجداول التصريفيّة الاسميّة والفعليّة. فلقد رأينا أنّ الفعل لا يتحدّد بأسّ أوّليّ تبنى عليه الجداول. وذلك أنّ الصرافم المتداولة على ما سمّيناه في (الشريف 2007) بمواضع البنية المحلّيّة الصرفيّة، إنّما هي بضعة حروف من مجموعة ما جُمّع في "سألتمونيها". فأغلب المواضع الصرفيّة مراكز لتداول حركات ثلاث تأخذ قيمها، لقلّة عددها وكثرة دلالاتها، من تقابلات توزيعيّة استبداليّة مشوبة بما يشبه التخصّص الوسمي كميل الفتحة للتعبير عن المفعوليّة والكسرة للفاعليّة. فمن البيّن أنّ المقابلات [±معلوم]، [±واجب]، [±منقض][±حضور] وحتّى [±إنشاء] وغيرها من المقابلات الصرفيّة يحتاج بعضها لبعض للتمَعْني (الشريف 2007).

ولمّا كانت هذه المقولات موسومة أيضا بعلامات ضميريّة، بدونها يختلط الانقضاء بعدمه والوجوب بممكنه، فأسس التصريف الفعليّ لا تتحدّد بذاتها بقدر

ما تتحدّد بمخصّصاتها. فكما رأينا أنّ أسّ الماضي قد يختلط بأسس بعض الأسماء، فكذلك أسّ المضارع الذي سمّاه النحاة بهذا الاسم لمثل هذا السبب. فليس للفعل وجود لفظيّ مجرّد من تصريفاته، ولا خارج تصريفاته، حتّى وإن كان مصرّفا مع ضمير واحد كـ{وجب} و{بئس}. فالعناصر ذات القيمة الضميريّة ضروريّة حتّى تنبعث المقولة الفعليّة في صورة تامّة ومفيدة خطابيًا من هذا المركّب الصرفمي الحدثيّ المقوليّ المؤسّس الذي سمّيناه بالهباءة الجذريّة. وهذا ما يجعل الفعل العينيّ تصوّرا موحّدا لمجموعة من المركّبات الإعرابيّة الممكنة.

ليس المقصود بهذا الوصف الفعل باعتباره مقولة معجميّة نحويّة إليها ينقسم الكلام مع قسيماتها، فمن العاديّ أن تكون المقولات التصنيفيّة مجرّدة؛ بل يعني الفعل العينيّ الواسم للأحداث كـ{سأل} و{خرج} و{أبحر}. فتسمية هذه الأفعال بهذه الألفاظ المختزلة لمجموعة التصريفات إنّما هي مجاز يقي الدارس من سرد الصيغ التصريفيّة كلّها.

ما يوهمنا أنّ الفعل وحدة واحدة أمران :

- أوّلهما معناه، وهذا المسك العجيب لأطياف المعاني وأشباحها مسكا واحدا كمسك الضباب بقبضة اليد، وإدراكنا التصريفات بجداولها دركا واحدا، كإدراكنا المجموعات كلا واحدا؛ وهذه خاصية ذهنيّة عامّة، ليست مقصورة على اللغة؛

- وأمّا الثاني فوهم الفُرود المتأتّي من تصاريف الخطاب؛ وذاك أنّه في الجملة القوليّة الواحدة لا يكون من الفعل أكثر من تصريفة؛ فإذا رُيِّش الفعل، فجُرِّد من مخصّصاته، وقع في الوهم أنّ أسّ تصريفه إنّما هو، كما توهّمنا بعد نزع [تمو] أنّ [سَألْ] الباقية هي فعل السؤال؛ والحقيقة أنّها نسخة من تصريفة ممكنة وقعت في خطاب منجز؛ وليست هذه النسخة، وإن كانت ممثّل الفعل العينيّ في بنية الخطاب، سوى بعض من الفعل لا يكتسب معناه بمجرّد ذكره، بل بفضل ما رأيناه من تقابلات. فإذا كان هذا فالفعل العينيّ كـ{سأل} و{خرج} و{استفهم} كائن مجرّد في بنيته كتجرّد متصوّره، فالمحقّق لإحدى تصريفاته قولة جُمْليَّة، وقطعة من خطاب. (ن مفهوم المعجم باعتباره قولا في الشريف 1988).

الخلاصة أنّه بعد المركّب الصرفي [م.ص[∋ححا=جعل]×سءل] المكوّن للأساس الاشتقاقي، والذي هو بنية إعرابيّة صرفميّة مقوليّة خالصة سابقة تكوينيّا للتصنيف المقوليّ الخطابيّ المميّز بين الاسميّة والفعليّة، لا وجود لوحدة معجميّة فعليّة واضحة الحدود والأطراف لفعل السؤال سوى القطعة القوليّة "سألتمونيها". فهذه القولة الجمليّة وحدة معجميّة محقّقة النواة والأطراف. فليست العلامات الضميريّة قرائنَ مميّزةً لوحدة معجميّة فعليّة تستقيم ذاتا فعليّة بدونها، بل مكوّنات

حقيقيّة لها، ما دامت الأسس غير فعليّة بالضرورة، ولا تكتسب تميّزها الدلالي النحوي جهة ومظهرا بدون شكل يتضمّن المواضع المعبّرة عن مقولة الحضور المؤسّسة لبنية الضمير.

10.3 . تحقق الفعل في بنية محليّة مجرّدة منظمة لصرافم تصريفاته

إذا كانت "سألتمونيها" وحدة معجميّة في شكل قطعة قوليّة جمليّة، فإنّها نسخة لفظيّة من أصل معجميّ ذهنيّ، يوفّر للمتكلّمين غيرها من النسخ. إذا وفّرنا خطابيّا ما يكفي لتمثيل هذا الأصل المجرّد تمثيلا كاملا لا زيادة فيه ولا نقصان، تحصّلنا على مجموعة من الجداول التصريفيّة المتركّبة من قطع قوليّة مثل قولتنا، وتشمل في ما تشمل "{سألوكها، وسُئلْتُـها...}" وأمثلة أخرى قد نمضي الدهر فلا نرى بعضها. فعدد القطع المحقّقة عمليّا لمقولة فعل السؤال بضعة آلاف من القطع، يدركها الذهن دركا واحدا كما تدرك المجموعات المتعدّدة الأفراد دون علم بحقيقة عددهم.

لكنّ النظام النحويّ لا يخزن هذه القطع هذا الخزن المكلّف. إنّما هو برنامج لتوليدها. فالمقولة الفعليّة المعجميّة، باعتبارها الدرك العامّ والتقريبيّ لتصريفات الجداول الممثّلة لصيغ الفعل الخمس، تتحدّد في صورة بنية محلّيّة صرفيّة متعيّنة بصرافم جزئيّة ذات قيم تقابليّة رأيناها في هذا المقال. فالبنية المحلّيّة بفضل ما تحدثه من توحيد بين مختلف الصيغ الفعلية وسيلة اقتصاديّة ناجعة يلتجئ إليها النظام، للتحكّم ذاكريّا في تنظيم المعلومات. وبفضل هذه التجزئة الصرفميّة المتكرّرة مع كلّ الأفعال، يتجنّب خزن الكتل القوليّة الكبيرة الحاملة لمكتسبات المعرفة الجماعيّة المرشّحة. فمن بعض الحروف التي يضيفها إلى الجذور ومن ثلاث حركات، يتمكّن، بفضل التقابلات الاستبداليّة الموزّعة على مواضع البنية المحلّيّة، من إنشاء قيم عدّة في وسم المقولات.

هكذا يتمكّن البرنامج بأدنى كلفة، بفضل البنية المحلّيّة المنظّمة للعلاقات، من خزن القطع القوليّة خزنا احتماليّا، يمكّنه عمليّا من خزن التصوّرات الناتجة عن التجربة الجماعيّة المتكوّنة جدليّا بين الأفراد المتعاقبين في التاريخ. وهو خزن ذو خصائص لا صلة لها مباشرة بالخزن النفسيّ الفرديّ للمعلومات. فنحن نخزن معطيات البرنامج الجماعي، كما يعدّد الطفل ما بين التسعة والصفر، دون علم بالعلاقات الرياضيّة الممكنة بينها.

11.3 . تحقّق المعجّمات المقوليّة في أبنية مشجّرة

النتيجة أنّ هذه الصرافم المنخزلة حجما إلى تقابلات بين وحدات صوتميّة دنيا محكمة التوظيف هي الوحدات المعجميّة الحقيقيّة للجهاز المكوّن للبرنامج النحوي، ما دامت تختزن المقولات البسيطة الأزليّة.

فلقد رأينا إلى حدّ الآن أنّ الترشيح الصرفي المجرّد للتجربة الجماعيّة يبني العناصر بسمات بسيطة دالـّة على أنّ ما يكوّن الكائنات اللغويّة إنـّما هو انتسابها إلى مقولات متعدّدة، بعضها مخصّص لبعض:

- فالضمائر تقوم على رؤوس مقوليّة تعبّر عن أدوار خطابيّة مخصّصة بالجنس والعدد؛

- والأسماء قائمة على تخصيص الهياكل الضميريّة بمقولات مثرية لها ناتجة عن تصنيف العقل الجماعيّ للموجودات؛ فهي لذلك تقوم نسبيّا على نفس الرؤوس الخطابيّة التي تقوم عليها الضمائر؛

- أمّا الأفعال، فهي عبارة عن رؤوس مقوليّة معبّرة عن أحداث بدائيّة في غاية التجريد (كالجعل والطلب والصيرورة)، تتحكّم في مقولات حدثيّة جذريّة، تخصّصها الهياكل الضميريّة تخصيصا احتماليّا ذا أدوار مشهديّة.

تبدو الإحالة في هذا النموذج من البناء ثانويّة. فلقد تبيّن لنا بما توخـّيناه من تحليل أنّ "سألتمونيها" مشجّر بنيويّ مبنيّ بمكوّنات مقوليّة، كلّ مكوّن منها قائم على رؤوس أو نوى مقوليّة تخصّصها مكوّنات مبنيّة بدورها على نوى أو رؤوس مقوليّة على صورة تكراريّة لا إحالة فيها على شيء بعينه.

ورغم هذا نتوصّل بهذه الأبنية إلى تصوّر الكون، وإنتاج عمليّات نعتبرها إحالات على هذا الكون. وهذا يدعو إلى معالجة الإحالات العينيّة باعتبارها حواصل حسابات نحويّة.

لكنّ هذا ليس موضوعَ عرضنا. إنـّما ننبّه إلى أنـّنا لا نخرج عن إطار الإنشاء النحويّ للكون [إن ك]، وأنـّنا بالتجزئة الصرفميّة نتـّجه نحو البنية الحدثيّة المقوليّة البسيطة [ححا] القائمة على الشحنة الوجوديّة [∃] المؤسّسة لكلّ العلاقات والأبنية النحويّة، في نظرنا، على الأقلّ.

12.3 . استقرار الأدوار- θ في المحلاّت الضميريّة من بنية الفعل

ما ينبغي الحرص على بيانه في النظم النحوي للتصوّرات الجماعيّة الأساسيّة المُمَقـْولة والمنظـّمة للدلالات الخطابيّة أنّ تشكـّل الفعل في صورة بنية محلـّيّة صرفيّة يغنينا نسبيّا عن مفهوم السمات الانتقائيّة الذي يتشبّث به التوليديّون منذ الستـّينيّات (ن Chomsky 1965\1971)، ويمكننا من صياغة مضمونها على صورة تبدو لنا أكثر واقعيّة..) ن. السمات على صورة مبسّطة في Adger, 2003).

إذا اعتبرنا "سألتمونيها" وحدة معجميّة محقّقة في صورة قطعة قوليّة جمليّة هي نسخة من بنية محلّية صرفيّة احتماليّة، فإنّنا نفترض اقتضاء أنّ الشكل الإعرابي المنظّم للفعل الصرفيّ المعجميّ هو نفسه الشكل الإعرابي المنظّم للجملة. وكلاهما تكرار لبنية حدثيّة مقوليّة واحدة. وإذن، فالبنية الحمليّة والمحوريّة للفعل، كما رأيناها في (15) الماضية، ليست بنية دلاليّة خالصة ولا منطقيّة عقليّة مجاوزة ذهنيّا للمنظومة اللغويّة؛ بل هي، كما رسمناها في (15) استباقا، بنية جمليّة.

وهذا يعني أنّ كلّ المحلات الصرفيّة التي رأيناها منظّمة للتأليفات الصرفميّة ينبغي أن تنظّم على شكل مشابه إعرابيّا للشكل الجمليّ [ففا مف مف]، ما دامت معجّمات المقولات المجسّدة بالصرافم تركّب المفردة الفعليّة تركيب المفردات للجمل. فبنية الفعل الصرفيّة وبنية الجملة الفعليّة وجهان من بنية إعرابيّة حدثيّة واحدة.

ينجرّ عن هذا أنّ الفعل، باعتباره معجميّا مجموعة من الجداول التصريفيّة المنظّمة حسب بنية محلّيّة، مهيّأ بنيويّا لحمل الأدوار المحوريّة في المحلات المناسبة لها من بنيته المحلّيّة نفسها، كما رسمنا في (15). وهي نفس المحلات الموسومة بالرؤوس الضميريّة المحتملة والقابلة للمزيد من التخصيصات الوسميّة التي بفضلها قد تكتمل أسماءَ. فالفعل لا يوزّع الأدوار، ولا ينتقي السمات الدلاليّة والمقوليّة، بل يتكوّن بها؛ فهي سمات تكوينيّة.

4. الخزن الاحتمالي لـ[جخ] في المعجم

1.4 . موضع بنية الفعل من البنية الإعرابيّة

في هذا الإطار التصوّري، يكون السؤال الجوهريّ: كيف يتحقّق الجدول الفعليّ الصرفيّ المعجميّ في تصريفة تحتلّ موضعا من بنية إعرابيّة شاملة، وكيف تتقبّل بنيته التعامل مع بنية اسميّة تأتيه من جدول صرفيّ معجميّ آخر؛ أي كيف تقع التصريفة "سألتمونيها" مثلا في الموضع [ف...] من البنية الإعرابيّة الشاملة [ففا مف مف]؟ ثمّ كيف تتعامل مخصّصاته الثلاثة (تمو،ني،ها) مع المواضع الاسميّة [...[فا]...]، [...[مف]...]، [...[مف]...] ؟

إذا صحّ أنّ بنية الفعل الصرفيّة المعجميّة بنية إعرابيّة احتماليّة، تقع في المستوى الصرفيّ من النحو، فإنّها لا تتشكّل تماما على الصورة [ففا مف مف]، وإن كانت مشاكلة لها. فالبنية الإعرابيّة [ج ففا مف مف]، باعتبارها بنية محلّيّة وظيفيّة، إنّما تتحقّق عند تعجيمها في الخطاب على وجه شبيه بـ(23) الموالية :

(23) جخ ← [[ف...][م١...][م١...][م١...]]

يعني هذا أنّ المخصّصات الثلاثة (تمو،ني،ها) المركّبة للتصريفة "سألتمونيها" لا تقع في المواضع الاسميّة من الشكل (23). فالبنية الإعرابيّة الحقيقيّة لهذه القولة هي (24) الموالية، حيث الضمائر محدّدة على صورة طيفيّة أكثر تجريدا :

(24) [[ف سألتمونيها][م١ Ø]][[م١ Ø][م١ Ø]]]

يتضمّن الشكل (24) أنّ تصريفات الفعل بهباءته الجذريّة وأسسه الاحتماليّة وأطيافه الضميريّة كلّها تقع في الموضع الفعليّ من البنية الإعرابيّة، وأنّ المواضع الإعرابيّة الاسميّة تكرّر نسبيّا نظائرها الصرفيّة المكوّنة للفعل.

إن كان هذا، فوظيفة المحلّ الاسميّ في الإعراب تخصيص الأطياف الضميريّة المكوّنة للفعل والقائمة بالأدوار المحوريّة التي يختزنها التصوّر المشهدي المختزن في الذاكرة الجماعيّة. ويقع التخصيص بالتعجيم الاسمي الموهم بالإحالة.

وهذا، في رأينا، ما يجعل البنية (24) غير كافية شكليّا لحساب الإحالة، وليس نقصان المفسّرات الضميريّة فقط. وهذا أيضا ما يجعل الفعل وكأنّه يوزّع الأدوار المحوريّة، وينتقي الأسماء ذات السمات المناسبة. فالمواضع الاسميّة من البنية الإعرابيّة هي المؤهّلة لعقد العلاقات الخارجيّة مع المحيط النحويّ. وهي أيضا مقرّ لاستقبال الدلالات المحوريّة القابعة في المواضع الضميريّة من بنية الفعل الصرفيّة المعجميّة.

2.4 . البناء وتشكّل الأسّ الاحتمالي في الموضع الفعليّ من [جخ]

إنّ ما يوافق المحلّ [ف...] إذن من البنية الإعرابيّة ليس محلاّ فعليّا في البنية الصرفيّة، ما دام الفعل الصرفي لا يستقيم تامّا إلاّ بمخصّصاته الضميريّة، وما دامت التصريفة المحقّقة له، إذا وقعت في موضع إعرابيّ وقعت في المحلّ [ف...].

فما يوافق هذا المحلّ من التصريفة إنّما هو محلّ النواة المقوليّة المعجميّة السابقة لتكوّن الاسم والفعل، أي محلّ المركّب الحدثيّ المقولي [Эحدا×س،ءل] المسمّى عندنا بالهباءة الجذريّة. ويكوّن هذا المركّب حدثا واحدا كما يركّب المضاف والمضاف إليه أو النعت والمنعوت أو الموصول والصلة اسما واحدا. لكنّ هذا الحدث الواحد ليس فعلا كما بيّنّا، بل نواة لتكوّن الفعل. فهو كنواة التمرة ، إذا ظفرت بها لم تظفر بنخلة ولا تمرة، أو كنواة النطفة لا هي خليّة ولا هي إنسان.

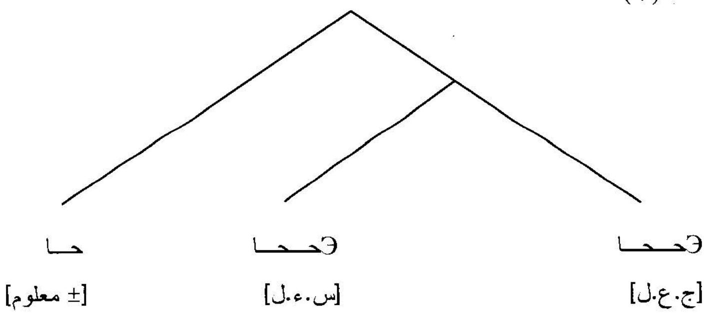
تتعلّق بهذا الحدث الواحد الصرافم التي تعبّر عن المقولة [± معلوم] تعبيرا مباشرا، والتي تشير نسبيّا إلى نوع الحدث. فالصرافم الدالّة على البناء للفاعل أو المفعول مؤذنة بالذات الأولى [حا] المتعلّقة بالحدث [حـ]؛ وهي من هذه الجهة تنسب الحدث إلى الذات الحادثة، باعتباره عملا يحدثه خارجا عنه كـ{فعَلْ}، أو صفة داخليّة يتّصف بها كـ{فعُلْ}، أو حالة بين العمل والصفة كـ{فعِلْ}. وهو ما يجعل البناء للمفعول {فُعِلْ} ضربا من استقرار الحدث في المتعلّق الأوّل، استقرارا شبيها بما يقع مع اللازم {فعُلْ}.

إذا وضعنا في الحسبان أنّ صرافم هذه المقولة استباق من هذه النواة لوظيفة المتعلّق بها، فبناؤها لهذا الحدث الواحد من صنف هذه الوظيفة التخصيصيّة. فهو منه بمنزلة المتعلّق الأوّل، أي [حا]. فالبنية المكوّنة للأسّ الاشتقاقي التصريفيّ الاحتمالي المجرّد (وهي البنية المشاكلة لـ[ف] الإعرابيّة) تتحقّق في كلّ تصريفة على شكل نمثّله بـ (25) الموالية :

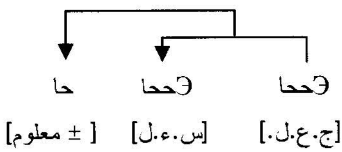
(25)

(أ) [حـ [Эححا× سءل]× حـا]، حيث [Э ححا=جعل] و[حا=±معلوم]

(ب)



(جـ)



تناظر هذه البنية الصرفيّة البنية الإسناديّة؛ لكنّهما في مستويين مختلفين من الثراء الدلالي؛ فالنظام، وهو يكرّر البنية الحدثيّة بجعل بعضها مركّبا لبعض،

يسعى في كلّ دورة تكراريّة إلى إثراء البنية الحاصلة بمعلومة جديدة قائمة جزئيّا على تكرار المعلومة القديمة. وهو نفس ما لاحظناه أعلاه من تكرار المواضع الاسميّة الإعرابيّة للمواضع التصريفيّة؛ إلا أنّ هذا التكرار يقع هنا في البنية المحلـّيّة الصرفيّة نفسها.

3.4 . الرأس الزماني وتشكـّل الصيغة المكوّنة للجدول الواحد

يُخصّص هذا الأسّ الاشتقاقي التصريفي على يمينه بالصرفم [ø] المميّز أساسا للـ[+(+واجب، +المنقضي)]، أو بأحد الصرافم المعروفة تقليديّا بحروف المضارعة، والدالـّة على [- (+واجب، +منقض)]، كما بيّنـّا في (الشريف، 2007). هذا، مع العلم أنّ الحركة المصاحبة لحرف المضارعة جزء من وسم المقولة [±معلوم]، لا جزء من الزوج المقوليّ الزمانيّ [±(واجب، منقض)].

وفي هذا الموضع بالذات، أي على يمين الجدول الأسّيّ من البنية المحلـّيّة الصرفيّة، يمكن أن تقع ميم الاسميّة الواقعة في مقابل ياء المضارع، لتكوين الزوج التقابليّ بين المضارع واسمي الفاعل والمفعول في مثل ((يستفهِـم / مستفهِـم) / (يُستفهَـم / مُستفهَـم)). فهذا الموضع إعلان عامّ عن مقولة [±حضور]، وعن الزوج المقولي الزماني [±واجب، ±منقض]، ولمّا كان المشيرَ الأوّلَ للحضور، فإنـّنا نجد فيه ملامح الجنس والعدد. في العموم، يقوم هذا الموضع بوظيفة الموجّه لأسّ التصريفة نحو الدلالات الإسميّة الإسناديّة، والدلالات الذاتيّة الزمانيّة المرتبطة بالحدث الفعلي المتكوّن من الأسّ.

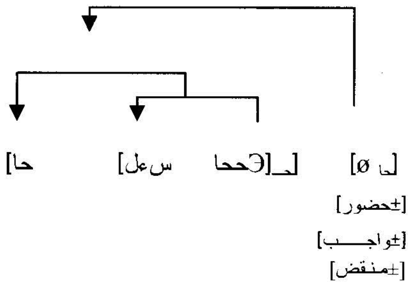
في هذا المستوى وباختيار الصرفم العدميّ، تتكوّن نسبيّا ملامح الفعل الواجب المنقضي؛ إلا أنـّها مجرّد ملامح، لأنّ البنية الناتجة، وهي (26) المرسومة في ما يلي، ليست متميّزة كلّ التميّز عن صيغ المصدر والأمر، والحال أنّ المصدر، وإن شارك الماضي في جهة الوجوب، فليس الحدث فيه انقضاء محضا. أما الأمر، وإن شارك الماضي في مظهر الانقضاء اللازم توفـّره في كلّ حدث مأمور به، فهو يخالفه في الوجوب، إذ الأمر غير واجب:

(26)

(أ) [حا ø] × [حـ[Э ححا× سءل]× حا]،

حيث [ø]=[±حضور][±واجب،±منقض][±مؤنـّث][±عدد]

(ب)



يمثّل هذا الشكل نسبيًا البنية (19) الجامعة لأسس تصريف فعل السؤال، كما يمثّل (20) التي رأيناها أعلاه والتي نعيدها هنا ملخّصة للتذكير :

(20)

{ø/ـُ} {{ي}|ـَ}	سـ	تـ	ـُ	ف	هـ	ـَ	م	

4.4 . الرأس الزمانيّ الصرفيّ والتشكّل المقولي للفعل اللازم

إنّ هذا التشكّل العام للصرافم المعبّرة عن التصوّرات الممقولة، كما نرى أعلاه يؤكّد تناظر البنية الفعليّة الصرفيّة والبنية الفعليّة الإعرابيّة بفضل الدور التكراري للبنية الحدثيّة. فالشكل (26) أعلاه يشبه كثيرا ما يعرف في النظريّة النحويّة القديمة بالجملة الاسميّة ذات الخبر الواقع جملة فعليّة من صنف "زيد قام". فالبنية الصرفيّة المحتواة والبنية الإعرابيّة الحاوية ليستا متناظرتين فقط ، بل الأولى استباق للثانية، في نفس البنية.

وفي العادة، إذا زدنا [تمو] للشكل (26)، بدا لنا وكأنّ الفعل قد تمّ، وقبلنا في الآن نفسه اعتباره جملة، والحال أنّه من قبل لا يستقيم في نظرنا فعلا، بدون هذه العلامة الضميريّة. لكن رغم اقتناعنا مدّة ألفيّة ونصف من السنوات بأنّ الأبنية التي من قبيل {سألتم} جملا خطابيّة تامّة، فإنّها في حقيقتها تقع في مساحة الاسترسال الصرفيّ الإعرابيّ. فمن خصائص الدور التكراري للبنية الحدثيّة أنّها تعيد نفسها لتأكيد المعلومة السابقة وإثرائها في الآن نفسه، كما تثري الخليّة نفسها بالانقسام محافظة على المعلومة الجينيّة الأمّ ومثرية للبنية العضويّة في الآن نفسه.

إنّنا في العموم نفترض أنّ هذه الخاصيّة النحويّة في معالجة المتصوّرات الجماعيّة الممقولة تعكس خاصية عصبيّة مّا في معالجة الدماغ للمعطيات العرفانيّة وحوسبتها.

إن صحّ ما قدّمنا فـ[تمو] تكرار حادثي يمثّل صدى للصرفم الحادثي الموجّه للأسّ الاشتقاقي التصريفي نحو التعيّن الفعلي. فـ[تمو] هنا تبتّ في شأن الحضور والجهة والمظهر والجنس والعدد، على الصورة البنيويّة المتراتبة التي شرحناها عند تحليل هذا الضمير.

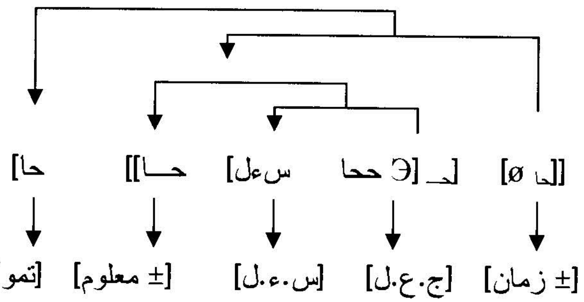
وفي العموم، نلاحظ، عند مقارنة بنية الضمير بالبنية العامّة للفعل قبل تمامه بهذا الضمير، نفسَ الخاصية التكراريّة المتحرّكة لولبيّا من العموم إلى التخصيص. فكأنّ الضمير [تمو] درجة أخرى في تحديد خصائص [حا] المخصّصة للنواة [رأس × جذر] المرسومة في (21).

بإضافة الضمير [تمو] إلى البنية (26)، نتحصّل على بنية تخضع للشكل (27) الموالي :

(27)

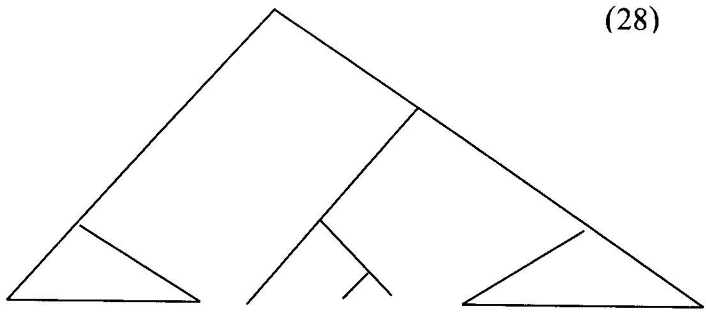
(أ) [[حا ø] × [حـ [∃ حجا× سءل]× حـا]]×حا]

(ب)



إذا استعملنا التمثيل الشجريّ المعهود، فإنّ (27) تعني أنّ المعلومات المقوليّة في "سألتم" منظّمة صرفيّا على الصّورة التالية:

(28)



[[+واجب،+منقض][+حضور]]×[[ج.ع.ل×س.ء.ل]× معلوم]×[[+مخاطب،ـ مؤنّث،+جمع]]

5.4 . الهباءة الجذريّة وملء المحلاّت الضميريّة بالدلالة المحوريّة

داخل هذه البنية الصرفميّة الممثّلة بـ (27) و(28)، تسيطر الرؤوس المقوليّة الوظيفيّة على مقولات بسيطة أولّيّة. ويبقى الصرفم الجذريّ [س.ء.ل] هو الوحيد غير المحلّل إلى المقولات الأوّليّة التي تكوّنه، رغم كونه مبدئيّا مهيّئا للتحليل. لكنّ هذا الأمر غير مدروس، حسب علمنا، في العربيّة. فليس بين أيدينا معجم يحدّد السمات الدلاليّة الأوّليّة المكوّنة لجذور العربيّة.

أضف إلى هذا أنـّه لا يكفي لتعيين دلالة الفعل المزيد أو الفعل الدال على الجعل أو الصيرورة أو غيرهما أن نجمع الدلالتين، كما جمعنا بين الجعل وجذر السؤال في مثالنا. فكما مثّلنا أعلاه، تقوم العلاقة العامليّة بين الرأس المقولي والجذر على صنف من الجمع شبيه بعمليّة الضرب الرياضيّة. ومن خصائص هذه العلاقة أنّها كما تنتج دلالة أكبر من جنس أحد المتعالقين، يمكنها أن تنتج كائنا دلاليّا مخالفا لهما. فالناتج الدلالي من العمليّة إذن قد يكون من مشمولات الحوسبة النحويّة التخاطبيّة التابعة للتشفير الخطابي، كما يمكن أن يكون مسجّلا مقوليّا في البرنامج النحويّ نفسه. وهذا أمر معروف. فكثيرا ما يكون الحاصل من معنى الجذر ومعنى الزيادة دلالة سماعيّة لا يمكن حسابها بالقياس. ولذلك كانت أغلب المصادر القديمة تعدّد معاني الصيغة الممكنة، دون تحديد قاعدة مضبوطة لاشتقاق معنى الزيادة من الجذر. فنحن لا نجد قاعدة مثلا للتمييز بين معنى الطلب وغيره في {استفعل}، أو معنى الجعل وغيره في {أفعل}.(ن مثلا معاني المزيد في : الاستراباذي، شرح الكافية).

غرضنا من هذه الملاحظة أنّ الشكل (27)/(28) يبقى غير كاف لحساب الدلالة. لكنّ هذا النقص لا يمنعنا من الإقرار بأنـّه لا بدّ من أن تكون الخصائص الدلاليّة للنواة المتكوّنة من الرأس والجذر ذات دور في تحديد الأدوار المحوريّة الممكن إسنادها للضمائر. وذلك دون أن تكون دلالات هذه الأدوار مسجّلة بالضرورة في هذه النواة؛ إذ العلاقة بين النواة والأطياف الضميريّة المتمّمة لها علاقة بنيويّة لازمة، بدونها لا يكون الفعل؛ فأدوار هذه الأطياف من مكوّنات الفعل.

وهذا مضمون (22) و(22أ) الماضيتيّ الذكر :

(22) **(1) جعل و(2)نقل لـ (3) شيء (4) من منبع (5) عبر مسار (6) في اتجاه (7) مورد.**

(22أ)

< **جعل لنقل محور السؤال من منبع المتكلّم عبر مسار الخطاب في اتّجاه المخاطب باعتباره موردا يستقرّ به المحور** >

فحسب (22) و(22أ)، تتمثّل وظيفة الرأس الجعلي من النواة العاملة [ج.ع.ل × س.ء.ل] في نقل محور السؤال من منبعه الذي هو المتكلّم السائل [تمو] إلى مورده الذي هو المخاطب المسؤول [ني]، عبر مسار ضمنيّ.

يبيّن هذا أنّ الهباءة الجذريّة ذات دور أساسيّ في تعيين المحور ورسم النقطتين المحدّدتين لمساره. لكنّ هذه النواة الهبائيّة لا تحمل في ذاتها دلالة هذه الأطراف، ما دامت هذه الأطراف هي المخصّصة للنواة، وتدخل معها في تكوين البنية. فتمام البنية الصرفيّة النحويّة بـ[تمو] توهّم، لأنّ السؤال لا يكون باستقراره في منبعه، بل بالجعل الناقل له إلى مورد عبر مسار المخاطبة الممقولة للأسماء، كما رأينا في تحليل الضمائر.

وهذا ما يدعم أنّنا نتناول أطراف السؤال الثلاثة باعتبار كلّ منها طيفا ضميريّا له الصورة [**± حاضر،± مؤنّث، ± جمع**]، ويحمل دوره المشهدي في محلّه. فليست الضمائر [تمونيها] سوى مخصّصات معجميّة إعرابيّة لهذه الأطياف المقوليّة، بها تعيّنت التصريفة "سألتمونيها"، من جملة مئات من التصريفات المكوّنة لفعل السؤال.

6.4 . استقرار الدلالة المحوريّة في المحلّ الضميريّ بدون مزج

هكذا، وعلى أساس النظم الصرفمي المقولي يتلقّى الضمير [تمو] الدلالة المحوريّة القابعة في المحلّ الذي وقع فيه، والمهيّإ مسبقا لدلالته "الخطابيّة-الجنسيّة-العدديّة" على صورة إمكانيّة. فالدلالة المحوريّة، لاستقرارها في بنية الفعل المشتملة على الأطراف الحمليّة في صورة محلاّت ضميريّة، لا تحتاج داخل بنية الفعل إلى عمليّة المزج (merge) حتّى تتلقّى أطرافها هذه الدلالة. فالضمائر {...تمونيها} تخصّص الأطياف الضميريّة، لا غير.

نرجّح أنّ دور <المُحدِث> مترسّخ في محلّ الطرف الأوّل بفضل دلالة الرأس الجعلي، وأنّ المحلّ نفسه يتضمّن كون <المحدث> <منبعا> بفضل حدث السؤال وبفضل ما يتضمّنه الجعل من نقل؛ فليست هاتان الدلالتان المقوليّتان من السمات الانتقائيّة القابعة في حدث الفعل تطلب الطرف المُلبّيها، كما يرى الدارسون، بل تقع السمة المحوريّة في محلّها الصرفيّ باعتبارها من لوازم تعيّن الحدث. فإذا عيّن الضمير الاحتماليّ بتخصيص قيمة الحضور والجنس والعدد فيه، فالمحلّ لا يقبل إلا ما يوافق الدور القابع فيه. فالقضيّة قضيّة مطابقة وموافقة، لا قضيّة فحص ومراقبة.

ويقع نفس الشيْء مع [ني] و [ها] بالترتيب، وحسب تراتب معيّن.

يبدو لنا في العموم أنّ الجعل المتضمّن في حدث السؤال هو الذي يجعل المفعول الأوّل [ني] <متقبّلا>، ويجعله <موردا> بفضل ما في الجعل من <نقل>. و<الجعل> هو الذي يكسب السؤال قوّة الحركة، فبمقتضاه يكون المفعول الثاني [ها] <محورا>.

فعندنا هنا ضرب من التراتب في العمل تجعل النواة الحدثيّة بعد اكتسابها البناء إلى المعلوم تتمّ مباشرة بالمُحدث قبل أن تتمّ بالمتقبّل، وتتمّ بالمتقبّل قبل أن تتمّ بالمحور. فالمحور لا يكون محورا إلا بانتقاله من منبع إلى مورد. فبدون المسار الرابط بينهما، وبدون تمام النقل لا يكون المحدث محدثا ولا المتقبّل متقبّلا، ولا يكون السؤال محور المشهد.

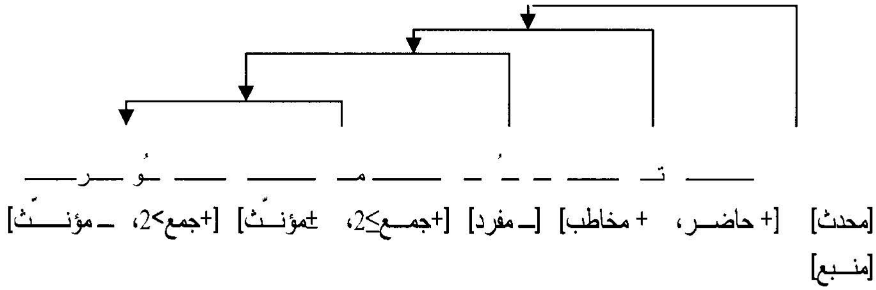
إنّ البنية الصرفميّة لـ"سألتمونيها" تثبت تطابق الشكل والدلالة في بنية الفعل. فتكوّن الفعل من ضمائر مجرّدة ذات وظائف محوريّة يشكّل كتلة تصوّريّة لمشهد غير قابل للتقسيم، ولا يرجع إلى عمليّات مزج متتالية ومتراتبة بين مقولة فعليّة ومقولات اسميّة؛ فالمشهد مختزن أصلا في القطع القوليّة المعجميّة، في صورة بنية شجريّة. (ن. مفهوم المزج في Chomsky, 1995) (وبطريقة تعليميّة في (Adger، 2003)).

7.4 . بنية الضمير وتحكّم الدور المشهدي في الدور الخطابي

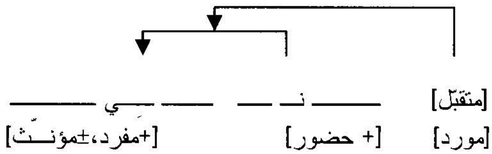
هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يبدو أنّ خصائص الجنس والعدد والحضور المتوفّرة داخل كلّ محلّ من هذه المحلات الصرفميّة يكتسبها ممثّل الدور المشهديّ في ذلك المحلّ. إن كان ذا، فإنّ الحضور الذي رأيناه رأسا للضمير المكوّن لنواة الاسم لا يمكن أن يكون رأس العنصر القائم بالدور، بل يشغل فقط وظيفة المُحضِر أو المغيِّب له على الركح التصوّري الذي يلخّصه الفعل. وإذن فاجتماع مقولة الدور(أو سمته كما يقال) مع مقولة الحضور يقع حسب التراتب [دور×حضور]، بحيث يكون الدور المحوريّ المشهديّ في بنية الفعل الصرفيّة متحكّما في مقولة الدور الخطابي. وهذا ما يجعل المركّب الصرفي ذا القيمة الضميريّة والقائم بهذين الدورين مركّبا مقوليّا مؤهّلا لأن يكون وحدة إعرابيّة.

ينجرّ عن هذا أنّ الأطراف الثلاثة تأخذ الأشكال التالية :

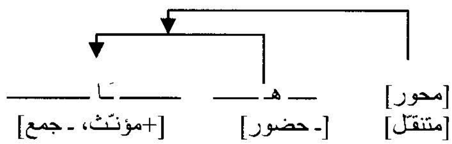
(29)



(30)



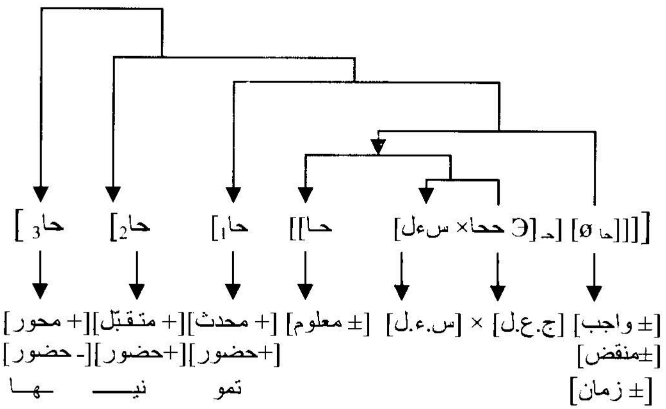
(31)



8.4 . مشجّر بنية الفعل المقوليّة في الصرف المعجميّ

تعطينا الأشكال (29 - 30 - 31)، عند وضعها في أماكنها من الشكل(27) صورة شبه متكاملة من انتظام المقولات المكوّنة للفعل الذي من تصريفاته "سألتمونيها"، كما يتبيّن من (32) التالية، حيث اكتفينا تخفيفا للرسم، بتسجيل بنية الفعل المحلـيّة الصرفيّة الممثّلة لأسّه الإمكاني؛ أمّا في ما يخصّ الأطراف المخصّصة للفعل والمتمّمة له، فقد اكتفينا في تمثيل الضمائر الثلاثة بتسجيل الرأس المقوليّ المعبّر عن الدور المحوريّ المشهدي، واضعين تحته الرأس المقولي المعبّر عن دور الضمير الخطابي، وذلك دون إعادة الرسوم (29 - 30 - 31) :

(32)



لنؤكّد مرّة أخرى أنّ الفعل لا يكتمل فعلا إلا بأطيافه الضميريّة. فـ{تمونيها} مجرّد تمثيل، إذ الأطياف كما بيّنّا أعلاه غير معيّنة؛ فهي إمكانيّة الحضور والجنس والعدد؛ وحقيقتها الصرفيّة أنّها أعوان خطابيّة قائمة بأدوار مشهديّة. وصلب البنية، وهو الملوّن بالرماديّ، ذو قيمة حدثيّة متعالية عن الاسميّة والفعليّة، وتأتي الأطياف الضميريّة لإتمامها فعلا في مراتب بنيويّة، بحيث لا يتمّ الفعل فعلا بطرفه الثالث إلا بعد تمامه بالثاني، ولا يتمّ بالثاني إلا بعد الأوّل. وهو تراتب قابل للنقاش ومحتاج إلى مزيد الدعم. لكنّه ليس محور اهتمامنا الآن.

الأهمّ في نظرنا في بنية الفعل أن نحدّد دور المقولة الزمانيّة في بنائه.

9.4 . رفع الفاعل بالرأس الزماني المكوّن لبنية الفعل الصرفيّة

يبدو لنا من المقارنات البنيويّة أنّ الصرافم المميّزة بين المضارع والصفات ونظائرها العدميّة هي التي تميّز الأفعال وتدرجها في مقولتي الجهة [±واجب] والمظهر [±منقض]. وقد بيّنّا في عمل آخر أنّ المقولتين تؤسّسان صيغ الفعل الخمسة المكوّنة لجداول تصريفه (الشريف، 2007). وفي التمثيل البنيوي (32) أعلاه، جعلنا هذه النواة الزمانيّة هي البنية المقوليّة المتحكّمة في الأسّ الإمكاني. ولهذا الإجراء قيمتان.

أوّلا أنّه يثبت صرفيّا أنّ الدلالة الزمانيّة المنضوية في الفعل هي التي تعمل في مقولة البناء [± معلوم]. وهي مقولة كما رأينا ذات علامات صرفميّة تؤذن مسبقا بما سيبنى له الفعل. فعلى أساسها يحدّد [حا1]، أي المتعلّق الأوّل المستحقّ للرفع على الفاعليّة.

إنّ هذه الفكرة التي تجعل الفعل رافعا لدلالته على الزمان، فكرة تقليديّة متضمّنة في تعريف الفعل، وفي تفسير النحاة لعمل الصفات في الاسم.

ويبدو لنا أنّ الصياغة التي اختارها التوليديّون والتي تجعل الفاعل في حاجة إلى النقل لتلقّي الرفع أو فحصه من الرأس الزماني، صياغة تراعي خصائص بنية الفعل الأنكليزي في ما بعد عصر شكسبير، وحاجته إلى الأفعال المساعدة للتعبير عن التوقيت والمظهر والجهة خاصّة، وكذلك النفي والاستفهام في إطار أعمّ (ن. (Radford, 2006)).

وفي رأينا أنّ تمثيل بنية الفعل التصريفيّة حسب الشكل (32) يجعل ظاهرة الرفع بالزمان المستكنّ في الفعل ظاهرة مقبولة في صيغتها التقليديّة، ومفسّرة للعلاقة بين الزمان والرفع، دون الحاجة إلى افتراض النقل، كما فعل الرحّالي في (الرحّالي، 2003) والفاسي الفهري في (الفهري، 1990، و1998 الخ).

فبنية الفعل الصرفيّة، على الصورة التي قدّمناها، كافية في نظرنا لاستيعاب العلاقة بين الزمان والرفع داخل هذه البنية القارّة وغير القابلة للتحويل. فالبنية المحلّيّة الصرفيّة كما بيّنّا لا تتحقّق كاملة في لفظة واحدة بيّنة الحدود؛ بل في خمسة جداول تصريفيّة كلّ جدول منها مشتقّ لصيغة ذات أسّ احتماليّ لا يتمّ فعلا إلاّ بأطراف ذات أطياف ضميريّة متقمّصة لأدوار معيّنة، وواقعة على حالات إعرابيّة ثابتة تدلّ عليها صيغ الضمائر المحقّقة لها، ولا تقبل تقليبا في ترتيبها، إذ كلّ تقليب ينتج بنية لاحنة، ولا تقبل حذفا كما بيّنّا، إذ كلّ حذف مضرّ بكينونة الفعل من حيث هو فعل شكلا ومحتوى.

القضيّة كيف تنتقل الحالة الإعرابيّة من بنية الفعل التصريفيّة إلى البنية الإعرابيّة، حسب الشكل (24) .

هنا تكمن القيمة الثانية الكامنة في التمثيل (32).

10.4 . دور رابط الجمع في تنظيم التطابق الإعرابي

يتضمّن المنوال [إن ك]، ويقرأ "إنْ كافْ " اختصارا للعبارة "الإنشاء النحويّ للكون " (الشريف، 2002/1993)، أنّ كلّ بنية نحويّة مهما كانت تتكوّن من عنصر رابط ذي قيمة تواجديّة إيجابيّة أو سلبيّة، وأنّ هذا الرابط جمعيّ تشارطيّ، مؤسّس في المستوى البلاغي من اللغة لقيمتي الوصل والفصل المنطقيّتين ولجدولي صدقهما.

يقوم هذا الرابط بدور الجمع بين الوحدات النحويّة لتكوين وحدات أكبر، على صورة شبيهة بجدول الجمع في الحساب المدرسي، فيها تنتظم المجموعات بفضل تشابهها البنيوي الموروث عن اشتقاقها من بنية حدثيّة واحدة .

تشبه وظيفة هذا الرابط وظيفة عمليّة المزج التوليديّة، إلا أنّها على خلاف المزج، ليست عمليّة حوسبيّة مسلّطة على الأبنية، بل هي عنصر بنيويّ تابع للحيّز الإنشائي ويتحقّق بأدوات من صنف الواو.

ننبّه إلى أنّ عمليّة الجمع هذه، استقيناها من إرجاع الروابط المنطقيّة الأساسيّة إلى أصولها الطبيعيّة، وأنّنا حدّدنا خصائصها قبل ظهور عمليّة المزج في البرنامج الأدنويّ. (ن. النسخة المرقونة من الشريف 2002/1993 بمكتبة كلّيّة الآداب من جامعة منّوبة، تونس الأولى سابقا).

إذا صحّ افتراضنا أنّ تركّب الأبنية يقع بفضل هذا الرابط الإنشائيّ، وأنّ الجملة في الخطاب كالفعل في المعجم كلاهما يخضع للبنية [9Î∍ ففا (مف)]، حيث المحلّ [9] هو محلّ الرابط الواوي الجامع إيجابا أوسلبا، فإنّ خصائص التوزيع النسقي والاستبدال الجدولي كفيلة بإحداث المطابقة بين محلات الأطياف الضميريّة التي مثّلناها هنا للتوضيح بـ[تمونيها] وبين محلاّت المركّبات الاسميّة المخصّصة لهذه الأطياف. وحسب هذه المطابقة فإنّ الرفع والنصب مسجّلان في البنية **[9Î∍ ففا(مف)]** سواء أتحقّقت بجملة في الخطاب، أم تحقّقت في صورة بنية احتماليّة تختزن في المعجم مجموعة من الجداول التصريفيّة.

إنّ الأطياف الضميريّة، كما تتقمّص دورها المشهديّ في موضعها من بنية الفعل العربيّ، تتحلّى بوظيفتها الإعرابيّة الممكنة وحالتها بما يقتضيه المحلّ الذي هي فيه قابعة بالقوّة. فإذا دخل الفعل في بنية إعرابيّة، فبفضل عمليّة الجمع يحدث الرفع في كلّ مركّب اسميّ يجعله المتكلّم الناظم، أي الإنجازيّ، مخصّصا أوّليّا لذلك الطيف الضميري، كما يجعل النصب لكلّ مخصّص ثانويّ، وذلك بفضل ما بين المحلاّت من تطابق إعرابيّ، نلخّص خصائصه في جدول الجمع التالي (33)، (ن تفصيل عمليّة الجمع في الشريف 2002/93. ن مثلا ص 719) :

(33)

ج	الربط 9	الإنشاء Î	الوجود ∍	الحدث ف	حادث$_1$ فا$_{\text{رفع}}$	حادث$_2$ مف$_{\text{نصب}}$	حادث$_3$ مف$_{\text{نصب}}$
م فعلي	+	+	+	{سأل}	ض$_{\text{س}}$	ض$_{\text{ص}}$	ض$_{\text{ع}}$
م اسمي	+	+	+	ø	{زيد}		
م اسمي		+	+	+	ø	{عمرو}	
م اسمي			+	+	+	ø	{شيء}
ج$_{\text{خ}}$	+	+	+	سأل	زيدٌ	عمرًا	شيئًا

يتضمّن جدول الجمع هذا أوّلا أنّ الاسم كالفعل والجملة له نفس البنية [Э9Î حـحا (حا)]، حيث الحيّز الإنشائي [Э9Î] الدال على جمعه وتقرير إثبات وجوده حيّز موجب، وحيث الحدث المتّصل به عدميّ القيمة، مهيّأ المحلّ لكلّ دلالة فعليّة تحصل من الجمع.

يتضمّن جدول الجمع ثانيا أنّ الاشتقاق يمدّ الإعراب بعناصر اسميّة معجميّة في صورة جداول تصريفيّة تتضمّن علامات الإعراب الممكنة، رمزنا لها بالمعقّفين{...}. ويختار المتكلّم إحدى تصريفاته حسب شروط مقاميّة مقاليّة معلومة. وكلّ عنصر منها يخضع لنفس البنية الإعرابيّة على صورة احتماليّة. ولا يمكن لعنصر منها أن يقع مع آخر في نفس المحلّ، ما لم يتركّب معه مسبقا اسما واحدا. فتلقّي الرفع والنصب عمليّة آليّة، مرتبطة بكينونة الفعل القائمة على الرأس الزماني، وبالمحلات الإعرابيّة الموافقة.

11.4 . وقوع رأس الفعل الزماني تحت عمل الإنشاء المولّد للزمان

لكنّ الرأس الزمانيّ المكوّن للفعل ذو قيمة أهمّ. فقد بيّنّا في عمل سابق (الشريف، 2007) أنّ دلالتي الجهة والمظهر في بنية الفعل الصرفيّة متأتّيتان من تكلّس التوقيت الناتج عن تعيين نقطة الحدث الإحالي على خط الزمان بالنسبة إلى نقطة الحدث الإنشائي، وبانقسام سهم الزمان إلى ثلاثة وجوه حسب قيم الوجود الإنشائي.

لا يمكننا عمليّا في حدود هذا العرض توضيح هذه النقطة بإعادتها على صورة مفصّلة. لكنّنا نشير، اتّكالا على الحدس العامّ أنّ القيم الزمانيّة لصيغ الماضي والمضارعات الثلاثة والأمر رهينة القرائن النحويّة الدالّة على الأعمال اللغويّة والمكيّفة للشكل النحوي. فدلالة "سألتمونيها" على ما مضى من الوقت ليس رهين مظهر الانقضاء في صيغة الفعل، بل رهين وقوعه في جملة إخباريّة مثبتة. فلو شغّلنا محلّ الإنشاء والوجود بغير قرائن الإخبار والإثبات، لأدّى الحساب النحوي إلى دلالات أخرى في التوقيت الزمانيّ تخالف الحاصل منه في جملتنا، كما يتبيّن من الأمثلة التالية :

(34) لو {سألتمونيها، ما سألتمونيها ...} (لأجبت)

(35) لو {سألتمونيها، تسألونَنيها...} (غدا)

(36) إن {سألتمونيها، تسألونيها ...} (...)

(37) إمّا {سألتمونيها، تسألونيها ...}

(38) هلاّ {سألتمونيها، تسألوننيها...}

(39) أ {سألتمونيها، ماسألتمونيها، تسألوننيها، لم تسألونيها، لن تسألونيها}

ويمكننا أن نواصل هذا التصريف باستعمال أدوات شتّى للإنشاء والإثبات والتأكيد والنفي، مع صيغ الفعل الأخرى الأربعة. ومن الثابت أنّنا سنلاحظ أنّ بعض تصريفات هذا الفعل غير ممكنة إلا مع أدوات معيّنة تدلّ على مثل هذه المقابلات بين الأعمال اللغويّة.

يتبيّن من هذا التمثيل المختصر أنّ جداول تصريف الفعل المكوّنة لكلّ فعل كينونته كما رأينا، كما تتضمّن معلومات احتماليّة عن أطرافه، تتضمّن أيضا معلومات احتماليّة عن إنشائه (خبرا أو طلبا أو إيقاعا) وعن إقراره (نفيا أو إثباتا). فليس من الصدفة أنّ المعلّمين لا يستطيعون تعليم الأطفال خصائص المجزوم أو المنصوب مثلا دون الالتجاء إلى أبسط بنية إعرابيّة ممكنة يقع عليها الفعل وهي {لم أفعل...} أو {لن أفعل...}. فإن كان من الظاهر أنّ هاتين الصيغتين أبسط لفظا من {فعل...} و{يفعل...}، ففي الحقيقة تعبّران عن إنشاء الخبر وإقرار الإثبات كما تعبّر (39) مثلا عن إنشاء الاستفهام وإقرار الإثبات أو النفي.

النتيجة أنّ {سألتمونيها} وإن بدت في بنيتها اللفظيّة، أي صورتها الصوتيّة حسب تعبير التوليديّين، بنية أبسط من {أوقد سألتمونيها} الواردة في عنوان هذا البحث، فإنّـها في شكلها النحويّ تخضع وإيّاها لنفس البنية، كما يتبيّن في ما يلي :

(40)

البنيةالإعرابيّة	الربط	الإنشاء	الوجود	الحدث	حادث$_1$	حادث$_2$	حادث$_3$
ج$_{خ}$	9	Î	Э	[فـ]	فا$_{رفع}$	مفـ$_{نصب}$	مفـ$_{نصب}$

فـ	9	Î	Э	[حـ...]	حا$_1$	حا$_2$	حا$_3$
تصريفة 1	ø	ø	ø	سألْـ	تمو	نيـ	ها
تصريفة 2	و	ø	ما	سألْـ	تمو	نيـ	ها
تصريفة 3	ø	أ	ø	سألْـ	تمو	نيـ	ها
تصريفة 4	ثمّ	ø	قد	سألْـ	تمو	نيـ	ها
تصريفة 5	ø	لَـ	قد	سألْـ	تمو	نيـ	ها
تصريفة 6	ø	أ	قد	سألْـ	تمو	نيـ	ها
تصريفة 7	و	لَـ	سوف	تسألـ	ـُونـ	نيـ	ها
تصريفة 8	و	أ	قد	سألْـ	تمو	نيـ	ها

إنّ الفعل، حسب ما بيّنّاه سابقا، وكما رسمناه في (40)، بنية تقع في مساحة الاسترسال المشترك بين النظامين الصرفيّ والإعرابيّ. فهو في الآن نفسه أكبر مركّب تصريفيّ جامع جدوليّا واحتماليّا للصرافم الممثّلة للمقولات المختزنة معجميّا في البرنامج النحويّ، وأصغر مركّب إعرابيّ ممكن الإنجاز خطابيّا للتعبير عن محتوى قضويّ.

إنّه المفردة ـ الجملة. فالفعل في المعجم قطعة قوليّة مختزنة لآلاف الخطابات الممكنة كما بيّنّا. ولذلك وردت المعبّرات عن وصله بسابق وعن إنشاء المتكلّم له وعن إقراره بقيمته الوجوديّة معبّراتٍ لفظيّة مختزلة إلى أدنى ما يكون، غير مختلفة عن بقيّة الصرافم، مستعدّة للالتصاق به باعتبارها جزءا منه التصاق أطرافه به.

مبدئيّا لا مبرّر لاعتبار الزوج المقولي [± واجب، ± منقض] رأسا زمانيّا للفعل، على غرار المرسوم في (32). فهو لا يعدو في هذا الرسم أن يكون رأس الأسّ الاحتمالي المجرّد الجامع لأسس تصاريف الفعل في صيغه الخمسة. فلقد رأينا أنّ الحدث، قبل تكوّن الاسم والفعل، يكتسب القيم الزمانيّة الجهيّة والمظهريّة المولّدة للصيغ الفعليّة الخمس من تموضعه بالنسبة إلى الصوّة الإنشائيّة. هذا ما يستوجب أن يكون المركّب الصرفيّ الفعليّ واقعا تحت قوّة إنشائيّة تعيّن قيمة وجوبه وقيمة انقضائه.

ومعنى هذا أنّ بنية الفعل الصرفيّة المعجميّة كبنية المركّب الفعلي في الجملة الخطابيّة كلاهما مسيّر بالإنشاء المولّد للدلالة الزمانيّة، سواء أكانت تصريفيّة مظهريّة جهيّة أم كانت إعرابيّة جهيّة أو توقيتيّة.

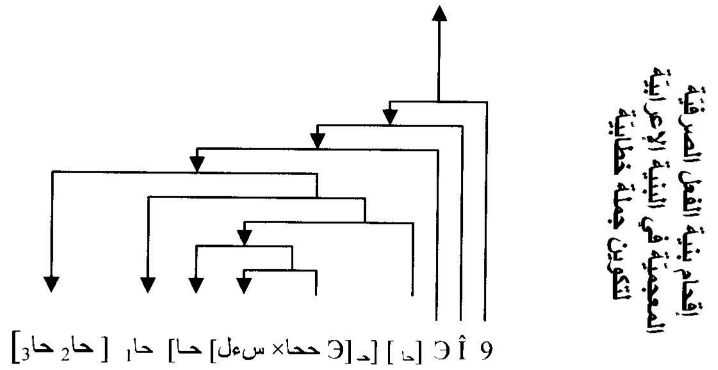
إذا كان ذا، فينبغي أن تكون البنية الصرفميّة لـ"سألتمونيها" هي نفسها البنية الصرفميّة لـ"أوقد سألتمونيها"، وأن يكون الفرق الدلالي راجعا أساسا للتعجيم الصرفميّ الواسم للمقولات المتقابلة، لا إلى نوع البنية نفسها.

12.4 . دور التشاكل البنيويّ [ف]↔[ج] في التجربة العرفانيّة

بناء على هذا التحليل فإنّ الفعل، في خزينة البرنامج النحوي، وعندما يخرج منها لاقتحام البنية الإعرابيّة المشكّلة للخطاب، يتّخذ في عمومه الشكل (41) التالي :

(41)

جخ ← 9 Î Э [فـ] ....[فا]...[(عمف)]



إنّ فعل السؤال، باعتباره مقولة مجرّدة تختزل مجموعة جدوليّة من القطع القوليّة، فعل يتشكّل على صورة مشاكلة لجمل الخطابات الحاصلة التي أنتجته و جمل الخطابات الممكنة التي تحتاج إلى استعماله. فمن أجل هذه الخطابات الحاصلة والممكنة وقع تسجيله في الذاكرة المعجميّة الجماعيّة من البرنامج النحوي، لخزن التجربة العرفانيّة الاجتماعيّة المشتركة. فالحيّز الإنشائي المتحكّم في البنية المحلّيّة الصرفيّة المشتركة لجداول تصريف الفعل هو نفسه الحيّز الإنشائي المتحكّم في بنية كلّ جملة خطاب ممكنة [جخ]؛ وهو الإنشاء الرابط الذي يصل البنية بمحتوى قضويّ سابق [9] مسجّل في نفس الخطاب أو في تجربة ذهنيّة سابقة، والإنشاء الموجّه للبنية نحو الإنجاز العمليّ الإخباريّ أو الطلبيّ أو الإيقاعيّ [Î]، والإنشاء الجازم إثباتا أو نفيا بوجود [Э] الحدث المعنيّ.

ليس الحيّز الإنشائي [Î Э9] المكوّن لـ[جخ]، مجرّد تكرار للمعلومات الواردة في الحيّز الإنشائيّ المكوّن للبنية الصرفيّة للفعل. فإن كان جدول المجزوم مثلا (أو جدول المنصوب) جدولا ذا إنشاء إمكانيّ في اشتقاقه المعجميّ، فهذا لا يمنع المتكلّم في مقام خطابيّ معيّن من إدراجه وإقحامه في بنية إعرابيّة مسيّرة بإنشاء إخباريّ واجب، كقولك مخبرا جازما "لم يفتح هارون الرشيد القسطنطنيّة". ففي هذه الحالة تتغلّب دلالة إنشاء جملة الخطاب على دلالة إنشاء الفعل في الاشتقاق المعجميّ عند إجراء الحساب النحوي للمعنى. لكنّ المتكلّم، إذا استعمل المجزوم بدون أن يملأ الحيّز الإنشائي من جملة خطابه بما يدلّ على مثل هذا الإخبار الجازم، فإنّ دلالة الإمكان الناتجة عن إنشائه في الاشتقاق المعجميّ هي التي تملأ حيّز الإنشاء الخطابيّ، كما هو الأمر في مثل "أُخْرُجْ أَخرجْ" في

الفصحى أو "تخرج أخرج" بمعنى "إن تخرج أخرج" في الدارجة التونسيّة، حيث لا يتّضح في الاشتقاق المعجميّ الفرق بين جهة الإمكان ومظهر عدم الانقضاء.

إنّ التشاكل إذن بين بنية إنشاء الفعل في الاشتقاق المعجميّ، وإنشاء جملة الخطاب، عمليّة بنيويّة تكراريّة تسهّل جمع العناصر المعجميّة في جملة خطاب واحدة على صورة مقتصدة ومثرية للدلالة، كما يتّضح في الرسمين (33،40) أعلاه. فبفضل هذا التشاكل، وبفضل هذا الجمع، يقع في الإعراب استعمال التجربة العرفانيّة الجماعيّة المختزنة في المعجم، وتخصيص احتمالاتها التصريفيّة تخصيصا يمكّن من إثرائها فرديّا بتجارب جديدة.

وكما يقع تخصيص الحيّز الإنشائي وإثرائه، يقع تخصيص المحلاّت الضميريّة وإثرائها بالمعلومات الإحاليّة الاسميّة. فالمحلاّت الاسميّة الإعرابيّة من [ج$_{خ}$]، أي [فا] و[$_{ع}$مف]، كما يبدو من (40،41) توافق المحلاّت الصرفيّة [حا$_1$][حا$_2$،حا$_3$] في مواضع الجدول الجمعيّ، كما توافقها عموما في محتواها الضميريّ الإحتمالي [±حضور،± جنس،± عدد]. وهذا ما يمكّن بنية الاسم الصرفيّة التي لها نفس الشكل العامّ المشترك بين الجملة والفعل، أي [إ Î Э9 [فا] $_{ع}$مف]، من الوقوع، حسب ما يتبيّن من الرسم (33)، في محلّ إعرابيّ يتلقّى منه الحالة الإعرابيّة الملائمة لجملة الخطاب، والدور المشهدي المحوري من المحلّ الموافق له من بنية الفعل الصرفيّة؛ كما يتمكّن هو، بفضل سماته الدلاليّة المعبّرة عن تكوّنه المقولي، من تخصيص أطراف الفعل إحاليّا ودلاليّا، ومن تخصيص سماتها الضميريّة تخصيصا يحدث الظاهرة المسمّاة تقليديّا بالمطابقة. (ن مزيد التفصيل في (الشريف 2002/93)). لكنّ هذا لا يمنع من تخصيص الأطياف الضميريّة من بنية الفعل بطرق أخرى، أهمّها، وليست موضوع هذا البحث، وسائل الربط الإحالي بين مكوّنات جمل الخطاب، عن طريق السلسلة التقليديّة [مفسّر، ضمير].

13.4 . دور البنية الإعرابيّة في تنظيم عمليّة الجمع

يتضمّن التحليل السابق أنّ الوظيفة الأساسيّة للبنية الإعرابيّة تنظيم عمليّة الجمع بين العناصر المعجّمة لمحلاّتها؛ وذلك بفضل كون هذه العناصر قطعا قوليّة متشكّلة بنيويّا على هيئة تعكس ذكرى كونها مقطوعة من خطابات سابقة ذات بنية إعرابيّة مماثلة.

ويتضمّن التحليل أنّ الفعل، من حيث هو مفردة جمليّة تقع في مساحة الاسترسال المشتركة بين الصرف والإعراب، ذو دور رئيسيّ في تنظيم الجمع،

ولا سيّما أنـّه على خلاف الاسم يحتلّ وسط البنية الإعرابيّة بدون تكرار، وتنطبق عناصر بنيته على عناصر بنية الجملة كلـّها، كما يتبيّن في الرسم (40) أعلاه.

تبدو هذه الخاصيّة مثيرة لإشكال نظريّ. فما دام الفعل مفردة ذات شكل جمليّ قابلة لاستقبال العناصر المعبّرة عن الإنشاء وعن الأطراف الاسميّة فلماذا لا نستغني عن البنية الإعرابيّة ؟ ولماذا لا نعتبر الجملة الخطابيّة مجرّد نتيجة حاصلة من تركـّب العناصر المعجميّة بعضها مع بعض تحت رعاية بنية فعليّة ناظمة؟

إذا تثبتنا في بنية الفعل الصرفيّة المعجميّة كما وصفناها ورسمناها خاصّة في (26، 27، 32)، فإنـّنا نلاحظ كما أكـّدنا أثناء التحليل أنّ النواة الحدثيّة للفعل ليست في ذاتها فعلا ما لم تتمّ بأطرافها من الأطياف الضميريّة القائمة بالأدوار المشهديّة المحوريّة، وبالأدوار الخطابيّة. فتعديد الأفعال لتكوين مركـّبات عطفيّة يستلزم تعديد النوى الحدثيّة مصحوبة بما يتمّمها، أي على الأقلّ [حا$_1$] المتمثـّل في العلامة الضميريّة الدالـّة على المفرد الغائب [(-َ/-َت)]/(ي/تـ)]، وذلك على صورة استئنافيّة. ولا يمكن في هذه الحالة تكوين جمل مركـّبة بأكثر من فعل. فوجود محلّ فعليّ إعرابيّ في بنية إعرابيّة شاملة يمكـّننا من تكوين جمل بسيطة معطوفة داخل جملة كبرى حاضنة. هذا إضافة إلى ظواهر أخرى.

إذن ليست التصريفات الثمانية التي قدّمناها في (40) تصريفات ممكنة لفعل السؤال إلا بفضل علاقة الفعل مع البنية الإعرابيّة [ج$_خ$]. فقائمات الأدوات المالئة للحيّز الإنشائي (كأدوات الربط والموصولات الحرفيّة وحروف التأكيد والنفي والاستقبال وغيرها)، وكذلك قائمة العلامات الضميريّة المتـّصلة المخصّصة للأطياف المحقـّقة للمقولات الضميريّة، جميعها عناصر معجميّة كالفعل، وإن كانت بسيطة. فهي هي أيضا في حاجة إلى القالب الإعرابي المنظـّم لعلاقاتها المختلفة بالفعل، ولعلاقة بعضها ببعض. فمن الطبيعيّ إذن ألا تكون تصريفات الفعل الثمانية التي قدّمناها على سبيل التمثيل في (40) تصريفات ممكنة خارج عمليّة إقحام البنية الفعليّة في البنية الإعرابيّة.

14.4 . المعجم ومفهوم الخزن العرفانيّ الموزّع للتجربة الخطابيّة

بيت القصيد أنّ عمليّة الإقحام هذه، وما يصحبها من تعجيمات ممكنة للمحلات الإعرابيّة، من شأنها أن تثير بفضل جمعها بالرابط الواويّ [9]، وبفضل الحساب النحوي الناتج عن تفاعل المكوّنات المجموعة، معلومات تأليفيّة أزليّة

يختزنها البرنامج النحوي على صورة تحليليّة موزّعة بين العناصر المعجميّة، بحيث لا تظهر هذه المعلومات في الخزن المنفرد للفعل ولا في الخزن المنفرد لأيّ عنصر آخر. فالذاكرة الجماعيّة التي تختزنها شبيهة بالخزينة المصفّحة التي لا تنفتح ولا تكشف عن كنوزها إلا عند التقاء مفاتيح مختلفة على هيئة معيّنة.

نكتفي لبيان هذا بالتصريفة الثامنة "*وأقد سألتمونيها".

لا يمكن لهذه التصريفة أن تتحقّق إلا بتقديم الكلمة الواسمة للربط على الكلمة الواسمة للإنشاء. فالصحيح في نطق هذه التصريفة (أي تهجيتها في اصطلاح التوليديين) هو "أوقد سألتمونيها" المذكورة في العنوان. وكذلك الأمر مع [الفاء] أخت [الواو] على خلاف [ثمّ].

ما هي المعلومة المختزنة في الشكل الإعرابي المعجمي "أوقد فعل فلان؟".

الجواب عند مخبر قديم سجّل في حينه السياق التخاطبي لاستعمال {أوَ...}، والسياق الخطابيّ لاستعمال {قد فعل...}. وهو سيبويه عن الخليل في ما يبدو.

يقول في "باب الواو التي تدخل عليها ألف الاستفهام" :

وذلك قولك : "هل وجدت فلانا عند فلان". فيقول : "أوَهو ممّن يكون ثمّ" [أو يقول حسب نسخة أخرى من الكتاب:] "أوَ هو يكون عند فلان" (ن سيبويه، الكتاب، ج3، ص 187).

ويقول في "باب الحروف التي لا يليها بعدها إلا الفعل" :

فمن تلك الحروف /قد/ لا يُفصل بينها وبين الفعل بغيره. وهو جواب لقوله {أفَعل؟} كما كانت {ما فعل} جوابا لـ{هل فعل}إذا أخبرت أنّه لم يقع. و{لمّا يفعلْ} و{قد فعل} إنّما هما لقوم ينتظرون شيئا. (الكتاب،ج3،ص 187)

المفهوم المستنتج من كلام سيبويه أنّ الأبنية من صنف {أوسألتمونيها} تقتضي أن تكون في سياق خطابيّ، يجعلها استفهاما محوره العلاقة الجمعيّة الرابطة بين قول الطرف التخاطبيّ المقابل ومضمون ما يقتضيه هذا القول. ففي مثال سيبويه أنّ استفهام القائل "أوَ هو يكون عند فلان؟" يقتضي مسبقا أنّه جواب موجّه إلى سامع قد قال مستفهما : " هل وجدت فلانا عند فلان"، وأنّ مقتضى هذا الاستفهام "أنّ السامع يتوقّع أنّ فلانا (ممّن) يكون عند فلان" وأنّ القائل لا يعلم "أنّه من الممكن أن يكون فلان عند فلان".

بناء على هذا، فإنّ قول زيد "أو سألتمونيها" يقتضي أن يكون مخاطبوه قد قالوا قولا في مقتضاه المعنى "سألناكها"، كأن يكون قولهم مثلا " هلا أجبتنا عنها". فهذا القول يقتضي جمعا رابطا بين المقول وما يتضمّنه المقول من قول لم يقل. وذلك من صنف "سألناكها فهلا أجبت" أو من صنف "هلا أجبت فقد سألناكها".

وينبني على ما قاله سيبويه عن /قد/ أنّ "قد سألتمونيها" جواب زيد لقوم قالوا له: "أسألناكها"، وهم ينتظرون من جوابه عن سؤالهم شيئا. ولمّا كان السائل مبدئيّا على غير يقين من الجواب، وكان الإسناد إلى ضمير المتكلّمين يستوجب اليقين، فإنّ "أسألناكها" تقتضي الإنكار "ما سألناكها". فتكون "قد سألتمونيها"، ردّا على هذا الإنكار.

أمّا قول زيد "أوقد سألتمونيها"، فينبغي حسب هذا التحليل كلّه أن يكون جوابا عن سؤال قوم "أما أجبتنا عنها ؟". وهو قول يتضمّن أنّه واقع في علاقة جمع بمقتضى من صنف "فقد سألناكها". وهذا المقتضى يقتضي بدوره أنّ زيدا بدر منه ما يعني الاستفهام المنكر "أسألتمونيها" بمعنى "ما سألتمونيها".

الخلاصة أنّه بفضل ما يكتنزه النظام الإعرابيّ من علاقات تشارطيّة، وبفضل دوره الناظم للعلاقات بين الجداول المكوّنة لمقولات الوحدات المعجميّة، يمكن لهذه الجداول التصريفيّة أن تختزن في الذاكرة الجماعيّة عن طريق نُسخِها الذهنيّة الفرديّة غير المطابقة للأصل، خصائص تخاطبيّة أزليّة يكوّن بعضها مقامات لبعض، دون أن يحتاج البرنامج النحوي إلى الخروج لمباشرة إحالة خارجيّة تقع على مراجع مجاوزة للنظام. فبدورة خطابيّة نحويّة داخليّة يتمكّن النظام من إنشاء الإحالة داخله. ولقد رأينا أعلاه أنّ فعل السؤال نفسه لا معنى له خارج المؤسّسة اللغويّة.

أشرنا سابقا إلى ما يعني أنّ مواضع الأسماء من أبنية الإعراب هي الوحيدة المهيّأة للتعبير عن إحالة مرجعيّة خارجيّة. فهل يمكننا أن نكسّر الطوق بتعيين مفسّر لـ"ها"، يجعل عنوان هذا البحث منطبقا عن طريق مفسّر الضمير بحالة خارجيّة من الأشياء؟

لتكن "ها" عائدة مثلا على خصائص العناصر والأبنية النحويّة، أو لتكن عائدة على الأحداث الجارية بمختلف المناطق من العالم، أو لتكن عائدة على ما تريدون من الأشياء. النتيجة دائما واحدة. وهي أنّ هذه الجملة تصلح للانطباق على ما نريد، بشرط أن يكون ما نريد قابلا لأن يوصف على صورة منظّمة بمجموعة المقولات المكوّنة لها، وأن يكون مقام تأويلها مطابقا لأحد احتمالات

مقامها الأزلي. إنّ أيّ مطابقة من هذا الوجه تشعرنا أنّنا نصف الكون وصفا مخصوصا. لكنّنا في الحقيقة لم نخرج عمّا سجّلته هذه الجملة من تجربة عرفانيّة جماعيّة مشتركة، أنجزناها منذ دهر وعبر الأجيال.

هل يعني هذا أنّ البرنامج النحوي يمنعنا من الخروج عن التنظيمات المقوليّة التي أحدثها السلف في تاريخ الإنسانيّة ؟ أم يعني أنّ مقولة الإنسان للكون تتغيّر دون أن نشعر كما تتغيّر الجينات ؟ أم يعني أنّ مقولتنا ثريّة باحتمالاتها إلى ما لانهاية له؟

هذه أسئلة لا نستطيع الإجابة عنها. ثمّ "أو سألتمونيها حتّي أجيب؟".

محمّد صلاح الدين الشريف
كلية الآداب والفنون والإنسانيات
جامعة منوبة - تونس

حوليات الجامعة التونسية – عدد 2008/53 ص ص 393 – 402

منزلة المعجمية العربية (*)
من تلاقي الثقافات

محمد رشاد الحمزاوي

1. تمهيد :

المفهوم من عنوان ندوتنا "الثقافة العربية في ملتقى الثقافات" يفيد مبدئيا أن الثقافات المتلاقية تعتمد على عنصري الأخذ والعطاء؛ وفي ميدان اللغة توجد لغة مصدر (ل.م) ولغة هدف (ل.هـ) والعكس بالعكس، ممّا يفيد أن المعجمية العربية؛ يمكن لها في هذا الإطار أن تكون أحيانا معرفة ثقافية مصدّرة، كما يمكن لها أن تكون معرفة ثقافية مستوردة في ظروف دون أخرى.

ومفهوم عنوان الندوة يعني في هذا الإطار أن الأخذ والعطاء قابلان للتقييم كمّا وكيفا انطلاقا من المقارنة والموازنة. ولسائل أن يسأل ويتساءل :

أ) هل التقييم المقارن يغطّي الماضي والحاضر؟

ب) فإن كان الأمر يعني الماضي، ألا يخشى أن يدرج موقفنا منه في باب البكاء على الأطلال؟ ودعوة إلى سلفية لا تجدي نفعا؟ وإن كانت تستحق الاعتبار في مجالها؟

ت) فإن كان الأمر يعني الحاضر، ألا يخشى أن نميل إلى الحديث عن مفاهيم الاستهلاك أكثر مما نعنى بمفاهيم الريادة التي يمكن التلاقي حولها لحدّ

*) نشر هذا المقال في عدد سابق ويعاد نشره هنا بعد إصلاح الأخطاء الواردة في الطبعة السابقة مع الاعتذار.

ذاتها للاستفادة منها، طمعا في المساواة والندية والزيادة، وهي كلها مطلوبة ومشروعة في ميدان الثقافات العربية.

ولا شك في أن المعجم مهيأ للإسهام في لقاء الثقافات، لأنه المحيط الذي تصبّ فيه بحور معرفية وثقافية من كل صوب. وهو النص الأكبر (Macrotexte) وبالأحرى الخطاب الأكبر الذي يشتمل على كل أنواع الخطاب من قدسي واجتماعي، وعلمي وتكنولوجي، وأدبي وفلسفي...الخ، فهو رصيد الأمم، قراءاته حمّالة وجوه هي على قدر ما له من مداخل ومصطلحات ومفاهيم لم تطلق جزافا. وهو قابل للاستدراك عليه باستمرار، حتى يتجدد خطابه طمعا في لقاء ثقافته بثقافات غيره.

فكيف الدخول إلى الموضوع من منظور المعجمية العربية، للإسهام فيه وإثرائه من حيث الماضي والحاضر؟ إن القضية تستدعي منا أن ننظر إلى ثلاثة مواقف، وبالأحرى لقاءات مقارنة، الأول منها يعتمد أساسا التصويب لمواقف متناقضة ومتداخلة تستحق التنبيه إليها، والثاني يهدف إلى التذكير بمعارف ثقافيّة [1] ومقاربات عربية معجمية مفيدة وبسبلها إلى استيعاب الخطاب العربي والإنساني عموما، أما اللقاء الثالث فهو يهدف إلى إسقاط نظريات معجمية عربية رائدة تستحق أن توظف توظيفا جديدا في لقاء الثقافات، إذ يشهد لها بالعطاء ، وإن غبنت لأسباب عدّة، منها ضعف الدراسات المقارنة في الثقافة العربية قديما وحديثا. وهو أمر على غاية من الأهمية في زماننا، يستحق أن تنظر فيه هذه الندوة نظرة عميقة وبعيدة.

II. لقاء التصويب :

نعني بالتصويب النظر في المعارف والآراء التي خصصها غيرنا لثقافتنا المعجمية ولمنزلتها من الثقافات المعجمية الاخرى. ولقد أوردنا منها عينات مختارة، مذكورة حسب تسلسلها التاريخي، مما يخوّل لنا أن نبدأ بالدراسة التي خصصها المستشرق هايوود [2] لصناعة المعجم (Lexicographie) أو المَعجمية حسب اصطلاحنا المخصص لها في معجمنا الثلاثي اللغة عربي - أنقليزي - فرنسي [3]. فنلاحظ أنه عَرَض للموضوع عرضا مشوّشا، ربط فيه ثقافتنا

---

1) محمد رشاد الحمزاوي : النظريات المعجمية العربية وسبلها إلى استيعاب الخطاب العربي - مؤسسات بن عبد الله - تونس 1999 - 282 ص، حيث نعرض للثقافة المعجمية العربية في أصالتها ولقائها بغيرها.

2) John A. Haywood, Arabic Lexicography, Brill- Leiden- 132p.

3) محمد رشاد الحمزاوي : المُعجمية - مقدمة نظرية ومطبقة - مصطلحاتها ومفاهيمها، مركز النشر الجامعي - تونس 2004، 457 ص. حيث نفرق بين المَعجميّة والمُعجميّة أنظر ص 273-277

المعجمية تارة بمنابع يونانية وهندية، وطورا بمنابع صينية مع التعريج على وجود تلك المعجمية ببابل وسومر حسب رأيه، باعتبار أن "العالم العربي يحتل مركزا مركزيا في الزمان والمكان" [4]، ويميل في نهاية الأمر إلى أن أثر الهند في المعجمية العربية، أكثر من أثر الصين فيها رغم " "علاقات الخلافة بالصين عبر آسيا الوسطى" [5]. وما ذلك كله إلا افتراضات واحتمالات، غير مؤيدة بنصوص. فلا يقطع فيها ببيّنة يقين. ويتيه بنا في فصل يكاد يكون كاملا في الحديث عن أسطورة أبي الأسود الدؤلي، وعن أثره في الثقافة اللغوية العربية، قبل أن يصل إلى الخليل ومعجمه "كتاب العين". فيشير إلى احتمال وضعه بخراسان، موطن الليث [6] الذي روى عن الخليل في مقدمة العين، ويطرح من جديد دون تجديد كل ما طرحه القدامى في نسبته إلى الخليل جزئيا أو كليا، وما قالوا في فنياته وأطروحاته المعجمية. فنحن أمام دراسة لاتسمن ولاتغني من جوع، لاسيما وأن صاحبها يذكر أنه مدين فيها لعبد الله درويش، صاحب دراسة : المعاجم العربية" [7] التي لا يعول عليها كما ولا كيفا. وعسانا نعود إلى الخليل ومعجمه "العين" لنبين أنه يستحق أكثر وأحسن مما قيل في شأن نظريته المعجمية في دراسة هايوود.

وفي هذا السياق نمر بعمل (Louis Kukenheim) الجيّد المخصّص للسانيات الفرنسية وصلتها باللسانيات العامة [8]. فهو يشير إلى الآثار الهندية واليونانية غير المباشرة في الدراسات اللغوية العربية عموما، ولاسيما المفاهيم الأرسطيّة [9] منها، كما يشير إلى أثر اللسانيات السامية والعربية في اللغة الفرنسية، حيث يقول "إذ نكتشف نظامها الذي يقر فعلا نموذجا لكل وجوه التصريف، مثلما هو الشأن في منشورات Damourette وPichon : إن هذين العالمين يذكران مثلا نموذج sachez للدلالة على ضمير الجمع للمخاطب الثاني في الأمر" [10]. والملاحظ أن النموذج العربي المشار إليه هو الفعل الماضي

---

4) J.Haywood ص2.

5) نفسه ص 5 - 7.

6) وهو الليث بن نصر بن سيار تلميذ الخليل. وقد جاء ذكره ست مرات في مقدمة كتاب العين، مسبوقا أو متبوعا باسم الخليل، حتى أن بعضهم أوعز أن الخليل وضع أسس معجمه، والليث، وهو من خراسان، قد أكمله، مما أوحى لبعضهم أن المعجم قد وضع بخراسان، وأن صاحبه الخليل قد أفاد من تجارب الهند في شأنه، دون حجّة مؤيدة لذلك.

7) عبد الله درويش : المعاجم العربية ـ القاهرة 1956، مع عناية بمعجم العين للخليل.

8) Louis Kukenheim : Esquisse historique de la linguistique française et de ses rapports avec la linguistique générale, Leiden 1962, 205p.

9) نفسه ص 13.

10) نفسه. والملاحظ أن العالمين المذكورين هما من أشهر العلماء في اللغة وعلم النفس. ومن كتبهما : Des mots à la pensée

المجرد الثلاثي [11] في المنسوب إلى المذكر الغائب. وهو بنية أساسية في النحو العربي، ويقوم مدخلا غالبا في المعاجم العربية.

وفي هذا الإطار لابدّ أن نشير إلى مسألة مهمّة أوردها كوكنهايم، لها صلة بالعربية عموما وبالمجادلات اللغوية العقدية، دون أن يربطها بجدلنا اللغوي العربي. فهو يحدثنا عن اعتناء اليونان بماهيّة اللغة : أهي عملية طبيعية "فيسال" أم عملية اصطلاحية "ثيسال" [12]، مما يستوجب ربطها بما شابهها عند العرب الذين خاضوا في ماهية اللغة : أهي توقيف أم اصطلاح مثلما أشار إلى ذلك السيوطي في مزهره [13]. ولا يفوتنا أن نشير في نفس المجال إلى القضية القائمة حول تأثر العرب بنظرية الإعراب رفعا ونصبا وجرا...الخ. ,(Nominatif) (accusatif, genitif) المأخوذة حسبما يبدو من اليونانية [14] كذلك. ويربط بعضهم مصطلح "اللغة" ومفهومه ب «Logos» [15] اليونانية كذلك. والقضايا الثلاث تستدعي النظر والتصويب ، كما ألمحنا إلى ذلك في الحواشي المذكورة أسفله.

ونصل في رحلتنا إلى الدراسة التي خصّصها لموضوعنا المستشرق السويدي Rundgren في رحاب معهد اللسانيات واللغات السامية بجامعة فلورانسا سنة 1973 [16]. فهو يفيدنا أن كتاب العين للخليل كان موضوع آراء مختلفة في شأن الثقافة التي انبثق منها. فمن ذلك رأي المستشرق الألماني Vollers. فلقد ربطها سنة 1988 بالثقافة الهندية، مما أيّده فيه المستشرق الألماني بروكلمان ثم أعرض عن ذلك سنة 1938. والملاحظ أن الدارس السويدي قد اعتمد دراسة هايوود السابقة الذكر على تعلاتها، قبل أن يصل إلى المعجمية اليونانية المنطلقة حسب رأيه من الإسكندرية وبيزنطة، مع تعداد أصحابها وأنواعها، وقد "أحاط بها السوريون المسيحيون الذين روجوا العلم اليوناني بين العرب" [17]. ويرجع ذلك إلى استفادة ابن السكيت منه في كتابيه "كتاب الألفاظ" و"إصلاح المنطق" بالتأكيد

---

11) وهو حسب سيبويه : متمكن في العربية لأنه الغالب فيها كميّا".

12) كوكنهايم، السابق ص 10.

13) السيوطي ـ المزهر (د ت) ج 27/1

14) وذلك راي المستعرب J.Weiss في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية. وقد استعيض عنه في الطبعة الثانية بمقال عن الإعراب لهنري فليش أكثر صلة بتصور النحو العربي عند أصحابه.

15) وهو من مصطلحات الفلسفة الأفلاطونية ويعني "الله" وكلمة الكون، وفي اللغة المسيحية تعني "الكلمة" وهي الجزء الثاني من "التثليث".

16) Frithiof Rundgren – la lexicographie arabe-Quaderni di Semitica (2) Florance 1973 p 145-159.

17) نفسه، ص 149.

على هيكلة الأول منهما حسب الأبواب مثل باب الغنى وباب الخصب وباب الفقر والجدب. وهي من خصائص المعجمعية اليونانية التي نعرفها" [18].

وهذا مخالف للواقع لأن مفهوم "المعجم المكتمل" قديما وحديثا، هو معجم الخليل المتوفى سنة 170هـ/786م. أما "المعجمان" المذكوران المنسوبان إلى ابن السكيت المولود سنة 186هـ 802م والمتوفى سنة 244هـ/858م، فلا سبق لهما في الأقدمية عموما، ويعتبران من صنف "الكتاب" وينتسبان إلى كتب "الهمز" وكتب "الصفات" التي سبقتها أنواع أخرى، كما يفيدنا بذلك العمل القيم الذي خصّصه حسين نصار للمعجمية العربية [19]. ويكفينا ما سبق استغرابا من هذه القراءة وتصويبا لها.

إنّ قضية الأخذ والعطاء وتلاقي الثقافات لا ترتكز على تكهّنات فيها نظر، بل تستدعي أن نحتكم فيها إلى نصوص متقدمة وأخرى متأخرة وإلى آثار تشهد على تفاعلها انطلاقا من دراسات معمقة تفيدنا بالثقافة الهندية أو اليونانية أو العربية، مثلما هو شأن المؤلف الذي خصصه الباحث الفرنسي P.s.Filliozet للنحو السنسكريتي البانيني [20]، نسبة إلى النحوي العبقري الهندي Panini الذي تعود إليه كل الأنحاء (ج نحو) الهندو أوربية، ومنها اليوناني. فلقد قال Filliozet في هذا الشأن "إن الحداثة تستوجب ثقافة منابعها مستقاة من معالم أدبية سنسكريتية وصينية، ويونانية ولاتينية وعربية، ومن كنوز أخرى تكرم الإنسان وعبقريته" [21].

في هذه المقارنة المتعمقة في الثقافة السنسكريتية وتخومها في ذاتها ولحدّ ذاتها، ما يجعلنا نقرّ لها بالألمعية في ميادين كثيرة، سواء بالسبق أو بتواصل الأفكار، حسب تعبير ابن جني في خصائصه أو حسبما عبر عنه في شأنها أبو الريحان البيروني في كتابه "ما للهند من مقولة"، حيث أقر عسر نقل كنوز الشعوب باعتبار أن " الترجمة خيانة"، من دون أن تكون مستحيلة وأمينة.

فلولاها لما كان تلاقي الثقافات حوارا. وتشهد تلك المقارنة بأن التلاقي ليس في النسخ والاستنساخ، بل بالتواصل وبالإضافة والزيادة، وهنا نصل إلى لقاء التذكير.

---

18) نفسه، ص 150.

19) حسين نصار : المعجم العربي - نشأته وتطوره - جزءان - القاهرة 1988

Pierre Sylvain Filliozat – Grammaire Sanscrite Pâninienne- Paris 1988-185p. (20

21) نفسه، ص 2-3

III. لقاء التذكير :

والغاية منه أن أسرد بعجالة ومضات من عطاء الفكر العربي المعجمي. فيكفيني أن أفيد أن المعجمية العربية قد سبقت المعجميّتين الأنكليزية والفرنسية بأكثر من تسعة قرون [22] على أقل تقدير، وأن ابن فارس كان قد اعتمد منذ القرن الرابع الهجري مفهوم المدونة [23] (Corpus) لاسيما في معجمه " المقاييس" الذي بناه على **كتاب العين للخليل، والجمهرة لابن دريد، وإصلاح المنطق لابن السكيت، والغريب المصنف لأبي عبيد بن سلاّم**. وذلك ما آزره فيه ابن منظور في لسان العرب إذ بناه على مدونة من خمسة مصادر وهي : **تهذيب الأزهري، ومحكم ابن سيده، وصحاح الجوهري، وحواشي ابن بري، والنهاية في الحديث لابن الأثير**. ونحن مدينون له بمصطلحين لسانيين متقدمين هما **الجمع والوضع**. فلا يصحّ دونهما معجم محتوى وتنظيما. فلقد قال منذ زمان في قضيّتهما المستديمة : "ورأيت علماءها بين رجلين : أمّا من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأما من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه. فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع" [24]، وإليه تعود مبادرة جمع اللغة من مناطق من يتكلمونها، أو يستعملونها كتابيا. فأدرج في مصادره العربية المشرقية مصدرا مغاربيا أخذ منه الكثير، وهو محكم ابن سيده الأندلسي المغربي، فكان ذلك توطئة إلى نوع من اللسانيات والمعجميات الجغرافية.

أما ابن فارس فلقد كان أول من طرح قضية النحت العربية، رغم إقصائه من قرارات مجمع اللغة العربية [25]. فلقد انطلق من نصوص العربية ذاتها، مبينا مختلف وجوهه [26]. فلم يحتج للمقارنة لبناء نظامه، ودون العودة إلى أية لغة من اللغات المشهورة بحثا عن وجوه الشبه. فأقر نوعين من النحت: **النحت المشتق**[27] ويولد بزيادة حرف في الأول أو الوسط أو في الآخر على الثلاثيّ وذلك عين **الاشتقاق الصغير -، والنحت القياسي** [28] ويولّد من كلمتين صحيحتي المعنى

---

22) محمد رشاد الحمزاوي : أعمال جمع اللغة العربية بالقاهرة - بيروت لبنان - 627 ص. انظر ص 491 حيث يفيد أن المعجمية الأنكليزية نشأت سنة 1860، وأن المعجمية الفرنسية برزت سنة 1715.

23) محمد رشاد الحمزاوي : المعجم العربي - إشكالات ومقاربات - بيت الحكمة - تونس 1991. انظر : ابن منظور ومفهوم المدونة - ص 275-295.

24) مقدمة لسان العرب.

25) من غريب الأمور أن المجمعيين كانوا يجهلون قضايا النحت عند ابن فارس، حتى طبع معجم المقاييس في الستينات من القرن العشرين. ولذلك حشروا الأخذ بالنحت بعد الاشتقاق والمجاز والتعريب. وقد اعتبروه بعد لأي قياسيا. انظر قضيته في كتابنا المذكور في حاشية 22 أعلاه.

26) محمد رشاد الحمزاوي - نظرية النحت العربية - دار المعارف بسوسة 1998-191ص.

27) نفسه من ص 147-156 حيث لوحات النحت المشتق ومزيداته في الأول والوسط والآخر،

28) نفسه ص157-163 حيث لوحات النحت القياسي وأمثلته.

مطّردتي القياس. ولقد غبن معجم المقاييس، مثل الغريب المصنف لأبي عبيد [29]، فلم يصدر إلا في آخر النصف الأول من القرن العشرين. وذلك ما مكننا من حصر وجوه النحت المشتق، ولا سيما قواعد النحت القياسي التي تكاد تكون رياضية، كما يدل على ذلك المثال التالي وغيره من الأمثلة - التي عرضنا لها في كتاب سابق مخصص لها.

المدخل المعجمي	الكلمة المنحوتة	مكوناتها الأساسية	مكوناتها المختلفة	متشابهاتها	الإسقاط
س	سحبل	سحل + سبل = 6 مقاطع	ح (و) ب	سل و سل	سل واحدة

فتتلخص قاعدة النحت القياسي في المحافظة على الحرفين المختلفين من الفعلين مع إسقاط عنصر من العنصرين المشتركين منهما لبناء منحوت قياسي على وزن فعْلَلَ. وذلك ما لم يوفق إلى التعبير عنه ابن فارس، واستخلصناه من نصوصه وأمثلته. ورأينا أن هذا النوع من المبادرات في العربية مثل ما رايناه منها في اليونانية كفيل بأن يقرّ أن الثقافات تلتقي بطبيعتها وبتواصل أفكار أهلها من دون أن يكون ذلك بالانطلاق من التقليد للغير طوعا أو كرها. ومن هذا النوع كثير من المعجمية العربية، وقد عالجناه في دراسات مفصلة يمكن العودة إليها.

IV. لقاء الريادة :

ونركز بعجالة على معجم "العين" للخليل بن أحمد الذي وضع نظرية معجمية غبنها أهل زمانه، ومن جاء منهم بعده، لأنهم لم يدركوا فنّياتها ومقاصدها. ولم ينزلها المعاصرون منزلتها التي تستحق. فلقد أرادها عربية دولية اعتمدت فيها العربية نموذجا تطبيقيا لها. ويشهد على ذلك ما قاله الصفدي في شأن معجم العين للخليل" و"من تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر فيه لغة كل أمة من الأمم قاطبة" [30]. ويفهم من هذا أنه اعتمد على قوانين لغوية تشمل كل اللغات، وذلك باعتماد منهجيات لم تسبقه إليها واحدة من الثقافات الرائدة حسب الصفدي نفسه الذي قال : "وأظهر فيه حكمة لم تقع مثلها للحكماء من اليونان". [31] ويفيدنا الصفدي في هذا الصدد أن الخليل كان موسيقيّا وخاصة رياضيا. فلقد رُوي

29) وقد حققه بتونس في ثلاثة أجزاء الأستاذ مختار العبيدي ابتداء من 1988.
30) الصفدي - الوافي بالوفيات - القاهرة، 1991 ج 366/13.
31) نفسه.

عنه أنه قال " أريد أن أعمل نوعا من الحساب تمضي به الجارية إلى الفاميّ، فلا يمكنه أن يظلمها" (32)

المفهوم أنه سيعتمد كل المعطيات السابقة وأخرى لاحقة - كما سنرى لبناء معجم يختلف أساسا عن "الرسالة المفردة" (33) الرائجة في زمانه وبعده، وأن يوفر، انطلاقا من نظام العربية، نموذجا تمتد جذوره إلى النظريات اللسانية المعاصرة وثقافتها. فما هي خصائص معجمه. فلقد بناه على :

1. الصوت اللغوي، وهو 29 صوتا في العربية تنظم معجميّا من الحلق إلى الشفتين.
2. البنية اللغوية التي تنشأ من تفاعل الأصوات، فهي كميا ثنائية وثلاثية، ورباعية وخماسية.
3. البنية الكمية أساس الكلمة بأنواعها حيث قال الخليل : "قال الخليل وليس للعرب بناء في الأسماء، ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف. فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل واسم، فاعلم أنها زائدة على البناء، وليست من أصل الكلمة" (34).
4. تقليب الكلمات البنى الأربع يوفّر محتوى المعجم النموذج في العربية.
5. ينشأ من ذلك التقليب صنفان من المداخل : **المستعمل** وهو أساس **الكلام، والمهمل** وهو أساس **اللغة.**
6. المعجم المقصود هو المعجم المثالي للإحاطة بالخطاب العربي المثالي لمتكلم عربي مثالي - وذلك ما أيّده الصفدي فيه حيث قال : "فزعم أن مبلغ أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع في الثنائي والثلاثيّ والرباعي والخماسي من غير تكرير ينساق إلى اثني عشر ألف ألف وثلاث مائة ألف وخمسة آلاف وأربع مائة واثني عشر."(35) مما يفوق 12.000.000 مدخل معجمي لم يبلغها معجم عربي من الأمّهات، وحتى معجم أكسفورد الذي يعتبر أوسع معجم اليوم (36). ولقد أدرك ذلك بعملية التقليب الرياضية.

---

32) نفسه، ص 386.

33) حسين نصار - المعجم العربي ج 1/58-165 حيث عرض لأنواع الرسائل المفردة.

34) الخليل بن أحمد، كتاب العين - تحقيق عبد الله درويش، بغداد 1967، ص 55.

35) الصفدي - الوفيات، ص 387.

36) إن محتوى معاجمنا الأمهات، ومحتوى معجم أكسفورد، يمثل قطرة من بحر، إن قسناه بمحتوى معجم الخليل المثالي.

7. تذكرنا هذه المقاربة بمقاربة النحو التحويلي التوليدي لأن :

أ. البنى الخليلية ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسيّة تقابل **الجمل العميقة** في النحو التحويلي التوليدي.

ب. تقليب البنى الصرفية الخليلية يقابل عملية تحويل (Transformation) الجمل النحوية العميقة إلى جمل سطحية.

ت. المستعمل من البنى الصرفية الخليلية يقابل **الأداء** (Performence).

ث. المهمل من البنى الصرفية الخليلية يقابل القدرة (Compétence).

والملاحظ أن الفرق واضح بين دقة التقليب الرياضية واحتمالات التحويل التوليدي الذي يعتمد على عضو ذهني (Mental organ)، ليس محددا بالضبط.

ومهما كان الأمر، فإن التحويل التوليدي نوع من التقليب الخليلي الصرفي الرياضي المحكم. ونختم في نهاية المطاف مقاربتنا بمبادرتين :

- أولاهما، عرض بالشفافية لعملية التقليب الخليلية من خلال أمثلة نظرية وتطبيقية : الشفافية الأولى التقليب// التحويل يعتمد على :

التأكيد على مفهوم البنى الثنائية والثلاثية، والرباعية والخماسية، ويقرّ مفهوم البنى العميقة المعجمية التي تعتمد عليها مداخل المعجم العربي.

استقراء مفهوم البنى السطحية [37] التي تنشأ من تصريفات البنى العميقة وتحويلاتها، وذلك بالاعتماد على عملية التقليب التحويلية الرياضية التي يمثل لها في المستوى التطبيقي بالتحويلات اللغوية التالية :

(1)- و1و2و3 = ضرب   (4) – و2و3-و1 = ربض

(2)- و1و3و2و= ضبر   (5)- و3-و1-و2 = بضر

(3)- و2و1-و3 = رضب   (6) – و3-و2-و1 = برض

إنّ عملية التقليب التحويلية من ضرب الثلاثي قد ولدت 6 دلالات جديدة بفعل تحويل مراكز الأصوات الساكنة، ويمكن أن نمثل لهذه العملية رياضيا في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي مما يلي :

(1) ن1=نx ن -1.................1

37) لم يأت مفهوما البنى العميقة والبنى السطحية في نصوص الخليل. ولقد اعتمدناهما في قراءتنا التحويلية لها، وهي مصطلحات معتمدة في نظرية الأمريكي شومسكي.

ومنها نطبق على البنى الثنائية والثلاثية، والرباعية والخماسية، وحتى السداسية، فنحصل على التحويلات الأولية لكل بنية :

$2 = 1 \times 2 = (1-2) \times 2 = 2$ (انظر مثال / قد/في نص الخليل).

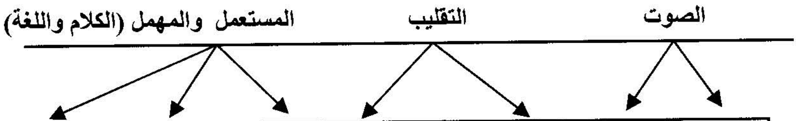
$6 = 1 \times 2 \times 3 = (2-3) \times (1-3) \times 3 = 3$ (انظر مثال / ضرب/ في الخليل).

$24 = 2 \times 3 \times 4 = (3-4) \times (2-4) \times (1-4) \times 4 = 4$ (انظر مثال / عقرب/ في نص الخليل).

$120 = 2 \times 3 \times 4 \times 5 = (4-5) \times (3-5) \times (2-5) \times (1-5) \times 5 = 5$ (انظر مثال سفرجل/ في نص الخليل).

$= 3 \times 4 \times 5 = (5-6) \times (4-6) \times (3-6) \times (2-6) \times (1-6) \times 6 = 6$ $.720 = 1 \times 632$

الشفافية الثانية تصور نظرية الخليل المعجمية :



البنية	الكلمة		المستعمل	المهمل	المتكلم		الخطاب	المعجم
			(الكلام)	(اللغة)	المثالي		المثالي	المثالي

وهي مخطط يجمع عناصر نظرية الخليل المعجمية .

أما المبادرة الثانية فتتعلق باقتراح مفاده تأكيد هذه الندوة ضرورة التأسيس للدراسات المقارنة اللغوية والنحوية والمعجمية... الخ، مع ما يتطلب ذلك من لغات، ونصوص وثقافات، ودعمها بشهادة رسمية في رحاب كليات الآداب بالجامعات التونسية، وما إليها من شهادات لاحقة حتى الدكتوراه، لكي تفتح المجال في عهد العولمة لتلاقي الثقافات على أساس علمية واسعة ومتنوعة، تفيد منها الثقافة العربية في أحوالها السلبية الإيجابية.

محمد رشاد الحمزاوي
كلّية الآداب والفنون والإنسانيات
جامعة منّوبة- تونس